
رواية
مكتبة
ألبرتو مورافيا
الرجل
الاعتياديّ
مع فصل غير منشور بإشراف تونينو تورنيتور
تليجرام : هنا سور الأزبكية



الرجل الاعتياديّ



Author: **Alberto Moravia** | اسم المؤلف: ألبرتو مورافيا

Title: **Il conformista** | عنوان الكتاب: الرجل الاعتياديّ

Translated by: **Nabil R. Mahaini** | ترجمة: نبيل رضا المهايني

P.C.: **Al-Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2023** | الطبعة الأولى: **2023**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
+964 (0) 770 2799 999 | +964 (0) 780 808 0800 | +964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس
Beirut: Bchamoun - Schools Street
+961 175 2617 | +961 706 15017 | +961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street
+963 11 232 2276 | +963 11 232 2275 | +963 11 232 2289
ص.ب: 8272



ألبرتو مورافيا



الرجل الاعتياديّ

مع فصل غير منشور

بإشراف تونينو تورنيتورِه



ترجمة: نبيل رضا المهايني





تقديم
مورافيا الذي عرفته

صداقته، حياته وأعماله
بقلم: نبيل رضا المهايني



ألبرتو مورافيا أمام مكتبته في بيته في روما مع مترجم الكتاب نبيل رضا المهايني، خلال السبعينيّات من القرن الماضي.

مورافيا هو أكبر كاتب إيطالي في القرن العشرين. وهو الروائيّ الحقيقيّ الوحيد، والقصصيّ الحقيقيّ الوحيد.

رينيه دو سيكّاتي[1]

1- RENÉ DE CECCATTY.

تعرّفت إلى ألبرتو مورافيا في السبعينيّات من القرن الماضي، بعيد وصولي إلى روما قادماً من مدينة فلورنسا التي بقيت فيها لأربع سنوات وأنهيت فيها دراستي الأكاديميّة. تعرّفت عليه من خلال صديقه المخرج السينمائيّ والشاعر الكبير بيير باولو بازوليني. وقد قمت من وقتها بإجراء كثير من المقابلات الصحافيّة معه، نشرت في مجلّات أدبيّة لبنانيّة وسوريّة، كما ترجمت له حينها رواية «أنا وهو» التي نشرتها دار الآداب البيروتيّة عام 1971. كما كنت صلة الوصل بينه وبين العديد من الأصدقاء الصحافييّن والمفكّرين العرب الذين كانوا يأتون وقتها إلى روما، كما بينه وبين الكثيرين من الأدباء-الدبلوماسييّن العاملين هناك، من أمثال الأديب الكبير توفيق يوسف عوّاد سفير لبنان في روما والمفكّر حافظ الجمالي سفير سورية. وقد عمل على توطيد صداقتي معه حبّه للقضيّة الفلسطينيّة، ووقفة احتجاجه المؤثّرة عندما تمّ اغتيال الشهيد وائل زعيتر من قبل إسرائيل.



صورة أخرى لألبرتو مورافيا في بيته في روما، مع مترجم هذا الكتاب
خلال السبعينيّات من القرن الماضي

وقد سررت اليوم جدّاً عندما عملت دار المدى مشكورة على شراء حقوق ترجمة بعض كتب مورافيا، ومنها هذا الكتاب، ليتمّ نشرها بالعربيّة.

لقد جعلتني ترجمة تلك الكتب[1]، وأسماء الكتّاب والشعراء والمفكّرين الواردة فيها، جعلتني أعيش من جديد كثيراً من لحظات حياتي في روما ولقاءاتي مع مورافيا، الذي لا يسعني إلّا أن أذكر له تشجيعي على المضيّ في الرسم بعدما شاهد بعض لوحاتي وزار معرضي الأوّل «لوحات من الشرق» الذي أقمته في روما عام 1975، وقدّم له كلّ من بيير باولو بازوليني وزوجة مورافيا الأديبة داتشا مارايني. وقد قال لي مورافيا وقتها إنّه معجب بـ «حسّ الألوان» الذي يطغى على اللوحات.



المترجم مع مورافيا والمستشرق فرانشيسكو غابرييلي
في معرض لوحات نبيل المهايني في روما عام 1975

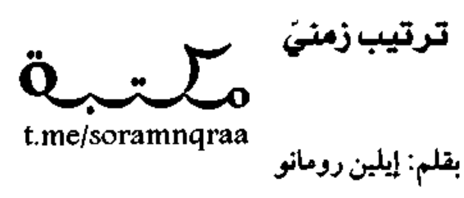
هذه شذرات عابرة عن مورافيا الذي عرفتُه، والذي سيعرفه القارئ من خلال كتبه التي تظهر لنا إنساناً من نوع جديد، وتؤكّد روعة هذا الكاتب المتجلّية في سعة خياله ونظرته الثاقبة وقوّة ذاكرته ومقدرته التعبيريّة الأدبيّة المؤكّدة.

1- نشرت دار المدى ترجمتي لخمسة كتب لمورافيا، هي: «قد أشعر بالسعادة إذا جئت»، «1934»، «إلى أيّة قبيلة تنتمي؟» «الشوشاريّة» «الرجل الاعتياديّ»، وكانت دار الآداب قد نشرت لي ترجمة رواية «أنا وهو».


تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب



ترتيب زمنيّ



بقلم: إيلين رومانو

ولد ألبرتو مورافيا (اسمه الحقيقي ألبرتو بِنكيرلِيه) في روما في 28 تشرين ثاني عام 1907. كان أبوه كارلو بنكيرليه مورافيا مهندساً معمارياً ورسّاماً ينحدر من عائلة من البندقيّة. أمّا أمّه فكانت من مدينة آنكونا اسمها جينا دِمارسانيش. عاش ألبرتو بنكيرليه طفولته الأولى بصورة عاديّة، رغم أنّه عانى من الوحدة.

1925-1916

كان في التاسعة من عمره عندما أصيب بشلل العظام، الذي رافقه حتّى السادسة عشرة من عمره، بين شفاء وهميّ ونكسات. وقد قضى خمس سنوات في السرير، ثلاثاً في البيت واثنتين في المصحّ. بقيت دراسته خلال هذه السنوات غير منتظمة وفي البيت أغلب الأحيان. ولم يلتحق إلّا لسنة واحدة بإحدى مدارس روما التي حصّل فيها بعد سنين شهادة رسميّة. كما أنّه اشترك في مؤسّسة أتاحت له استلام طرد من الكتب كلّ أسبوع: «فكان يقرأ كتاباً كلّ يومين تقريباً». بدأ في تلك الفترة بكتابة الشعر بالفرنسيّة والإيطاليّة، لكنّه قال فيما بعد إنّ تلك كانت قصائد تعيسة قبيحة، كما حاول دراسة الألمانيّة، علماً أنّه كان يعرف الإنكليزيّة.

1928-1925

شفي في عام 1925 شفاءً تامّاً وذهب لقضاء فترة نقاهة في شمال إيطاليا،

لكنّه بقي يمشي على العكّاز لسنين طويلة. وقد عوّض عن خلل الدراسة بالانكباب على المطالعة، فقرأ لعظماء مثل دانتي ودوستويفسكي وغولدوني وشكسبير وبودلير وليوباردي ومانزوني وايليوت وآبولينيير إلخ كما قرأ بعد ترك المصحّ لرامبو وكافكا وبروست وفرويد وجويس بالإنكليزيّة. في خريف 1925 انقطع عن كتابة الشعر وبدأ بكتابة رواية «اللّامبالون» التي بقي يكتبها لمدّة ثلاث سنين. وعاش في تلك الفترة متنقّلاً بين فنادق الجبال للنقاهة. في 1927 نشر بالفرنسيّة أوّل قصّة له في مجلّة «900» التي كانت تصدر بلغتين.

1929

كان من المفترض أن تنشر رواية «اللّامبالون» في مجلّة «900». وقال مورافيا: «اشتركتُ مع خمسة كتّاب آخرين في الالتزام بتزويد ناشر مجلّة 900 كلّ برواية، ومع أنّي كنت الوحيد بينهم الذي وفى بالوعد، فإنّ الناشر رفض نشر روايتي بحجّة أنّها ليست إلّا «ضباباً من الكلام». فشلت أيضاً محاولة مورافيا نشر روايته في ميلانو، إلّا أنّ الناشر أخبره فيما بعد أنّه على استعداد لطبع الكتاب على حساب المؤلّف لأنّه «لا يمكن تقديم كاتب مجهول إلى مجلس الإدارة». هنا اضطرّ مورافيا لأن يطلب من أبيه قرضاً لطبع الكتاب. وعندما صدرت الرواية عام 1929 حقّقت نجاحاً كبيراً وطبع منها أربع طبعات متتالية، وسط إعجاب النقّاد.

1935-1930

واصل بعدها نشر القصص القصيرة، ثمّ بدأ بالسفر وكتابة مقالات حول رحلاته في مختلف الصحف. فسافر إلى لندن وباريس وقابل الكثيرين من مشاهير الكتّاب. «كنت أذهب في فرساي من حين لآخر إلى الصالون الأدبيّ بإدارة الأميرة دي باسيانو قريبة ت. س. اليوت ومديرة مجلّة في باريس وأخرى في روما». كما أسّس مع غيره من المثقّفين عدّة صحف ومجلّات، فزادت شراسة الحكم الفاشيّ ضدّه.

1939-1935

في 1935 نشر رواية «المطامح الخرقاء» التي بقي يكتبها على مدى سبع سنوات، «توجد في الرواية أشياء محسوسة وأصيلة، لكن تنقصها العفويّة التي ميّزت رواية «اللامبالون». كما أنّ الكتاب لم يلق النجاح الذي حقّقته رواية «اللامبالون» كما منعت وزارة الثقافة الإيطاليّة النقّاد من الكتابة حول الرواية.

حاول مورافيا الابتعاد عن بلده الذي بدأ يقيم في وجهه كثيراً من الصعوبات، وهكذا فقد سافر إلى الولايات المتّحدة بدعوة من دار الثقافة الإيطاليّة في جامعة كولومبيا في نيويورك. هناك حاضر حول الرواية الإيطاليّة. وعندما عاد إلى إيطاليا كتب مجموعة قصص طويلة جمعها في كتاب «الخديعة» الذي رفضته دار نشر مشهورة، لكنّ واحدة أخرى هي دار بومبياني قبلته، فاستمرّ في التعاون معها حتّى مماته. وقد زار في هذه الفترة الصين واليونان.

1944-1939

عاد بعدها إلى إيطاليا وعاش في آنا كابري مع زوجته إيلسا مورانتِه، الكاتبة الإيطاليّة الشهيرة. في عام 1941 نشر مجموعة من المقالات الساخرة والسرياليّة بعنوان «أحلام الكسول»، ثمّ رواية نقديّة بعنوان «القناع» حول «رحلاتي إلى المكسيك وحول تجربتي مع الفاشيّة». ورغم أنّ الكتاب أجيز من قبل موسوليني فإنّ الرقابة صادرت طبعته الثانية، كما منع من الكتابة في الصحف إلّا تحت اسم مستعار. منع بعدها أيضاً من الكتابة ومن إصدار أيّ كتاب كان، وكذلك من كتابة سيناريوهات الأفلام والعمل للسينما الذي كان يكتسب منه رزقه. أخبروه بعدها أنّ اسمه كان بين المطلوبين، فاضطر إلى الفرار مع زوجته ليعيشا في كوخ منعزل بين الفلّاحين والنازحين: «كانت هذه تجربتي المهمّة الثانية بعد تجربة المرض، حيث عشت هناك لتسعة أشهر».

في 1944 نشر كتابه «الأمل، أو المسيحيّة والشيوعيّة» حيث عبّر فيه عن آرائه حول الماركسيّة. عاد مورافيا بعدها إلى روما مع دخول القوّات

الأميركيّة إليها. بدأ في روما يعمل بانتظام، فكان يكتب الروايات في الصباح، ليبدأ بعد الظهر بكتابة سيناريوهات الأفلام. كما فازت رواية «أغوستينو» بأوّل جائزة أدبيّة بعد الحرب.

1951-1946

ثمّ تتالت الترجمات الأجنبيّة لكتبه، كما كثرت الأفلام المأخوذة عن أفلامه، ومن أهمّها فيلم «الاحتقار» الذي أخرجه جان لوك غودار. في عام 1944 حازت رواية «امرأة من روما» على نجاح منقطع النظير، خاصّة وأنّها كانت أساساً لفيلم بالاسم نفسه كتب هو السيناريو له. نشر بعدها رواية «العصاة» ثم «الحبّ الزوجي» و«الرجل الاعتياديّ».

1953-1952

لكنّ عام 1952 كان مؤثّراً، لأنّه صدر خلاله تحريم من قبل الفاتيكان بحقّ كلّ كتب مورافيا، وذلك بالتزامن مع تحريم كتب أندريه جيد. ومع هذا فقد حصل مورافيا في العام نفسه على جائزة «ستريغا» وهي أكبر جائزة أدبيّة في إيطاليا. ثمّ ازداد تعاونه مع كبريات الصحف الإيطاليّة، كما أسّس مجلّة «أحاديث جديدة» التي كتب فيها مشاهير الأدب والسياسة مثل جان بول سارتر، كالفينو، مونتالِه الحائز على جائزة نوبل، وزعيم الحزب الشيوعيّ الإيطاليّ بالميرو تولياتي.

1975-1954

حازت رواية «قصص من روما» على جائزة مارزوتّو، وصدرت رواية «الاحتقار». وصدرت في مجلّة «أحاديث جديدة» مقالة «الإنسان كهدف» التي كتبها مورافيا عام 1946.

بدأ مورافيا الكتابة في مجلّة «لسبرسّو» واستلم فيها زاوية السينما، وقد جمع فيما بعد مقالاته السينمائيّة لتصدر في كتاب مستقلّ. ثمّ صدرت رواية «الشوشاريّة».

وقد توالت الجوائز الأدبيّة التي قدّمت لكتبه، فربح في عام 1961 جائزة «فياريدجو» على رواية «السأم». قام بعدها برحلة شهيرة إلى الهند مع كلّ من زوجته إيلسا وصديقه المخرج والشاعر بيير باولو بازوليني. نشر على أثرها كتاب «فكرة عن الهند»، لكنّه انفصل في العام نفسه عن زوجته، وعاش في شقّة أخرى في روما مطلّة على نهر تيفيره وذلك مع صديقته الجديدة الكاتبة داتشا ماراييني، التي عاشت معه حتّى عهد متقدّم من سنيّ حياته الأخيرة. وقد نشر وقتها مقابلة فريدة من نوعها مع الممثّلة الإيطاليّة كلاوديا كاردينالِه وذلك بطلب من مجلّة أميركيّة. في عام 1965 نشر رواية «الانتباه» وهي محاولة لكتابة رواية ضمن الرواية. وعندما ازداد اهتمامه بالمسرح أسّس مع إينزو سيشيليانو وداتشا ماراييني فرقة مسرحيّة باسم «القنفذ»، لكنّها أغلقت بعدها لأسباب ماليّة. علماً أنّ أعمال مورافيا المسرحيّة لم تضف شيئاً إلى فكره الأدبيّ، وإن عبّرت بشكل غير مباشر عن تخلخل ثقته بالرواية، وهذا ما بدا واضحاً في رواية «أنا وهو» التي نشرت عام 1971.

لكنّه أعاد وقتها إصدار مجلّة «أحاديث جديدة» بالتعاون مع كاروتشي وبيير باولو بازوليني، وقد وثّقت هذه المجلّة لسنين طويلة أساطين الفكر الإيطالي. كما نشر فيها عام 1967 مقالة «ثرثرة على المسرح»[1] التي شرح فيها أفكاره حول المسرح الحديث. ثمّ سافر وقتها إلى كلّ من اليابان وكوريا والصين مع داتشا ماراييني، وعيّن في السنة نفسها رئيساً لمهرجان البندقيّة السينمائيّ الشهير.

1975-1968

عندما قامت الثورة الطلّابيّة عام 1968 كتب مورافيا: «يظنّ شبيبة أعوام الثمانية والستّين، ومن تبعهم، أنّه يجب تغيير العالم، وتغييره عن طريق العنف، لكنّهم لا يريدون أن يعرفوا سبباً للتغيير ولا طريقة التغيير. لا يريدون معرفته، أي إنّهم لا يريدون معرفة أنفسهم». هوجم مورافيا بسبب هذا التصريح في مناسبات مختلفة، في جامعة روما وباري وفي مقرّ مجلة

1- ترجمت المقالة إلى العربية ونشرت في مجلة الآداب البيروتيّة.

لسبرسّو وفي مسارح مدينة فلورنسا، هاجمه طلبة عام 1968، كما صدرت مطبوعة «الثورة الثقافيّة في الصين».

في الأعوام التالية نشر مورافيا كتب «الحياة لعبة»، «الفردوس»، «حياة أخرى»، «أنا وهو». وفي عام 1972 بدأ مورافيا برحلة طويلة في أفريقيا نشر حولها ثلاثة كتب: «إلى أيّة قبيلة تنتمي؟»، «رسائل من الصحارى»، «جولات إفريقيّة». وعندما مات صديقه بيير باولو بازوليني عام 1975 كتب مورافيا مقالة شبّهه فيها بآرثر رامبو.

1982-1976

بين الأعوام 1975-1981 عيّن مورافيا مراسلاً خاصّاً لجريدة «كوريير ديلّا سيرا» في أفريقيا. في 1982صدرت رواية «1943»، ثمّ «تاريخ ما قبل التاريخ».

1984-1983

حاز على جائزة «مونديلّو» عن رواية «1934» وصدرت له رواية «الشيء» على شرف زوجته الأخيرة كارمن للّيرا. في عام 1983رفض مورافيا ترشيحه لمجلس الشيوخ الإيطالي وذلك: «لأنّي كنت أرفض على الدوام خلط السياسة بالأدب. فالكاتب يرنو نحو المطلق، بينما يريد السياسيّ النسبيّة، أمّا الطغاة فهم وحدهم الذين يريدون المطلق والنسبيّ معاً». ومع هذا فقد قبل مورافيا في عام 1984 ترشيحه للانتخابات الأوربيّة كمرشّح مستقلّ في قائمة الحزب الشيوعيّ الإيطاليّ. وهنا قال: «هل هناك تناقض بين رفض الأمس وقبول-اليوم؟ كنت قد قلت إنّ الفنّان يبحث عن المطلق. لكنّي أقبل الآن بترشيح نفسي للبرلمان الأوربّي لأنّه ليس لهذا أيّ علاقة مباشرة بالسياسة». وقد أفلح وقتها في الدخول إلى البرلمان الأوربيّ بعد أن حاز على 260.000 صوت. وقد بدأ منذ ذلك الحين بكتابة مقالات صحافيّة من ستراسبورغ بعنوان «مذكّرات أوربيّة». كما شارك مورافيا في أواخر حياته، في كثير من الحملات السياسيّة لنزع السلاح وضدّ الحروب.

1985

صدر كتاب «الرجل الذي ينظر»، ثمّ كتابات مسرحيّة عديدة. وفي 27 كانون ثاني من عام 1986 تزوّج من كارمن للّيرا.

1990

في الساعة التاسعة من صباح 26 حزيران من عام 1990 مات ألبرتو مورافيا في بيته المطلّ على نهر تيفيرِه في روما.

انطفأت ساعتها تلك الجذوة التي كانت تغذّي خصائص الكاتب الكبير ألبرتو مورافيا، بسعة خياله ونظرته الثاقبة وقوّة ذاكرته ومقدرته التعبيريّة الأدبيّة البارزة.

تمهيد



-I-

كان مارتشيلّو ينبهر في عهد طفولته بالأشياء كما تنبهر بها الحدأة. ففي البيت لم يفكّر أبواه أبداً بإشباع غريزة التملّك عنده، عن لا مبالاة ربّما أكثر ممّا هو عن صرامة، أو ربّما لأنّ غرائز عميقة أخرى، غامضة ومخفيّة، كانت تتقنّع في نفسه تحت ستار الجشع. وهكذا فقد كان دائماً تحت سيطرة شهوته الجامحة لمختلف الأشياء.

كان ينتشي بسبب قلم بممحاة في أسفله، أو كتاب مصوّر، أو نبلة، أو مسطرة، أو دواة محمولة من العاج، أو أيّ شيء آخر لا معنى له، وكانت هذه النشوة تقوده في البداية نحو رغبة جامحة وغير منطقيّة بامتلاك الشيء الذي اشتهاه، لكنّه ما إن يمتلك هذا الشيء حتّى ينقاد إلى نوع من الرضا والسرور المفعم بالدهشة كأنّه مسحور ولا يمكن إشباعه. كان لمارتشيلّو غرفة خاصّة به، ينام ويدرس فيها. كانت جميع الأشياء المتناثرة على الطاولة، أو الموضوعة في الأدراج، تتمتّع بالنسبة إليه بصفة من القداسة أو الابتذال بحسب ما يكون امتلاكه لها قديماً أو حديثاً. أي إنّها لم تكن أشياء تشبه غيرها من الأشياء الموجودة في البيت، بل شظايا من تجربة سبق وأن خاضها أو مازال عليه أن يخوضها. شحنة من شحنات العواطف والغموض. كان مارتشيلّو يدرك بطريقته الخاصّة هذه الصبغة الفريدة للملكيّة، وكان هذا يولّد لديه لذّة عارمة وإن كان يسبّب له في الوقت

نفسه نوعاً من الألم، وكأنّه ذنب يتجدّد باستمرار بحيث لا يترك له وقتاً ليشعر بالندم.

لكنّ الأسلحة كانت من الأشياء التي تجذبه أكثر من غيرها، ربّما لأنّها محظورة عليه. وليس الأسلحة الزائفة التي يلعب بها الأطفال، ولا البنادق المصنوعة من القصدير، ولا مسدّسات المفرقعات، ولا الخناجر الخشبيّة، بل الأسلحة الحقيقيّة، التي لا تستند فيها فكرة التهديد والخطر والموت إلى الشبه في الشكل، بل هي السبب الأوّل والأخير في وجودها. فمسدّس الأطفال هو للتلاعب بفكرة الموت من غير وجود إمكانيّة لتسبيبه بالفعل، لكنّ الموت مع مسدّسات الكبار ليس ممكناً وحسب، بل وشيكاً لا تؤخّره إلّا الحصافة وحدها. وقد صدف في بعض الأحيان أن وصلت بعض من هذه الأسلحة الحقيقيّة إلى يدي مارتشيلّو، ذلك مثل بندقيّة صيد عندما كان في الريف، أو مسدّس أبيه القديم الذي أراه إياه ذات يوم ما في أحد الأدراج، وكان يشعر في كلّ مرّة بنوع من الإثارة جرّاء هذا الاحتكاك، كما لو أنّ يده تجد أخيراً في قبضة السلاح امتداداً طبيعيّاً لها.

كان لمارتشيلّو عدّة أصدقاء بين أطفال الحيّ، وسرعان ما اكتشف أنّ لتعلّقه بالأسلحة أسباباً أعمق وأشدّ غموضاً من افتتانهم العسكريّ البريء بها. فهم كانوا يلعبون لعبة العسكر ويتظاهرون بالقسوة والوحشيّة، لكنّهم كانوا في الواقع يتابعون لعبهم حبّاً باللعب، وكانوا يقلّدون تلك المواقف القاسية دون أيّ مشاركة حقيقيّة. أمّا هو فكان الأمر عنده بالعكس، أي إنّ القسوة والوحشيّة كانتا تبحثان عن منفذ لهما في ألعاب العسكر، وإذا لم تتوفّر الألعاب ففي تسليات أخرى تتمحور جميعها حول محبّة الدمار والموت. كان مارتشيلّو في ذلك الوقت قاسياً لا يندم على قسوته ولا يخجل بها، بل بطريقة طبيعيّة، لأنّ القسوة كانت تمدّه بالملذّات الوحيدة التي لا يراها تافهة بالنسبة إليه، على أنّ هذه القسوة كانت طفوليّة بما يكفي بحيث لا تثير لا شكوكه ولا شكوك الآخرين. كان يحدث مثلاً أنّه ينزل إلى الحديقة في ساعة الحرّ الشديد من بداية الصيف. كانت حديقة ضيّقة، ولكنّها كثيفة تنمو فيها نباتات وأشجار كثيرة، لم يتعهّدها أحد بالرعاية منذ سنوات عديدة، فتألّقت برونقها الطبيعيّ رغم مظهرها المضطرب. نزل مارتشيلّو مرّة إلى

الحديقة مسلّحاً بقصبة رفيعة ومرنة كان قد اقتلعها من مضرب سجّاد قديم وجده في السقيفة. ثمّ تجوّل لفترة من الوقت بين ظلال الأشجار الوارفة وأشعّة الشمس الحارقة، على طول الممرّات المفروشة بالحصى، وهو يراقب النباتات. كان يشعر أنّ عينيه تبرقان، وأنّ جسمه كلّه ينفتح على مشاعر رغد بدا أنّها تشكّل كلّاً واحداً مع حيويّة الحديقة البديعة المزدهرة والمليئة بالضوء، فشعر بالسعادة. لكنّ سعادته كانت عدوانيّة قاسية، كأنّها ترنو لأن تقاس بتعاسة غيره. فكان مارتشيلّو يلوّح بقصبته كأنّما يلوّح بسيف، ويجعلها تصفّر في الهواء عند كلّ ضربة يضربها، ذلك كلّما رأى في وسط أصيصٍ حزمةَ أقحوان متوّجة بأزهار بيضاء وصفراء، أو زنبقة متوّجة بزهرة حمراء تنتصب على الجذع الأخضر، أو نبتة عليها أزهار طويلة بيضاء ومكتنزة. كانت القصبة تبتر بتراً قاطعاً تلك الأزهار والأوراق فتسقط بكاملها على الأرض قرب نبتتها، وتترك وراءها الساق المبتورة. كان يشعر أنّ فعلته هذه تضاعف حيويّته، ويحسّ بلذّة حلوة كلذّة التنفيس عن طاقة بقيت محبوسة لزمن طويل. وكان يشعر في الوقت نفسه بمشاعر لا يفهمها توحي له بالقوّة والعدالة. كما لو أنّ تلك النبتات كانت مذنبة وأنّه أدّبها على ذنوبها لأنّ من حقّه أن يؤدّبها. ذلك رغم أنّه لم يكن يجهل كلّ الجهل طبيعة هذه التسلية وأنّها أمر محظور ومدان. لذلك كان يلتفت رغماً عنه، وبين الحين والآخر، ليختلس نظرة نحو الفيلّا، وهو يخشى أن تراه أمّه من نافذة غرفة الصالون، أو الخادمة من نافذة المطبخ. وكان يدرك أنّه لا يخشى التأنيب بمقدار ما يخشى مجرّد وجود شهادة على فعلته التي يرى هو نفسه أنّها غير اعتياديّة ومشبعة، ويا للغرابة، بالذنب.

كان الانتقال من النباتات والأزهار إلى الحيوانات غير محسوس، كما هو في الطبيعة. ولم يكن بإمكان مارتشيلّو أن يعرف متى أدرك أنّ المتعة التي كان يشعر بها عند تدمير النباتات والزهور وبترها، كانت أعمق وأكثر حدّة عندما يُلحق بالحيوانات الأذى نفسه وبالعنف نفسه.

ولربّما كانت الصدفة وحدها هي التي حملته إلى تلك الطريق، ذلك عندما ظنّ أنّه يضرب بقصبته شجيرة ليبترها، فأصاب حرباء على ظهرها وهي نائمة على غصن الشجيرة، أو أنّه بدأ يشعر بالملل، وسئم من الضرب فحاول

البحث عن مادّة جديدة يمارس عليها قسوته التي ما زال يجهل كنهها. على كلّ فقد حدث ذات ظهيرة ساكنة كان جميع من في البيت نائمين خلالها، أنّ مارتشيلّو وجد نفسه فجأة وكأنّ نوعاً من الخجل والأسف قد صعقه بسبب مذبحة السحالي التي قام بها. إذ كانت خمساً أو ستّاً هي السحالي التي تمكّن مارتشيلّو من العثور عليها بطرق مختلفة أي إمّا على أغصان الشجر أو على أحجار جدران السور، ثمّ أجهز عليها بضربة قاصمة من قصبته بينما كانت تحاول أن تهرب إلى مخبأ ما بعد أن ارتابت من وجوده وهو يقف جامداً في مكانه. لم يكن يعرف، أو كان يفضّل بالأحرى ألّا يتذكّر، كيف وصل به الأمر إلى هذه النقطة. لكنّ كلّ شيء انتهى الآن ولم يبق إلّا الشمس الحارقة المضطربة تسطع فوق أجساد السحالي الميّتة، الدامية والمتّسخة بالغبار. كان واقفاً على الرصيف الإسمنتيّ الذي تجثم عليه السحالي، القصبة في قبضته، وعلى وجهه، بل في كلّ جسمه تسري تلك الإثارة التي اجتاحته أثناء المذبحة، لكنّها لم تعد حارّة وممتعة كما كانت في ذلك الوقت، بل بهتت بسبب الندم والخجل. كما أدرك أنّ شعوره المعتاد بالقسوة والقوّة قد ترافق هذه المرّة مع اضطراب من نوع خاصّ، جسديّ، جديد عليه ولا يعرف له سبباً، لذلك فقد أخذ يشعر بخوف غير واضح المعالم بالإضافة إلى شعوره السابق بالخزي والندم. كما لو أنّه اكتشف في نفسه شخصيّة غير طبيعيّة على الإطلاق، عليه أن يخجل منها، بل ويجب أن يخفيها حتّى لا يخجل بها، ليس أمام نفسه فقط، بل أمام الآخرين أيضاً، لأنّ هذا سيفصله إلى الأبد عن مجتمع أقرانه. ليس هناك أدنى شكّ، أنّه مختلف عن الأولاد في سنّه، فهم لم يكرّسوا أنفسهم لا سويّة ولا منفردين لمثل تلك التسلية. أجل، إنّه مختلف بصورة نهائيّة. لقد ماتت السحالي، ليس هناك شكّ في الأمر. وقد انقضى الآن ذلك الموت وانقضت الأفعال القاسية والمجنونة التي قام بها لتحقيق تلك الميتة. وباختصار فإنّه بريء واعتياديّ طبيعيّ، هو وتلك الأفعال، والآن كما في الماضي.

في ذلك اليوم أراد مارتشيلّو أن يؤكّد هذا الاكتشاف الجديد والمؤلم لغرابته، وذلك بمواجهته مع صديق له صغير، مع روبرتو، الذي كان يسكن في الفيلّا المجاورة لفيلّته. وكان روبرتو عند المغيب ينزل إلى الحديقة بعد

الانتهاء من الدراسة. وقد جرى تفاهم صامت بين العائلتين بأن يلعب الفتيان سويّة حتّى ساعة العشاء، مرّة في حديقة هذا ومرّة في حديقة الثاني. بقي مارتشيلّو طيلة تلك الظهيرة الساكنة ينتظر تلك اللحظة بفارغ الصبر وهو وحيد في غرفته مستلقياً على سريره. كان أبواه قد خرجا، ولم يبق في البيت سوى الطبّاخة، فكان يسمع صوتها بين الفينة والأخرى وهي تغنّي في المطبخ في الطابق الأرضيّ. كان في العادة يدرس أو يلعب بعد الظهيرة وحده في غرفته، لكنّه لم يرق له اللعب ولا الدراسة في ذلك اليوم. كان يشعر أنّه عاجز عن فعل أيّ شيء، لكنّه كان يتضايق في الوقت نفسه من تكاسله: فلقد شعر بالشلل وفقدان الصبر في الوقت نفسه وذلك بسبب استيائه من الاكتشاف الذي بدا أنّه قد حقّقه، وكذلك بسبب الأمل في أن يتبدّد هذا الخوف بعد لقائه المقبل مع روبرتو. فإذا قال له روبرتو إنّه هو أيضاً يقتل السحالي وإنّه يعجبه قتلها ولا يرى غضضاً في قتلها، فسيبدو له حينها أنّ إحساسه بالشذوذ سيختفي، وسيمكن له أن ينظر بلا مبالاة إلى مذبحة السحالي وأنّها مجرّد حادث لا معنى له ولا يترتّب عليه أيّ شيء. لكن لم يكن بوسعه معرفة سبب إعطائه كلّ هذه الأهمية لروبرتو. لابدّ أنّه كان يعتقد ولو بشكل غامض أنّه إذا كان روبرتو يفعل مثل هذه الأشياء وبتلك الطريقة وهو يشعر بتلك الأحاسيس، فإنّ هذا يعني أنّ الجميع يفعلونها، وأنّ ما يفعله الجميع هو اعتياديّ، أي إنّه أمر صالح. على أنّ هذه الأفكار لم تكن شديدة الوضوح في ذهن مارتشيلّو، بل كانت تعوده في هيئة أحاسيس ودوافع عميقة أكثر من كونها أفكاراً محدّدة. على أيّ حال فقد بدا له أنّه على ثقة من أنّ في إجابة روبرتو تكمن راحة باله.

على هذا الأمل ووسط تلك المخاوف، أخذ ينتظر ساعة المغيب بفارغ الصبر. كان في طريقه لأن يغفو، عندما سمع صوت صفير طويل ومنغّم يأتيه من الحديقة، وكانت تلك هي الإشارة المتّفق عليها التي يعلمه روبرتو بها أنّه قد حضر. نهض مارتشيلّو من السرير وخرج من الغرفة بين ظلال المغيب ودون أن يضيء النور، ثمّ نزل على الدرج وأطلّ على الحديقة.

كانت الأشجار تنتصب بثبات وعبوس تحت ضوء شفق الصيف الخافت، بينما بدت الظلال تحت الأغصان كأنّها تبشّر بالليل. بينما تكدّست

في الهواء الساكن والثقيل روائح الغبار الممزوجة بعبق الزهور وانعكاسات أشعّة الشمس التي تصدر عن الأرض الساخنة.

كانت البوابة التي تفصل بين حديقة مارتشيلّو وحديقة روبرتو قد غابت واختفت بالكامل تحت تعريشة اللبلاب العملاقة، ذات الأوراق الكثيفة الممتدّة في العمق، وكأنّها جدار من الأوراق المتداخلة. توجّه مارتشيلّو مباشرة إلى زاوية في آخر الحديقة حيث تزيد كثافة اللبلاب والظلال. تسلّق وصعد بقدميه على صخرة كبيرة ثمّ نحّى بحركة واحدة صارمة كتلةً كاملة من الأعشاب المتسلّقة. كان هو الذي ابتكر هذا النوع من الباب داخل أوراق اللبلاب، بقصد القيام بمغامرة ولعبة سرّيّة. ظهرت عند تحريك اللبلاب قضبان البوّابة، ثمّ ظهر بين القضبان وجه صديقه روبرتو النحيف والشاحب تحت شعره الأشقر. وقف مارتشيلّو على أطراف أصابعه على الحجر وسأل: «هل رآنا أحد؟».

كانت هذه هي صيغة بداية لعبتهم تلك. فأجاب روبرتو كما لو أنّه يتلو درسه: «لا، لا أحد...»، ثمّ قال بعد لحظة: «هل درست أنت؟».

كان يتكلّم همساً، وهذا إجراء آخر متّفق عليه. فأجاب مارتشيلّو، همساً هو الآخر: «لا، لم أدرس اليوم... لم تكن بي رغبة... سأقول للمعلّمة إنّي كنت مريضاً».

تمتم روبرتو قائلاً: «أنا كتبت موضوع اللغة الإيطاليّة. قمت بحلّ مسألة من مسائل الحساب... بقيت عليّ مسألة أخرى... لماذا لم تدرس؟».

كان هذا هو السؤال الذي كان ينتظره مارتشيلّو. فأجاب: «لم أدرس لأنّي قمت باصطياد السحالي».

كان يأمل أن يقول له روبرتو: «أوه حقّاً... أنا كنت أصطاد السحالي في بعض الأحيان»، أو شيئاً من هذا القبيل. لكنّ وجه روبرتو لم يعبّر عن أيّ تواطؤ ولا حتّى عن بعض الفضول. ثمّ أضاف ببعض الجهد، وهو يحاول أن يخفي حرجه: «وقد قتلتها جميعها».

فسأل روبرتو بحذر: «كم واحدة؟».

أجاب مارتشيلّو: «المجموع سبعة». ثمّ بذل جهداً ليتباهى ببعض

المعلومات التقنيّة: «كانت على أغصان الأشجار وفوق الحصى... انتظرتها حتّى تحرّكت ثم أمسكت بها بأقصى سرعة... بضربة واحدة بهذه القصبة... ضربة لكلّ سحليّة...». كشّر تكشيرة تنمّ عن الرضا وهو يعرض القصبة على روبرتو.

رأى أنّ الثاني ينظر إليه بفضول لا ينفصل عن شيء من الدهشة: «ولماذا قتلتها؟».

«هكذا،» قال بتردّد، وكان في طريقه لأن يقول: «لأنّ الأمر يسرّني»، لكن بما أنّه يجهل السبب هو نفسه، فقد تماسك وقال: «لأنّها مضرّة، ألا تعرف أنّ السحالي مضرّة؟».

فقال روبرتو: «لا، لا أعرف، ما هو ضررها؟».

قال مارتشيلّو: «إنّها تأكل العنب، وقد أكلت قبل سنة كلّ عنب العريشة».

«لكن لا يوجد هنا عنب».

استمرّ في الكلام من غير أن يلتفت إلى هذه الملاحظة: «ثمّ إنّها شرّيرة... حتّى إنّ إحداها لم تهرب عندما رأتني، بل فغرت فمها وتقدّمت نحوي... وكانت ستثب عليّ لو لم أوقفها في الوقت المناسب...». سكت للحظة، ثمّ أضاف وكأنّه يفضي له بسرّ خفيّ: «وأنت هل قتلت بعضها؟».

هزّ روبرتو رأسه وأجاب: «لا، أبداً»، ثمّ خفض بصره وبدا الأسف على وجهه: «يقولون إنّه يجب ألّا نؤذي الحيوانات».

«من قال هذا؟».

«أمّي».

قال مارتشيلّو وقد تراجعت ثقته بنفسه: «يقولون أشياء كثيرة، لكنّ عليك أن تجرّب أيّها الغبيّ... أؤكّد لك أنّ الأمر يسلّي».

«لا، لن أجرّب».

«ولماذا؟».

«لأنّ هذا شرّ».

ففكّر مارتشيلّو بخيبة أمل، وهكذا فليس أمامي شيء يمكن القيام به. شعر بنوبة من الغضب تجاه صديقه الذي ثبّت عليه، على غير علم منه، صفة

الشذوذ عن الاعتياديّة. ومع ذلك، فقد تمكّن من السيطرة على نفسه واقترح عليه: «انظر، غداً سأصطاد السحالي مرّة أخرى... إذا جئت واصطدت معي، فإنّي سأعطيك حزمة أوراق لعب التاجر في المعرض».

كان يعلم أنّ هذا عرض مغر بالنسبة إلى روبرتو: فهو قد عبّر عدّة مّرات عن رغبته بامتلاك تلك الحزمة. وفي الواقع فإنّ روبرتو أجاب كما لو أنّ بارقة لمعت بغتة في ذهنه: «سآتي إلى الصيد لكن على شرط أن نمسك بها حيّة ثمّ نسجنها ضمن علبة ثمّ نطلق سراحها... ثمّ تعطيني أنت الحزمة».

قال مارتشيلّو: «هذا لا، لأنّ أجمل ما في الأمر هو ضربها بهذه القصبة... أراهن على أنّك لا تستطيع فعل هذا».

لم يحر الآخر جواباً. فاستأنف مارتشيلّو: «ستأتي إذاً... تفاهمنا... لكن عليك أن تبحث عن قصبة أنت الآخر».

فقال روبرتو بإصرار: «لا، لن آتي».

«لكن لماذا؟ تلك حزمة جديدة».

قال روبرتو: «لا، لا فائدة، أنا لن أقتل السحالي، حتّى لو...» وهنا حاول تذكّر شيء ذي قيمة مناسبة: «حتّى لو أعطيتني مسدّسك».

أدرك مارتشيلّو أنّ الأمر قد قضي، فقرّر بغتة الاستسلام للغضب الذي كان يغلي في صدره منذ قليل من الوقت، فقال: «لا تريد لأنّك جبان، لأنّك تخاف».

«أخاف من ماذا؟ إنّك تضحكني بالفعل».

فكرّر مارتشيلّو: «إنّك خائف، لست إلّا أرنباً... أرنباً بالفعل». ثمّ مدّ على حين غرّة يده عبر قضبان البوّابة وأمسك بصديقه من أذنه. وكانت أذنا روبرتو بارزتين، حمراوين، ولم تكن هذه هي المرّة الأولى التي كان مارتشيلّو يمسك بهما، وإن لم يكن بمثل هذا الغضب والرغبة في إيذائه بالفعل: «اعترف بأنّك أرنب».

فأخذ الآخر يصرخ وهو يتلوّى: «لا. آي...آي...دعني وشأني»

«اعترف بأنّك أرنب».

«لا... اتركني».

«اعترف بأنّك أرنب».

كانت أذن روبرتو تلسع يده من شدّة السخونة والعرق، كما ظهرت الدموع في عينيّ ذلك المعذّب الزرقاوين.

فتمتم: «حسناً، أنا أرنب» فتركه مارتشيلّو في الحال. قفز روبرتو عندها من البوّابة إلى الأسفل، ثمّ صرخ وهو يجري بعيداً: «أنا لست أرنباً، لقد غيّرت رأيي وأنا أقول ذلك لك: فأنا لست أرنباً... لقد غلبتك». ثمّ اختفى وضاع صوته الباكي والساخر بعيداً ما وراء شجيرات الحديقة المجاورة.

بقي في نفسه شعور عميق بالضيق من جرّاء هذا الحوار. فروبرتو لم يتضامن معه، بل وحرمه أيضاً من تلك التبرئة التي كان يسعى إليها، والمرتبطة على ما بدا له بذلك التضامن. وهكذا فقد ألقي به في حضيض الشذوذ عن الاعتياديّة، لكن ليس قبل أن يُبرهن أمام روبرتو على اهتمامه بالخروج من ذلك الحضيض، عندما لجأ، كما أدرك هو بالذات، إلى الكذب والعنف. لقد أضيف الآن إلى الخجل والندم على قتل السحالي، خجل جديد وندم آخر بسبب الكذب على روبرتو بشأن الأسباب التي دفعته إلى طلب تضامنه معه وما تبع ذلك من فضح نيّاته بتلك الحركة الغاضبة وشدّ أذنه. وهكذا فقد أضاف خطأً ثانياً إلى الخطأ الأوّل، وهو لن يستطيع التخلّص من أيّ منهما بأيّ شكل من الأشكال.

كان يستعيد بين الحين والآخر ذكريات مذبحة السحالي، على أمل أن يجدها وقد تعرّت عن كلّ ندم، وأنّها مجرّد حادث بسيط مثل أيّ حادث آخر. لكنّه سرعان ما أدرك أنّه يودّ لو أنّ السحالي لم تمت أبداً، هذا بالتوازي مع عودة تلك المشاعر التي طالما أثارت نفسه وسبّبت له اضطراباً في جسده خلال قيامه بعمليّة الصيد. إلّا أنّه كان يجد أنّ تلك المشاعر مقرفة بمقدار ما كانت حيّة في نفسه، وبمقدار أنّه لم يكن يستاء منها تمام الاستياء. كانت الإثارة قويّة بحيث كانت تحمله على الشكّ بمقدرته على مقاومة إغراءات قيامه مرّة أخرى بمثل تلك المذبحة خلال الأيّام القادمة. جذبته هذه الأفكار: فهو لم يكن شاذاً عن الاعتياديّة وحسب، بل لم يكن قادراً على القضاء على ذلك الشذوذ، ولا حتّى على التحكّم به. في تلك اللحظة كان جالساً في غرفته إلى الطاولة أمام كتاب مفتوح، بانتظار العشاء. نهض بعنف، وتوجّه

نحو سريره، ثمّ جثم على ركبتيه على سجّادة السرير، كما يفعل عندما يتلو صلاته، وقال بصوت مرتفع وهو يشبك يديه، وبلهجة بدت له صادقة:

«أقسم أمام الله أنّي لن ألمس الزهور والنباتات والسحالي مرّة أخرى».

ومع ذلك فإنّ حاجته إلى التبرئة التي دفعته إلى البحث عن مؤازرة روبرتو، بقيت في نفسه، لكنّها تغيّرت إلى عكسها، أي إلى حاجة إلى الإدانة. وروبرتو، الذي كان بوسعه أن ينقذه من الندم بالانحياز إلى طرفه، لم يكن لديه السلطة الكافية لتأكيد صحّة هذا الندم وتنظيم ارتباكات عقله بإصدار حكم نهائيّ قاطع. فهو فتى مثله، ويمكن له أن يقبل بها كشريك لكنّه لا يصلح أن يكون قاضياً. كما أنّ روبرتو عندما رفض اقتراحه تبنّي سلطة الأمّ دعماً لاشمئزازه وقرفه. ففكّر مارتشيلّو أنّ بوسعه أن يلجأ هو أيضاً إلى أمّه. فهي وحدها القادرة على إدانته أو تبرئته، أو على توصيف عمله بوصف معيّن. كان مارتشيلّو يعرف أمّه عندما اتّخذ هذا القرار، لكنه كان يفكر فيها بطريقة مجرّدة كما لو أنّ الأمر يتعلّق بأمّ مثاليّة، أي كما يجب أن تكون الأمّ وليس كما هي أمّه. والواقع أنّه كان يشكّ في نتيجة توجّهه إليها. على كلّ لم يكن لديه إلّا تلك الأمّ، كما أنّ دافعه في التوجّه إليها كان أقوى من كلّ شكّ.

انتظر مارتشيلّو اللحظة التي تأتي فيها أمّه إلى غرفته لتحيّيه تحيّة المساء بعد أن يكون قد هجع إلى سريره. كانت تلك إحدى اللحظات القليلة التي كان بوسعه أن يراها وينفرد بها. فقد كان أبوه حاضراً أكثر الأحيان سواء خلال وجبات الطعام أو خلال المرّات القليلة التي يتمشّى بها مع أبويه. ومع أنّ مارتشيلّو لا يشعر بالغريزة بثقة كبيرة بأمّه، فإنه كان يحبّها، بل ولربّما كان يشعر أنّه معجب بها أكثر ممّا يحبّها، وهائماً بطريقة حائرة، أي كما لو أنّه يعجب بأخت كبيرة ذات عادات فريدة وشخصيّة غريبة. وكانت أمّ مارتشيلّو، التي تزوّجت وهي صغيرة السنّ، قد بقيت طفلة من الناحية المعنويّة، بل وحتّى الجسديّة. علاوة على ذلك، على الرغم من أنّها لم تكن على علاقة وثيقة مع ابنها، الذي لم تكن تهتمّ به كثيراً بسبب انشغالاتها الاجتماعيّة الكثيرة، إلّا أنّها لم تفصل حياتها أبداً عن حياته. وهكذا فقد نشأ مارتشيلّو وسط صخب مستمرّ ذي مداخل ومخارج متسرّعة، وملابس يتمّ تجريبها ثمّ يُتخلّص منها، ومحادثات لامتناهية وفارغة على الهاتف، ونوبات

غضب مع الخيّاطين والمورّدين، ومنازعات مع الخادمة، وتغيّرات مستمرّة في المزاج لأتفه الأسباب. وكان بوسع مارتشيلّو أن يدخل إلى غرفة أمّه في أيّ لحظة، وأن يقف متفرّجاً بفضول على حميميّة تتجاهله وليس له فيها أيّ مكان. لكنّ أمّه كانت تقرّر أحياناً الاعتناء بابنها، وكأنّ ضميرها يؤنّبها فجأة على خمولها، فتأخذه أحياناً معها إلى الخيّاطة أو مصمّمة الأزياء. لكن مارتشيلّو كان يشعر في هذه المناسبات، أنّه مجبر على قضاء ساعات طويلة وهو جالس على الكرسيّ، بينما كانت أمّه ترتدي القبّعات والفساتين، ممّا كاد يجعله يأسف على دوّامات لامبالاتها المعتادة.

أدرك حالاً في تلك الليلة أنّ أمّه كانت على عجلة من أمرها أكثر من المعتاد، وفي الواقع فإنّها لم تترك لمارتشيلّو الوقت كي يتغلّب على خجله، بل أدارت له ظهرها وتوجّهت عبر الغرفة المظلمة نحو الباب، وتركته مفتوحاً خلفها. لكنّ مارتشيلّو لم يكن ينوي أن ينتظر يوماً آخر ليسمع الحكم الذي كان بحاجة إليه. وهكذا فقد عاد وجلس في سريره ونادى بصوت قويّ: «ماما».

رآها على العتبة وهي تلتفت بحركة تكاد تنمّ عن التأفّف. ثمّ سألته وهي تقترب مرّة أخرى من سريره: «ماذا هناك يا مارتشيلّو؟»

إنّها واقفة الآن قربه، مقابل الضوء، بيضاء وهزيلة تحت ثوبها الأسود الحاسر عن صدرها. ورغم أنّ وجهها الناعم والشاحب وسط شعرها الأسود، بقي في الظلّ، إلّا أنّ مارتشيلّو تمكّن من تمييز تعابير الاستياء والعجلة وقلّة الصبر وهي تسود عموم وجهها. ومع ذلك فقد غلبت عليه دوافعه فقال لها: «ماما، أريد أن أقول لك شيئاً».

«حسناً يا مارتشيلّو، لكن أسرع... لأنّ أمّك يجب أن تذهب... وأبوك ينتظر». هذا وهي تجول بيدها على عنقها، حول قفل القلّادة.

كان بودّ مارتشيلّو أن يبوح لأمّه عن مذبحة السحالي ويسألها فيما إذا كان قد أساء في ذلك. لكنّ عجلة الأمّ جعلته يغيّر رأيه. أو بالأحرى يعدّل العبارة التي كان قد حضّرها في ذهنه. فبغتة بدت له السحالي حيوانات صغيرة جدّاً وغير ذات معنى بالنسبة إلى شخص شارد الذهن مثل أمّه. لذلك، ومن

غير أن يعرف السبب، ابتكر على الفور كذبة تضخّم جريمته. كان يأمل أنّ ضخامة الذنب ستفلح في إثارة حساسيّة الأمّ التي خمّن أنّها مترهّلة المشاعر وخاملة من كلّ بدّ. فقال بثقة أدهشته هو بالذات: «ماما، لقد قتلت القطّة».

في تلك اللحظة كانت الأمّ قد أفلحت أخيراً في وصل طرفي القفل. كانت يداها مجتمعتين على رقبتها، وذقنها متسمّرة على صدرها وهي تنظر إلى الأرض، بينما كانت تضرب بين الفينة والأخرى بكعب حذائها على الأرض بسبب نفاد صبرها. «هكذا إذاً». قالت بصوت جاف غير متفهّم كأنّ الجهد الذي كانت تبذله قد فرّغه من أيّ اهتمام. فكرّر هو كأنّه غير متأكّد: «قتلتها بالنبلة».

رأى أنّ أمّه تهزّ رأسها بخيبة أمل ثمّ ترفع يديها عن مؤخرة رقبتها وتمسك بالقلادة التي لم تتمكّن من إغلاقها. قالت بغضب: «هذا المشبك اللعين». «مارتشيلّو... ساعدني يا شاطر في تشبيك القلادة». ثمّ جلست على جانب السرير وهي تدير ظهرها لابنها، وأضافت وقد فرغ صبرها: «لكن انتبه ألّا ينفتح القفل مرّة أخرى... وإلّا انفلت من جديد».

كانت تتكلم وهي تظهر له كتفيها الهزيلتين والعاريتين حتّى مستوى الكلى، والبيضاوين مثل ورقة أمام الضوء القادم من الباب. وكانت يداها الرقيقتان ذاتا الأظافر القرمزيّة المستطيلة تمسكان بالعقد المعلّق على الرقبة الناعمة والمظلّلة بزغب أجعد. قال مارتشيلّو لنفسه إنّها لا بدّ أن تستمع له بانتباه أشدّ بعد تشبيك العقد. فامتدّ إلى الأمام وتناول طرفي المشبك ووصلهما بحركة واحدة. لكنّ أمّه نهضت مباشرة وقالت وهي تطبع بعجالة قبلة على وجهه: «شكراً... نم الآن... تصبح على خير». ثمّ اختفت قبل أن يتمكّن مارتشيلّو من إيقافها بحركة أو بكلمة.

في اليوم التالي كان الجوّ حارّاً وغائماً. بعد أن تناول مارتشيلّو الطعام بصمت بين أبويه الصامتين انزلق فجأة عن مقعده وخرج إلى الحديقة عبر باب النافذة. وكما هي العادة فقد أثارت عمليّة الهضم في نفسه استياءً مضطرباً ممزوجاً بشهوانيّة منعكسة وتأمّليّة. مشى الهوينى، كأنّما على رؤوس أصابعه، فوق صرير الحصى وتحت ظلال الأشجار المليئة بالحشرات، حتّى

وصل إلى البوّابة فنظر إلى الخارج. ظهرت له الطريق المعتادة بانحدارها البسيط، والمحفوفة على جانبيها بصفّين من أشجار الفلفل ذات الخضرة الريشيّة بل وشبه الحليبيّة، وكانت مقفرة في تلك الساعة، ومظلمة أيضاً، ويا للغرابة، بسبب الغيوم السوداء المنخفضة التي كانت تملأ السماء. وكانت ترى مقابله بوّابات أخرى وحدائق أخرى وفيلّات أخرى تشبه فيلّته. بعد أن راقب الطريق بعناية، ابتعد مارتشيلّو عن البوّابة وسحب النبلة من جيبه وانحنى على الأرض. كان هناك بين الحصى الصغيرة حصى أخرى بيضاء كبيرة. أخذ مارتشيلّو واحدة منها بحجم الجوزة وأدخلها في جلدة النبلة واستأنف مشيه على طول السور الذي يفصل حديقته عن حديقة روبرتو. كان رأيه، أو بالأحرى مشاعره هي أنّه في حال حرب مع روبرتو وأنّ عليه أن يحرس بكلّ انتباه نبات اللبلاب الذي يغطّي جدار السور وأنّ عليه أن يطلق النار عند أقلّ حركة، أي أن يصوّب الحصاة التي وضعها في النبلة. كانت هذه لعبة يعبّر فيها عن غضبه على روبرتو الذي لم يشأ أن يشاركه في مذبحة السحالي سويّة مع غريزته الوحشيّة القاسية التي دفعته لارتكاب تلك المذبحة. ومن الطبيعيّ أنّ مارتشيلّو كان يعرف تمام المعرفة أنّ روبرتو لا يراقبه من خلف أوراق اللبلاب، لأنّه اعتاد أن ينام خلال تلك الساعة. ومع ذلك، ورغم هذه المعرفة التامّة، فإنّه كان يتصرّف بجدّية ويحسب العواقب كما لو أنّه متأكّد أنّ روبرتو موجود في المكان. كانت شجرة اللبلاب قديمة وضخمة وتصعد حتّى أعلى قضبان البوّابة، وكانت أوراقها المتراكبة فوق بعضها بعضاً، كبيرة وسوداء مغبرّة وكأنّها طيور من دانتيل على صدر امرأة هادئ، وكانت تتدلّى ثابتة في الهواء الثقيل الساكن من كلّ ريح. وقد بدا له عدّة مرّات أنّ أقلّ حركة لا بدّ أن تهزّ تلك الأوراق، أو بالأحرى فإنّه أقنع نفسه أنّه سبق له أن رأى مثل هذه الحركة، لذلك فسرعان ما رمى الحصوة على نبات اللبلاب، وسط سروره العارم.

انحنى بسرعة بعد تلك الضربة والتقط حصاة أخرى ووقف في وضع القتال، متباعد الساقين وممدود الذراعين وبيده النبلة الجاهزة للانطلاق. فمن يدري، فقد يكون روبرتو خلف الأوراق وعلى استعداد لأنّ يصوّب عليه وهو في وضع متميّز لأنّه مخفيّ، بينما كان هو مكشوفاً بالكامل. وصل

وسط هذه اللعبة إلى آخر الحديقة، حيث كان قد أقام باباً من أوراق اللبلاب. توقّف هنا وهو ينظر بانتباه إلى جدار السور. كان يرى في خياله أنّ البيت هو عبارة عن قلعة، وأنّ البوّابة المموّهة بأوراق اللبلاب هي جدرانها المحصّنة، وأنّ الثقب هو فتحة خطيرة يمكن عبورها بسهولة. على حين غرّة رأى، ومن غير أدنى شكّ هذه المرّة، أنّ الأوراق تتحرك من اليمين إلى اليسار وهي ترتعش وتهتزّ. أجل، كان واثقاً، أنّ الأوراق تتحرّك ولا بدّ أنّ هناك شخصاً يحرّكها، لكنّه فكّر بغتة أنّ روبرتو ليس موجوداً، وأنّ هذه لعبة، وبما أنّها لعبة فبوسعه أن يرمي الحصاة، وفكّر أيضاً أنّ روبرتو موجود وعليه ألّا يرمي الحصاة إذا أراد ألّا يقتله. ثمّ، اتّخذ بهدوء وروية قراراً مفاجئاً، فمدّ مطّاط النبلة وأطلق الحصاة على الأوراق الكثيفة. ولم يكتف بهذا، بل انحنى وتناول حصاة أخرى ووضعها بسرعة في النبلة وأطلقها، ثمّ أخذ الثالثة، وأطلقها هي أيضاً. لقد نحّى الآن كلّ مخاوفه وشكوكه ولم يعد يهمّه إن كان روبرتو موجوداً أو غير موجود. وهو لا يشعر الآن إلّا بنوع من الإثارة العدوانيّة المرحة. أخيراً، وبعد أن خرق جدار أوراق الشجر، ترك وهو يلهث نبلته تسقط على الأرض، وتوجّه نحو جدار السور. لم يكن روبرتو هناك، كما كان هو يرجو ويتوقّع. لكنّ قضبان البوابة كانت عريضة للغاية وتسمح بمدّ الرأس نحو الحديقة المجاورة. وهكذا فقد دفعه فضوله إلى أن يطلّ لينظر إلى الأسفل.

لم يكن هناك نبات متسلّق في ناحية روبرتو من الحديقة، بل هناك أصيص مزروع بالسوسن يغطّي ما بين السور والدرب المفروش بالحصى. وقع تحت بصره في الحال جسم متمدّد على جانبه بين الجدار وصفّ نباتات السوسن البيضاء والبنفسجيّة، أجل، لقد رأى مارتشيلّو هناك قطّة رماديّة ضخمة. اعتراه رعب أخرق قطع أنفاسه حين لاحظ تلك الوضعيّة غير الاعتياديّة التي اتّخذتها القطّة: أي على جنبها وقوائمها مبسوطة ممدودة، وخطمها مرميّ على الأرض. كان وبرها كثيفاً وبلون رماديّ مزرق، وبدا كأنّه متنصب أشعث وخامل في الوقت نفسه، مثل ريش بعض الطيور الميّتة التي رآها قبل فترة من الزمن وهي مسجّاة على رخام المطبخ. هنا ازداد خوفه، وثب على الأرض: فانتزع من بين الورود عموداً يستعمل لدعم النباتات، ثمّ

عاد وصعد مرّة أخرى، ومدّ ذراعه بين القضبان، ثمّ حاول وخز جانب القطّة بطرف العمود الملوّث بالتراب. لكنّ القطّة لم تتحرّك، فرأى على حين غرّة أنّ هناك طابعاً جنائزيّاً يسم نباتات السوسن ذات السيقان الخضراء الطويلة، والتيجان البيضاء والبنفسجيّة المائلة حول الجسم الرماديّ الجامد، أي كأنّها من تلك الورود التي تضعها الأيدي الرحيمة حول جثث الموتى. هنا رمى القضيب وقفز على الأرض من غير أن يبذل جهداً في إعادة ترتيب اللبلاب.

شعر بنفسه فريسة لأنواع رعب عديدة، ففكر أوّل ما فكّر بالجري لحبس نفسه في خزانة، في حجيرة، أي باختصار، حيثما يجد ظلاماً وانعزالاً يساعدانه على الهروب من نفسه. لقد فزع أوّلاً وقبل كل شيء لأنّه قتل القطّة، ثمّ وربّما إلى حدّ أكبر، لأنّه أخبر أمّه بعمليّة القتل هذه في الليلة السابقة: وفي هذا إشارة لا شكّ فيها على أنّ أعمال القسوة والموت مقدّرة عليه، بطريقة غامضة ومصيريّة. لكنّ الذعر الذي أصابه بسبب موت القطّة وبسبب مغزى تنبّه بهذا الموت، كان أقلّ بكثير من الذعر الذي أثارته في نفسه فكرة أنّه بقتل القطّة كان ينوي في الحقيقة قتل روبرتو. وشاءت الصدفة وحدها أن تموت القطّة بدل صديقه. لكنّ تلك الصدفة لم تكن غير ذات مغزى، إذ لا يمكن نكران ذلك التسلسل من الورود إلى السحالي، ومن السحالي إلى القطّة، ومن القطّة إلى قتل روبرتو المدبّر، وإذا كان لم ينفّذ، فهو قابل للتنفيذ، بل لا مفرّ منه. وهكذا فهو شخص غير اعتياديّ، ولم يستطع إلّا أن يفكّر، أو بالأحرى أن يشعر بهذا الشذوذ وهو واع وعياً جسديّاً حيويّاً بهذا الشذوذ. إنّه شخص غير اعتياديّ قدّر عليه مصير يهدّده بالوحدة والانعزال، ويدفعه الآن على طريق دمويّة، ولا يمكن لأيّ قوّة بشريّة أن تبعده عنها. كان يسير بين هذه الأفكار ويمشي بشكل محموم في المساحة الضيّقة الفاصلة بين المنزل والبوّابة، وهو يرفع عينيه من حين لآخر إلى نوافذ الفيلّا تملؤه الرغبة في أن تظهر عليها أمّه السطحيّة الذهن المضطربة النفس: رغم أنّه لم يعد بوسعها أن تفعل الآن شيئاً من أجله، هذا إذا كان بوسعها أن تفعل شيئاً ما في أيّ وقت آخر. راوده بعدها رجاء مفاجئ، فركض عائداً إلى الجزء الخلفيّ من الحديقة، وصعد حتّى وصل إلى الجدار، فأطلّ بوجهه بين قضبان البوّابة. وتوهّم أنّ المكان الذي رأى فيه القطّة الميّتة أوّل مرّة، أصبح فارغاً. لكنّ

القطّة لم تختف، بل كانت موجودة، بلونها الرماديّ، وبلا حراك وسط الإكليل الجنائزيّ الذي تشكّله أزهار السوسن البيضاء والبنفسجيّة. وكان يدلّ على الميّتة صفّ أسود طويل من النمل يمتدّ من الشارع ويعبر الأصيص لينتهي بالخطم، بل بعينيّ الحيوان، ممّا يعطي انطباعاً مخيفاً عن وجود جيفة تتفسّخ. كان ينظر عندما خيّل إليه فجأة، وكأنّما بطريقة تراكب الصور، أنّه يرى روبرتو مكان القطة، كان هو مستلقياً أيضاً بين أزهار السوسن، وميّتاً هو أيضاً، بينما صفوف النمل تأتي وتذهب، عيناه مطفأتان وفمه مشقوق. اعترته قشعريرة الرعب وهو ينتزع نفسه من هذه التأمّلات الرهيبة، ثمّ قفز. لكنّه حرص هذه المرة على وضع باب اللبلاب في مكانه. فهو الآن، إلى جانب الندم والفزع من نفسه، أصبح يخاف أيضاً من أن يتمّ اكتشافه ومعاقبته.

ومع ذلك، ومع أنّه كان يخشى ذلك الاكتشاف وذلك العقاب، فإنّه شعر أنّه وفي الوقت نفسه يرغب بهما، على الأقلّ كي يتمّ إيقافه في الوقت المناسب قبل أن ينزلق على المنحدر الذي بدا له أنّ القتل لا بدّ منتظره في آخره. لكنّه لا يذكر أنّه سبق لأبويه أن عاقباه، وقد فهم بصورة مشوّشة أنّهما لم يمتنعا عن ذلك بسبب مفهوم تربويّ يمنع العقاب، بل لمجرّد اللامبالاة. وهكذا فقد أضيف إلى معاناته بسبب التشكّك بأنّه مرتكب جريمة بل وقادر أيضاً على ارتكاب ما هو أخطر منها، أضيف كونه لا يعرف إلى من يتوجّه كي ينزل به العقاب ولا يعرف حتّى ماهيّة ذلك العقاب. ويدرك مارتشيلّو الآن، ولو بطريقة غامضة، أنّ الآليّة نفسها التي دفعته لأن يبوح بذنبه إلى روبرتو على أمل أن يقول له إنّه ليس مذنباً بل إنّ ذلك أمر طبيعيّ يفعله الجميع، إنّ هذه الآليّة هي التي تقترح عليه الآن أن يقوم بهذا البوح نفسه إلى أبويه لكن على أمل معاكس بأن يراهما وهما يصيحان بسخط أنّه ارتكب جريمة شنعاء وأنّ عليه تحمّل عقوبة مناسبة. ولم يكن يهمّه إلّا قليلاً أنّ تبرئة روبرتو في الحال الأولى كان بوسعها أن تشجّعه على تكرار فعلته، بينما يمكن لها في الحال الثانية أن تجلب عليه إدانة قاسية. وفهم أنّه يريد في كلا الحالتين أن يخرج من العزلة الرهيبة التي يفرضها شذوذه عن الاعتياديّة، مهما كان الثمن وبأيّ طريقة.

كان سيتّخذ ربّما قراراً بأن يعترف لوالديه بقتل القطة لو أنّه لم يشعر، على

العشاء في ذلك المساء نفسه، أنّهم كانوا يعرفون بالفعل كلّ شيء. والواقع أنّه ما إن جلس إلى الطاولة حتّى لاحظ، بمزيج من مشاعر الخوف والارتياح غير المؤكّد، أنّ أباه وأمّه ظهرا عدائيّيْن وفي مزاج سيّئ. فأمّه، بوجهها الطفوليّ الذي تحاول أن تظهر عليه تعابير لياقةٍ مبالغ فيها، كانت منتصبة في جلستها منخفضة البصر وملتزمة بصمت يتّضح فيه السخط. وكان الأب يجلس مقابلها وعليه تعابير مختلفة وإن كانت ليس أقلّ فصاحة في إظهار مشاعر استياء مماثلة. وكان الأب، الذي يكبر زوجته بسنوات عديدة، غالباً ما يعطي مارتشيلّو انطباعاً يثير القلق بأنّه يشارك أمّه صفات الخضوع والطفوليّة، بحيث لا تبدو أمّه، بل أخته. وكان هو رجلاً نحيفاً، له وجه جافّ ومتجعّد، لا تضيئه إلّا نادراً ضحكات قصيرة لا تنمّ عن سرور، تغلبه سمتان بارزتان مترابطتان بكلّ تأكيد: سمة البريق غير المعبّر وشبه المعدنيّ في حدقتيه البارزتين، وسمة النبض المتكرّر، الذي يهتزّ تحت الجلد المشدود على وجنتيه، بفعل عصب محموم لا أحد يعرف ما هو. وقد يقال إنّ السنين الطويلة التي قضاها في الجيش قد أبقت فيه حبّ التصرّفات الدقيقة المحكمة والمواقف المنضبطة. لكنّ مارتشيلّو كان يعرف أنّه عندما يكون والده غاضباً، فإنّ دقّته وانضباطه يصبحان مفرطين ويتحولّان إلى عكس ذلك، أي إلى عنف غريب ومحصور وتمرّد مباغت، حتّى ليقال إنّه يريد تحميل أبسط حركاته بالمعاني. وهكذا فقد لاحظ مارتشيلّو في ذلك المساء أنّ أباه كان يسعى وهو على طاولة العشاء إلى أن يبرز بقوّة أفعالاً معتادة لا أهميّة لها، وكأنّه يريد لفت الانتباه إليها. فكان يتناول مثلاً الكأس ويرتشف منه رشفة ثمّ يعيده إلى مكانه بضربة قويّة على الطاولة، ثمّ يبحث عن المملحة ويأخذ منها قليلاً من الملح ثمّ يضعها بضربة أخرى، ثمّ يأخذ الخبز ويقطعه ثمّ يضعه بضربة ثالثة. أو أنّه، وكما لو أصيب بشغف مفاجئ بالتوازن وتماثل الأشياء، يبدأ في وضع صحنه، بالضربات إيّاها، وسط أدوات الطعام بطريقة تتقابل فيها السكّين والشوكة والملعقة بزاوية قائمة حول دائرة وعاء الطعام. ولو لم يكن مارتشيلو مشغولاً بشأن ذنبه، للاحظ في الحال أنّ هذه الحركات المشبعة بطاقة بائسة وذات مغزى، لم تكن موجّهة إليه، بل إلى أمّه، التي كانت في الواقع تمتصّ كلّ ضربة من تلك الضربات على حساب كرامتها

وتكتفي ببعض التنهّدات وشيء من رفع الحاجبين للدلالة على صبرها وتحمّلها. لكنّه، وبما أنّ قلقه قد أعمى بصيرته، فهو لم يشكّ أبداً أنّ والديه يعرفان كلّ شيء. إذ لا بدّ أن روبرتو، وهو المعروف بأنّه أرنب، قد نقل إليهما الخبر. كان يريد أن ينال العقاب، لكنّه الآن وقد رأى أبويه غاضبين، فقد شعر بالاشمئزاز من العنف الذي يعرف أنّ أباه قادر عليه في مثل هذه الظروف. فكما أنّ مظاهر المحبّة والعطف كانت قليلة وعرضيّة لدى أمّه، ويمليها، كما هو واضح، تأنيب الضمير أكثر من حبّها الأموي، فكذلك كانت قسوة الأب مفاجئة وبلا مبرّر ومفرطة متهوّرة، وقد يقال إنّ ما يمليها ليست أيّ نيّة تربويّة، بل الرغبة باستعادة مكانته بعد كثير من التشتّت الذي أصابها. كان الأب يتذكّر فجأة، إثر تذمّر الأمّ أو الطبّاخة، أنّ له ابناً، فكان يصرخ ويجنّ جنونه ويشرع في ضربه. وكان هذا أكثر ما يرعب مارتشيلّو، لأنّ أباه كان يضع في خنصره خاتماً عليه تاج ضخم، وكان لا يفهم كيف أنّ هذا التاج ينقلب خلال هذا الضرب إلى طرف راحة اليد، فيضيف إلى قسوة الصفعة المذلّة ألماً نافذاً. وكان مارتشيلّو يشكّ أن أباه يقلب عن عمد التاج إلى داخل يده، لكنّه لم يكن متأكّداً من شكوكه.

سارع من شدّة خوفه وفزعه ليبدأ في اختلاق كذبة قويّة ومعقولة: فهو لم يقتل القطّة، بل قتلها روبرتو. فالقطّة كانت في الواقع موجودةً في حديقة روبرتو، فكيف له أن يقتلها من خلال اللبلاب وجدار السور؟ لكنّه تذكّر فجأة أنّه أخبر أمّه في الليلة السابقة بقتل القطّة، وهذا لم يحدث عملياً إلّا في اليوم التالي، فأدرك أنّه ليس بإمكانه تدبير أيّ كذبة. فأمّه، مهما كانت مشتّتة الذهن، فلا بدّ أنّها أخبرت أباه بهذا الاعتراف، وبالمقابل فلا بدّ أنّ هذا قد أقام حتماً صلة ما بين الاعتراف وبين اتّهامات روبرتو. وهكذا فلا مجال إذاً للتكذيب. وسط هذه الأفكار، وبالانتقال من طرف إلى آخر مغاير، تجدّدت دوافعه فشعر برغبة العقوبة، على أن تأتي بسرعة وأن تكون حاسمة. أيّ عقوبة؟ تذكّر أنّ روبرتو تحدّث ذات يوم عن بعض المعاهد التي يضع الآباء فيها أولادهم العصاة لمعاقبتهم، فتفاجأ أنّه يرغب بحرارة هذا النوع من العقاب. كان هذا نتيجة تعبه غير الواعي من الحياة العائليّة المضطربة وشحيحة العواطف، وهكذا فقد أخذ يحلم بما قد يعتبره الآباء عقاباً، ويدفعه

إلى التحايل على نفسه وعلى رغبته بتلك العقوبة من خلال حسابات تكاد أن تكون خبيثة بأنّه سيتمكّن بهذه الطريقة من تهدئة ضميره وتحسين وضعه في الوقت نفسه. وقد أوحت إليه هذه الأفكار ببعض الصور التي توقّع أنّها ستكون مخيفه له، لكنّها ظهرت مقبولة. فهناك بناء بارد ورماديّ على نوافذه قضبان من حديد، وغرف عارية يتجمّد فيها المرء، فيها صفّان من الأسرّة الموضوعة تحت جدران بيضاء مرتفعة، وقاعات باهتة مزدحمة بالمقاعد وفي آخرها منصّة الأستاذ، وممرّات عارية وسلالم مظلمة وأبواب ضخمة وبوّابات لا يمكن تسلّقها. أي إنّ كلّ شيء كالسجن، لكنّ كلّ شيء هناك أفضل من حرّيّة غير متماسكة، مؤلمة، ولا يمكن تحمّلها، كما هو الأمر في بيت أبيه. حتّى فكرة ارتداء الزيّ المخطّط وحلق الرأس، مثل طلّاب المعهد الذين كان يلتقي بأرتالهم أحياناً وهم يسيرون في الشوارع، حتّى هذه الفكرة المهينة والبغيضة تقريباً كانت تروق له في تطلّعه اليائس الحاليّ نحو أيّ نظام وأيّ حال اعتياديّة مهما كانت.

بين هذه التخيّلات لم يعد ينظر إلى أبيه، بل إلى غطاء الطاولة الذي يبهر الأبصار بضوئه الأبيض الذي يجلب بين الحين والآخر الحشرات الليليّة التي تأتي من النافذة المشرّعة لتصطدم بغطاء المصباح. ثمّ إنّه رفع عينيه فرأى في الوقت المناسب وخلف أبيه مباشرة على حافّة النافذة طرفاً من صورة هرّ. لكنّ الحيوان قفز إلى أسفل قبل أن يتمكّن هو من تمييز لونه، ثمّ عبر غرفة الطعام واختفى في ناحية المطبخ. ومع أنّه لم يتأكّد من شيء، فإنّ قلبه انتفخ بآمال مرحة على فكرة أنّ هذه القطّة قد تكون هي نفسها التي رآها قبل قليل ممدّدة بين أزهار السوسن في حديقة روبرتو. لقد سرّ بهذا الأمل، لأنّه علامة على أنّه يهتمّ رغم كلّ شيء بحياة حيوان أكثر من اهتمامه بمصيره. لذلك فقد صاح بصوت قويّ: «القطّة». ثمّ ألقى منشفة الطعام على الطاولة ومدّ ساقه خارج الكرسيّ وهو يقول: «لقد انتهيت يا أبي من الطعام، هل أستطيع أن أنهض؟».

«أمّا أنت فالزم مكانك» قال له أبوه بنبرة تهديد. خاف مارتشيلّو فخاطر وقال: «لكنّ القطّة حيّة...».

«قلت لك أن تلزم مكانك» كرّر الأب. ثمّ، وكما لو أنّ كلمات مارتشيلّو

حطّمت الصمت الطويل حتّى بالنسبة إليه، فإنّه التفت إلى زوجته قائلاً: «قولي شيئاً ما إذاً، تكلّمي».

فأجابت بكبرياء وصلف: «ليس عندي أيّ شيء أقوله»، كان جفناها منخفضين وفمها ينمّ عن الازدراء. كانت بملابس السهرة وثوب أسود مكشوف العنق، ولاحظ مارتشيلّو أنّها كانت تمسك بين أصابعها النحيفة بمنديل كانت ترفعه كثيراً إلى أنفها، بينما أمسكت باليد الأخرى بقطعة خبز ما لبثت أن أوقعتها على الطاولة، لكن ليس بأصابعها، بل بأطراف أظافرها، مثل العصافير.

«لكن، قولي ما تريدين أن تقوليه، تكلّمي... العمى...».

«ليس عندي أيّ شيء أقوله لك».

هنا بدأ مارتشيلّو يفهم تقريباً أنّ قتل القطّة لم يكن سبب استياء أبويه، عندها بدا أنّ الأمور أخذت تتدهور فجأة. فقد كرّر الأب قوله مرّة أخرى: «تكلّمي، بحقّ الله»، لكنّ الأمّ لم تجب إلّا برفع كتفيها. عندها تناول الأب الكأس ذات الكعب من أمام الصحن وصاح بقوّة: «هل تريدين أن تتكلّمي، نعم أو لا؟»، ثمّ ألقاها بعنف على الطاولة، فتحطّمت الكأس، فشتم الأب وهو يرفع يده الجريحة إلى فمه، فخافت الأمّ ونهضت عن الطاولة وتوجّهت بسرعة نحو الباب. أخذ الأب يمصّ الدم بنوع من الشهوة تقريباً، وهو يقوّس حاجبيه فوق يده، لكنّه عندما رأى أنّ زوجته ذهبت، انقطع عن المصّ وصرخ: «أمنعك من الذهاب... هل فهمت». فجاء الجواب بصفق الباب بعنف. فنهض الأب هو أيضاً واندفع نحو الباب. أثار عنف المنظر مارتشيلّو، فتبعه.

كان الأب قد أصبح بالفعل على الدرج، وضع يداً واحدة على الدرابزين، وأخذ يصعد بلياقة ومن غير عجلة على ما يبدو. لكنّ مارتشيلّو، الذي كان يتبعه، رأى أنّه يصعد كلّ درجتين سويّة، وكأنّه يريد أن يطير بصمت نحو فسحة الدرج. حتّى خيّل إليه أنّه يشبه غول القصص الخياليّة الذي ينتعل حذاء بسبع ربطات. ولم يكن يعتريه الشكّ للحظة واحدة في أنّ هذا الصعود المحسوب والمرعب قد يكون بسبب تسرع أمّه المضطرب التي كانت تهرب على درجات أعلى منه بقليل، لكنّها تصعد درجة بعد الأخرى لأنّ تنّورتها الضيّقة تعيق حركة ساقيها. فكّر مارتشيلو وهو يتبع أباه: «لا بدّ أنّه

سيقتلها الآن». ما إن وصلت الأمّ إلى فسحة الدرج، حتّى جرت لمسافة قصيرة باتّجاه غرفتها، لكن ليس بالسرعة الكافية لمنع زوجها من اللحاق بها والتسلّل خلفها من شقّ الباب. رأى مارتشيلّو هذا كلّه وهو يصعد على الدرج بساقيه القصيرتين اللتين لا تسمحان له بالصعود درجتين في المرّة الواحدة مثل أبيه ولا بالتواثب بسرعة مثل أمّه. عندما وصل إلى فسحة الدرج لاحظ أنّ صخب التلاحق قد حلّ محلّه صمت مفاجئ غريب. بقي باب غرفة الأمّ مفتوحاً فأطلّ مارتشيلّو على العتبة متردّداً.

رأى في البداية، في القسم الخلفيّ من الغرفة ذات الإضاءة الخافتة، وعلى جانبيّ السرير الواسع والمنخفض، ستارتين كبيرتين تعتّمان النوافذ، وقد رفعهما تيّار هواء داخل الغرفة نحو السقف، حتّى كادا يلامسان تقريباً الضوء المركزي. أعطت هاتين الستارتين الصامتتين إحساساً بالصحراء، بسبب اللون الأبيض الذي ينشرانه وسط الغرفة المظلمة، وكما لو أنّ والديْ مارتشيلّو قد هربا من النوافذ المشرّعة على مصراعيها خلال تلك الليلة من ليالي الصيف. ثمّ إنّه رأى أخيراً أبويه على ضوء الشريط المضيء القادم عبر الباب من الممرّ، إلى السرير. أو بالأحرى رأى أباه فقط، من ظهره، وكادت أمّه تختفي بالكامل تحته، عدا شعرها المتناثر على الوسادة، وذراعها المرفوعة نحو مسند السرير. كانت الذراع تحاول بشكل متشنّج التشبّث بيدها بالمسند، لكن دون جدوى. في غضون ذلك، قام الأب، وهو يسحق جسد زوجته تحت جسده، بحركات بكتفيه ويديه كما لو أنّه يريد خنقها. «إنّه يريد قتلها»، فكّر مارتشيلّو بقناعة وهو واقف على العتبة.

في تلك اللحظة شعر بإحساس غير عاديّ من الإثارة المشاكسة والقاسية وبرغبة قويّة في الوقت نفسه في التدخّل في القتال، لكنّه لم يكن يعرف هو أيضاً ما إذا كان عليه أن يعمل على مساعدة أبيه أو أن يدافع عن أمّه. في الوقت ذاته كاد يبتسم له الأمل في رؤية جريمته وقد مسحت بواسطة هذه الجريمة الأعظم. وفي الواقع فما هو قتل قطّ مقارنة بقتل امرأة؟ لكنّه في اللحظة التي تغلّب فيها على آخر تردّد، وتحرّك من العتبة، مسحوراً ومليئاً بالعنف، سمع صوت أمّه، ولم يكن مخنوقاً على الإطلاق، لا بل حلواً رخيماً، وهي تتمتم بهمس: «اتركني»، لكن وفي تناقض مع هذا التوسّل،

فإنّ ذراعها، التي كانت مرفوعة حتّى تلك اللحظة بحثاً عن طرف المسند، ما لبثت أن ارتخت وعانقت رقبة زوجها. دهش مارتشيلّو وشعر بخيبة أمل فتراجع وخرج إلى الممرّ.

نزل إلى الطابق الأرضي بكلّ بطء، وهو يحاول عدم إحداث أيّ ضجيج على الدرج، ثمّ توجه إلى المطبخ. فلقد عاد إليه الآن فضوله كي يعرف فيما إذا كانت القطّة التي وثبت من النافذة إلى غرفة الطعام، كانت هي التي كان يخشى أنّه قتلها. دفع باب المطبخ فرأى مشهداً منزلياً هادئاً، رأى الطبّاخة المسنّة والخادمة الشابّة جالستين إلى طاولة الرخام وهما تتناولان الطعام في المطبخ الأبيض، بين الموقد الكهربائيّ والثلّاجة. وكانت القطّة هناك على الأرض، تحت النافذة، وهي تلعق بلسانها الورديّ الحليب من الوعاء. لكنّه رأى في الحال ووسط خيبة أمله أنّها لم تكن القطّة تلك الرماديّة، بل قطّة مخطّطة ومختلفة كلّ الاختلاف.

لم يعرف كيف يبرّر وجوده في المطبخ، فذهب إلى القطّة ومدّ يده إلى أسفل وداعبها على ظهرها. فأخذت القطّة تخرخر، دون أن تتوقّف عن لعق الحليب. نهضت الطبّاخة وذهبت لتغلق الباب. ثمّ فتحت الثلّاجة، وتناولت منها صحناً فيه قطعة حلوى ووضعته على الطاولة، وقرّبت كرسيّاً وهي تقول لمارتشيلّو: «هل تقبل بحلوى من مساء البارحة؟ ... لقد وضعتها جانباً خصّيصاً لك». لم يقل مارتشيلّو كلمة، بل ترك القطّة وجلس وبدأ يأكل الحلوى. قالت الخدّامة: «لكنّي لا أستطيع فهم بعض الأمور... لديهما وقت طويل طيلة النهار، عندهما أمكنة كثيرة في البيت، لكنّهما يفضّلان التشاجر على طاولة الطعام، وبوجود الطفل». فأجابت الطبّاخة بحكمة: «عندما لا يرغب المرء في رعاية أطفاله، فمن الأفضل ألّا ينجب». ثمّ قالت الخادمة بعد صمت قصير: «بالنسبة إلى عمرها، يمكن أن يكون أباها... فمن الطبيعيّ ألّا يتّفقا...».

فقالت الطبّاخة وهي تنظر نظرة ثقيلة باتّجاه مارتشيلو: «لو اقتصر الأمر على هذا...».

ثمّ استأنفت الخادمة وقالت: «ثمّ إنّي أرى أنّ ذلك الرجل ليس طبيعيّاً...».

فتح مارتشيلّو أذنيه عند سماع هذا الكلام، بينما واصل أكل الحلوى.

فقالت الخادمة: «إنّها تفكّر هي أيضاً كما أفكّر، هل تعرفين ماذا قالت لي قبل أيّام بينما كنت أخلع لها ملابسها قبل النوم؟ جياكومينا، لابدّ أنّ زوجي سيقتلني في يوم أو في آخر... فأجبتها: لكن ماذا تنتظرين يا سيّدتي قبل أن تتركيه؟ فقالت...».

لكنّ الطبّاخة قاطعتها «صه...»، وهي تشير إلى الطفل. ففهمت الخادمة وسألت مارتشيلّو: «أين هما أبوك وأمّك؟».

أجاب مارتشيلّو: «فوق في الغرفة». ثمّ قال فجأة كما لو أنّه تحت تأثير هاجس لم يتمكّن من دفعه: «صحيح حقاً أنّ أبي ليس طبيعياً. هل تعرفان ما فعله؟» «لا، ماذا فعل؟».

قال مارتشيلّو: «لقد قتل قطّة».

«قطّة، وكيف؟».

«بنبلتي...لقد رأيته، كان يلحق قطّة رماديّة تمشي على سور الحديقة... ثمّ تناول حصاة وصوّب على القطّة فأصابها في عينها... فسقطت القطّة في حديقة روبرتو، وعندما ذهبت لأرى رأيت أنّها قد ماتت».

كانت حماسته تشتدّ وهو يتحدّث، لكن دون أن يتخلّى عن نبرة الشخص البريء الذي يروي بسذاجة صريحة قصص بعض الآثام التي شهدها. فقالت الخادمة وهي تشبك يديها: «لكن فكّر قليلاً... أوَ قطّة... أوَ رجل في هذا العمر، أوَ رجل محترم يأخذ نبلة ابنه ليقتل قطّة... وعلينا بعد ذلك ألّا نقول إنّه رجل غير طبيعيّ».

قالت الطبّاخة: «من هو سيئ مع الحيوانات لا بدّ أن يكون سيّئاً مع البشر. يبدأ بقطّة ثمّ يقتل إنساناً».

سأل فجأة مارتشيلّو وهو يرفع عينيه عن طبقه: «ولماذا؟».

فأجابت الطبّاخة وهي تداعب وجهه: «هكذا يقال»، ثمّ أضافت قائلة للخادمة: «رغم أنّ هذا غير صحيح على الدوام... فذلك الذي قتل كثيراً من الناس في مدينة بيستويا... على ما قرأته في الصحف... هل تعرفين ماذا يفعل الآن وهو في السجن؟ إنّه يربّي طائر كناري هناك».

انتهت قطعة الحلوى، فنهض مارتشيلّو وخرج من المطبخ.

-II-

عندما جاء الصيف وذهب مارتشيلّو إلى شاطئ البحر، تلاشى ببطء من قلبه الخوفُ من المصير الذي عبّرت عنه الطبّاخة بكلّ بساطة: «يبدأ بقطّة ثمّ يقتل إنساناً». كان لا يزال يفكّر في كثير من الأحيان في هذا النوع من الآليّة الغامضة والقاسية التي بدا أنّ حياته قد انغمست فيها لبضعة أيّام. لكنّ خوفه كان يتضاءل، وأصبح يراها كأنّها إشارة تحذيريّة وليس حكم إدانة بلا استئناف، كما كان يخشى لبعض الوقت. كانت الأيّام تمرّ سعيدة ومحرقة تحت أشعّة الشمس، مسكرة بملوحتها، ومتنوعة بتساليها واكتشافاتها. بدا لمارتشيلّو أنّه أخذ يحقّق يوماً بعد يوم ولا يعرف أيّ انتصار ليس على نفسه، لأنّه لم يشعر أبداً بذنب ارتكبه بصورة مباشرة وعن طواعية نفس، بمقدار ما هو انتصار على تلك القوّة المظلمة والضارّة والخبيثة والخارجيّة، والملونّة جميعها باللون البنيّ الذي يميّز المصائب والأمور المقدّرة التي قادته، رغماً عنه تقريباً، لينتقل من ضرب الزهور إلى مذبحة السحالي ومن هذه إلى محاولة قتل روبرتو. كان يشعر دائماً أنّ هذه القوة حاضرة، وأنّها تهدّده على الرغم من أنّها لم تعد قريبة منه. ولكن، وكما يحدث أحياناً في الكوابيس، عندما يخاف المرء من ظهور الوحش، فإنّه يتظاهر بالنوم ليبعده عنه، بينما الواقع أنّ الأمر لا يتعدّى كونه حلماً لا يظهر إلّا أثناء النوم. وهكذا فقد تهيّأ له أنّه نظراً لأنّه لم يستطع القضاء على تهديد تلك القوّة بشكل نهائيّ، فمن الأفضل له أن ينيّمها، إذا جاز التعبير، متظاهراً بنوع من النسيان الصافي والهادئ الذي لا يزال بعيداً عن الوصول إليه. كان ذلك صيفاً طلقاً متحرّراً، ومن أسعد فصول الصيف في حياته، وكان هو الصيف الأخير بالفعل الذي يعيشه طفلاً لا يشعر بأيّ اشمئزاز من طفولته ولا يرغب في الخروج منها.

يعود هذا جزئياً إلى الميل الطبيعي الذي يفرضه العمر، ولكنّه يعود أيضاً إلى إرادة الهروب بأيّ ثمن من الدائرة اللعينة المليئة بالتنبّؤات وحتميّات القدر. لم يكن مارتشيلّو يدرك ذلك، لكنّ الدافع الذي كان يحفّزه على إلقاء نفسه في مياه البحر عشر مرّات في صباح واحد، وعلى التنافس بطريقة مضطربة مع أعنف رفاق اللعب، والتجديف لساعات في البحر المشتعل بالحرارة، أي، وباختصار، على فعل كلّ ما يفعلونه على الشواطئ، وبحماسة بالغة، كان ولا يزال هو نفسه الدافع الذي حمله على أن يطلب تواطؤ روبرتو بعد ذبح السحالي، والعقاب من والديه بعد موت القط: أي رغبته في أن يكون اعتيادياً طبيعياً، رغبته في التكيّف مع قواعد عامّة معترف بها، رغبته في أن يكون متشابهاً مع جميع الآخرين إذا كان هذا التشابه يعني أن يكون مذنباً. لكنّ الطابع الطوعيّ والمصطنع لهذا السلوك كان يظهر بين الحين والآخر عند التذكّر المفاجئ والمؤلم للقطّة الميّتة الملقاة بين نباتات السوسن البيضاء والبنفسجيّة في حديقة روبرتو. كانت تفزعه تلك الذكرى كما تفزع المدين ذكرى توقيعه على الوثيقة التي تثبت دينه. كانت تلك الميتة تبدو له كمن التزم التزاماً غامضاً ورهيباً عليه أن يؤدّيه عاجلاً أو آجلاً، حتّى لو اختبأ تحت الأرض، أو عبر المحيطات سعياً وراء إخفاء آثاره. كان في هذه اللحظات يتعزّى بمرور شهر أو شهرين أو ثلاثة أشهر، وأنّ عاماً بأكمله سينقضي بعد قليل، بل عامين وثلاثة أعوام، وأنّ المهمّ، باختصار، هو عدم إيقاظ الوحش، وتمضية الوقت. على كلّ، فقد كانت نوبات اليأس والخوف هذه نادرة، بل إنّها توقّفت نهائيّاً مع نهاية الصيف. وهكذا فعندما عاد مارتشيلّو إلى روما، لم يبق من حادثة القطّة وما سبقها، سوى ذكرى شفّافة خفيفة. كأنّها تجربة عاشها، ربّما، ولكن في حياة أخرى ليس له في الواقع علاقة بها سوى ذكرى غير مسؤولة وبدون عواقب.

بمجرّد العودة إلى المدينة، ساعدته أيضاً الإثارة التي ترافق دخول المدرسة على النسيان. كان مارتشيلّو يدرس قبل هذا في المنزل، وكانت تلك سنته الأولى في المدرسة العامّة. وهكذا فقد جاء جديداً عليه وجود رفاق مدرسة، وأساتذة، وقاعات دراسيّة، ومواعيد محدّدة، وقد أشرقت في هذه الجِدّة، على الرغم من تنوّع جوانبها، فكرة النظام والانضباط والالتزام

المنترك، وهذا ما أسعد مارتشيلّو أشدّ السعادة بعد حياة الاضطراب وانعدام القواعد والعزلة في منزله. كان هذا يشبه نوعاً ما المعهد الذي حلم به ذلك اليوم وهو على طاولة الطعام، لكن من غير قيود ولا عبوديّة، أي بجوانبه الممتعة فقط، وبدون الجوانب غير السارّة التي تجعله يبدو كالسجن. وهكذا فسرعان ما أدرك مارتشيلّو أنّ حبّاً عميقاً قد ربطه بالحياة المدرسيّة. فكان يروق له أن ينهض في الصباح على وقت الساعة، وأن يغتسل ويرتدي ملابسه بسرعة، وأن يجمع كتبه ودفاتره بإحكام ودقّة ضمن مجلد يربطه بالمطّاطة، قبل أن يسرع نحو المدرسة. كان يعجبه أيضاً أن يهجم مع رفاقه إلى داخل المدرسة، وأن يصعد على الأدراج الوسخة، وأن يجري عبر الممرّات البائسة الصاخبة، قبل أن يخفّف جريه داخل قاعة الدرس وبين المقاعد المصفوفة أمام المنصّة الفارغة. وكان أكثر ما يعجبه طقس الدروس، من دخول الأستاذ، فالتفقّد، فالأسئلة، فتنافس الزملاء على الإجابة على الأسئلة، ونبرة الأستاذ الهادئة والموضوعيّة، وتنظيم القاعة الفسيح في حدّ ذاته بين صفوف تلاميذ تجمعهم الحاجة نفسها إلى العلم وأستاذ يعلّمهم. لكنّ مارتشيلّو كان مع ذلك تلميذاً متوسّط المستوى، بل كان الأخير في بعض الموادّ. لأنّ ما كان يحبّه في المدرسة لم يكن الدراسة بقدر ما كان أسلوب الحياة الجديد الذي فيها، والذي يتوافق مع ذوقه أكثر من ذلك الذي اتّبعه حتّى الآن. ذلك أنّ الحياة العاديّة الطبيعيّة هي التي كانت تستهويه، وكلّما أثبتت له أنّها ليست عابرة ولا مرتبطة بما تفضّله النفس، ولا بميول النفس الطبيعيّة، بل هي بالأحرى راسخة، وغير متحيّزة، ولا تبالي بالأذواق الفرديّة، تحدّدها وتدعمها قواعد لا جدال فيها وترنو جميعها نحو هدف واحد.

لكنّ قلّة خبرته وصراحته كانت تظهره أخرق ومتردّداً أمام القواعد الأخرى، غير المعلنة والموجودة رغم ذلك، والتي تتعلّق بعلاقات الأولاد مع بعضهم البعض، خارج نظام المدرسة. كان هذا أيضاً جانباً من جوانب الوضع الاعتياديّ الجديد، ولكن كان من الصعب عليه إتقانه. وقد شعر بهذا لأوّل مرّة عندما استدعي إلى المنصّة ليعرض وظيفته التحريريّة. فقد أخذ الأستاذ دفتره من يده ووضعه على مكتبه وهمّ بقراءة ما كتبه، وبما أنّ

مارتشيلّو كان معتاداً على العلاقة العاطفيّة والأليفة مع المعلّمات اللائي كنّ يعلّمنه في المنزل حتّى ذلك الحين، فإنّه بدلاً من الوقوف على طرف المنصّة بانتظار النتيجة، فقد وضع ذراعه بصورة طبيعيّة جدّاً حول كتفيّ المعلم وحنى وجهه إلى جانب وجهه ليتابع معه قراءة الموضوع. اكتفى الأستاذ بنزع يد مارتشيلّو عن كتفه، من غير أن يبدي أيّ دهشة، لكنّ جميع التلاميذ انفجروا في ضحك صاخب بدا لمارتشيلّو أنّ فيه معارضة تختلف عن معارضة الأستاذ، أي أقلّ تسامحاً وتفهّماً. ولم يتمكّن هو إلّا أن يفكّر بهذا الفعل الساذج، بعد أن تمكّن من التخلّص من آثار خجله، فهو قد خالف قاعدتين مختلفتين في الوقت نفسه، قاعدة الانضباط في المدرسة واحترام المعلّم، وقاعدة الفتية التي تريده ماكراً يخفي عواطفه. والغريب أكثر من ذلك أنّ تين القاعدتين لا يتناقضان، بل يتكاملان بطريقة غريبة.

لكنّه فهم في الحال أنّه إذا كان من السهل عليه أن يصبح تلميذاً فعّالاً، فمن الصعب جدّاً أن يصبح زميلاً داهية غير عابئ. وممّا كان يعيق هذا التحوّل الثاني قلّة خبرته وعاداته العائليّة، بل وحتّى مظهره الجسديّ. فقد ورث مارتشيلّو عن أمّه كمالاً في الملامح يكاد يسحر في انتظامه وحلاوته. كان وجهه مستديراً، وخدّاه بنّيّين ورقيقتين، وأنفه صغيراً، وفمه متعرّجاً ينمّ عن مزاج متقلّب ومتجهّم، وذقنه بارزة، وهناك تحت غرّة شعره الكستنائيّ اللون التي تكاد تغطّي كامل جبهته، عينان بلون بين الرماديّ والأزرق، وتنمّان عن تعبير كئيب إلى حدّ ما رغم أنّه حلو بريء. كان وجه طفل تقريباً. لكنّ الأولاد ذوي الطباع الخشنة، لم يلاحظوا ربّما ما إذا كانت حلاوة الوجه وجماله مؤكّدة ببعض الصفات التي قد تكون حتّى أنثويّة، ممّا يحمل على الشكّ فيما إذا كان مارتشيلّو ليس في الحقيقة فتاة بزيّ صبيّ: فمن سهولة احمرار الوجه حياء، إلى ميل قويّ وعنيد في التعبير عن رقّة النفس بحركات حلوة رقيقة، إلى الرغبة في إثارة الإعجاب التي تكاد تنقلب إلى خنوع وغنج. كانت هذه سمات مؤصّلة في مارتشيلّو رغم أنّه لا يدركها. وكان الأوان قد فات عندما عرف أنّها تجعله مثيراً للسخرية في عيون الأولاد: فحتّى لو كان بوسعه أن يسيطر عليهم، إن لم نقل قمعهم، فإنّ سمعته بأنّه أنثى ترتدي البنطلون كانت قد ترسّخت.

كانوا يسخرون منه بطريقة عفويّة تقريباً، كما لو أنّ شخصيّته الأنثويّة أصبحت الآن خارج أيّ نقاش. بل إنّهم كانوا يسألونه بجدّية زائفة، مرّة، لماذا لم يجلس في مقاعد البنات وما هي الفكرة التي عادته حتّى غيّر تنّورته إلى سروال، ومرّة أخرى كيف يقضي الوقت في البيت وهل يطرّز أم يلاعب الدمى، ومرّة ثالثة لماذا لم يثقب أذنيه ليضع فيهما قرطين. وذات مرّة وضعوا له تحت المقعد قطعة قماش بها إبرة وكرّة من الخيوط، إشارة واضحة إلى نوع العمل الذي كان ينبغي أن يفعله. ووضعوا له في مرّة أخرى علبة بودرة للوجه. بل وضعوا ذات صباح، حتّى حمّالة صدر ورديّة سرقها أحد الأولاد من أخته الكبرى. ومنذ البداية حوّلوا اسمه وصغّروه بصيغة الأنثى وأخذوا ينادونه باسم مارشيلّينا. كان يشعر إزاء هذه السخرية بمشاعر هي مزيج بين الخوف وبين ما لا يعرف من السرور، كما لو أنّ قسماً منه لم يكن يستاء كلّ الاستياء منهم. ومع ذلك فهو لم يكن يعرف فيما إذا كان ذلك السرور بسبب نوع السخرية أو لأنّ زملاءه كانوا يهتمّون به وهم يسخرون منه. لكنّه ذات صباح، وبينما كانوا يهمسون من خلف كتفيه: «مارشيلّينا... مارشيلّينا... هل صحيح أنّ لباسك الداخليّ نسائيّ؟»، وبعد أن نهض ورفع ذراعه ليطلب الكلام، اشتكى بصوت مرتفع ووسط صمت الصفّ المفاجئ من أنّهم ينادونه بكنية النساء. وكان الأستاذ رجلاً ضخماً ملتحياً، فاستمع إليه وهو يبتسم بين شعر لحيته الرماديّة، ثمّ قال له: «هل ينادونك بلقب أنثويّ... ما هو؟»، فقال مارتشيلّو: «مارشيلّينا».

«وهل هذا يزعجك؟».

«أجل، لأنّني رجل».

قال له الأستاذ: «تعال إلى هنا». فأطاع مارتشيلّو وذهب ليقف أمام المنصّة. فتابع الأستاذ بسرور: «اعرض عضلاتك أمام الصفّ».

أطاع مارتشيلّو وثنى ذراعه ونفخ عضلاته. فبرز الأستاذ من وراء المنصّة ولمس ذراعه، وهزّ رأسه علامة على موافقته الساخرة ثمّ التفت نحو التلاميذ: «كما ترون فإنّ كليريشي فتى قويّ... وهو على استعداد كي يبرهن على أنّه رجل وليس امرأة... فمن يريد أن يتحدّاه؟»

تبع هذا صمت طويل. فأدار الأستاذ نظراته على الصفّ وختم بالقول: «لا أحد... هذا يدلّ على أنّكم تخافون منه... وعليكم إذاً أن تكفّوا عن مناداته باسم مارشيلّينا». فانفجر التلاميذ في الضحك. واحمرّ وجه مارتشيلّو ثمّ عاد إلى مقعده. لكن منذ ذلك اليوم، وبدلاً من توقّفهم، ازدادوا سخرية منه وضاعفوا سخريتهم، خاصّة وأنّ مارتشيلّو، كما أخبروه، قد وشى بهم فخالف بهذا قانون التآزر الصامت الذي يربط الفتية ببعضهم بعضاً.

كان مارتشيلّو يدرك أنّ إسكات هذه السخريات، يتطلّب منه أن يظهر أمام زملائه أنّه ليس مخنّثاً كما يبدو لهم، لكنّه خمّن أنّه لا يكفي في برهان كهذا أن يعرض عضلاته كما طلب منه الأستاذ ذلك. بل لا بدّ من شيء مختلف غير عاديّ، قادر على التأثير في المخيّلة وفي إثارة الإعجاب. أيّ شيء؟ لم يعرف أن يقرّر بدقّة، لكن يجب أن يكون، بمعنى عام، فعلاً أو شيئاً يوحيان بأفكار القوّة والرجولة إن لم يكن بالوحشيّة. وكان قد لاحظ أنّ رفاقه معجبون جدّاً بشخص اسمه آفانزيني، لأنّه يملك قفّازيّ بوكس من الجلد. وكان آفانزيني، وهو فتى نحيف أشقر، أصغر منه لكنّه أقوى، لا يعرف حتّى كيف يستخدم قفّازيه، مع أنّهما ضمنا له احتراماً خاصّاً. وكان هناك احترام مماثل مخصّص لشخص آخر اسمه بولييزه، لأنّه يعرف، أو يتظاهر بالأحرى بمعرفة ضربة مصارعة يابانية لا تخطئ أبداً، في رأيه، وقادرة على طرح الخصم على الأرض. والحقيقة أنّ بولييزه لم يعرف أبداً كيف يطبّقها. ولم يمنع هذا الفتية عن تخصيصه باحترامهم كما يحترمون آفانزيني. أدرك مارتشيلّو أنّ عليه التباهي بحيازة شيء مثل القفّازات، أو ابتكار براعة مثل المصارعة اليابانيّة، لكنّه كان يعرف أيضاً أنّه ليس بخفّة ولا هواية زملائه، لأنّه ينتمي، سواء أعجبه ذلك أم لم يعجبه، إلى فئة من الناس الذين يأخذون الحياة والتزاماتها على محمل الجدّ. وأنّه لو كان في مكان آفانزيني لكان قد حطّم أنوف خصومه، ولو كان في مكان بولييزي لخلع أعناقهم. وهكذا فإنّ عدم تمكّنه من بلاغة الخطاب وسطحيّة المواقف قد أوحى إليه بنوع من الريبة من نفسه، لأنّه بينما كان يرغب في تقديم برهان لزملائه على قوّته لأنّهم يطلبون ذلك مقابل تقديم احترامهم له، فإنّه كان يخاف في الوقت نفسه من ذلك لسبب غامض لا يعرفه.

لاحظ في يوم من تلك الأيام أنّ بعض الأولاد، ممّن كانوا عادة بين أكثر الشغوفين بالسخرية منه، كانوا يتحاورون فيما بينهم، وبدا له أنّه فهم من مظهرهم أنّهم كانوا يخطّطون لمزحة جديدة ضدّه. لكنّ ساعة الدرس مرّت دون وقوع حوادث، رغم أنّ نظراتهم وهمساتهم كانت تؤكّد شكوكه. وعندما جاءت إشارة الخروج توجّه مارتشيلّو نحو المنزل دون أن ينظر حوله. كانت تلك هي الأيّام الأولى من شهر تشرين الثاني، وكان الهواء عاصفاً لكنّه معتدل، وبدا أنّ الحرارة وروائح أواخر الصيف البائد تختلط مع البدايات المتردّدة للشدّة الخريفية. شعر مارتشيلّو بسعادة غامرة بسبب هذا الجوّ من الإخلاء والمذبحة الطبيعيّة التي شعر أنّها تحتوي على مشيئة دمار وموت شبيهة جدّاً بتلك التي حملته قبل أشهر على تدمير الزهور وقتل السحالي. كان الصيف فصلاً جامداً كاملاً وتامّاً ومليئاً، سماؤه صافية، والأشجار محمّلة بالأوراق وبأغصان ترتع الطيور عليها. لكنّه يرى الآن بنوع من السرور أنّ رياح الخريف تمزّق الآن وتدمّر ذلك الكمال وذلك الامتلاء وذلك الثبات والجمود، وأنّها تدفع بغيوم قاتمة إلى أنحاء السماء، وتمزّق الأوراق على الشجر لتدحرجها على الأرض، وتطرد الطيور، التي يمكن في الواقع أن ترى الآن بين الأوراق وبين الغيوم وهي تهاجر زرافات سوداء منظّمة. لاحظ عند أحد المنعطفات أنّ مجموعة من خمسة زملاء تتبعه. ولم يشكّ في أنّهم يتبعونه، لأنّ اثنين منهم يسكنان في الاتّجاه المعاكس. لكنّه كان منغمساً في أحاسيسه الخريفيّة، فلم يعرهم انتباهاً. أصبح الآن في عجلة من أمره كي يصل إلى الشارع العريض المزروع بالأشجار الضخمة، والذي يؤدّي عبر طريق جانبيّة إلى منزله. كان يعرف أنّ الأوراق الميّتة تتكدّس عادة على أرصفة هذه الطريق بالآلاف، صفراء وخشخاشة. فأراد أن يتمتّع بلذّة جرجرة قدميه في تلك الأكوام، وإثارة حفيفها. جرّب في هذه الأثناء، وعلى سبيل المتعة تقريباً، أن يضيّع المسار على ملاحقيه، فكان يدخل أحياناً إلى بعض البوّابات، أو يختلط أحياناً أخرى بالناس. لكنّه سرعان ما أدرك أنّ الخمسة كانوا يجدونه دائماً ولو بعد شيء من التأخّر. اقترب الآن من الطريق، إلّا أنّ مارتشيلّو شعر بالخجل من الظهور وهو يستمتع باللعب بالأوراق الميّتة. لذلك فقد قرّر مجابهتهم فاستدار فجأة وسأل: «لماذا تتبعوني؟»

فأجاب على الفور أحد الخمسة، الأشقر بينهم وحادّ قسمات الوجه وذي الرأس الحليق: «إنّنا لا نتبعك، الطريق ملك للجميع، أليس كذلك؟» لم يقل مارتشيلّو شيئاً واستأنف طريقه.

هذا هو الشارع، بين صفّين من الأشجار العملاقة والعارية، والبيوت المليئة بالنوافذ المصطفّة خلف الأشجار الضخمة، ها هي الأوراق الميّتة، صفراء مثل الذهب، متناثرة على الإسفلت الأسود ومكدّسة في الحفر الصغيرة. لقد غاب الخمسة الآن عن الأنظار، ربّما تخلّوا عن ملاحقته، فبقي وحيداً في الشارع الواسع وأرصفته الخالية. تسلّل من غير عجلة بين الأوراق المتناثرة على بلاط الرصيف وأخذ يمشي ببطء متلذّذاً بإغراق قدميه حتّى الركبتين في تلك الكتلة المتحرّكة والخفيفة من الأوراق الخشخاشة. لكنّه عندما انحنى ليلتقط كمشة من الأوراق بنيّة بعثرتها في الهواء، سمع من جديد تلك الأصوات الساخرة: «مارشيلّينا... مارشيلّينا... كلْسونك أرينا». عندها شعر فجأة برغبة في القتال، ممتعة تقريباً، أشعلت وجهه بإثارة المشاكسة. نهض وذهب بتصميم نحو مطارديه وقال: «هل تريدون الانصراف، نعم، أم لا؟». لكن بدلاً من الإجابة هجم الخمسة عليه. فكّر مارتشيلّو أن يفعل كما يفعل هوراتي وكورياتي[1] بحسب ما تذكره قصص كتب التاريخ. أي أن يستلمهم واحداً إثر الآخر وهو يجري من هنا إلى هناك ليضرب كلّاً منهم ضربة قاصمة، وبشكل يقتنعون فيه بترك ما هم مقدمون عليه. لكنّه سرعان ما لاحظ أنّ خطّته مستحيلة. ذلك أنّ الخمسة كانوا قد تهيّؤوا وتحلّقوا جميعهم حوله واستلم كلّ منهم إمّا ذراعه، أو قدميه، أو وسط جسمه. ثمّ لاحظ أنّ الخامس قد فتح بسرعة طرداً وأخذ يقترب منه باحتراس وهو يحمل بين يديه تنّورة طفلة صغيرة من القطن الأزرق. ضحك الجميع وهم يمسكون به بثبات، ثمّ قال حامل التنّورة: «هيّا يا مارشيلّينا، دعينا نضع عليك التنّورة، ثمّ نتركك لتذهبي إلى أمّك». كانت تلك بالذات هي المزحة التي كان مارتشيلّو قد تنبّأ بها والتي يوحيها كالعادة مظهره غير الرجوليّ بما فيه الكفاية. احمر وجهه وثار غضبه وأخذ يصارع بعنف شديد، لكنّ الخمسة كانوا أقوى منه،

1- تذكر الأساطير الرومانية القديمة أنّ الهوراتي هم ثلاثة توائم محاربين. تظهر الروايات صراعهم الملحمي مع الكورياتي. (م) عن ويكيبيديا.

وعلى الرغم من أنّه تمكّن من خدش وجه أحدهم ولكم آخر في بطنه، إلّا أنّه شعر أنّ حركاته كانت تضعف بصورة تدريجيّة. في النهاية، وبينما كان يتباكى قائلاً: «اتركوني... أغبياء... اتركوني»، سمع صرخة الانتصار تخرج من أفواه ملاحقيه: وكانت التنّورة قد تدلّت على رأسه وضاع احتجاجه داخل ذلك النوع من الكيس. صارع من جديد، ولكن دون جدوى. فقد تمكّن الفتية من إنزال التنّورة إلى مستوى خصره، ثمّ شعر أنّهم يربطونها بعقدة على ظهره. ثمّ وبينما كانوا يصرخون «هيّا، اربط، اربطها بصورة أقوى»، سمع صوتاً هادئاً يسأل بنبرة فيها فضول أكثر من التأنيب: «لكن هل يمكن لي أن أعرف ماذا تفعلون؟».

تركه خمستهم وفرّوا هاربين. فوجد نفسه وحده، أشعث الشعر وهو يلهث، والتنّورة مربوطة إلى خصره. رفع نظره فرأى الرجل الذي كان يتكلّم منتصباً أمامه. كان يرتدي بزّة بلون رماديّ داكن، والياقة مشدودة أسفل حلقه، وكان شاحب الوجه هزيل الجسم، عيناه غارقتان في محجريهما وأنفه حزين كبير وفمه يعبّر عن الازدراء وشعره مسرّح كالفرشاة، وكان أوّل انطباع عنه هو أنّه رجل مفرط في تقشّفه. لكنّ مارتشيلّو لاحظ عندما نظر إليه ثانية أنّ ملامحه لا تدلّ البتّة على أيّ صرامة، بل إنّه رأى عكس ذلك: أي نظرته القلقة المشتعلة في عينيه، ثمّ بعض النعومة والرخاوة في فمه، وشيئاً من التردّد وقلّة الثقة يعمّان موقفه. انحنى الرجل ولمّ الكتب التي وقعت من مارتشيلّو على الأرض أثناء العراك، ثمّ قال له وهو يعيدها إليه: «لكن ماذا كانوا يريدون أن يفعلوا لك؟».

كان صوته حازماً، مثل وجهه، لكن لم يكن يخلو من حلاوة مخنوقة. فأجاب مارتشيلّو بغضب: «إنّهم يمزحون معي دائماً... إنّهم أغبياء حقّاً»، هذا بينما أخذ يحاول فكّ التنّورة عن ظهره. قال له الرجل: «انتظر» ثمّ انحنى وفكّ العقدة. سقطت التنّورة على الأرض وانملص مارتشيلّو منها وداس عليها ثمّ رماها بركلة من قدمه بين الأوراق الميّتة. سأله الرجل بنوع من الخجل: «ألم تكن ربّما في طريقك إلى بيتك؟». أجاب مارتشيلّو وهو يرفع بصره نحوه: «بلى».

قال الرجل: «حسناً، سآخذك إلى هناك، في السيّارة»، وأشار على مسافة

ليست بعيدة إلى سيّارة متوقّفة قرب الرصيف. نظر إليها مارتشيلّو: كانت سيّارة من نوع لا يعرفه، ربّما أجنبيّة، سوداء طويلة، من الطراز القديم. وللغرابة، فقد خطر على باله أنّ تلك السيّارة، المتوقّفة على مرمى حجر منهما، تدلّ على تحضير مسبق لبعض لقاءات الرجل العرضيّة. وعندما تردّد قبل أن يجيب، أصرّ الرجل قائلاً: «تعال، تعال هيّا... قبل أن آخذك إلى المنزل، سنقوم بنزهة جميلة، هل يروق لك ذلك؟».

كان بودّ مارتشيلّو أن يرفض، أو أنّه شعر بالأحرى أنّ عليه أن يرفض. لكن لم يكن لديه الوقت الكافي: فالرجل كان قد أخذ منه حزمة الكتب وهو يقول: «سأحملها أنا عنك» ذلك وهو يتوجّه نحو السيّارة.

تبعه وهو مندهش من انصياعه، لكنّه لم يكن مستاءً. فتح الرجل الباب وأجلس مارتشيلّو على المقعد المجاور لمقعده، ورمى الكتب على المقعد الخلفيّ. ثمّ جلس وراء المقود، أغلق الباب، ارتدى القفّازات وشغّل السيّارة.

أخذت السيّارة تسير بغير سرعة، بشكل مهيب، محدثة أزيزاً خافتاً، على طول الشارع الطويل بجانبيه المزيّنين بالأشجار. فكّر مارتشيلّو أنّها بالفعل سيّارة من طراز قديم، لكنّها محفوظة بفعّاليّة تامّة، وملمّعة بمحبّة فكانت تلمع بكلّ ما فيها من نحاس ونيكل. ومع أنّ يد الرجل كانت تحرّك المقود، إلّا أنّه تناول باليد الأخرى طاقيّة برفراف وثبّتها على رأسه. أكّدت الطاقيّة صرامة هيئته، وأضافت إليها نفَساً يكاد يكون عسكريّاً. سأل مارتشيلّو بنوع من الحرج: «هل هذه السيّارة لكم؟»[1]، «خاطبني بصيغة الودّ» قال له الرجل من غير أن يلتفت، وهو ينتقل بيده اليمنى ليضغط على مضخّة بوق ذي صوت منخفض ومن الطراز القديم هو أيضاً: «لا، ليست سيّارتي، بل سيّارة من يدفع راتبي... أنا السائق». لم ينبس مارتشيلّو ببنت شفة، فأضاف الرجل وهو على جلسته الجانبيّة يقود السيّارة بدقّة وأناقة: «هل تستاء لأنّي لست صاحب السيّارة»، فأجاب مارتشيلّو بحيويّة: «لا، ولماذا؟». فابتسم الرجل ابتسامة سرور خفيفة

1- الخطاب الرسميّ وخطاب الاحترام يأتي في الإيطاليّة بصيغة الجمع، على عكس الخطاب الودّي وغير الرسميّ فهو بصيغة المفرد (م).

وزاد من السرعة، وقال: «فلنذهب الآن قليلاً على الهضبة... نحو مونتي ماريو... هل يروق لك؟».

فأجاب مارتشيلّو: «لم يسبق لي أن ذهبت إلى هناك».

قال الرجل: «إنّه مكان جميل، تكشف منه المدينة بكاملها...» صمت بعدها للحظة ثمّ أضاف بنبرة حلوة: «ما هو اسمك؟»، «مارتشيلّو».

فقال الرجل كما لو أنّه يكلّم نفسه: «بالفعل، صحيح، كانوا ينادونك مارشيلّينا، زملاؤك أولئك... أنا اسمي باسكواله».

لم يملك مارتشيلّو الوقت الكافي ليفكّر أنّ اسم باسكواله هو اسم مضحك، لأنّ الرجل قال مباشرة، وكأنّما خمّن أفكاره: «لكنّ هذا اسم مضحك... فسمّني أنت لينو».

بدأت السيّارة تعبر طرقات منطقة شعبيّة واسعة ووسخة، وتسير بين بيوت بائسة. كان هناك مجموعات من الصغار يلعبون وسط طريق الإسفلت، بينما تنحّت بخوف، نسوة بشعرهنّ الأشعث، ورجال مهلهلو الثياب كانوا يراقبون من على الأرصفة هذا المرور غير المعتاد. خفض مارتشيلّو بصره خجلاً من هذا الفضول. قال الرجل: «هذا هو حيّ تريونفاله، لكن ذاك هو حيّ مونتي ماريو». خرجت السيّارة من الحيّ الفقير، وسلكت طريقاً حلزونيّاً عريضاً، خلف حافلة الترام، وبين صفّين من المنازل على الطريق الصاعدة. «في أيّ وقت يجب أن تكون في المنزل؟».

قال مارتشيلّو: «ما زال أمامنا متّسع من الوقت، فنحن لا نأكل أبداً قبل الساعة الثانية».

«ومن ينتظرك في البيت، هل أبوك وأمّك؟».

«هل لديك إخوة؟».

«لا».

«وماذا يعمل أبوك؟».

فأجاب مارتشيلّو بشيء من التردّد: «لا يعمل شيئاً».

عند المنعطف تجاوزت السيّارة حافلة الترام، فحاول الرجل أن يدور بأضيق ما يكون، وهكذا فقد ضغط بذراعه على المقود، لكن من غير أن

يحرّك جذعه، وبسرعة كلّها أناقة. ثمّ تابعت السيّارة صعودها بين جدران معشوشبة مرتفعة وبوّابات فلل وحواجز من عصيّ البلسان. وكانت ترى من حين لآخر مداخل مزيّنة بمصابيح بطراز مدينة البندقيّة أو قوس عليه لافتة بلون دم الثور تدلّ على وجود بعض المطاعم أو الحانات ذات الطابع الريفيّ. فسأل لينو بغتة: «هل يقدّم لك أبوك أو أمّك بعض الهدايا؟».

فأجاب مارتشيلّو بكلام عامّ: «أجل، أحياناً».

«كثيرة أم قليلة؟».

لم يشأ مارتشيلّو الاعتراف بأنّ الهدايا قليلة، وأنّ الأعياد كانت تمرّ أحياناً بدون هدايا. فاكتفى بالقول: «هكذا وهكذا».

فسأله لينو وهو يفتح باب درج في مقدّمة السيّارة ويسحب منه خرقة صفراء أخذ ينظّف بها الزجاج: «وهل تحبّ تلقّي الهدايا؟».

نظر إليه مارتشيلّو. كان الرجل دائماً في وضعه الجانبيّ، منتصب الجذع، ورفراف قبّعته فوق عينيه. فقال كيفما اتّفق:

«أجل، أحبّ ذلك».

«وما هي الهدية التي ترغب في الحصول عليها، على سبيل المثال؟».

كانت العبارة هذه المرّة صريحة ولم يتمكّن مارتشيلّو إلّا أن يفكّر أنّ لينو هذا الرجل الغامض، يريد لأسبابه الخاصّة أن يقدّم له هديّة ما. فتذكّر هنا فجأة الجاذبيّة التي كانت تمارسها الأسلحة على ذهنه. كما أنّه فكّر في الوقت نفسه وهو يشعر كأنّه اكتشف اكتشافاً جديداً أنّ حيازة سلاح حقيقيّ سيضمن له اعتبار رفاقه واحترامهم. لذلك فقد خاطر وهو متشكّك لأنّه يدرك أنّ طلبه كبير: «مسدّس، مثلاً...».

فأجاب الرجل من غير أن يبدي أي دهشة: «مسدّس؟ وما نوع هذا المسدّس؟ مسدّس بالخراطيش أو مسدّس بالهواء المضغوط؟».

قال مارتشيلّو بجرأة: «لا، مسدّس حقيقيّ». «وماذا ستفعل بمسدس حقيقي؟»

فضّل مارتشيلّو عدم الإفصاح عن السبب الحقيقيّ. فأجاب: «سأصوّب على أهداف وهميّة، حتّى أرى أنّ رمايتي أصبحت صائبة».

«لكن لماذا تهتم كثيراً بالرماية الصائبة؟»، ففكّر مارتشيلّو أنّ الرجل يطرح الأسئلة من أجل المتعة أكثر ممّا هو على سبيل الفضول الفعليّ. ومع ذلك فقد ردّ بجدّيّة: «بوسعك عندما تكون رميتك صائبة أن تدافع عن نفسك ضدّ أيّ شخص».

بقي الرجل صامتاً للحظة. ثمّ تابع:

«ضع يدك في ذلك الجيب، هناك، في الباب الذي أمامك».

شعر مارتشيلّو بالفضول، أطاع، فشعر تحت أصابعه ببرودة شيء معدنيّ. فقال له الرجل: «اسحبه الآن».

انزلقت السيارة بسرعة لتتجنّب كلباً كان يعبر الطريق. أخرج مارتشيلّو الجسم المعدنيّ: كان مسدّساً آليّاً بالفعل، أسود ومسطّحاً، مثقلاً بالدمار والموت، بارزاً إلى الأمام بقصبته كأنّما ليبصق الرصاص. شدّ، عن غير قصد منه تقريباً، بأصابع مرتجفة، لكن بارتياح، وقبض على مؤخرة المسدّس. فسأله لينو: «أوَ مسدسٌ مثل هذا؟».

قال مارتشيلّو: «أجل».

قال لينو: «حسناً ، إذا كنت تريده حقّاً، فسأعطيك إيّاه... لكن ليس هذا بالذات لأنّه خاصّ بهذه السيّارة... لكن واحداً آخر مثله تماماً».

لم يقل مارتشيلّو شيئاً. شعر كما لو أنّه دخل في جوّ خيالي سحريّ، في عالم مختلف عن العالم المعتاد، حيث يدعون سائقين مجهولين لركوب السيّارة ويعطونهم مسدّسات. بدا له أنّ كلّ شيء أصبح سهلاً للغاية، لكنّه، في الوقت نفسه، لم يكن يعرف حتّى هو لماذا بدا له أنّ هذه السهولة الشهيّة حقّاً، ستتكشّف لاحقاً عن طعم غير سائغ، كما لو لأنّ هناك صعوبة مرتبطة بها، صعوبة لا تزال غير معروفة ولكنها وشيكة وسرعان ما يتمّ الكشف عنها. فكّر بنوع من البرودة، وقال في نفسه إنّ هناك الآن اثنين في السيّارة يرمون إلى الحصول على غرض ما: أي امتلاك المسدّس بالنسبة إليه، وامتلاك لينو، مقابل المسدّس، لشيء لا يزال غامضاً وربّما سيتّضح أنّه غير مقبول. السؤال الآن هو أيّهما سيحقّق أكبر ميزة من هذه المقايضة. سأل:

«لكن إلى أين نحن ذاهبون؟».

فأجاب لينو: «سنذهب إلى البيت الذي أعيش فيه... لنبحث عن المسدّس».

«وأين هو البيت؟».

أجاب الرجل: «ها نحن ذا قد وصلنا»، ثمّ انتزع المسدّس من يده ووضعه في جيبه.

عندما نظر مارتشيلّو رأى أنّ السيّارة قد توقّفت على طريق بدا أنّها طريق ريفيّة معتادة، مع أشجار وشجيرات وراءها الحقول والسماء. لكنّه رأى أسفل ذلك بقليل بوّابة وقوساً وعمودين وباباً مدهوناً بالأخضر. قال له لينو: «انتظر هنا»، ثمّ نزل وتوجّه نحو البوّابة. نظر إليه مارتشيلّو وهو يفتح مصراعي الباب قبل أن يعود إلى الخلف. لم يكن طويل القامة، مع أنّه كان يبدو كذلك وهو جالس. كانت ساقاه قصيرتين مقارنة بجذعه ووركيه العريضتين. عاد لينو وصعد إلى السيّارة وقادها عبر البوّابة. ظهر درب مفروش بالحصى بين صفّين من أشجار السرو الصغيرة المتوفة، كانت الرياح تهزّها بنكد. برق في آخر الدرب شعاع شمس خافت، وميض شيء صارخ على خلفيّة السماء العاصفة: كان يصدر عن زجاج شرفة على بناء من طابقين فقط. قال لينو: «هذه هي الفيلّا، لكن ليس فيها أحد».

سأله مارتشيلّو: «من هو صاحبها؟».

فصحّح له لينو: «تعني صاحبتها. سيّدة أميركيّة... لكنّها الآن في مدينة فلورنسا».

توقّفت السيّارة في الساحة. كانت الفيلا طويلة ومنخفضة، أسطحها مستطيلة مصنوعة بالخرسانة البيضاء والطوب الأحمر، تتناوب هنا وهناك مع أشرطة زجاجية عاكسة موضوعة على النوافذ، كان فيها أيضاً رواق مدعوم قائم على أعمدة مربّعة من الحجر الخام. فتح لينو الباب وقفز على الأرض وهو يقول: «فلنخرج إذاً».

لم يكن مارتشيلّو يعرف ماذا يريد لينو منه ولم يتمكّن حتّى أن يخمّن ذلك. لكن كانت تزداد في قلبه ريبة من يخشى أن يكون قد خدع. فسأل قبل أن يتحرّك: «والمسدّس؟».

أجاب لينو، وقد بدأ يفقد صبره ويشير إلى نوافذ الفيلّا: «إنّه هناك في الداخل، سنذهب الآن لأخذه».

«وهل ستعطيني إيّاه؟».

«بالتأكيد، إنّه مسدّس جديد بالفعل».

نزل مارتشيلّو هو الآخر من غير أن ينبس ببنت شفة. فصفعته مباشرة ريح خريفيّة فيها روائح الموت، وكانت حارّة ومغبّرة ومسكرة. ولم يكن ليعرف هو أيضاً لماذا شعر أنّ صفعة الريح تلك كانت تحمل في طيّاتها نبوءة لا يعرف كنهها، فتبع لينو وهو يلتفت لينظر للمرّة الأخيرة إلى الساحة المفروشة بالحصى والمحاطة بالشجيرات وقليل من نبات الدفلى. كان لينو يتقدّمه، فلاحظ أنّ هناك شيئاً ما ينفخ جيب سترته الجانبيّة: لا بدّ أنّه المسدّس الذي انتزعه الرجل من يده عند الوصول. فتأكّد فجأة أنّه ليس لدى لينو غير هذا المسدّس، فتساءل لماذا هذا الكذب عليه إذاً ولماذا يستدرجه إلى داخل الفيلّا. تزايدت في نفسه أحاسيس الخديعة وفي الوقت نفسه إرادة التيقّظ وعدم الاستسلام لأيّ خديعة. دخلا في هذه الأثناء إلى صالة جلوس واسعة، تتناثر فيها مجموعة من الأرائك وفيها مدفأة على جدار الصدر لها مدخنة من الآجرّ الأحمر. توجّه لينو، وهو ما زال يتقدّم مارتشيلّو، عبر الصالة، نحو باب مدهون في الزاوية باللون الأزرق. فسأله مارتشيلّو بقلق: «لكن إلى أين نذهب؟».

فأجاب لينو بخفّة ومن غير أن يلتفت: «سندخل إلى غرفتي».

على أيّ حال، قرّر مارتشيلّو أن يبدأ بإظهار بعض المقاومة، ذلك حتّى يعرف لينو أنّه قد فهم لعبته. فما إن فتح لينو الباب الأزرق حتّى قال له، وهو يحافظ على مسافة فاصلة بينهما: «أعطني المسدّس في الحال وإلّا فإنّي سأنصرف».

فأجاب لينو وهو يلتفت نصف التفاتة: «لكنّ المسدّس ليس معي الآن. إنّه في غرفتي».

قال مارتشيلّو: «لا، إنّه معك الآن، موجود في جيب سترتك».

«لكنّ هذا هو مسدّس السيّارة».

«وليس لديك غيره».

بدا أنّ لينو قد شعر بنفاد الصبر لكنّه سيطر عليه. فلاحظ مارتشيلّو من جديد التناقض بين وجهه الصارم والجافّ وبين فمه المرتخي وعينيه القلقتين المتألّمتين والمتوسّلتين. فقال في النهاية: «حسناً، سأعطيك هذا، لكن تعال معي... ممّ أنت خائف؟... بكلّ هذه النوافذ، يمكن أن يرانا بعض الفلّاحين...».

«وما الأمر إذا رأونا؟»، هذا ما كان بودّ مارتشيلّو أن يقوله، لكنّه تراجع لأنّه أدرك أنّ هناك شيئاً ما غير سليم لكنّه لم يتمكّن من تحديده، فقال بنبرة طفوليّة: «حسناً، لكنّك ستعطيني إيّاه بعد ذلك».

«كن على ثقة».

دخلا في ممرّ أبيض صغير، فأغلق لينو الباب. كان هناك في نهاية الممرّ باب أزرق آخر. لم يتقدّم لينو هذه المرّة على مارتشيلّو، بل تنحّى جانباً ومرّر بخفّة يده حول خصره وهو يسأله: «هل يهمّك كثيراً أمر مسدّسك هذا؟».

«أجل» قال مارتشيلّو وهو لا يستطيع الكلام بسبب ما أثارته تلك اليد في نفسه من حرج.

نزع لينو يده، وفتح الباب وأدخل مارتشيلّو إلى الغرفة. كانت غرفة بيضاء طويلة وضيّقة وهناك نافذة في صدرها. لم يكن فيها سوى سرير واحد وخزانة وزوج من الكراسي. وكان كلّ الأثاث بلون أخضر فاتح. لاحظ مارتشيلّو أنّ هناك صليباً من البرونز من النوع الشائع معلّق على الجدار فوق الوسادة. كما كان هناك على الخزانة الصغير بجانب السرير كتاب سميك مجلّد بالأسود وطرفه أحمر، رأى مارتشيلّو أنّه كتاب دينيّ. بدت الغرفة العارية والخالية من الأشياء والملابس، نظيفة إلى أبعد حدّ، ومع ذلك فقد كانت تفوح في الهواء روائح قويّة، كما لو أنّها رائحة صابون بماء الكولونيا. فتساءل أين سبق له وأن شمّ مثلها؟ ربّما في الحمّام، بعدما اغتسلت فيه أمّه في الصباح. قال له لينو بلا مبالاة: «اجلس على السرير، إذا أردت ذلك... إنّه أشدّ راحة»، فأطاع بصمت. كان لينو يجول في الغرفة جيئة وذهاباً. ثمّ نزع قبّعته ووضعها على عتبة النافذة. قام بفكّ ياقته ومسح بالمنديل العرق من حول رقبته. ثمّ فتح الخزانة، وأخرج

زجاجة كبيرة من الكولونيا، وبلّل منديله بها، ومسح وجهه وجبهته ليشعر بالراحة. ثمّ سأل مارتشيلّو: «هل تريد منها أنت أيضاً؟ إنّها منعشة».

كان بودّ مارتشيلّو أن يرفض، لأنّ الزجاجة والمنديل كانا يوحيان إليه ولا يعرف بأيّ اشمئزاز. لكنّه ترك لينو يمرّر راحة يده بمداعبةٍ منعشة. وبعد أن وضع لينو الكولونيا في الخزانة، جاء وجلس على السرير، مقابل مارتشيلّو.

نظرا إلى بعضهما بعضاً. ظهر على وجه لينو، الجافّ والصارم، تعبير جديد، حزين وعاطفيّ جميل فيه نوع من التوسّل. كان يتأمّل مارتشيلّو بصمت. وعندما نفد صبر مارتشيلّو أراد أن يضع حدّاً لذلك التأمّل المحرج، فسأل في النهاية: «والمسدّس؟».

رأى أنّ لينو يتنهّد، ثم أخرج السلاح من جيبه، كما لو على مضض. مدّ هو يده، لكنّ وجه لينو تقسّى، وقال على عجل وهو يسحب المسدّس من جيبه: «سأعطيك إيّاه، لكن يجب عليك أن تستحقّه».

شعر مارتشيلّو بالارتياح عند سماع هذه الكلمات. إلّا أنّه وكما كان يعتقد، فإنّ لينو يريد شيئاً ما مقابل المسدّس. لذلك فقد قال بسرعة وبنبرة فيها سذاجة زائفة، مثلما كان يفعل في المدرسة عندما يقايض الأقلام أو كريّات اللعب الزجاجيّة: «قل أنت ماذا تريد، وسنصل إلى اتّفاق».

رأى أنّ لينو يخفض بصره، يتردّد، ثمّ سأله ببطء: «ماذا بوسعك أن تفعل مقابل هذا المسدّس؟».

لاحظ أنّ لينو قد موّه عرضه: أي إنّ الأمر لا يتعلّق بشيء يعطيه مقابل المسدّس، بل بشيء عليه أن يفعله كي يناله. ورغم أنّه لم يفهم ما هو هذا الشيء، فإنّه قال بنبرة السذاجة الزائفة نفسها: «لا أعرف، أخبرني أنت». سادت لحظة من الصمت. ثمّ سأله لينو فجأة بصوت مرتفع قليلاً، وهو يمسك بيده: «وهل تفعل أيّ شيء؟».

أثارت النبرة والحركة حفيظة مارتشيلّو. فتساءل فيما إذا كان لينو لصّاً يطلب التعاون معه. لكن بدا له بعد شيء من التفكير أنّ عليه استبعاد هذه الفرضيّة. ومع ذلك فقد أجاب برويّة: «لكن ماذا تريد منّي أن أفعل؟ لماذا لا تصرّح به؟».

أخذ لينو يلهو الآن بيده، فينظر إليها، ويقلّبها، ويضغط عليها ثمّ يخفّف الضغط. ثمّ دفعها بشيء من الفظاظة بعيداً عنه، وقال ببطء وهو ينظر إليه: «أنا متأكّد من أنّك لا تفعل بعض الأمور».

فأصرّ مارتشيلّو وقال بنوع من حسن النيّة الممزوج بالحرج: «لكن قلها».

فاحتجّ لينو وقال: «لا، لا». لاحظ مارتشيلّو أنّ بعض الاحمرار الغريب وغير المتساوي أخذ يسري في وجه الرجل الشاحب ويعلو خدّيه. بدا له أنّ لينو كان يميل إلى الكلام، لكنّه يريد أن يتأكّد أنّ مارتشيلّو يريد ذلك. وهكذا فقد بدرت منه حركة مقصودة رغم أنّها مفعمة بغنج بريء. فقد مدّ يده وأمسك بيد الرجل وهو يقول: «قل ذلك، هيّا، لماذا لا تقوله؟».

تبع ذلك صمت طويل أخذ لينو ينظر الآن مرّة إلى يد مارتشيلّو، وأخرى إلى وجهه، بينما بدا أنّه أصبح متردّداً. في النهاية دفع عنه يد الفتى من جديد، لكن بلطف هذه المرّة، ثمّ نهض وتحرّك لبضع خطوات عبر الغرفة. عاد بعد ذلك إلى الجلوس وأخذ بيد مارتشيلّو بحنان.

كأنّه أب أو كأنّه أمّ، يمسكان بيد ابنهما.

قال: «مارتشيلّو، هل تعرف من أنا؟».

«لا».

«أنا خوريّ معزول» قال لينو وقد انفجر صوته حزيناً، صادقاً ومثيراً للشفقة، «أنا خوري معزول، مطرود من المعهد الذي كنت أعلّم فيه... وأنت ببراءتك لا تدرك ذلك الذي يمكن لي أن أطلبه منك مقابل هذا المسدّس الذي طالما اشتهيته... وقد تعرضت أنا لغواية أن أستغلّ تلك البراءة وذلك الجشع الطفوليّ!... هذا أنا يا مارتشيلّو». كان يتكلّم بنبرة من صدق عميق، ثمّ التفت نحو رأس السرير، وأخذ يعاتب الصليب بطريقة غير متوقّعة ودون أن يرفع صوته، كأنّما يشتكي: «لقد رجوتك كثيراً... لكنّك هجرتني... فصرت أسقط، وأسقط من جديد... فلماذا تخلّيت عنّي؟». ضاعت هذه الكلمات في نوع من التمتمة، كما لو أنّ لينو كان يتكلّم مع نفسه. ثمّ إنّه نهض عن السرير وذهب ليأخذ القبّعة التي وضعها على عتبة النافذة وقال لمارتشيلّو: «فلنذهب... تعال... سأرافقك إلى البيت».

لم يقل مارتشيلّو شيئاً: كان يشعر بالاضطراب وأنّه غير قادر الآن على الحكم على ما حصل. تبع لينو عبر الممرّ ثمّ عبر صالة الجلوس. في الخارج ما زال الهواء ينفخ حول السيّارة السوداء الكبيرة، تحت سماء غائمة بلا شمس. صعد لينو إلى السيّارة وجلس هو إلى جانبه. تحرّكت السيّارة، عبرت الطريق، خرجت بلطف من البوّابة إلى الشارع. لفترة طويلة لم يتكلّما. كان لينو يقود السيّارة كالسابق، منتصب الجذع، ورفراف القبّعة فوق عينيه، واليدان بالقفّاز على المقود. قطعا مسافة معتبرة، ثمّ سأل لينو بشكل غير متوقّع، ودون أن يستدير: «هل تشعر بالأسف لأنّك لم تنل المسدّس؟».

أشعلت هذه الكلمات في نفس مارتشيلّو الأمل الشجع في امتلاك ذلك الشيء الذي طالما اشتهاه. وقد خطر على باله، بعد كلّ شيء، أنّه لم يضيع ربّما شيئاً بعد. فأجاب بصراحة: «شعرت طبعاً بالأسف».

سأله لينو: «وهكذا، إذا أعطيتك موعداً في الغد في الساعة نفسها، هل تأتي؟».

أجاب مارتشيلّو بحكمة: «غداً هو يوم أحد، أمّا يوم الإثنين، فنعم... يمكننا أن نلتقي في الشارع، في المكان نفسه مثل اليوم».

التزم الثاني الصمت للحظة. ثمّ صاح فجأة بصوت مرتفع يئنّ: «لا تتحدّث معي بعد الآن... لا تنظر إليّ بعد الآن... وإذا رأيتني ظهر يوم الإثنين في الشارع، فلا تهتمّ بي، لا تحيّيني... هل فهمت؟».

فتساءل مارتشيلّو وقد تضايق بعض الشيء: «لكن ما الذي أصابه؟»، ثمّ أجاب: «إنّي لا يهمّني أن أراك... كنت أنت الذي حملتني اليوم على المجيء إلى بيتك».

فقال لينو بقوّة: «أجل، لكن يجب ألّا يتكرّر هذا... أبداً أبداً. إنّي أعرف نفسي وأعرف أنّي لن أكفّ هذه الليلة عن التفكير بك... وأنّي سأنتظرك يوم الإثنين في الشارع، رغم أنّي قرّرت اليوم أنّي لن أفعل ذلك... أعرف نفسي... لكن أنت عليك ألّا تلتفت إليّ».

لم يقل مارتشيلّو شيئاً. فتابع لينو، بالغضب نفسه: «سأفكّر بك طيلة الليل يا مارتشيلّو... وسآتي يوم الإثنين إلى الشارع ومعي المسدّس... لكن عليك

ألّا تلتفت إليّ». كان يدور حول العبارة نفسها، ويكرّرها. ففهم مارتشيلّو، بحدس بارد وبريء، أنّ لينو يريد في الواقع أن يعطيه موعداً، وأنّه قد أعطاه إيّاه بالفعل، بدعوى تحذيره. سأله لينو مرّة أخرى بعد دقيقة من الصمت: «هل سمعت؟».

«أجل».

«ماذا قلت؟».

«أنّك ستكون يوم الإثنين في الشارع بانتظاري».

فقال الآخر بألم: «لم أقل هذا وحسب».

فأنهى مارتشيلّو كلامه: «وأنّه عليّ ألّا ألتفت إليك».

فأكّد لينو ذلك: «أجل، مهما كان الثمن. اعلم أنّي سأنادي عليك، وأنّي سأتوسّل إليك، وسأتبعك بالسيّارة... سأعدك بكلّ شيء تريده... لكنّ عليك أن تمضي قدماً، وألّا تصغي إليّ».

فقد مارتشيلّو صبره وهو يجيب: «حسناً، لقد فهمت».

تحوّل لينو من الغضب إلى نوع من اللطف العذب وهو يقول: «لكنّك مجرّد طفل، ولن تكون قادراً على مقاومتي... لهذا فإنّك ستأتي بلا أدنى شكّ... إنّك طفل يا مارتشيلّو».

استاء مارتشيلّو: «لا لست طفلاً... أنا فتى... ثمّ إنّك لا تعرفني».

أوقف لينو السيّارة فجأة. لا زالا في شارع الهضبة، تحت سور آخر، كان يرى على بعد أمامه مطعماً بقوس مزيّن بمصابيح على طريقة مدينة البندقيّة. التفت لينو نحو مارتشيلّو وسأله بنوع من القلق الحزين: «هل أنّك سترفض حقّاً المجيء معي؟».

فسأله مارتشيلّو وقد أدرك لعبته: «ألست أنت الذي طلبت منّي هذا؟».

قال لينو بيأس، وهو يعيد تشغيل السيّارة: «أجل هذا صحيح أجل هذا صحيح... معك الحقّ... أنا هو المجنون، أنا الذي طلبت ذلك... أنا بالذات».

صمت بعد أن نطق بهذا التقرير وساد السكون. توجهت السيّارة إلى نهاية الشارع وهو يقودها مجدّداً عبر طرقات الحيّ الشعبيّ الوسخة. ثمّ ها هي

الطريق الرائعة تبرز بأشجارها الضخمة البيضاء العارية المرتفعة، وأكوام الأوراق الصفراء على طول الأرصفة المهجورة، والأبنية المليئة بالنوافذ. هنا هو الحيّ الذي تقع فيه فيلّا مارتشيلّو. سأله لينو دون أن يلتفت: «أين منزلك؟».

أدرك مارتشيلّو السرور الذي قد تدخله على قلب الرجل نبرة الشراكة التي تتخلّل كلامه: «من الأفضل أن تتوقّف هنا، وإلّا فإنّهم قد يرونني وأنا أترجّل من سيّارتك».

توقّفت السيّارة، فترجّل مارتشيلّو، ثمّ ناوله لينو من النافذة حزمة كتبه وهو يقول بحزم: «إلى يوم الإثنين إذاً، في الشارع، في مكان اليوم نفسه».

قال مارتشيلّو وهو يتناول الكتب: «لكنّه عليّ أن أتظاهر بأنّي لا أراك، أليس كذلك؟».

رأى أنّ لينو متردّد فشعر بنوع من الرضا القاسي على قلبه. لقد أضيئت عينا لينو الآن في محجريهما داخل التجويف وأخذتا ترمقانه بنظرة متوسّلة ومؤلمة. ثمّ قال منفعلاً: «افعل كما يبدو لك... افعل بي ما تشاء». ثمّ انتهى صوته بنوع من الغناء المنتحب الداكن.

فحذّره مارتشيلّو للمرّة الأخيرة: «اعلم أنّي حتّى لن أنظر إليك».

رأى أنّ لينو يقوم بحركة لم يفهمها، لكنّها بدت أنّها تعبّر عن موافقة يائسة. وهكذا فقد انطلقت السيّارة مبتعدة باتّجاه الشارع.

-III-

كان يجري إيقاظ مارتشيلّو في وقت محدّد من كلّ صباح من قبل الطبّاخة التي كانت تكنّ له مودّة خاصّة. كانت تدخل إلى الغرفة في الظلام وهي تحمل صينيّة الإفطار ثمّ تذهب لتضعها على الرخام فوق الصندوق. ثمّ كان مارتشيلّو يراها وهي تتمسك بذراعيها المتينتين بحبل ستارة النافذة وتسحبه إلى الأعلى على دفعتين أو ثلاث دفعات من التي يقوم بها شخص قويّ. ثمّ إنّها كانت تضع الصينيّة على ركبتيه وتقف لتشرف على تناول الطعام، وما إن ينتهي حتّى تكون جاهزة لرمي الأغطية عنه وتشجيعه على ارتداء ملابسه. وكانت هي نفسها تساعده في ذلك فتقدّم له الملابس، بل وتنحني أحياناً لتساعده في ارتداء حذائه. كانت امرأة حيويّة، مرحة ومليئة بالفطرة السليمة، وقد بقيت محافظة على لكنةِ المنطقة التي ولدت فيها، كما ورثت منها العادات الودّيّة. وقد استيقظ مارتشيلّو صباح الإثنين على ذكرى مضطربة بأنّه سمع، وهو يخلد إلى النوم في الليلة الماضية، أصواتاً تنفجر بغضب، ولا يعلم إذا كانت قادمة من الطابق الأرضيّ أو مر[illegible]نة أبويه. انتظر حتّى انتهى من تناول الفطور ثمّ سأل بطريقة عرضيّة الطبّاخة التي كانت تقف كالعادة بانتظار أن ينتهي من فطوره: «ماذا حدث هذه الليلة؟».

نظرت المرأة إليه بدهشة زائفة مبالغ فيها: «لا شيء، على حدّ علمي».

فهم مارتشيلّو أنّ هناك كلاماً في فمها، وقد عرف هذا من دهشتها الزائفة، ومن البريق الخبيث الذي لمع في عينيها، بل ومن كلّ موقفها، فقال: «لقد سمعت صراخاً...».

قالت المرأة: «آه، الصراخ، لكنّ هذا طبيعيّ، ألا تعرف أنّ أباك وأمّك

يصرخان في أكثر الأحيان؟». قال مارتشيلّو: «بلى، لكنّهما كانا يصرخان أكثر من العادة». ابتسمت ثمّ استندت بكلتا يديها على مسند السرير، وقالت: «على الأقلّ فهما ينتهيان إلى مزيد من التفاهم بعد أن يصرخا، ألا ترى ذلك؟».

كان من عادته أن يسأل أسئلة تقريريّة، لا تنتظر جواباً، وهكذا فقد سألها: «لكن لماذا صرخا؟».

ابتسمت المرأة من جديد: «لماذا يصرخ الناس؟ لأنّهم غير متّفقين».

«ولماذا هما غير متّفقيْن؟».

فصاحت وقد سرّت لهذا السؤال الذي طرحه الفتى: «هما؟ أوه، لألف سبب... لأنّ أمّك لا تريد ربّما في يوم من الأيّام أن تنام والنافذة مفتوحة، بينما لا يريد أبوك ذلك... في يوم آخر يرغب هو بالهجوع إلى السرير مبكّراً بينما ترغب أمّك بالتأخّر... الأسباب لا تنقطع أبداً، أليس كذلك؟».

قال مارتشيلّو فجأة، بنوع من الجدّيّة والقناعة، كما لو أنّه يعبّر عن مشاعر قديمة: «أنا لا أريد أن أبقى هنا على الإطلاق».

فصرخت المرأة وهي تزداد سروراً: «وماذا تريد أن تفعل؟ أنت صغير، ولا يمكن لك أن تغادر البيت... يجب أن تنتظر حتّى تكبر».

قال مارتشيلّو: «أفضّل أن يضعوني في معهد»، فنظرت إليه المرأة بإشفاق وهتفت: «معك الحقّ، على الأقلّ ستجد من يهتمّ بك في المعهد... هل تعرف لماذا صرخ أمّك وأبوك كثيراً هذه الليلة؟».

لا، لماذا؟».

«انتظر لأريك». ذهبت بسرعة نحو الباب واختفت. سمع مارتشيلّو أنّها نزلت على الدرج بسرعة، وتساءل من جديد ما الذي يمكن أن يكون قد حدث في الليلة الفائتة. بعد دقيقة سمع الطبّاخة وهي تصعد على الدرج، ثمّ دخلت إلى الغرفة بشيء من الغموض المرح. كانت تحمل شيئاً عرفه مارتشيلّو في الحال: صورة كبيرة، أخذت عندما كان عمر مارتشيلّو أقلّ من سنتين. كانت فيها أمّ مارتشيلّو بملابس بيضاء، وتحمل ابنها على ذراعيها، ويرتدي هو أيضاً ثوباً أبيض، ويضع شريطة بيضاء على شعره الطويل. صاحت الطبّاخة

بمرح: «هل ترى هذه الصورة؟ عندما عادت أمّك مساء البارحة من المسرح، دخلت إلى الصالون فرأت أوّل ما رأت هذه الصورة موضوعة على البيانو... ولم يبق إلّا القليل حتّى كان سيغمى على المسكينة... انظر ماذا فعل لها أبوك بهذه الصورة».

شعر مارتشيلّو بالدهشة وهو ينظر إلى الصورة. فقد استعمل أحدهم المخرز أو ما شابه ذلك وثقب عيون الأمّ وابنها، ثمّ رسم بالقلم الأحمر خطوطاً كثيرة تحت عيون الاثنين، كما لو يعني دموعاً من دم تنفر من الثقوب الأربعة. كان هذا شيئاً غريباً وغير متوقّع وحزيناً في الوقت نفسه، فلم يستطع مارتشيلّو أن يعرف بماذا يفكّر. فهتفت الطبّاخة قائلة: «كان أبوك هو من فعل هذا، وكان مع أمّك الحقّ في أن تصرخ».

«لكن لماذا فعل هذا؟».

«هذا سحر. هل تعرف ما هو السحر؟».

«لا».

«عندما تنوي الشرّ لشخص ما... فإنّك تفعل ما فعله والدك ... أحياناً يثقبون الصدر باتّجاه القلب بدلاً من ثقب العينين... ثمّ يحدث شيء ما».

«أيّ شيء؟».

«يموت الشخص... أو تحدث له مصيبة... بحسب».

«لكنّي أنا لم أسئ أبداً إلى أبي».

فصاحت الطبّاخة بغضب: «وهل أساءت له أمّك أبداً؟ لكن هل تعرف ماذا هو أبوك؟ مجنون... وهل تعرف أين سينتهي به الأمر؟ في سانت أونوفريو، أي في مشفى المجانين... والآن هيّا، ارتد ثيابك. لقد حان وقت الذهاب إلى المدرسة... سأعود أنا لأعيد الصورة إلى مكانها»، ثمّ خرجت بمرح وهي تجري، فبقي مارتشيلّو وحده.

استأنف ارتداء ملابسه وهو قلق وغير قادر على تفسير أمر الصورة بأيّ شكل من الأشكال. إنّه لم يكنّ أبداً أيّ مشاعر خاصّة تجاه أبيه، ولم يشعر بالحزن مطلقاً بسبب معاداته له، سواء أكان هذا صحيحاً أم كاذباً. لكنّ

كلمات الطبّاخة عن شرور السحر حملته على التفكير. لا يعني ذلك أنّه كان يؤمن بالخرافات أو أنّه يكفي ثقب أعين في صورة لإيذاء الشخص الذي فيها، لكنّ جنون والده أثار فيه مخاوف توهّم أنه أخمدها بصورة نهائيّة. فلقد أيقظت تلك الصورة الملطّخة بدموع من دم في نفسه ذلك الشعور بالضعف والخوف من دخوله ضمن دائرة موت قاتل، والذي بقي يطارده طيلة الصيف، بل إنّه أصبح الآن أقوى من أيّ وقت مضى كما لو أنّ شرّاً ما قد جذبه.

تساءل ما هي المصيبة، ما هي، إن لم تكن نقطة سوداء ضائعة في زرقة السماوات الصافية، ما تلبث أن تكبر بغتة، وتصبح طائراً كاسراً يحطّ كما يحطّ العقاب على الجيفة؟ أو أنّها مصيدة سبق وأن حذّرونا منها، بل إنّنا نراها بوضوح، ولا يسعنا مع ذلك إلّا أن نضع فيها قدمنا؟ أو أنّها أخيراً لعنة من الحماقات والتهوّر والعمى متغلغلة في الحركات والحواسّ والدم؟ بدا له أنّ هذا الوصف الأخير ملائم أكثر من غيره، لأنّه يجعل من المصيبة أو المحنة نقصاً من النعمة، ويجعل من نقص النعمة قدراً حميمياً، غامضاً، متأصّلاً، مجهولاً، عملت حركة أبيه الأخيرة على لفت انتباهه إليه، كما تفعل شارة مرور موضوعة في بداية طريق الموت. كان يعرف أنّ ذلك القدر المحتّم أراد له أن يقتل، لكن ما كان يخيفه لم يكن القتل في حدّ ذاته، بمقدار ما كان أنّ هذا الأمر مقدّر عليه مهما فعل. أي إنّه كان منجذباً باختصار من قبل فكرة تقول إنّه حتّى الوعي والإدراك هما جهل، لكنّه جهل من نوع خاصّ لا يمكن لأحد أن يعتبره جهلاً، وهو أقلّ من الآخرين.

لكنّه، عندما أصبح في المدرسة، بعد شيء من الوقت، نسي فجأة كلّ هذه المشاعر، نتيجة تقلّبه الطفوليّ. كان أحد زملائه الذين يضايقونه زميلاً له في المقعد، وهو فتى يدعى توركي، وكان هذا أكبر من في الصفّ سنّاً وأكثرهم جهلاً، كما كان الوحيد الذي تلقّى بعض دروس الملاكمة، فكان يعرف كيف يوجّه اللكمات بطريقة فنّيّة: وكان وجهه ذو الزوايا القاسية وشعره المقصوص على شكل فرشاة، وأنفه المسحوق وشفتاه الدقيقتان، تجعله كلّها يبدو وكأنّه ملاكم محترف، خاصّة وأنّه غارق في سترة رياضيّة. لم يكن توركي يفهم شيئاً من اللاتينيّة، لكنّه كان يقف خارج المدرسة بين

مجموعة من رفاقه، في الشارع، ويرفع يده المليئة بالعقد، ليأخذ العقب الصغير من فمه وهو يعبس بتجاعيد كثيرة على جبهته المنخفضة، وينظر نظرة تنمّ عن تسلّط معتبر، ثم يقول: «أنا أرى أنّ كولوتشي سيفوز بالبطولة»، عندها كان يصمت جميع الأولاد باحترام. وكان توركي يمسك بأنفه بين أصابعه ويحرّكه إلى الطرف الآخر، وذلك ليبرهن عند الحاجة على أنّ أنفه مكسور مثل الملاكمين الحقيقيّين، لكنّه لم يكن بارعاً في الملاكمة فقط، بل بالكرة وبأيّ رياضة شعبيّة وعنيفة أخرى. أمّا بالنسبة لمارتشيلّو، فكان توركي يسلك معه سلوكاً ينمّ عن السخرية، ويكاد أن يكون رصيناً رغم وحشيّته، وكان توركي هذا بالذات هو الذي أمسك قبل يومين بذراعيّ مارتشيلّو بينما كان الأربعة الآخرون يسلكون فيه التنّورة. كان مارتشيلّو يتذكّر الأمر، لذلك فقد ظنّ ذلك الصباح أنّه وجد أخيراً طريقة للفوز بذلك الاعتبار القادر على الازدراء والذي يتعذّر عليه أن يصل إليه.

وهكذا، فقد استغلّ تلك اللحظة التي استدار فيها أستاذ الجغرافيا ليشير بعصاه الطويلة إلى خارطة أوروبّا، وكتب بسرعة على الدفتر: «سأحصل اليوم على مسدّس حقيقيّ»، ثمّ دفع بالدفتر نحو توركي. لكنّ هذا، رغم حماقته، كان تلميذاً مثاليّاً في دروسه، لا يتحرّك على مقعده من شدّة انتباهه، قاتم القسمات في جدّية غبائه غير المعبّرة. لذلك كان مارتشيلّو يشعر بالدهشة في كلّ مرّة يعجز فيها توركي عن الإجابة على أبسط الأسئلة، وكان يتساءل في كثير من الأحيان عمّا كان يفكّر فيه توركي أثناء الدروس ولماذا يتظاهر بكلّ هذا الاجتهاد إذا كان لا يدرس في الأساس.

ما إن رأى توركي الدفتر حتّى قام بحركة تعبّر عن نفاد صبره، وكأنّه يقول: «دعني بسلام... ألا ترى أنّي أصغي إلى الدرس؟». لكنّ مارتشيلّو أصرّ ونكزه بكوعه، عندها خفض توركي عينيه دون أن يحرّك رأسه وقرأ الكتابة. فرآه مارتشيلّو وهو يتناول القلم ليكتب بدوره: «لا أصدّق». نالت العبارة منه فأسرع ليؤكّد ويكتب: «كلمة شرف». لكنّ توركي أجاب بريبة: «ما هو نوعه؟». أثار هذا السؤال حيرة مارتشيلّو، ومع ذلك فقد أجاب بعد لحظة من التردّد: «ويلسون». فخلط الكلمة باسم ماركة «ويستون» التي سمع توركي يتكلّم عنها ذات مرّة قبل ذلك. فكتب توركي مباشرة: «لم أسمع بها

من قبل». فأنهى مارتشيلّو كلامه: «سآتي به غداً إلى المدرسة»، كما انتهى الحوار بغتة لأنّ الأستاذ التفت ونادى فجأة على توركي ليسأله ما هو أكبر نهر في ألمانيا. نهض توركي واقفاً، وبعد شيء من التفكير اعترف كالعادة وقال دون أيّ حرج، بل بنوع من الصراحة الرياضيّة، إنّه لا يعرف. في تلك اللحظة فتح الباب وأطلّ الآذن ليعلن عن انتهاء الدرس.

فكّر مارتشيلّو فيما بعد وهو يغذّ السير على الطرقات المؤدّية إلى الشارع المشجّر أنّه على لينو أن يحافظ على وعده وأن يعطيه المسدّس. كان مارتشيلّو على علم بأنّ لينو سيعطيه السلاح فقط عندما يقرّر إعطاءه، لذلك فقد تساءل وهو يمشي ما هو السلوك الذي عليه أن يسلكه كي يصل بالتأكيد إلى هدفه. على الرغم من عدم فهمه للسبب الحقيقيّ لقلق لينو الشديد، إلا أنّه شعر بنوع من الغنج الغريزيّ شبه الأنثويّ أنّ أسرع طريقة للحصول على المسدس هي تلك التي ذكرها لينو نفسه يوم السبت السابق: أي إنّ عليه ألّا يلتفت إلى لينو، أن يزدري عروضه، وأن يرفض دعواته. وباختصار، أن يعطي قيمة لنفسه. وعليه أخيراً أن يرفض الدخول إلى السيّارة قبل أن يتأكّد كلّ التأكّد من أنّ المسدس سيكون بحوزته. أمّا لماذا يهتمّ به لينو كلّ هذا الاهتمام، ولماذا هو قادر على ممارسة هذا النوع من الابتزاز، فهذا ما لم يكن مارتشيلّو قادراً على معرفته. خاصّة وأنّ الغريزة نفسها التي أوحت إليه بابتزاز لينو، تجعله يلمح أنّ هناك وراء علاقته بالسائق ظلّاً من ودّ غير عاديّ، يتّصف بنوع من الحرج والغموض. لكنّ المسدّس كان على رأس كلّ أفكاره. كما لم يكن بوسعه أن يؤكّد أنّ ذلك الودّ والدور شبه الأنثويّ الذي كان عليه أن يمثّله كانا يسوءانه حقّاً. عندما أطلّ على الشارع المشجّر وهو يقطر عرقاً لكثرة ما ركض، رأى أنّ الشيء الوحيد الذي كان يودّ أن يتجنّبه، هو أن يمسك به لينو من خصره، كما فعل في ممرّ الفيلا، في أوّل مرة التقيا.

كان اليوم وقتها عاصفاً وغائماً، كما كان يوم السبت، وكانت تعصف رياح حارّة ومحمّلة ببقايا انتزعتها من كلّ مكان مرّت عليه باضطرابها: من أوراق ميّتة وأوراق متناثرة وأرياش وزغب وأغصان وغبار. وكانت الريح قد غمرت في تلك اللحظة بالذات كومة من الأوراق الجافّة ورفعت أعداداً كثيرة منها

إلى الأعلى، بين أغصان الأشجار الكبيرة العارية. تشتّت انتباهه وهو يراقب الأوراق وهي تلتفّ في الهواء على خلفيّة السماء الداكنة، وكأنّها أمواج من أيد صفراء مفتوحة، ثمّ خفض بصره فرأى بين تلك الأيادي الصفراء الدائرة بين الرياح ذلك الشكل المستطيل الأسود البرّاق، شكل السيّارة الواقفة قرب الرصيف. تسارع نبض قلبه، ولا يعرف سبب ذلك. ومع ذلك فقد سار وفق خطّته ومشى إلى الأمام باتّجاه السيّارة، من غير أن يسرع الخطى. مرّ قرب النافذة دون تسرّع، ففتح مباشرة باب السيّارة كما لو بحسب إشارة مسبقة، ومدّ لينو رأسه دون قبّعة وهو يقول: «هل تريد يا مارتشيلّو أن تصعد؟».

لم يكن له إلّا أن شعر بالدهشة من هذه الدعوة الجادّة بعد ما أقسم به في لقائهما السابق. ففكّر أنّ لينو يعرف نفسه تمام المعرفة، ومن المضحك رؤيته وهو يفعل شيئاً كان قد توقّع هو بنفسه أن يفعله على الرغم من أيّ إرادة معاكسة. لكنّه تابع كما لو أنّه لم يسمع شيئاً، فلاحظ بنوع من الرضا الغامض أنّ السيّارة قد تحرّكت وجاءت وراءه. كان الرصيف الواسع جدّاً مقفراً على مدّ النظر بين الأبنية المنتظمة والمليئة بالنوافذ والأشجار الضخمة الماثلة. كانت السيّارة تتبعه خطوة خطوة، بصوت خافت يسرّ الآذان، ثمّ تجاوزته بعد حوالي عشرين متراً وتوقّفت على مسافة معيّنة، وفتح الباب من جديد. مرّ هو من غير أن يلتفت فسمع الصوت المنفعل يتوسّل مرّة أخرى: «اصعد يا مارتشيلّو... من فضلك... انس ما قلته لك بالأمس... هل تسمعني يا مارتشيلّو؟». لم يتمكّن مارتشيلّو من التفكير بأنّ ذلك الصوت يثير القرف إلى حدّ ما، وماذا هناك لدى لينو حتّى يتباكى بتلك الطريقة؟ لحسن الحظّ أنّ أحداً لم يكن هناك في الشارع، وإلّا لكان قد شعر بالخجل. ومع ذلك فهو لم يرغب بتثبيط الرجل بصورة كاملة، فالتفت نصف التفاتة، بعد أن تجاوز السيّارة، لينظر خلفه، كما لو ليدعوه إلى المثابرة والإصرار. ثمّ أدرك أنّه قد رماه بنظرة معسولة تقريباً، فشعر فجأة، بشكل لا لبس فيه، بشعور المذلّة نفسه المحمّل بالمسرّة، وبتظاهر ليس غير طبيعي، مثل ذلك الذي أملته عليه التنّورة التي ربطها رفاقه على خصره. كأنّما هو لم يشعر بالاستياء في الحقيقة، بل كأنّما لو أنّه يمثّل بصورة طبيعيّة صلف امرأة تتغنّج. في هذه الأثناء تحرّكت السيّارة من جديد خلفه، فتساءل مارتشيلّو فيما إذا كان قد

حان الوقت كي يتنازل، لكنّه قرّر بعد التفكير أنّ الوقت لم يحن بعد. تحرّكت السيّارة قربه وأبطأت من غير أن تتوقّف. فسمع صوت الرجل وهو يناديه: «مارتشيلّو...» ثمّ سمع صوت السيّارة وهي تبتعد على حين غرّة. خشي فجأة أن يكون لينو قد فقد صبره وانصرف. اعتراه خوف شديد من أن يضطرّ إلى الذهاب إلى المدرسة في اليوم التالي وهو خالي اليدين. لذلك فقد أخذ يجري وهو يصرخ: «لينو، لينو، توقّف يا لينو». لكنّ الرياح كانت تعصف بكلماته وتبعثرها في الهواء مع الأوراق الميّتة وسط دوّامة حزينة صاخبة. أخذت السيّارة تصغر على مدّ النظر. من الواضح أنّ لينو انصرف ولم يسمع، وأنّه لن يملك ذلك المسدّس، ومن الممكن أن يسخر منه توركي من جديد. لكنّه ما لبث أن تنفّس الصعداء، واستأنف المشي بوتيرة شبه طبيعيّة، مطمئناً: فالسيّارة لم تسرع إلى الأمام هرباً منه، بل لتنتظره عند المنعطف. والواقع أنّها توقّفت الآن، وحجزت الرصيف بالكامل رغم عرضه.

شعر بنوع من الحقد على لينو لأنّه أثار في قلبه ذلك الخفقان المهين، فعادته مشاعر عنيفة وقرّر في ذات نفسه أن يجعله يدفع الثمن بقسوة محسوبة. وصل في هذه الأثناء، ودون أيّ تسرّع، إلى المنعطف. كانت السيّارة هناك، طويلة، سوداء، برّاقة بكلّ نحاسها العتيق وهيكلها القديم. وعندما همّ مارتشيلّو بالدوران حولها، فُتح الباب فوراً وأطلّ لينو.

قال له بتصميم يائس: «مارتشيلّو، انس كلّ ما قلته لك يوم السبت... لقد قمت بواجبك على أحسن وجه... هيّا اصعد يا مارتشيلّو».

كان مارتشيلّو قد توقّف قرب غطاء المحرّك، فرجع خطوة إلى الوراء وقال ببرودة، من غير أن ينظر إلى الرجل: «لن آتي... لكن ليس لأنّك قلت لي يوم السبت ذلك...لكن لأنّ هذا لا يروق لي بالفعل».

«ولماذا لا يروق لك؟».

«هكذا...ولماذا يجب أن أصعد؟».

«لتدخل السرور على قلبي...».

«لكنّي لا أريد أن أدخل السرور على قلبك».

«لماذا؟ هل تكرهني؟».

«أجل» قال مارتشيلّو وهو يخفض بصره ويلعب بمقبض الباب. لقد أدرك أنّه متردّد وأنّ وجهه اضطرب وبدت عليه علائم المشاكسة، لكنّه لم يكن يعرف فيما إذا كان يمثّل أو أنّه يتصرّف بصدق. كان من المؤكّد أنّه كان يمثّل مع لينو، لكن إذا كان يمثّل، فلماذا يشعر الآن بهذا الشعور القويّ والمعقّد، الممزوج بالغرور والاشمئزاز والمهانة والقسوة والحقد؟ سمع أنّ لينو يقهقه بصوت منخفض، بودّ، قبل أن يسأله: ولماذا تكرهني؟».

رفع هذه المرة بصره ونظر في وجه الرجل. فكّر أنّ هذا صحيح، فهو يكره لينو، لكنّه لم يسأل نفسه أبداً عن السبب. نظر إلى الوجه، كأنّه صارم بسبب نحافته الشديدة، فهم عندها لماذا لا يستلطف لينو: فقد كان يرى أنّ وجهه مزدوج، يجد فيه حتّى الاحتيال تعبيراً جسديّاً. بدا له وهو ينظر إليه أنّ هذا الاحتيال يكمن في فمه قبل كلّ شيء: فهو يبدو للوهلة الأولى دقيقاً وجافّاً يشعّ ازدراء ممزوجاً بالعفّة، لكنه ما إن تعمل ابتسامةٌ على فتح الشفتين وقلبِهما، حتّى ترى أنّ نوعاً ما من لعاب الشهوة بدأ يبرق فوق طرفهما الذي انتصب رطباً ومستعراً. تردّد وهو ينظر إلى لينو الذي كان ينتظر جوابه، ثمّ قال بصراحة: «أكرهك لأنّ فمك مبلّل».

تلاشت ابتسامة لينو وتكدّر: «ما هذه الحماقات التي تبتكرها الآن؟...» ثمّ استأنف بنوع من المزاح واللامبالاة: «إذاً هل تريد يا سيّد مارتشيلّو أن تصعد إلى سيّارتك؟».

عزم مارتشيلّو أخيراً وقال: «أصعد على شرط».

«ما هو؟».

«أن تعطيني المسدّس بالفعل».

«اتّفقنا... تعال، هيّا».

فأصرّ مارتشيلّو بعناد: «لا، عليك أن تعطيني إيّاه في الحال».

فأجاب الرجل بصراحة: «لكنّه ليس معي الآن، بقي يوم السبت في غرفتي... فلنذهب الآن إلى البيت ونأخذه».

فصمّم مارتشيلّو بطريقة لم يتوقّعها هو أيضاً، وقال: «إذا لن آتي معك، وداعاً».

خطا خطوة كما لو أنّه سينصرف، ففقد لينو هذه المرّة صبره، وهتف: «لكن تعال، لا تتصرّف كالأطفال». ثمّ مدّ يده وأمسك بذراع مارتشيلّو وسحبه إلى المقعد بجانب مقعده. وأضاف: «سنذهب الآن مباشرة إلى البيت، وأعدك أنّك ستحصل على المسدّس». والحقيقة أنّ مارتشيلّو شعر بالسرور لأنّه أجبر على الصعود إلى السيّارة، فلم يحتجّ بل اكتفى بإظهار تكشيرة طفوليّة على وجهه. فأغلق لينو الباب وشغّل المحرّك بسرعة، فانطلقت السيّارة.

التزما الصمت لبرهة طويلة. ففكّر مارتشيلّو أنّ لينو لا يبدو فصيحاً ربّما لأنّه لا يستطيع الكلام من شدّة سروره. أمّا هو فلم يكن لديه ما يقوله. فسيعطيه لينو المسدّس الآن وسيعود بعدها إلى البيت ليأخذه في اليوم التالي معه إلى المدرسة ويعرضه على توركي. ولم يكن لأفكاره أن تتجاوز هذه التوقّعات البسيطة التي تثير السرور. أمّا خوفه الوحيد فكان أن يحاول لينو بطريقة ما الاحتيال عليه، عندها، قال في نفسه، إنّه سيبتكر حيلة خبيثة ما توصل لينو إلى حدّ اليأس وتجبره على الوفاء بوعده.

بقي ثابتاً في مكانه وحزمة الكتب على ركبتيه، وأخذ ينظر أمامه إلى صفوف الأشجار الكبيرة والبيوت الممتدّة حتّى آخر الشارع. وما إن أخذت السيّارة في الصعود حتّى سأل لينو وكأنّما أفاق من تأمّلاته الطويلة: «لكن من علّمك كلّ هذا الغنج يا مارتشيلّو؟».

لم يفهم مارتشيلّو هذه العبارة على وجه الدقّة، فتردّد قبل أن يجيب. فأدرك الرجل براءة جهلة فأضاف قائلاً: «أعني كلّ هذا الخبث».

فسأل مارتشيلّو: «ولماذا؟».

«هكذا».

فقال مارتشيلّو: «إنّك لأنت الخبيث، لأنّك تعدني بالمسدّس ولا تعطيني إيّاه أبداً».

ضحك لينو وذهب بيده ليربت على فخذه العارية، ثمّ قال بصوت مرح: «هل تعلم يا مارتشيلّو أنّي كنت سعيداً لأنّك جئت اليوم... كم فكّرت أنّي رجوتك في ذلك اليوم بألّا تلتفت إلى ما أقوله وألّا تأتي، وأعرف الآن كم

يمكن للمرء أن يكون أحمق في بعض الأحيان... أحمق بالفعل ... لكن لحسن الحظّ أنّك كنت أشدّ فطنة منّي يا مارتشيلّو».

لم يقل مارتشيلّو شيئاً. لأنّه لم يفهم قصد مارتشيلّو، كما أنّ يده الموضوعة على فخذه كانت تضايقه. وقد حاول عدّة مرّات تحريك ركبته، لكنّ اليد لم تُرفع. لكن ها هي سيّارة لحسن الحظّ تأتي في الاتّجاه المعاكس. فتظاهر مارتشيلّو بالفزع وهتف: «انتبه، ستصدمنا تلك السيّارة» وهكذا سحب لينو هذه المرّة يده ليدير المقود، فتنفّس مارتشيلّو الصعداء.

ها هي الطريق الريفيّة، بين الأسوار والشجيرات، ها هي البوّابة ببابها المدهون بالأخضر، ها هو درب المدخل المحاط بأشجار السرو الصغيرة المتنوفة، وها هو في الصدر، بريق زجاج الشرفة. لاحظ مارتشيلّو أنّ الرياح تعصف مثل السابق بأشجار السرو، تحت سماء قاتمة وعاصفة. توقّفت السيّارة، فترجّل لينو وساعد مارتشيلّو على النزول، ليتّجه معه بعد ذلك نحو الأقواس. لكنّ لينو لم يسبقه هذه المرّة بل أخذه من ذراعه وهو يشدّ عليها بقوّة كأنّما خشي أن يفلت منه ويهرب. كان بودّ مارتشيلّو أن يطلب منه تخفيف قبضته، لكن لم يكن له ما يكفي من الوقت. كان كأنّه يطير وهو يكاد يرفعه من ذراعه عن الأرض، وهكذا عبر به صالة الإقامة ودفعه نحو الممرّ. هنا، وبطريقة غير متوقّعة، أمسكه بعنف من عنقه وهو يقول: «أيّها الغبيّ... غبيّ... لماذا لم تكن تشأ أن تأتي؟». لم يعد في صوته نبرة المزاح، بل أصبح أجشّ ومتقطّعاً رغم ما فيه من رقّة مصطنعة. شعر مارتشيلّو بالدهشة ورفع بصره لينظر إلى لينو في وجهه، لكنّه تلقّى في الوقت نفسه دفعة عنيفة. وكما يرمى بعيداً بكلب أو قطّ بعد الإمساك برقبته، هكذا رمى لينو به وألقاه في داخل الغرفة. ثمّ رأى مارتشيلّو أنّه أدار المفتاح في القفل ووضعه في جيبه ثمّ التفت نحوه بتعبير فيه مزيج بين الفرح والانتصار الغاضب. وصاح بقوّة: «الآن كفى، ستفعل الآن ما أريده أنا... كفى يا مارتشيلّو، طاغية، جيفة صغيرة، كفى... استقم، أطع ولا تنبس بكلمة زائدة». كان يقول هذا الكلام الآمر والمليء بالاحتقار والتسلّط، وهو مفعم بمرح وحشيّ، بل بشبق تقريباً. بينما لاحظ مارتشيلّو، رغم اضطرابه، أنّه يتكلّم بكلمات بلا معنى وكأنّه ينشد مقاطع نشيد النصر، وليس تعابير فكر وإرادة واعية. ارتعب وخاف وهو يرى

أنّ لينو يقطع الغرفة جيئةً وذهاباً بخطى واسعة، ثمّ يخلع قبّعته عن رأسه ويرمي بها على عتبة النافذة، ثمّ يكوّر قميصاً كان معلّقاً على الكرسيّ ويضعه داخل الدرج، ثمّ يسوّي غطاء السرير المجعّد، ويقوم باختصار بالعديد من الحركات بغضب مليء بمعان غامضة. ثم رآه، وهو لا يزال يصرخ في الهواء بتلك العبارات غير المتّسقة من الغطرسة والتسلّط، وهو يقترب من الجدار فوق السرير ويخلع الصليب عنه، ويتوجّه نحو خزانة الملابس ليلقيه في قاع الدرج بوحشيّة واضحة. هنا فهم أنّ هذه الحركة تعني أنّ لينو يقصد أن يظهر أنّه قد نحّى جانباً كلّ ورع سابق. ثمّ وكما لو أنّه يريد أن يؤكّد هذه المخاوف، فقد سحب لينو من درج خزانة السرير المسدّس الذي كان يحلم به وعرضه عليه وهو يصيح: «هل تراه... حسناً فإنّك لن تناله أبداً... عليك أن تفعل ما أريده دون هدايا ولا مسدّسات... بالرضى أو بالقوّة».

فكّر مارتشيلّو أنّ الأمر واضح، إنّ لينو يريد الاحتيال عليه كما كان يخشى. شعر أنّ وجهه قد شحب من شدّة الغضب، وقال: «أعطني المسدّس وإلّا فإنّي سأنصرف».

«أبداً، أبداً... بالرضى أو بالقوّة». بقي لينو ممسكاً بالمسدّس في يده، ثمّ أمسك باليد الأخرى مارتشيلّو وطرحه فوق السرير. سقط مارتشيلّو بعنف شديد جعل رأسه ينضرب بالجدار. لكنّ لينو انتقل فجأة من العنف إلى اللطف، ومن الأمر إلى التوسّل، ثمّ ركع أمامه. أحاط بساقيه بذراعه ووضع اليد الأخرى، التي ما زالت تقبض على المسدّس، على غطاء السرير. كان يبكي وهو يتوسّل إلى مارتشيلّو باسمه، ثمّ أحاط قدميه بذراعيه الاثنتين، وهو ما زال يبكي. أصبح المسدّس الآن مهجوراً فوق السرير، أسود فوق الغطاء الأبيض. نظر مارتشيلّو إلى لينو وهو يرفع نحوه في ركوعه وجهه المتوسّل المبلّل بالدموع والمنتفخ بالشهوة، ثمّ وهو يمسحه بفخذيه كما تفعل بعض الكلاب المخلصة، وهنا قبض مارتشيلّو على المسدّس ونهض على قدميه بحركة عنيفة. ظنّ لينو أنّه يريد مجاراة عناقه، ففتح ذراعيه وتركه يبتعد. لكنّ مارتشيلّو خطا إلى منتصف الغرفة، ثمّ التفت.

عندما فكّر مارتشيلّو بعد ذلك بالذي حدث، لا بدّ أنّه تذكّر أنّ لمس عقب السلاح البارد قد أيقظ في نفسه مشاعر دمويّة عنيفة. لكنّه لم يشعر

في تلك اللحظة إلّا بألم شديد في رأسه وفي المكان الذي اصطدم بالجدار، فضلاً عن شعور عاده في الوقت نفسه مفعم بالهياج والاشمئزاز الشديد من لينو. أما هذا فقد بقي راكعاً قرب السرير، لكنّه عندما رأى مارتشيلّو يتراجع إلى الخلف ويصوّب المسدّس، استدار من غير أن ينهض ثمّ فتح ذراعيه بحركة مسرحيّة وهو يصرخ بطريقة هستيريّة: «أطلق النار يا مارتشيلّو... اقتلني... أجل اقتلني قتلة الكلاب». بدا لمارتشيلّو أنّه لم يبغضه كما أبغضه حينئذ، بكلّ ذلك المزيج المقرف الذي كان فيه من شهوانيّة وصلف، من ندم وشهوة. كان في الوقت نفسه خائفاً وواعياً، كأنّما بدا له أنّ عليه مجاراة طلبات الرجل، وهكذا فقد ضغط على الزناد. تردّد صدى الطلقة في أنحاء الغرفة الصغيرة، فرأى أنّ لينو يسقط على جنبه ثمّ ينهض وقد أدار له ظهره ليتمسّك بكلتا يديه بطرف السرير.

نهض لينو ببطء، وسقط على جانب السرير وبقي بلا حراك. اقترب منه مارتشيلّو، ووضع المسدّس على سريره، ثمّ ناداه بصوت منخفض «لينو»، وتوجّه بعد ذلك نحو الباب دون أن ينتظر الإجابة. لكنّه كان مقفلاً، فتذكّر أن لينو كان قد أخرج المفتاح من القفل ووضعه في جيبه. تردّد، لأنّه اشمئزّ من التفتيش في جيب الميّت، وعندما وقعت عيناه على النافذة، تذكّر أنّه في الطابق الأرضيّ. تسلّق النافذة وأدار رأسه بسرعة ليلقي نظرة طويلة فاحصة ومليئة بالخوف على الساحة وعلى السيّارة الواقفة أمام الأقواس. كان يدرك أنّه إذا مرّ أحدهم في تلك اللحظة، فلا بدّ أن يراه وهو يعتلي عتبة النافذة، ومع ذلك فليس أمامه إلّا هذا الحلّ. لكن لم يكن هناك أحد. وبدا أنّ كلّ شيء مقفر على مدّ النظر، فيما وراء الأشجار المتفرّقة المحيطة بالساحة، وعلى ما يليها من تلال وحقول جرداء. نزل عن العتبة وأخذ حزمة الكتب من على مقعد السيّارة وسار من غير سرعة نحو البوّابة. طيلة وقت مشيه في الشارع المحفوف بأشجار السرو كانت تنعكس في نفسه كما تنعكس في المرآة صورته وهو فتى يرتدي سروالاً قصيراً ويتأبّط كتبه، صورته غير المفهومة والمترعة بحدس مرعوب.


تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

القسم الأوّل

-I-

بيده قبّعته، نزع باليد الأخرى نظّارته السوداء عن أنفه ووضعها في جيب سترته، ودخل مارتشيلّو إلى رواق المكتبة وسأل الحارس أين توجد مجموعات الصحف؟. ثمّ توجّه على غير عجل إلى الدرج العريض الذي كانت تبرق في أعلاه نافذة الفسحة بأضواء أيّار القويّة. كان يشعر أنّه خفيف الروح وفارغ النفس تقريباً، وسط إحساس بالراحة الجسديّة التامّة وحيويّة الشباب السليمة. وكانت البزّة الجديدة التي يرتديها، الرماديّة اللون وذات القصّة البسيطة، تضيف إلى هذا الإحساس شعوراً آخر لا يقلّ متعة بسبب الأناقة الجادّة والناصعة التي دبّرها بحسب ذوقه. بعد أن ملأ استمارة الدخول في الطابق الثاني، توجّه نحو صالة المطالعة، وإلى طاولة كان وراءها بوّاب عجوز وفتاة. انتظر دوره ثمّ سلّم الاستمارة وطلب مجموعة سنة 1920 من كبرى صحف المدينة. انتظر بصبر وهو متكئ على الطاولة، وينظر أمامه نحو صالة المطالعة. كان فيها عدّة صفوف من المقاعد، مصفوفة حتّى آخر الصالة، على كلّ منها مصباح عليه غطاء أخضر. تفحّص مارتشيلّو هذه المقاعد الفارغة في أكثرها، أو التي يجلس إليها بعض الطلبة، ثمّ اختار في ذهنه مقعداً له في صدر الصالة، على اليمين من الخلف. عادت الفتاة وظهرت من جديد وهي تحمل على ذراعيها ملفّاً كبيراً مُجلّداً يضمّ أعداد الصحيفة المطلوبة. أخذ مارتشيلّو الملفّ وذهب إلى المقعد.

وضع الملفّ على سطح المقعد المائل وجلس، وهو يحرص على رفع طرف بنطاله من فوق الركبة بقليل، ثمّ فتح الملفّ بهدوء وبدأ بتصفّحه. رأى أنّ العناوين قد فقدت بريقها الأصليّ وأصبح لونها يميل تقريباً إلى الأسود المخضّر، كما اصفرّت الأوراق وبدت الصور باهتة ومضطربة ولا بروز فيها. ولاحظ أنّه كلّما كانت العناوين كبيرة وممطوطة، كانت تعطي إحساساً بالعبث والسخافة: لأنّها أخبار عن أحداث فقدت أهميّتها ومعانيها في مساء اليوم نفسه الذي ظهرت فيه، وأصبحت الآن صاخبة وغير مفهومة لا تنفر منها الذاكرة فحسب بل الخيال أيضاً. لاحظ أيضاً أنّ أكثر العناوين سخافة كانت تلك التي تحمل تحت الخبر تعليقاً متحيّزاً إلى حدّ ما، وتحمل على التفكير بهلوسات شخص مجنون لأنّها تمزج حيويّةً بإيحاءات مختلفة وليس لها أيّ صدى، كانت، تصمّ الآذان لكنّها لا تلمس المشاعر. قارن مارتشيلّو شعوره إزاء هذه العناوين بالشعور الذي تخيّل أنّه سيشعر به عدما يقرأ العنوان المتعلّق به، وتساءل فيما إذا الخبر الذي هو بصدد البحث عنه سيثير في نفسه معاني السخافة والفراغ نفسها. هذا فيما يتعلّق إذاً بالماضي، لكنّه عندما تابع تقليب الصفحات، وجد أنّ طابعاً مبتذلاً وحقيراً لا بدّ أن يغطّي هذا الضجيج الذي صمت الآن، وهذا الغضب الذي خمد الآن، والبارزين في الصحيفة، على تلك الأوراق المصفرّة التي سرعان ما ستتبعثر وتتحوّل إلى مجرّد غبار. ثمّ فكّر وهو يتابع قراءة الأخبار، بعضها وراء بعض، على تلك الصفحات، أنّ الماضي كان ماضي عنف وخداع ورعونة وأكاذيب، وكانت هذه هي الأشياء الوحيدة التي رأى الناس وقتها أنّها جديرة بالنشر والتي أرادوا أن ينقلوها إلى ذاكرة من يأتي بعدهم. وإذا كانت الحياة الحقيقيّة العميقة غائبة عن تلك الأوراق، فما الذي كان يبحث عنه وهو يفكّر بهذه الأفكار إن لم يكن شهادة عن جريمة؟

لم يكن على عجلة من أمره في إيجاد الخبر المتعلّق به، رغم أنّه يعرف تاريخه على وجه الدقّة وبوسعه أن يجده بحركة واثقة واحدة. ها هو يوم الثاني والعشرون، الثالث والعشرون، الرابع والعشرون من تشرين أوّل من عام ألف وتسعمائة وعشرين، كان يقترب أكثر فأكثر في كلّ صفحة يقلبها، من ذلك الذي يعتبره أهمّ حدث في حياته: لكنّ الصحيفة لم تحضّر الإعلان

عنه، ولم تسجّل مقدّمات له. وبين كلّ الأخبار التي لا تتعلّق به بأيّ شكل، فإنّ الخبر الوحيد الذي يتعلّق به سيبرز فجأة ومن غير مقدّمات، كما تبرز إلى السطح ومن أعماق البحر سمكة مملّحة تجري وراء طعم. حاول أن يمزح بالتفكير: «بدلاً من هذه العناوين العريضة عن الأحداث السياسيّة، كان عليهم أن يقولوا ويطبعوا: قابل مارتشيلّو لينو للمرّة الأولى، طلب مارتشيلّو منه المسدّس، قبل مارتشيلّو ركوب السيّارة». لكنّ المزاح مات فجأة في ذهنه وقطع أنفاسه اضطراب مباغت: فقد وصل إلى التاريخ الذي يبحث عنه. قلب الصفحة بسرعة، فوجد الخبر كما كان يتوقّع في زاوية الجرائم، وذلك بعنوان على عمود: حادث مميت.

نظر حوله قبل أن يبدأ بالقراءة، كأنّما يخشى من أحد يراقبه. ثمّ خفض بصره على الجريدة. يقول الخبر: بالأمس، وأثناء تنظيف مسدّسه أطلق السائق باسكواله سيمينارا، القاطن في شارع ديلّا كاميلّوتشا رقم 33، بضع طلقات عن غير قصد. وقد تمّ إنقاذ سيمينارا على الفور، فنقل إلى مستشفى سانتو سبيريتو حيث وجد الأطباء أنّه قد أصيب بطلق ناري في صدره، في اتّجاه القلب، ورأوا أنّه في حال ميؤوس منها. وفي الواقع، على الرغم من الرعاية التي قدّمت له، فقد توقّف سيمينارا في المساء عن الحياة. ففكّر مارتشيلّو على الفور وهو يعيد قراءة الخبر أنّه ما كان لهذا الخبر أن يكون موجزاً أكثر ولا تقليدياً بصورة أشدّ. ومع هذا، ورغم الصيغ البالية التي تسم الصحافة غير المميّزة، فإنّه تكشّف له عن حقيقتين مهمّتين. الأولى هي أنّ لينو قد مات حقّاً، وهو وإن كان على قناعة بالأمر فإنّه لم يملك الشجاعة على تأكيده، والثانية أنّ هذه الميتة قد نُسبت إلى مصيبة عرضيّة، وذلك بناءً على أقوال صريحة أدلى بها الرجل وهو يحتضر. وهكذا فإنّه كان في منأى عن أيّ نتيجة تترتّب على الأمر. فقد مات لينو، ولا يمكن أن يعزى إليه سبب الميتة.

لكن لم يتّخذ قراره أخيراً بالبحث في المكتبة عن أخبار أمر حدث منذ سنوات عديدة، لمجرد طمأنة نفسه. فقلقه، الذي لم يهدأ أبداً خلال تلك السنوات، لم يأخذ البتّة في الاعتبار عواقب الأمر المادّية. ومع ذلك، فهو قد عبر في ذلك اليوم عتبة المكتبة، ليعرف ما هو الشعور الذي سيلهمه إيّاه التأكّد من موت لينو. وقد فكّر أنّه من خلال هذا الشعور، سيعرف ما إذا لا

زال صبيّ ذلك الزمان، المهووس بقدره غير الاعتياديّ، أو أنّه أصبح ذلك الرجل الاعتياديّ تماماً الذي أراد لاحقاً أن يكونه، والذي كان مقتنعاً بأنّه أصبح كذلك.

لذلك فقد شعر بارتياح فريد، وربّما بالدهشة أكثر من الارتياح، عندما رأى أنّ الأخبار التي طبعت قبل سبع عشرة سنة، على أوراق اصفرّت الآن، لم تثر أيّ صدى معتبر في نفسه. ففكّر أنّ ما حدث له يشبه مَن وضع لوقت طويل رباطاً على جرح عميق أصابه، ثمّ قرّر في النهاية أن ينزع الرباط، واكتشف وسط دهشته العارمة، أنّ جلده كان ناعماً وطبيعيّاً ولا يظهر أيّ أثر من أيّ نوع، رغم أنّه كان يتوقّع وجود ندبة واحدة على الأقلّ. كما فكّر أنّ البحث عن الخبر في الصحف كان مثل نزع الرباط، كما أنّ اكتشاف عدم تأثره يعني اكتشاف أنّه قد شفي. أمّا كيف حدث هذا الشفاء، فهو لا يعرف عن ذلك شيئاً. لكن لا شكّ أنّه لم يكن مرور الوقت هو الذي تمخّض عن هذه النتيجة. فالكثير يعود أيضاً إلى نفسه، إلى إرادته الواعية، التي صمّمت خلال كلّ تلك السنين على الخروج من عدم الاعتياديّة لتصبح شبيهة بالآخرين.

لمزيد من التمحيص رفع عينيه عن الصحيفة وأخذ يحدّق في الفراغ، وأراد مع ذلك أن يفكّر بوضوح في ميتة لينو، وهذا ما كان دائماً يتحاشاه بالغريزة حتّى ذلك الحين. وإذا كان خبر الصحيفة قد كتب باللغة الإخباريّة التقليديّة التي تكتب بها الأخبار اليوميّة، فهذا يمكن أن يكون سبباً للّامبالاة والسلبيّة، لكنّ استعادة ذكرى الخبر لا يمكن إلّا أن تكون حيّة وحسّاسة، أي قادرة لهذا على أن تبعث في النفس المخاوف القديمة، إذا كانت ما تزال موجودة. وهكذا أخذ يستعيد مساره الطفوليّ ويستسلم برفق ولين إلى ذكرياته وهي تقوده، مثل دليل حياديّ لا يشفق، نحو الوراء عبر الزمن: لقاؤه الأوّل مع لينو في الشارع، رغبته في امتلاك مسدّس، وعود لينو، زيارة الفيلّا، اللقاء الثاني مع لينو، هوس الرجل الشديد وشذوذه في ممارسة الجنس، هو عندما صوّب المسدس، الرجل وهو يصرخ بشكل مسرحيّ، وذراعاه ممدودتان، راكعاً بجانب السرير: «اقتلني يا مارتشيلّو... اقتلني قتلة الكلاب»، ثمّ هو كأنّه يطيع عندما أطلق النار، والرجل الذي سقط على السرير ثمّ نهض ثمّ بقي بلا حراك وهو مائل على جنبه. أدرك مباشرة كلّ هذه التفاصيل وهو

يتفحّصها قسماً قسماً بعدما تأكّدت وتوسّعت بسبب عدم حساسيّته وهو يقرأ خبر الصحيفة. ليس هذا فقط، بل إنّه لم يشعر في الواقع بشيء من الندم، ولا لامست سطح ضميره الجامد مشاعر الشفقة والحقد والقرف من لينو والتي بدا له لوقت طويل أنّها لا تنفصل عن تلك الذكرى. أي إنّه، باختصار، لم يكن يشعر بشيء، ولم يكن لرجل عار وعاجز مستلق إلى جانب امرأة شهيّة، أن يكون أبلد منه وهو أمام ذلك الحدث البعيد في حياته.

لكنّه كان يشعر بالسرور من هذه اللامبالاة، لأنّها تدلّ بلا أدنى شكّ على أنّه لم يعد هناك أيّ علاقة، لا خفيّة، ولا غير مباشرة، ولا حتّى نائمة، بين الفتى الذي كانه وبينه الآن وقد أصبح شابّاً. لقد أصبح الآن مختلفاً، هذا ما فكّر به من جديد وهو يغلق الملفّ ببطء وينهض عن المقعد، ورغم أنّ ذاكرته كانت قادرة على أن تتذكّر بطريقة آليّة كلّ ما حدث في شهر تشرين أوّل البعيد ذلك، فإنّ شخصه بجميع أنحائه وفي أعمق أليافه وأدقّها، قد نسي ذلك بالفعل.

ذهب على غير عجل نحو الطاولة ليعيد الملفّ إلى أمينة المكتبة. ثمّ خرج من صالة المطالعة وتوجّه نحو الممرّ، وهو على ما يفضّله دائماً من الهدوء الذي يدلّ على حسن التدبير والحيويّة. كان صحيحاً، عندما أطلّ من العتبة على الضوء الباهر في الشارع، رأى أنّه لم يتمكّن إلّا أن يفكّر حقّاً أنّ الخبر واستعادة واقعة ميتة لينو لم يثيرا في نفسه أيّ صدى، ومع ذلك فهو لم يشعر بالطمأنينة نفسها التي بدا له في البداية أنّه يشعر بها. وهكذا فقد تذكّر الشعور الذي شعر به وهو يقلّب صفحات الجريدة القديمة: كما لدنّ نزع الأربطة عن جرح قديم ورؤيته وقد شفي بالكامل. فقال في نفسه إنّ العدوى القديمة ما زالت ربّما تستعر على شكل خرّاج مغلق وغير مرئيّ تحت الجلد السليم. وقد أكّدت له هذه الشكوك سعة تلاشي الارتياح الذي شعر به للحظة عندما اكتشف أنّه لم يبال بموت لينو، فضلاً عن شعوره بشيء من الكآبة الداكنة التي تنتصب بين بصره والواقع، كأنّها خمار جنائزيّ شفّاف. كما لو أنّ ذكرى حادثة لينو لا تزال تلقي بظلالها على كلّ أفكاره ومشاعره، على الرغم من أنّها انحلّت بفعل أحماض الزمن القويّة.

حاول وهو يمشي الهوينى عبر الشوارع المزدحمة والمليئة بأشعّة

الشمس، أن يقيم مقارنة بين نفسه قبل سبع عشرة سنة وبين نفسه الآن. تذكّر أنّه عندما في الثالثة عشرة كان فتى خجولاً، مخنّثاً إلى حدّ ما، حسّاساً سريع التأثّر، فوضويّاً، يعيش في تخيّلاته، وعاطفيّا متهوّراً. أمّا الآن في الثلاثين من عمره، فهو رجل غير خجول على الإطلاق بل واثق كلّ الثقة وإلى أبعد حدّ من نفسه، وهو كامل الرجولة في أذواقه وأفعاله، هادئ، ومنظّم السلوك إلى أبعد حدّ، وكأنّما أنّه لا يتمتّع بأيّ خيال، منضبط وبارد الأعصاب. وبدا له أنّه يتذكّر وجود ثراء مضطرب وغامض في نفسه. أمّا الآن فكلّ شيء واضح فيه، رغم أنّه باهت بعض الشيء. كما حلّ فقر وتصلّب بعض أفكاره وقناعاته، محلّ تلك الوفرة السخيّة والمضطربة. وفي النهاية فهو كان ميّالاً إلى الانفتاح واللطف، وبشكل مبالغ فيه أحياناً. أمّا الآن فهو شخص منغلق على نفسه، صامت، بمزاج غير متغيّر، غير مرح، إن لم يكن حزيناً حقّاً. لكنّ السمة الأبرز التي ميّزت ذلك التغيير الجذريّ الذي حدث خلال تلك السنوات السبع عشرة، كانت اختفاء ذلك النوع من الحيويّة الزائدة التي كانت تتشكّل بسبب ما يغلي فيه من غرائز غير عاديّة، بل وربما غير طبيعيّة. بينما يبدو أنّه قد حلّت محلّها الآن أمور طبيعيّة منصاعة ورماديّة. ثمّ فكّر أيضاً أنّ الصدفة وحدها هي التي حالت دون خضوعه لرغبات لينو. وبالتأكيد، وبالإضافة إلى الجشع الطفوليّ، فإن اضطراب الحواس غير الواعي قد ساهم في تحديد سلوكه مع السائق، المليء بالغنج والتعسّف الأنثويّ. لكنّه اصبح الآن رجلاً بكلّ معنى الكلمة، رجلاً مثل غيره من الرجال. وقد وقف أمام مرآة أحد المحلّات ونظر مطوّلاً إلى نفسه، وراقبها من مسافة الموضوعيّة وعدم الإعجاب بالنفس. أجلّ إنّه رجل مثل كثيرين غيره، بثيابه الرماديّة، وربطة عنقه الأنيقة، وشكله الطويل والمتوازن، ووجهه الأسمر المستدير وشعره ذي التسريحة اللائقة، ونظّارته السوداء. وهنا تذكّر أنّه اكتشف في الجامعة، وبنوع من السرور، أنّ هناك ألف شابّ على الأقلّ في عمره، كانوا يتكلّمون ويفكّرون ويتصرّفون ويلبسون جميعاً تماماً كما يفعل هو. ولا بد أنّ هذا العدد قد تضاعف الآن مليون مرّة على الأقلّ. إنّه رجل طبيعيّ اعتياديّ، وقد لاحظ ذلك بسرور حادّ مليء بالريبة، لا شكّ في ذلك، رغم أنّه لا يستطيع أن يقول كيف حدث ذلك.

تذكّر فجأة أنّه أنهى سجائره فدخل إلى محلّ التنباك في غاليريا ساحة كولونّا. توجّه إلى البائع وطلب سجائره المفضّلة، في تلك اللحظة بالذات طلب ثلاثة أشخاص آخرين النوع نفسه من السجائر، وبسرعة وضع البائع على رخام طاولته أربع علب متشابهة أمام الأيدي الأربع التي كانت تمتدّ بثمنها قبل أن تتناولها منه بحركات متشابهة. لاحظ مارتشيلّو أنّه تناول العلبة وجسّها ليتحقّق أنّها طريّة بما يكفي قبل أن يفتحها بالطريقة نفسها التي فتحها الثلاثة الآخرون. ولاحظ أيضاً أنّ اثنين من الثلاثة وضعا العلبة في جيب السترة الداخليّة، كما فعل هو. في النهاية توقّف واحد من الثلاثة عند خروجه من محلّ التنباك ليشعل سيجارته بولّاعة فضّيّة، تشبه ولّاعته تمام الشبه. أثارت هذه الملاحظات في نفسه سروراً يصل إلى مستوى الشبق. أجل، إنّه مثل الآخرين، مثل الجميع. مثل أولئك الذين اشتروا سجائر من النوع نفسه، وبحركاته نفسها، ومثل أولئك الذين استداروا مثله عند مرور امرأة ترتدي ثوباً أحمر ليتلصّصوا، كما فعل هو، على اهتزاز ردفيها المتماسكين تحت قماش ثوبها الرقيق. رغم أنّ التشابه في هذه الحركة الأخيرة كاد أن يكون بالنسبة إليه عملاً ناجماً عن التقليد أكثر منه نابعاً عن تطابق ميول متماثلة.

جاء نحوه بائع جرائد قصير ومشوّه الجسم، يحمل حزمة من الصحف على ذراعه، وقد ظهر الجهد على وجهه وهو يلوّح بنسخة منها، ويصرخ بأعلى صوته بعبارة غير مفهومة، لكن يمكن استنباط كلمتين منها، هما النصر وإسبانيا. اشترى مارتشيلّو الصحيفة، وقرأ بانتباه العنوان الذي غطّى كلّ الصفحة: الفرانكيّون يحقّقون نصراً جديداً في حرب إسبانيا. لاحظ أنّه قرأ هذا الخبر بسرور مؤكّد، وهذا كان، على ما لاحظ، دليلاً جديداً على كونه اعتيادياً بصورة كاملة ومطلقة. وكان قد رأى ولادة الحرب في أوّل عنوان منافق: «ماذا يحدث في إسبانيا»، ثمّ توسّعت تلك الحرب وتضخّمت، وتحوّلت إلى نزاع، ليس بالسلاح فقط، بل بالأفكار أيضاً. وقد لاحظ أنّه يشارك في ذلك شيئاً فشيئاً بمشاعر فريدة، منفصلة تماماً عن أيّ اعتبار سياسيّ وأخلاقيّ (رغم أنّ تلك الاعتبارات كانت تحضر أغلب الأحيان في ذهنه)، وشبيهة جدّاً بمشاعر رياضيّ متحمّس منحاز لفريق معيّن في مباراته ضدّ فريق آخر. وكان قد رغب منذ البداية أن ينتصر فرانكو، دون أيّ

حنق ولكن بإصرار وعناد عميقين، كما لو أنّ ذلك النصر سيقود إلى تأكيد سلامة وعدل ذوقه وأفكاره وليس في مجال السياسة فقط، بل في غير ذلك من المجالات أيضاً. بل إنّه كان يتمنّى ربّما، ولا يزال يتمنّى انتصار فرانكو ليرى في الأمر نوعاً من التناسق: مثله مثل شخص يهتمّ، أثناء تأثيث منزله، بأن يضع فيه أثاثاً من الطراز نفسه. وقد بدا له أنّه قرأ هذا التناسق في حقائق السنوات الأخيرة، التي توالت بوضوح متزايد وبأهمّية متزايدة: بداية من صعود الفاشيّة في إيطاليا، ثمّ في ألمانيا، ثمّ حرب إثيوبيا، ثمّ حرب إسبانيا. كان يعجبه هذا التقدّم، لكنّه لم يكن يعرف السبب، ربّما لأنّه من السهل أن يرى فيه منطقاً أكثر من بشريّ، وأن يعرف المرء رؤية ذلك يعطيه مشاعر أمن وصواب لا يخطئ. ثمّ فكّر وهو يطوي الصحيفة ويضعها في جيبه، أنّه لا يمكن من ناحية أخرى القول إنّه كان مقتنعاً بسلامة قضيّة فرانكو لأسباب سياسيّة أو دعائيّة. فتلك القناعة جاءته من فراغ، كما يُظنّ أنّها تأتي لأناس عاديّين وجهلة، أي من الهواء، باختصار، ذلك كما يقال إنّ فكرة معيّنة هي في الهواء. كان يؤيّد فرانكو كما يؤيّده كثير من الناس العاديّين جدّاً، الذين لا يعرفون إلّا القليل أو لا يعرفون شيئاً عن إسبانيا، الذين لا يقرؤون إلّا عناوين الصحف، أي غير المثقّفين. أي تعاطفاً فقط، مع إعطاء هذه الكلمة معاني انعدام التفكير، وغير المنطقيّ، وغير العقلانيّ. وهو تعاطف يبقى في معانيه المجازيّة، الآتية من الهواء. لكنّ الهواء يحتوي على لقاح الزهور ودخان البيوت والغبار والضوء، لكن ليس الأفكار. أي إنّ هذا التعاطف يأتي من مناطق عميقة ويبرهن مرّة أخرى على أنّ اعتياديّته ليست سطحيّة، ولا تدخل طوعاً ضمن نطاق العقلانيّة وطوعيّاً، بل لأسباب ودوافع مشكوك فيها، ولكنّها مرتبطة بنوع من الإيمان، وبحال غريزيّة تكاد تكون فيزيائيّة، وكان هو يتشارك فيها مع ملايين الأشخاص الآخرين. كان يشكّل جزءاً لا يتجزّأ مع المجتمع ومع الناس الذين وجَد أنّه يعيش بينهم، أي إنّه لم يكن وحيداً في أمره، ولا غير اعتياديّ، ولا مجنوناً، بل كان واحداً منهم، أخاً، مواطناً، رفيقاً. هذا، بعد أن كان يخشى شدّ ما يخشى أن يفصله قتل لينو عن بقيّة البشريّة، لذلك فقد كان في هذا قدر عال من المواساة.

فرانكو أو غيره. فكّر من جديد: على كلّ هذا لا يهمّ كثيراً على أن يكون

هناك رابط، أو جسر، أو علامة على صلة أو وحدة. لكّن كونه فرانكو وليس غيره يدلّ على أنّه علامة على وجود شراكة وصحبة، فضلاً عن أنّ مشاركته العاطفيّة في حرب إسبانيا كانت أمراً حقيقيّاً بالفعل وصحيحاً. فماذا يمكن أن تكون الحقيقة في الواقع إن لم يكن أمراً واضحاً للجميع، يصدّقه الجميع ويعتبرونه أكيداً لا غبار عليه. وهكذا فإنّ السلسلة كانت متواصلة، بحلقاتها التي تتلاحم بتعاطفه، وتسبق كلّ تفكير، وكلّ وعي بأنّ ملايين الأشخاص يشتركون في هذا التعاطف بالطريقة نفسها. ينتقل تمر بعد ذلك من هذا التصديق إلى الاعتقاد بأنّنا في جانب الحقّ، ومن الاعتقاد بأنّنا في جانب الحقّ إلى العمل. لأنّ امتلاك الحقيقة لا يسمح بالعمل فقط، لكنّه، على ما رأى، كان يفرضه. كأنّ هذا تأكيد على اعتياديّته أمام نفسه والآخرين، تأكيد يحتاج بالفعل إلى التعميق وإعادة التأكيد والإثبات بشكل مستمرّ.

لقد وصل الآن. كان باب الوزارة ينفتح على ما وراء الشارع، وبعد صفّ مزدوج من السيّارات والحافلات المتحرّكة. انتظر لحظة ثم انطلق على إثر سيّارة سوداء كبيرة كانت متّجهة نحو الباب. دخل وراء السيّارة، قال للبوّاب اسم الموظّف الذي كان يريد أن يكلّمه ثمّ جلس في قاعة الانتظار، وكأنّه مسرور لأنّه ينتظر مثل غيره وبين غيره. لم يكن يشعر بالعجلة ولا بفراغ الصبر ولا بعدم التسامح مع النظام وإتيكيت الوزارة. لا بل كان معجباً بذلك النظام والإتيكيت، لأنّهما دليل على نظام وإتيكيت أوسع وأعمّ يمكن له أن ينسجم معهما بكلّ سرور. كان يشعر أنّه هادئ وبارد. إذا لم نقل إنّه كان حزيناً بعض الشيء، لكنّ هذا ليس جديداً عليه أيضاً. كان هذا الحزن غامضاً، وهو يعتبره الآن أمراً غير منفصل عن شخصيّته. لقد كان حزيناً على الدوام بتلك الطريقة، أو أنّ السرور كان بالأحرى ينقصه، مثل بعض البحيرات المحاطة بجبل مرتفع ينعكس ظلّه على مياهها فيمنع عنها ضوء الشمس ويجعلها سوداء حزينة. ومن المعروف أنّه لو أزيل الجبل، فإنّ الشمس ستجعل المياه تبتسم، لكنّ الجبل باق هناك والبحيرة ستبقى حزينة. كان هو حزيناً مثل تلك البحيرات، لكن إلى ماذا يرمز الجبل، هذا ما لا يعرفه.

كانت قاعة الانتظار، وهي غرفة صغيرة ملحقة بباب حراسة البناء، مليئة بأشخاص غير متجانسين، على عكس ما قد يتوقّعه المرء من غرفة انتظار

وزارة من هذا القبيل، تشتهر بأناقة موظّفيها واجتماعيّتهم. كان هناك ثلاثة أشخاص شرهين وذوي مظهر منكر، من المحتمل أن يكونوا مخبرين وعملاء في ثياب مدنيّة، كانوا يدخّنون ويتهامسون بأصوات منخفضة قرب امرأة شابّة بشعر أسود، وجهها أحمر وأبيض، متزيّنة وترتدي ملابس صارخة، فهي على ما يبدو امرأة سيّئة السمعة ومن أدنى نوع. وكان هناك أيضاً رجل عجوز يرتدي ملابس سوداء لائقة رغم أنّها بائسة، شعر شاربه ولحيته أبيض، ربّما كان أستاذاً. فضلاً عن امرأة نحيلة شعرها رماديّ وتعابير وجهها مجهدة وقلقة، ربّما كانت أمّاً. ثمّ هو.

راقب بخفاء وبأحاسيس قرف شديد كلّ أولئك الناس. هذا ما يحدث بالفعل أغلب الأحيان: فهو يفكّر أنّه اعتياديّ وطبيعيّ، يشبه جميع الآخرين، عندما يتصوّر الناس بشكل مجرّد، كأنّهم جيش كبير إيجابي تجمع بين أفراده المشاعر نفسها، والأفكار نفسها، والأهداف نفسها، ويثير السرور الانتماء إليه. لكن عندما يبرز الأفراد من بين الحشد، تتحطّم أوهام الاعتياديّة على صخرة الاختلاف، فيرى أنّه ليس منهم، ويشعر بالقرف منهم والانفصال عنهم. فماذا يجمع بينه وبين هؤلاء الثلاثة الأوغاد والمبتذلين، بينه وبين امرأة الطريق تلك، بينه وبين ذلك الرجل ذي الشعر الأبيض، بينه وبين تلك الأمّ المجهدة المتراخية؟ لا شيء، سوى هذا القرف وهذه الشفقة. هتف صوت البوّاب: «كليريشي». فارتعب ونهض على قدميه. «أوّل درج على اليمين». فتوجّه من غير أن يلتفت نحو المكان المرسوم.

صعد على درج عريض جدّاً تتعرّج وسطه سجّادة حمراء ليجد نفسه، بعد العتبة الثانية، على فسحة واسعة فيها ثلاثة أبواب مزدوجة كبيرة. توجّه إلى الباب الأوسط وفتحه فوجد نفسه في غرفة ذات إضاءة خافتة. كان فيها طاولة طويلة ضخمة، يوجد في وسطها خارطة العالم. تجوّل مارتشيلّو قليلاً في هذه القاعة التي كانت على الأرجح خارج الاستخدام كما تدلّ على ذلك مصاريع النوافذ المغلقة والأغطية الموضوعة فوق الأرائك المصفوفة قرب الجدران، ثمّ فتح واحداً من الأبواب الكثيرة، فأطلّ على ممرّ مظلم وضيّق يمرّ بين صفّين من الرفوف الزجاجيّة. كان هناك في نهاية الممرّ باب موارب يتسرّب منه قليل من الضوء. اقترب مارتشيلّو، تردّد ثمّ دفع الباب

قليلاً وبالتدريج. لم يفتحه بسبب أيّ فضول، بل كان يريد أن يجد بوّاباً يدلّه على الغرفة التي يبحث عنها. عندما نظر من شقّ الباب أدرك أنّ شكوكه في أنّه أخطأ المكان لم تكن في غير محلّها. وجد أمامه غرفة طويلة وضيّقة، يصلها ضوء خافت من نافذة مموّهة باللون الأصفر. كان هناك أمام النافذة طاولة يجلس عليها شابّ عريض الوجه، ضخم الجسم. كان يجلس بصورة جانبيّة وظهره إلى النافذة. كما رأى مارتشيلّو مقابل الطاولة امرأة من ظهرها، ترتدي فستاناً خفيفاً عليه ورود سوداء كبيرة بخلفيّة بيضاء، وتضع قبّعة سوداء كبيرة مزيّنة بالدانتيل وخماراً على رأسها. كانت طويلة جدّاً ورفيعة جدّاً عند الخصر، لكنّها عريضة المنكبين والردفين، لها ساقان طويلتان بكاحلين رفيعين. كانت منحنية على الطاولة وتتحدّث بهدوء إلى الرجل الذي كان يستمع إليها وهو ثابت في جلوسه، مستدير الجانب، ولم يكن ينظر إليها بل إلى يده التي كان يحرّك بها قلم رصاص على سطح الطاولة. ثمّ جاءت ، ، وقفت بجانب الكرسيّ، مقابل الرجل، وسندت ظهرها على الطاولة، ووجهها إلى النافذة ، في وقفة وديّة، لكنّ قبّعتها السوداء المائلة فوق عينيها منعت مارتشيلّو من رؤية وجهها. تردّدت، ثم انحنت بجنبها وبحركة مضحكة، فرفعت إحدى ساقيها، كما يفعل المرء عندما ينحني أمام النافورة ليتدفّق ماؤها في فمه، وبحثت بشفتيها عن شفتي الرجل الذي تركها تقبّله لكن دون أن يتحرّك أو يقدّم إشارة تدلّ على إعجابه بالقبلة. ثمّ انقلبت إلى الوراء وهي تخفي وجهها ووجه الرجل بدائرة القبّعة العريضة، وكادت أن تفقد توازنها لو أنّ الرجل لم يمسك بخصرها بذراعه. هي الآن واقفة، تخفي بجسمها الرجل الجالس، ولربّما كانت تداعب رأسه. كانت ذراع الرجل تحيط بكلّ خصرها، ثمّ بدا وكأنّه ليّن قبضته، فانسحبت يده السميكة والضخمة، كما لو بسبب ثقلها، وانزلقت على ردف المرأة وبقيت مفتوحة فوقه بأصابعها العريضة، مثل سلطعون أو عنكبوت واقف على سطح كرويّ أملس لا يسمح بالتشبّث به. فأغلق مارتشيلّو الباب من جديد.

رجع من حيث أتى، فعبر الممرّ إلى قاعة خارطة الأرض. لقد أكّد ما رآه للتوّ سمعة الوزير بأنّه رجل متحرّر، ذلك أنّه كان الوزير بالذات هو الرجل الذي لمحه في الغرفة، وقد تعرّف عليه مارتشيلّو على الفور. لكنّ الغريب

أنّه رغم ولعه بالأخلاق، فإنّ ما رآه لم يؤثّر أبداً بشيء من قناعاته. لم يكن مارتشيلّو يشعر بأيّ تعاطف مع هذا الوزير الدنيويّ، زير النساء، بل كان على العكس من ذلك يكرهه. لأنّ تداخل الحياة الجنسيّة مع حياة المكتب هو أمر غير مقبول في رأيه إلى حدّ كبير. ورغم ذلك فإنّ هذا كلّه لم يؤثّر أدنى تأثير على آرائه السياسيّة. كان الأمر مشابهاً لما كان يسمعه من أشخاص جديرين بالثقة، من أنّ شخصيّات مهمّة أخرى كانوا يسرقون أو كانوا غير أكفّاء أو يستغلّون المناصب السياسيّة لأغراض شخصيّة. كان يسجّل هذه الأخبار بشعور كئيب باللامبالاة، وكأنّها أمور لا علاقة له بها، بما أنّه قد حسم اختياره مرّة إلى الأبد، ولا ينوي تغيير ذلك. كما أنّه كان يشعر أنّ هذه الأمور لا تثير دهشته لأنّه قد تغاضى عنها، بمعنى ما، منذ زمن سحيق، بواسطة معرفته المبكّرة بصفات البشر غير المحبّبة. ولكنّه أحسّ، قبل كلّ شيء، أنّه لا يمكن أن توجد أيّ علاقة بين ولائه للنظام والأخلاق الصارمة للغاية التي كانت تسيّر سلوكه: فدواعي هذا الإخلاص لها جذور أعمق من جذور أيّ معيار أخلاقيّ، ولا يبدو أنّها ستهتزّ جرّاء يد تلمس ورك أنثى في مكتب حكوميّ، أو سرقة، أو بسبب أيّ جريمة، أو غير ذلك من الأخطاء. أمّا ماذا كانت تلك الجذور، فهذا ما لم يكن ليتمكّن من تحديده بدقّة. فقد كان يقف بينها وبين فكره حجاب باهت ومعتم من حزنه الصلف.

ذهب، ببرودة أعصاب وهدوء ونفاد صبر، إلى باب آخر من القاعة، فلمح ممرّاً آخر، فانسحب، ثمّ حاول في الباب الثالث، فأطلّ أخيراً على غرفة الانتظار التي كان يبحث عنها. كان الناس يجلسون على الأرائك المصفوفة حول الجدران ، ويقف عدد من البوّابين عند العتبات. فأبلغ أحد هؤلاء البوّابين بصوت منخفض اسم الموظّف الذي يريد أن يزوره، ثمّ ذهب ليجلس على إحدى الأرائك. فتح الصحيفة من جديد ليمضي فترة الانتظار. كان خبر الانتصار في إسبانيا يغطّي كلّ الأعمدة، ولاحظ أنّ الأمر يزعجه لما فيه من مغالاة أملاها ذوق مشكوك في أمره. قرأ من جديد الخبر المكتوب بأحرف غامقة والذي يعلن عن الانتصار، ثمّ انتقل إلى رسالة طويلة مكتوبة بالأحرف المائلة لكنّه سرعان ما تركها لأنّ المراسل الحربيّ كتبها بأسلوب متصنّع وعسكريّ زائف أثار حفيظته. تساءل بعد ذلك كيف يمكن له أن

يكتب هو نفسه تلك الرسالة، فتفاجأ أنّه يفكّر لو أنّ الأمر تعلّق به، لكانت هذه المقالة حول إسبانيا، بل كلّ نواحي النظام، من أقلّها إلى أكثرها أهميّة، مختلفة كلّ الاختلاف. ورأى أنّه في الواقع لا يوجد شيء تقريباً في النظام إلّا ولا يعجبه بصورة عميقة. على كلّ كانت هذه طريقه، وعليه أن يخلص لها. ففتح الصحيفة من جديد وقرأ على عجالة أخباراً أخرى، وحرص على أن يتجنّب المقالات الوطنيّة والدعائيّة. ثمّ رفع عينيه أخيراً عن الصحيفة ونظر فيما حوله.

لم يبق في الصالة في تلك اللحظة إلّا سيّد عجوز، رأسه مستدير وشعره أبيض ووجهه ضخم يميل إلى تعابير بين الصلف والقتامة والخبث. يرتدي ملابس فاتحة، ويرتدي سترة رياضيّة شبابيّة منفرجة في الظهر، وينتعل حذاءً ضخماً بنعل من مطّاط، ويضع ربطة عنق بلون برّاق على صدره، ويبدو أنّه من أهل البيت في هذه الوزارة، خاصّة وأنّه أخذ يسير جيئة وذهاباً وينادي بلا مبالاة وبفراغ صبر في صيغة مزاح على البوّابين الذين يبدون له كلّ احترام وهم واقفون على عتبات الأبواب. ثمّ فتح أحد الأبواب فخرج منه رجل أصلع في منتصف العمر، وكان نحيفاً إلّا في بطنه البارز، وعيناه غائرتان في كيسين أسودين، وكان وجهه هزيلاً أصفر، وتعلو ملامحه الحادّة تعابير سرعان ما يبدو عليها التشكّك والمزاح. ذهب الرجل العجوز على الفور لملاقاته بشيء من الاحتجاج المازح، فاحتفل به الآخر بتحيّة احترام، ثمّ أخذ العجوز بحركة وديّة الرجلَ ذا الوجه الأصفر من خصره وليس من ذراعه، كأنّما يأخذ بخصر امرأة، وسار بجانبه في الصالة، وبدأ يتحدّث معه بصوت خافت جدّاً، وبنبرة همس وعلى عجالة. تابع مارتشيلّو المشهد بعين لامبالية. لكنّه ما لبث أن أدرك بغتة ووسط دهشته البالغة أنّه يشعر بنوع من البغضاء الشديدة لهذا العجوز، من غير أن يعرف سبباً للأمر. لم يكن مارتشيلّو يجهل أنّه يمكن أن تبرز على السطح الميّت من لا مبالاته المعتادة، وفي أيّ لحظة، ولأسباب متعدّدة وغير متوقّعة، مشاعر الكراهيّة المفرطة، كما يبرز وحش من بحر ساكن. ولكنّه كان يتفاجأ في كلّ مرّة بأنّه كأنّما إزاء جانب مجهول من شخصيّته، يكذّب كلّ الجوانب الأخرى المعروفة والمؤكّدة. وهكذا فقد شعر أنّ بوسعه مثلاً أن يقتل ذلك العجوز أو أن يحرّض بسهولة على قتله،

لا بل إنه يريد قتله. لماذا؟ ففكّر لأنّ السلبيّة والتشكّك، وهو العيب الذي يكرهه أكثر من غيره، كان مرسوماً بوضوح على ذلك الوجه المحمرّ. أو لأنّ هناك في ظهر سترته ذلك الشقّ، فما أن يضع العجوز يده في جيبه حتّى يرفع طرف السترة ويتوسّع ويعرض جدّاً بحيث يكشف البنطال من خلفه، ويعطي انطباعاً مقرفاً كأنّه مانيكان في واجهة محلّ خياطة. على كلّ فقد شعر بالكراهية نحوه وبشدّة لم يحتملها ممّا اضطرّه إلى خفض بصره من جديد على الصحيفة. عندما رفعه من جديد بعد لحظة طويلة كان العجوز ورفيقه قد اختفيا وأصبحت الصالة مقفرة فارغة.

بعد قليل جاء أحد البوّابين وهمس في أذنه أنّ بوسعه أن يمرّ فنهض مارتشيلّو وتبعه. فتح البوّاب أحد الأبواب وتركه يدخل. وجد مارتشيلّو نفسه في غرفة واسعة، على سقفها وجدرانها رسوم جداريّة، وفي صدرها طاولة عليها أوراق مبعثرة. جلس وراء الطاولة الرجل ذو الوجه الأصفر الذي لمحه في الصالون. وإلى جانبه رجل آخر يعرفه مارتشيلّو حقّ المعرفة، فهو رئيسه المباشر في المخابرات. عند رؤية مارتشيلّو، نهض الرجل ذو الوجه الأصفر، وهو أحد معاوني الوزير، واقفاً على قدميه. أمّا الثاني فقد حيّاه بإشارة من رأسه وهو جالس. وكان هذا رجلاً هرماً نحيلاً، يحمل طابعاً عسكريّاً، وجهه أحمر وخشبيّ المظهر، وله شارب ذو كثافة زائفة كأنّه قناع، ويشكّل على ما رأى نقيضاً تامّاً للمعاون. فهو في الواقع، وعلى حدّ علمه، كان رجلاً مخلصاً وصلباً وصادقاً، اعتاد على تقديم خدماته دونما نقاش، ويضع ما يعتبر أنّه واجب عليه، فوق كلّ شيء، حتّى فوق ضميره. بينما كان المعاون، على ما يذكر، رجلاً من نوع أحدث ومختلف تمام الاختلاف: فقد كان طموحاً ومتشكّكاً واجتماعيّاً، يحبّ المكائد إلى حدّ القسوة، وخارج أيّ التزام مهنيّ ووراء حدود الضمير. كان مارتشيلّو يتعاطف بالطبع مع العجوز، خاصّة بسبب ذلك الحزن الغامض نفسه الذي يصيبه أغلب الأحيان، والذي بدا له أنّه يراه على ذلك الوجه الأحمر الهزيل. ولربّما كان الكولونيل باوديتو يشعر مثله بالتناقض بين الإخلاص الثابت والمسحور نوعاً ما والذي لا يتمتّع بأيّ منطقيّة، وبين جوانب الواقع اليوميّ، المؤسفة في كثير من الأحيان. لكنّه عاد وفكّر عندما نظر إلى الرجل العجوز، أنّ ذلك كان مجرّد وهم. وأنّه نسب

مشاعره إلى رئيسه، كما يحدث عادة، بدافع التعاطف، على أمل ألّا يكون هو الوحيد الذي يشعر بها.

قال الكولونيل بجفاء، دون أن ينظر إلى مارتشيلّو أو إلى المعاون: «هذا هو الدكتور كليريشي الذي حدّثتك عنه منذ بعض الوقت»، فاتّكأ المعاون على الطاولة ووقف وراءها ليدعوه إلى الجلوس، وهو يمدّ يده بسرعة احتفاليّة فيها شيء من السخرية. جلس مارتشيلّو وجلس المعاون بدوره، وتناول علبة سجائر وقدّمها أوّلاً إلى الكولونيل الذي رفض، ثمّ إلى مارتشيلّو الذي قبل. قال بعدما أشعل سيجارته هو أيضاً: «يسرّني جدّاً يا كليريشي أن أتعرّف إليك... فهذا الكولونيل لا يفعل سوى التغنّي بمديحك... وعلى ما يبدو فإنّك من الأعمدة الأساسيّة، كما يقال». وقد شدّد بابتسامة على كلمة «كما يقال»، ثمّ تابع: «لقد درسنا مع الوزير خطّتك ورأينا أنّها رائعة بلا شكّ... فهل تعرف أنت كوادري حقّ المعرفة؟».

قال مارتشيلّو: «أجل، كان أستاذي في الجامعة». «وهل أنت متأكّد أنّ كوادري يجهل طبيعة عملك كموظّف لدينا؟».

«أعتقد ذلك».

«إنّ فكرتك بأن تتظاهر بتحوّل سياسيّ كي توحي إليهم بالثقة وتنضمّ إلى منظّمتهم عسى أن يعهدوا إليك ربّما بوظيفة في إيطاليا»، ثمّ تابع المعاون وهو يخفض عينيه إلى الطاولة، وعلى نقطة كانت أمامه: «هي فكرة جيّدة... كما أنّ الوزير وافق على تجريب شيء من هذا النوع دون أيّ تأخير... فمتى ترى أنّ بوسعك أن تسافر يا كليريشي»؟.

«حالما تستدعي الضرورة».

«رائع»، قال المعاون بنوع من الدهشة، كما لو أنّه كان يتوقّع جواباً مختلفاً، «رائع بالفعل... ومع ذلك فهناك نقطة لا بدّ من توضيحها... فأنت في سبيلك للقيام بمهمّة، ولنقل إنّها، دقيقة وخطيرة بالفعل... وكنت أقول أنا والكولونيل قبل قليل إنّ عليك أن تفكّر وأن تبتكر وأن تجد حجّة مقنعة تبرّر وجودك في باريس... لا أقول إنّهم يعرفون من أنت ولا أنّهم قادرون على اكتشاف ذلك... لكنّ الاحتياط ليس باختصار أمراً زائداً عن الحاجة...

خاصّة وأنّ كوادري هذا لم يكن يجهل حينها، كما قلت أنت في تقريرك، مشاعر ولائك للنظام...».

فقال مارتشيلّو بجفاء تقريباً: «لو لم يكن لديّ تلك المشاعر، فلا حاجة إذاً إلى التحوّل...».

«صحيح ، صحيح تماماً... لكن لا يمكن التوجّه إلى باريس خصّيصاً للذهاب إلى كوادري وإخباره: ها أنا هنا... عليك أن تعطي انطباعاً بأنّك في باريس لأسباب خاصّة، أي ليس لأسباب سياسيّة باختصار... ثمّ عليك أن تستغلّ المناسبة لتكشف عن أزمتك النفسيّة أمام كوادري...»، ثمّ اختتم المعاون كلامه فجأة وهو يرفع بصره نحو مارتشيلّو: «... فمن الضروريّ أن تدمج المهمّة بأمر شخصيّ لا علاقة له بالأمور الرسميّة»، ثمّ التفت المعاون نحو الكولونيل وأضاف: «ألا ترى ذلك أيّها الكولونيل؟».

فقال الكولونيل من غير أن يرفع عينيه: «هذا هو رأيي أيضاً»، ثمّ أضاف: «لكنّ الدكتور كليريشي وحده هو الذي يستطيع أن يجد الحجّة التي يراها صالحة؟».

حنى مارتشيلّو رأسه من غير أن يفكّر بشيء. بدا له أنّه ليس هناك شيء الآن ليجيب به، لأنّه يجب التفكير بهدوء بمثل هذه الحجّة. وكان في سبيله لأن يجيب: «أعطوني مهلة يومين أو ثلاثة لأفكّر بالأمر». لكنّ لسانه أجاب، وكأنّما رغماً عنه: «أنا سأتزوّج بعد أسبوع... يمكن دمج المهمّة مع شهر العسل».

تفاجأ المعاون هذه المرة وأظهر دهشته العميقة بصورة واضحة، رغم أنّه أسرع وغطّاها بنوع من الحماسة. أمّا الكولونيل فلم ينبس ببنت شفة ولم تظهر على وجهه أيّ ردّة فعل، كما لو أنّ مارتشيلّو لم يقل شيئاً. ثمّ هتف المعاون بنبرة حيرة: «حسناً جدّاً... رائع بالفعل، إنّك ستتزوّج... لا يمكن إيجاد حجّة أفضل من هذه... شهر العسل الكلاسيكيّ في باريس».

قال مارتشيلّو من غير أن يبتسم: «أجل، إنّه شهر عسل كلاسيكيّ في باريس».

خشي المعاون أن يكون قد أساء إليه. «أقصد أنّ باريس هي المكان المناسب لشهر العسل... للأسف، لست متزوّجاً... لكنّي لو تزوّجت فأظنّ أنّي سأذهب أنا أيضاً إلى باريس...».

لم يتكلّم مارتشيلّو هذه المرّة. وكان يحدث معه أغلب الأحيان أن يجيب بهذه الطريقة على من يراه غير قريب من قلبه: أي بالصمت التامّ. ثمّ أراد المعاون أن يستعيد أنفاسه، فالتفت نحو الكولونيل وقال له: «معك الحق أيّها الكولونيل... فالدكتور كليريشي وحده هو الذي يمكن له أن يجد الحجّة... فنحن حتّى لو وجدناها، لا يمكن لنا أن نقترحها عليه».

رأى مارتشيلّو أنّ لهذه العبارة، التي لفظت بنبرة غامضة وشبه جادّة، معنى مزدوجاً: فيمكن أن تكون مديحاً، يحمل بعض السخرية، كأنّما تعني: «ما هذه الحماسة بحقّ الشيطان!». كما يمكن أن تكون تعبيراً عن مشاعر ازدراء غبيّ: «ما هذه العبوديّة... إنّه لا يحترم حتّى عرسه». لكنّه فكّر أنّ العبارة تحمل المعنيين سويّة، لأنّه من الواضح أنّ الحدود بين المغالاة في الحماسة وبين العبوديّة لم تكن واضحة كلّ الوضوح، بالنسبة إلى المعاون بالذات. فكلاهما من الوسائل التي يمكن استخدامها مرّة بعد مرّة للوصول إلى الأهداف نفسها. ولاحظ بسرور أنّ الكولونيل أيضاً منع عن المعاون ابتسامته التي بدا أنّه يرجوها عندما قال تلك العبارة ذات المعاني المزدوجة. تبع ذلك صمت طويل. أخذ مارتشيلّو ينظر الآن مباشرة في عينيّ المعاون، وذلك بثبات لا يعبّر عن أيّ خوف، بل يثير الحيرة والقلق، بشكل مقصود. وفي الواقع فإنّ المعاون لم يتمكّن من مقاومة النظرة، فنهض واقفاً على حين غرّة، وهو يستند بيديه على سطح الطاولة.

«حسناً... ستتّفق أيّها الكولونيل مع الدكتور كليريشي حول تنظيم المهمّة...» ثمّ التفت نحو مارتشيلّو وقال: «عليك أن تعرف أنّ دعم الوزير الكامل ودعمي لك...»، ثمّ أضاف بعرضيّة مجزّأة: «لا بل لقد عبّر الوزير عن رغبته في التعرّف إليك شخصيّاً».

التزم مارتشيلّو الصمت هذه المرّة أيضاً، واكتفى بالنهوض واقفاً مع انحناءة احترام خفيفة. لكنّ المعاون الذي كان يتوقّع على الأرجح بعض كلمات الامتنان، قام بحركة جديدة تعبّر عن دهشته، ثمّ كبتها في الحال: «ابق يا كليريشي... فقد أمر الوزير بأن أقودك إليه مباشرة».

نهض الكولونيل وقال: «كليريشي، أنت تعرف أين تجدني». ثمّ مدّ يده

للمعاون، لكنّ هذا أراد مرافقته من كلّ بدّ إلى الباب، وبمزيد من الاحترام والحفاوة. شاهدهما مارتشيلّو وهما يشدّان على أيدي بعضهما البعض ثمّ اختفى الكولونيل وعاد المعاون نحوه: «تعال يا كليريشي... الوزير مشغول جدّاً، ومع ذلك فهو حريص على رؤيتك ليعبّر لك عن رضاه وسروره... أليست هذه هي المرّة الأولى التي تدخل فيها على الوزير؟». لفظ هذه الكلمات وهما في غرفة صغيرة بجانب غرفة المعاون، الذي توجّه نحو باب ففتحه وغاب وراءه وهو يشير إليه بالانتظار، ثمّ وفي الحال تقريباً، أطلّ من جديد ودعاه لأن يتبعه.

عندما دخل، رأى مارتشيلّو الغرفة الطويلة والضيّقة نفسها التي رآها قبل فترة قصيرة من خلال شقّ الباب. وهو يستطيع أن يراها الآن بكامل عرضها والطاولة مقابله. كان يجلس خلف الطاولة الرجل ذي الوجه العريض الضخم والجسم البدين الذي تلصّص عليه وهو يستسلم لقبلة المرأة ذات القبّعة السوداء الكبيرة. لاحظ أنّ الطاولة كانت خالية، تلمع بشكل يمكن التمرّي بها، ليس عليها أوراق سوى محبرة كبيرة من البرونز ومحفظة مغلقة من الجلد الأسود. قال المعاون: «صاحب السعادة، هذا هو الدكتور كليريشي».

نهض الوزير واقفاً ومدّ يده لمارتشيلّو، بترحيب ودّيّ أشدّ ممّا عبّر عنه المعاون، وإن كان خالياً تماماً من العفويّة بل تسلّطيّاً بالفعل. «كيف الأحوال يا كليريشي؟»، تكلّم وهو يلفظ كلماته بعناية وبطء وتعال، كما لو أنّها مليئة بمعان خاصّة. «لقد كلّموني عنك بتعابير المديح... النظام بحاجة لرجال مثلك». كان الوزير قد جلس ثمّ أخذ منديلاً من جيبه ونفّ أنفه، رغم أنّه كان يقرأ بعض الأوراق التي عرضها عليه المعاون. انسحب مارتشيلّو تأدّباً نحو زاوية بعيدة من الغرفة. كان الوزير يقرأ الأوراق بينما كان المعاون يهمس في أذنه، ثمّ نظر إلى منديل اللينو الذي في يده فرأى مارتشيلّو أنّ المنديل الأبيض كان ملوّثاً باللون الأحمر، فتذكّر أنّه عندما دخل كان فم الوزير أشدّ احمراراً من العادة، ذلك هو أحمر شفاه المرأة ذات القبّعة السوداء. ورغم استمراره في تفحّص الأوراق التي كان المعاون يعرضها عليه، ومن غير أن يفقد رباطة جأشه أو أن يقلق من كونه مراقباً، واصل الوزير فرك فمه بشدة بمنديله، وهو

ينظر إليه من حين لآخر ليرى ما إذا كان أحمر الشفاه لا يزال موجوداً. انتهى أخيراً من تفحّص الأوراق والمنديل في الوقت نفسه، فنهض الوزير ومدّ يده من جديد إلى مارتشيلّو: «إلى اللقاء يا كليريشي، وكما أخبرك معاوني فإنّ المهمّة التي أنت على وشك القيام بها تنال دعمي الكامل وغير المشروط».

انحنى مارتشيلّو وشدّ على اليد السميكة والقصيرة، وتبع المعاون إلى خارج الغرفة. عادا إلى غرفة المعاون. فوضع هذا الأوراق التي فحصها الوزير على الطاولة، ثمّ رافق مارتشيلّو إلى الباب. وقال وهو يبتسم: «حسناً يا كليريشي، حظّاً سعيداً، مع تمنّياتي بمناسبة حفل الزفاف». شكره مارتشيلّو بإيماءة من رأسه وانحناءة وبعبارة غير مفهومة. فابتسم المعاون للمرّة الأخيرة وشدّ على يده، وانغلق الباب وراءه.

-II-

تأخّر الوقت، لذلك فقد أسرع مارتشيلّو خطاه بمجرّد أن غادر الوزارة. اصطفّ على موقف الحافلات في الطابور، وسط الناس الجائعين والمتوتّرين في وسط النهار، وانتظر بصبر دوره للصعود إلى الحافلة التي كانت مزدحمة بالأساس. قطع قسماً من الرحلة وهو متشبّث بباب الحافلة من الخارج، ثمّ تمكّن بصعوبة بالغة من التسلّل إلى داخلها ووقف وهو مضغوط من جميع الجهات بالركّاب الآخرين، بينما كان الباص يهتزّ ويرتجّ وهو يغادر مركز المدينة ويتسلّق الطرقات الصاعدة نحو الضاحية. لم تثره هذه المضايقات، بل بدت له على العكس من ذلك مفيدة بما أنّ كثيرين آخرين يعانون منها ممّا يساهم ولو بمقدار ضئيل بجعله شبيهاً بالجميع. ومن ناحية أخرى، فإنّ الاحتكاك بحشود الناس، ولو كان مزعجاً وغير مريح، فكان يسرّه ويبدو له أنّه أفضل بكثير من الاحتكاك بالأفراد: فمن الحشود يأتيه، كما فكّر وهو يرتفع على رؤوس أصابعه ليتنفّس بشكل أفضل، شعور مريح بتواصل متعدّد الأوجه يبدأ في الانضغاط داخل الحافلة وينتهي بالحماس الوطني في التجمّعات السياسيّة. أمّا من الأفراد فلا تأتيه إلّا الشكوك بنفسه وبالآخرين، كما حدث هذا الصباح أثناء زيارته للوزارة.

وتساءل كذلك لماذا شعر، على سبيل المثال، بعدما عرض أن يقرن رحلة شهر العسل بالمهمّة، بشعور مؤلم كأنّه قام بعمل ينمّ عن عبوديّة غير مطلوبة كما عن حماسة غبيّة؟ لأنّه قدّم ذلك العرض إلى ذلك الرجل المتشكّك والثرثار والفاسد، إلى ذلك المعاون الحقير والبغيض. وكان هو، وبشخصه بالذات، من جعله يشعر بالخجل من عمل عفويّ بشكل عميق ومجرّد عن أيّ مصلحة. وها هو الآن، وبينما يتقلّب الباص بين محطّة وأخرى، ترتاح

نفسه لأنّه رأى أنّه لم يكن له أن يشعر بذلك الخجل لو أنّه لم يكن أمام رجل مثل ذلك الرجل لا يحترم لا الوفاء ولا تكريس الذات ولا التضحية، لأنّه لا يعتبر إلّا بالحسابات والتروّي ومصلحة النفس. والواقع أنّ عرضه لم ينبثق عن تفكير في ذهنه، بل من أعماق نفسه الغامضة، وهذا برهان أكيد، علاوة على ذلك، على الطابع الأصيل لاندماجه في الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة الاعتياديّة. أمّا لو كان هو شخصاً آخر، مثل المعاون على سبيل المثال، فإنّه كان سيقدّم مثل هذا العرض بعد كثير من التفكير الطويل والخبيث. أمّا هو فقد ارتجل عرضه. أمّا عن الخطأ في الجمع بين رحلة شهر العسل والمهمّة السياسيّة، فلا حاجة لإضاعة الوقت في التفكير به. فهو على ما هو عليه وكلّ فعل هو صائب إذا كان يتوافق مع ما هو عليه.

ترجّل من الحافلة وهو يلوك هذه الأفكار وتوجّه عبر طريق حيّ الموظّفين ماشياً على الرصيف المزروع بالدفلى البيضاء والورديّة. كانت أبنية موظّفي الدولة ضخمة ومهترئة، وتنفتح فيها على هذا الرصيف أبوابها الواسعة التي ترى من خلالها أروقة رحبة مزرية. وبالتناوب مع الأبواب كانت تتعاقب المحلّات المتواضعة التي يعرفها مارتشيلّو حقّ المعرفة: من بائع التنباك إلى بائع الخبز إلى بائع الخضار إلى الجزّار وإلى البقّال. كان الوقت في منتصف النهار، وأخذت تنتشر بين تلك الأبنية، التي لا هويّة لها، دلائل كثيرة تبدي ذلك البِشْر الرقيق العابر الذي يغشى الناس عند التوقّف عن العمل والالتقاء بأفراد عائلاتهم، كان منها روائح الطبخ الصادرة عن النوافذ المشرّعة في الطوابق الأولى، وعجلة رجال مهلهلي الثياب وهم يعبرون أبواب البناء، بعض أصوات المذياع، بعض موسيقى أجهزة الحاكي. من حديقة صغيرة مغلقة داخل تجويف أحد المباني، استقبلت بعض الورود المتسلقة على البوابة مرور مارتشيلّو بروائحها الفوّاحة الواخزة رغم ما فيها من بعض الغبار. فأسرع مارتشيلّو خطاه وعبر البوّابة رقم تسعة عشر مع اثنين أو ثلاثة آخرين من الموظّفين الذين قلّدوا عجالته بسرور، ثمّ توجّه نحو الدرج.

أخذ يصعد ببطء على الدرجات العريضة التي تنتشر عليها ظلال باهتة تتناوب مع ضوء يسطع من نوافذ عتبات الدرج. عندما وصل إلى الطابق الثاني تذكّر أنّه نسي شيئاً ما: الورود التي لم يتأخّر أبداً عن حملها إلى خطيبته

في كلّ مرّة تدعوه فيها إلى الطعام في بيتها. سرّ لأنّه تذكّر ذلك في الوقت المناسب، فنزل من جديد على الدرج، وخرج إلى الشارع وذهب مباشرة إلى زاوية البناء حيث كانت هناك امرأة جالسة على مقعد واطئ وهي توزّع ورودها الغضّة على بعض الأواني. اختار بسرعة نصف دزّينة من أجمل الورود الموجودة لدى البائعة، طويلة وذات سوق مستقيمة ولون أحمر قان، وعاد ودخل إلى البناء وهو يقرّب الورود من أنفه ليشمّ رائحتها، وصعد هذه المرّة حتّى بلغ الطابق الأخير. لم يكن هناك على هذه العتبة سوى باب واحد، فضلاً عن درج آخر صغير يفضي إلى باب ريفيّ، صغير أيضاً، تبرق تحته أضواء قويّة صادرة عن الشرفة. رنّ الجرس وهو يفكّر: «آمل ألّا تفتح لي الآن الباب أمّها»، ذلك أنّ تلك المرأة التي ستصبح حماته كانت تبدي له حبّاً وشغفاً كان يسبّب له أشدّ الإحراج. فُتح الباب بعد لحظة، فرأى مارتشيلّو بارتياح، في ظلّ الممرّ، الخادمة، الصغيرة، التي تكاد تشبه الأطفال، وهي ترتدي مئزرها الواسع جدّاً على جسمها، ووجهها شاحب تعلوه لفّتان من ضفائرها السوداء. أغلقت الباب لكن ليس قبل أن تطلّ بفضول وعجالة على عتبة الدرج. توجّه مارتشيلّو إلى الصالون وهو يشمّ بملء منخريه روائح المطبخ التي تفوح في الهواء. كانت نافذة الصالون مغلقة لمنع الحرّ والضوء من الدخول إلى الغرفة. لكن لا يبدو أنّ هذا هو السبب الوحيد، فهناك حرص على ألّا تظهر بين الظلال المتفرّقة قطع الأثاث المبعثرة في الصالون والمصنوعة بطراز زائف يقلّد طراز عهد النهضة. كانت هذه القطع ثقيلة، صارمة، منحوتة بكثافة وتتباين تبايناً فريداً مع قطع الزينة الموضوعة على الرفوف والطاولة، وكلّها بذوق غنج رخيص: امرأة عارية راكعة على حافة منفضة سجائر، بحّار من خزف أزرق يعزف على الأكورديون، مجموعة من الكلاب السوداء والبيضاء، مصباحان أو ثلاثة مصابيح على شكل وعاء أو زهرة. وكان هناك كثير من منافض السجائر مصنوعة من معدن أو بورسلان، عرف فيما بعد أنّها كانت علب سكاكر وزّعت في حفلات أعراس صديقات أو قريبات خطيبته. وكانت الجدران مغطّاة بقماش أحمر يقلّد قماش الدامسكو وعلّقت عليها أيضاً إطارات سوداء فيها مناظر طبيعيّة وطبيعة صامتة بألوان برّاقة. جلس مارتشيلّو على أريكة مغطّاة بغطاء صيفيّ،

ونظر حوله بسرور. فكّر أنّه بيت برجوازيّ بالفعل، من البرجوازيّة التقليديّة المتواضعة، وشبيه بكثير من بيوت هذا البناء نفسه وفي هذا الحيّ نفسه. وهو يعتبر هذا أفضل ما يرضيه، لأنّه يثير فيه أحاسيس تنبئه أنّه أمام شيء مشترك، رخيص تقريباً، لكنّه مطمئن. أدرك أنّه يشعر، مع هذه الأفكار، بشعور شبه حقير ينمّ عن الرضا ببشاعة هذا المنزل: لقد نشأ هو في منزل جميل وحسن الذوق وأدرك أنّ كل شيء حوله الآن قبيح بشكل نهائيّ قاطع. لكنّ هذا ما كان هو بحاجة إليه، إلى هذا القبح المشترك، صفة مشتركة إضافيّة تجمع بينه وبين أقران شبيهين به. تذكّر أنّ نقص المال، على الأقلّ خلال السنوات الأولى، كان سيحدو بهما، هو وجوليا، أن يسكنا بعد الزواج في هذا البيت، وأنّه بارك الفقر في ذلك الوقت. خاصّة وأنّه لا يمكن له لوحده أن ينشئ على ذوقه بيتاً قبيحاً مثل هذا البيت. وسرعان ما سيصبح هذا الصالون صالوناً له، كما ستصبح غرفة نوم له غرفةُ النوم بطراز ليبرتي التي نام فيها لثلاثين سنة المرأة التي ستصبح حماته وزوجها الميّت، وكذلك ستصبح غرفة طعامه غرفةُ الطعام من الخشب الفاخر التي كانت جوليا وأبواها يتناولون فيها طعامهم مرّتين كلّ يوم وطيلة حياتهم. كان أبو جوليا موظّفاً مهمّاً في إحدى الوزارات، وكان ذلك البيت الذي بني بحسب ذوق عصر شبابه نوعاً من المعابد المشادة شفقة وعلى شرف آلهتين توأمين أي آلهة الاحترام وآلهة الاعتياديّة الطبيعيّة. ثمّ فكّر بنوع من الفرح الذي يكاد أن يكون جشعاً ومتهاوناً وحزيناً في الوقت نفسه، أنّه سيدخل عن قريب وبحقّ في هذه الاعتياديّة الطبيعيّة وهذا الاحترام.

فتح الباب واقتحمته جوليا بعنف، وهي تتكلّم مع شخص في الممرّ، ربّما مع الخادمة. عندما أنهت جوليا حديثها أغلقت الباب وجاءت بسرعة لملاقاة خطيبها. كانت جوليا في العشرين من عمرها، لكنّها كانت مشهورة بأنّ لها ثلاثين. كانت ببدانة غير لائقة وشبه شعبيّة، لكنها نضرة ومتماسكة تظهر عمرها الصغير فضلاً عمّا هو غير واضح من أوهام الفرح الجسديّ. كانت عيناها واسعتين وبشرتها شديدة البياض، فيها نصاعة داكنة وضعيفة، وكان شعرها كستنائيّاً كثيفاً وحسن التجعيد، وشفتاها مزهرتين وحمراوين. عندما رآها مارتشيلّو وهي قادمة نحوه، ترتدي ثوباً بقصّة الرجال تتفجّر

من خلاله أشكال جسمها البارزة، لم يستطع إلّا أن يفكّر بسرور متجدّد أنّه سيتزوّج من فتاة اعتياديّة، من النوع الشائع المعروف، شبيهة جدّاً بالصالون الذي بعث في نفسه قبل قليل كثيراً من الراحة. وشعر براحة مماثلة، منعشة، عندما سمع من جديد صوتها المجرجر الحلو العاميّ وهو يقول: «ما أجمل هذه الورود... لماذا؟ سبق وأن قلت لك ألّا تزعج نفسك... لو كانت هذه المرّة الأولى التي تأتي بها لتناول الطعام عندنا». هذا بينما ذهبت نحو آنية زرقاء موضوعة في الزاوية فوق عمود من رخام أصفر، ووضعت الورود فيها. قال مارتشيلّو: «إنّه من دواعي سروري أن آتيك بالورود».

تنفّست جوليا الصعداء مرتاحة وسقطت متهاوية قربه على الأريكة. نظر إليها مارتشيلّو فرأى مباشرة أنّ نوعاً من الارتباك حلّ محلّ لامبالاتها العنيفة التي كانت تتصرّف بها قبل دقيقة. وهذا دليل انزعاج جديد لا بدّ أنّه عاودها. ثمّ التفتت فجأة نحوه وألقت ذراعيها على عنقه وهي تتمتم: «قبّلني».

طوّق مارتشيلّو خصرها بذراعه وقبّل فمها. كانت جوليا شهوانيّة، وكانت تأتي بعد هذه القبلات، التي كانت هي دائماً من يطلبها من مارتشيلّو المتردّد، كانت تأتي لحظة تتسلّل فيها مشاعرها الشهوانيّة إلى نفسها بقوّة ما تلبث أن تعدّل طابع العفّة الذي يُنتظر من علاقتهما كخطيبين. وهذا ما حدث هذه المرّة أيضاً، فعندما كانت شفتيهما على وشك الانفصال بالفعل، بدر منها وثبة رغبة شهوانيّة، فأحاطت فجأة عنق مارتشيلّو بذراعها، وأعادت وضع فمها بقوّة على فمه وهي تنفخ من أنفها وتتنفّس بقوّة وبشخير حيوانيّ بريء شره.

لم يكن مارتشيلّو مغرماً بخطيبته، لكنّ جوليا كانت تعجبه ولم تتأخّر حركات هذا العناق الشهوانيّ عن إثارة الاضطراب في نفسه. ومع ذلك فلم يكن يميل إلى مبادلة هذا التواصل. فهو كان يريد أن تبقى علاقته بخطيبته ضمن الحدود التقليديّة، فقد بدا له أنّ حميميّة زائدة لا بدّ أن تدخل في حياته من جديد لا اعتياديّة وفوضى حرص طيلة الوقت على طردهما، ودفعهما عنه شيئاً فشيئاً. فقالت له جوليا وهي تنسحب وتنظر إليه مبتسمة: «آه، كم أنت بارد، بالفعل، حتّى أنّي أفكّر أحياناً أنّك لا تحبّني».

قال مارتشيلّو: «تعرفين أنّي أحبك».

فتحوّلت عن الأمر واستطردت قائلة: «إنّي سعيدة جدّاً... لم أكن بمثل هذه السعادة أبداً... بالمناسبة، هل تعلم أنّ أمّي أصرّت هذا الصباح مرّة أخرى على أن نأخذ غرفة نومها... على أن تنسحب هي نحو تلك الغرفة الصغيرة في آخر الممرّ... ماذا تقول؟...هل يجب أن نقبل؟».

قال مارتشيلّو: «أعتقد أنّها ستستاء إذا رفضنا».

«هذا ما أظنّه أنا أيضاً... تصوّر أنّي كنت أحلم في طفولتي بأن أنام ذات يوم في غرفة مثل تلك الغرفة... لكنّي لا أعرف الآن فيما إذا ما زالت تعجبني كما كانت تعجبني في ذلك الوقت... هل تعجبك أنت؟»، وجّهت له السؤال بنبرة شكّ مجبولة بالسرور، كمن يخشى من حكم الآخرين على ذوقه ويريد برهاناً على ذلك. فسارع مارتشيلّو وأجاب: «إنّها تعجبني جدّاً... إنّها جميلة جدّاً»، فرأى أنّ كلماته أثارت في نفس جوليا سروراً واضحاً.

طبعت قبلة على خدّه من شدّة بهجتها ثمّ تابعت: «قابلت هذا الصباح السيّدة بيرسيكو... ودعوتها إلى الحفل... هل تعلم أنّها لم تكن تعرف أنّني سأتزوّج؟...طرحت عليّ أسئلة كثيرة، عندما أخبرتها من أنت، قالت لي إنّها تعرف أمّك...فقد التقت بها على البحر قبل عدّة سنوات».

لم يقل مارتشيلّو شيئاً. فالحديث عن أمّه التي لا يعيش معها والتي لا يراها إلّا نادراً هو حديث غير سارّ أبداً بالنسبة إليه. ولحسن الحظّ فإنّ جوليا غيّرت حديثها من جديد، من غير أن تلاحظ شيئاً من حرجه، بل بسبب تقلّب أهوائها فقط: على سيرة الحفل... لقد أعدّينا قائمة المدعوّين... هل تريد أن تراها؟».

«أجل، أرني إيّاها»..

سحبت من جيبها قطعة ورق وأعطته إيّاها. تناولها مارتشيلّو ونظر إليها. كانت عبارة عن قائمة طويلة لأشخاص مجموعين بحسب العائلات: آباء، أمّهات، بنات، أبناء. لكنّ الرجال لم يذكروا بأسمائهم وألقابهم فقط، بل بأسماء مهنهم أيضاً: أطبّاء، محامون، مهندسون، أساتذة. فضلاً عن صفاتهم التشريفيّة عندما يملكونها: كومانداتور، ضابط كبير، فارس. ولمزيد من الحيطة كتبت جوليا عدد الأشخاص الذين تتألّف منهم كلّ عائلة إلى

جانب اسم العائلة: ثلاثة، خمسة، اثنان، أربعة. كانت كلّها أسماء يجهلها مارتشيلّو، ومع هذا فقد بدا له أنّهم يعرفهم منذ زمن بعيد: فكلّها أسماء من البرجوازيّة المتوسّطة والصغيرة، من أصحاب المهن الراقية ومن كبار موظّفي الدولة، وكلّهم أشخاص لا شكّ أنّهم يقطنون في بيوت مثل هذا البيت، فيها صالونات مثل هذا الصالون، وأثاث مثل هذا الأثاث، وعندهم بنات يجب تزويجهنّ شبيهات جدّاً بجوليا وسيتزوّجهنّ شباب متخرّجون وموظّفون شبيهون جدّاً، على ما يأمل، به هو بالذات. قام بتفحّص القائمة الطويلة، متوقّفاً عند بعض الأسماء المتميّزة والأكثر شيوعاً، برضا عميق، رغم أنّه مشوب ببرودته المعتادة الثابتة في حزنها. ولم يستطع إلّا أن يسأل بشكل عشوائي: «ولكن من هو آركانجيلي هذا، على سبيل المثال؟» «هل تتكلّم عن الكومانداتور جوزيبّه أركانجيلي مع زوجته إيوله وبنتيه سيلفانا وبياتريشه وابنه الدكتور جينو؟». «إنّك لا تعرفهم حتماً... كان آركانجيلي هذا صديقاً لأبي المسكين، في الوزارة».

«أين يسكن؟».

«على بعد خطوتين من هنا، في شارع بوربورا».

«وكيف هو صالون بيته؟».

فهتفت وهي تتضاحك: «لكن هل تعرف أنّك تضحكني بأسئلتك هذه، وكيف تريد أن يكون صالون آركانجيلي؟».

«وهل بناته مخطوبات؟».

«أجل، بياتريشه... لكن لماذا؟».

«وكيف هو خطيبها؟».

«أوف! أوَ خطيبها أيضاً...حسناً، اسم خطيبها اسم غريب، يدعى سكيرينسي، ويعمل في مكتب كاتب عدل».

لاحظ مارتشيلّو أنّه لم يكن من الممكن الاستدلال من خلال ردود جوليا وبأيّ شكل من الأشكال على طبيعة ضيوفها. ربّما لم يكن حاضراً في ذهنها أكثر ممّا كان مكتوباً على الورق: أي مجرّد أسماء أشخاص عاديّين محترمين لا تميز بينهم. فراجع القائمة مرّة أخرى ثمّ توقّف بشكل عشوائيّ

على اسم آخر: «ومن هو الدكتور شيزاره سبادوني مع زوجته ليفيا وشقيقه المحامي توليو؟».

«إنّه طبيب أطفال... كانت زوجته رفيقتي في المدرسة... ربّما أنّك تعرّفت إليها: جميلة جدّاً، سمراء، صغيرة، شاحبة الوجه... وهو شابٌ جميل... كأنّهما توأمان».

«والفارس لويجي باتشِه وزوجته تيريزا وأولادهما الأربعة ماوريتسيو، جوفانّي، فيتّوريو، ريكّاردو؟».

«صديق آخر من أصدقاء أبي المسكين... أولاده كلّهم طلبة... ريكّاردو ما زال في الثانويّة».

أدرك مارتشيلّو أنّه من غير المجدي الاستمرار في طلب معلومات عن الأشخاص المدرجين في القائمة. فليس بوسع جوليا أن تخبره أكثر ممّا هو موجود في القائمة نفسها. ثمّ فكّر أنّها حتّى لو أخبرته بدقّة عن شخصيّة وحياة هؤلاء الأشخاص، فإنّ المعلومات التي ستقدّمها لن تتجاوز بالطبع حدود أحكامها وذكائها الضيّقة للغاية. لكنّه أدرك أنه كان سعيداً، وبطريقة شهوانيّة تقريباً، وإن كانت شهوانيّة غير مرحة، لأنّه سيصبح، بفضل زواجه، جزءاً من هذا المجتمع العامّ. ومع ذلك، فقد كان هناك سؤال يدور على طرف لسانه، فقرّر بعد لحظة من التردّد أن يحرّكه: «وأخبريني ... هل أبدو أنا مثل ضيوفك؟» «ماذا تقصد ... جسدياً؟».

«لا، كنت أريد أن أعرف إذا كنت تجدين... أنّ هناك نقاط تشابه مع أساليبهم، في مظهرهم، في أشكالهم... أي فيما إذا كنت باختصار شديد الشبه بهم».

فردّت بتهوّر: «أنت أفضل من الجميع بالنسبة إليّ، أمّا في بقيّة الأشياء، فأجل، أنت شخص مثلهم: فأنت متميّز، جادّ، ناعم... أي إنّه من الواضح باختصار أنّك شخص محترم مثلهم... ولكن لماذا تسألني هذا السؤال؟».

«هكذا».

فقالت وهي تنظر إليه بفضول تقريباً: «كم أنت غريب، الجميع يريدون أن يكونوا مختلفين عن الجميع... بينما تحرص أنت على أن تكون مثل الجميع».

لم يجب مارتشيلّو بشيء وأعاد إليها القائمة وقال من طرف شفتيه: «على كلّ فأنا لا أعرف ولا واحداً منهم».

فقالت جوليا بمرح: «وهل تظنّ أنّي أعرفهم جميعاً؟ كثير منهم لا تعرفهم إلّا أمّي... على كلّ سيمرّ الحفل بسرعة... سويعة صغيرة ولن ترى أحداً منهم مرّة أخرى».

قال مارتشيلّو: «لكنّي لن أستاء من رؤيتهم مجدّداً».

«كنت أقول ذلك بصورة عابرة... والآن استمع إلى قائمة طعام الفندق وأخبرني إذا كانت تعجبك». ثمّ سحبت جوليا من جيبها ورقة أخرى وقرأت بصوت مرتفع:

«مقبّلات باردة

فيليه سمك بالكعك، سول مقلي[1]

فراخ بالرزّ مع صلصة سوبريم

سلطة الموسم

أجبان متنوعة

آيس كريم دبلوماسيّ

فاكهة

قهوة وليكور».

ثمّ سألته بالطريقة المتشكّكة والمرحة نفسها التي تكلّمت بها قبل قليل عن غرفة نوم أمّها: «ما رأيك؟ هل القائمة جيّدة؟ هل ترى أنّنا سنأكل ما فيه الكفاية؟».

قال مارتشيلّو: «تبدو لي رائعة ووفيرة».

وتابعت جوليا: «بالنسبة للشمبانيا فقد اخترنا الشمبانيا الإيطاليّة... إنّها أقلّ جودة من الشمبانيا الفرنسيّة، ولكن لا بأس بها من أجل تناول النخب». بقيت صامتة للحظة ثمّ حوّلت حديثها كالعادة وأضافت: «هل تعرف ماذا قال دون لاتّانسي؟ إذا أردت أن تتزوّج فعليك تناول القربان المقدّس وإذا

1- alla mugnaia

أردت تناول القربان المقدّس فعليك أن تعترف بذنوبك.. وإلا فإنّك لن تتزوّج».

شعر مارتشيلّو بالدهشة ولم يعرف للحظة ماذا يقول. فهو لم يكن مؤمناً ولم يذهب إلى الكنيسة ربّما منذ عشر سنين، كما أنّه كان دائماً على اقتناع بأنّه يغذّي مشاعر كراهية مؤكّدة لكلّ ما هو كهنوتيّ. أمّا الآن فقد رأى بدهشة بالغة أنّ تلك الفكرة عن الاعتراف وتناول القربان المقدّس لم تزعجه، بل على العكس من ذلك فقد أعجبته وجذبته، كما أعجبه وجذبه حفل العرس وقائمة المدعوّين الذين لا يعرفهم والزواج بجوليا وجوليا نفسها لأنّها مثل غيرها من كثير من الفتيات وشبيهة بهنّ. وفكّر أنّها حلقة أخرى في سلسلة الاعتياديّة التي يسعى إلى التعلّق بها وهو في الرمال الغادرة التي تملأ هذه الحياة. خاصّة وأنّ هذه الحلقة مصنوعة من معدن أكثر نبلاً وأشدّ مقاومة من غيره: الدين. تفاجأ من كونه لم يفكّر بالأمر من قبل، وعزا هذا النسيان إلى وضوح ومسالمة الدين الذي ولد فيه والذي كان يبدو له أنّه ينتمي إليه حتّى لو لم يكن يمارس شعائره. ومع ذلك فقد أجاب بسبب فضوله لسماع رأي جوليا:

«لكنّي أنا لست مؤمناً».

فأجابت بكلّ اطمئنان: «ومن هو مؤمن؟ وهل تظنّ أنّ تسعين بالمئة من الذين يرتادون الكنائس مؤمنون؟ والكهنة أنفسهم؟».

«هل تظنّين ذلك؟».

حرّكت جوليا يدها في الهواء: «هكذا وهكذا، إلى حدّ معين... بل إنّي كنت أقول بين الحين والآخر لدون لاتّانسي: إنّكم لن تخدعوني بكلّ قصصكم أيّها الخوارنة... إنّي في الحقيقة أؤمن ولا أؤمن...». ثم أضافت بنوع من التشكيك: «أو لنقل بالأحرى إنّ لي ديناً خاصّاً بي ... يختلف عن دين الخوارنة».

ففكّر مارتشيلو: «وماذا يعني أن يكون للمرء دين خاصّ به؟». لكنّه لم يتوقّف عند الأمر لأنّه يعرف بالتجربة أنّ جوليا تتكلّم أغلب الأحيان من غير أن تعرف حقّ المعرفة ماذا تقول. وهكذا فقد قال لها: «لكنّ حالي هي أعمق بكثير... فأنا لا أؤمن على الإطلاق... وليس لي أيّ دين».

قامت جوليا بحركة من يدها، مرحة ولامبالية: «وماذا سيكلّفك؟... ساير الأمور على كلّ حال... هم يهتمّون بالأمر كثيراً، بينما لا يكلّفك هذا شيئاً».

«أجل، لكنني سأضطرّ عندها لأن أكذب».

«كلام... وفي كلّ الأحوال ستكون كذبة لغاية نبيلة... هل تعرف ماذا يقول دون لاتّانسي؟ إنّه يجب فعل بعض الأشياء كما لو أنّك تؤمن بها... حتّى لو لم تكن تؤمن بها... لأنّ الإيمان يأتي بعد ذلك».

سكت مارتشيلّو للحظة ثمّ قال: «حسناً...إذا سأذهب وأعترف وسأتناول القربان المقدّس»، شعر من جديد وهو يقول هذا القول برعشة بهجة داكنة مثل تلك التي بعثتها في نفسه قبل قليل قائمة المدعوّين. ثمّ أضاف: «سأذهب إذاً لأعترف عند دون لاتّانسي».

قالت جوليا: «لكنّه ليس من الضروريّ أن تذهب إليه بالذات... يمكن لك أن تذهب إلى أيّ خوريّ في أيّ كنيسة».

«وماذا عن تناول القربان المقدّس؟».

«ذلك سيعطيك إيّاه دون لاتّانسي في يوم عقد قراننا بالذات... سنتناوله سويّة... منذ كم من الوقت لم تذهب للاعتراف؟».

قال مارتشيلّو بشيء من الحرج: «أعتقد أنّي لم أعترف منذ وقت تناولت القربان المقدّس لأوّل مرّة... وأنا في الثامنة من عمري... ثمّ لم أعترف بعدها البتّة».

فهتفت بنوع من المرح: «فكّر، من يدري كم من الذنوب عليك أن تعترف بها...».

«وماذا لو لم يضعونها عنّي؟».

فأجابت بودّ وهي تداعب وجهه بيدها: «سيضعونها عنك بكلّ تأكيد، ثمّ أيّ ذنوب يمكن أن تكون قد ارتكبتها؟ أنت طيّب، وطيّب النفس، لم تسئ لأحد أبداً... سيبرّئنك في الحال».

قال مارتشيلّو بطريقة عرضيّة: «الزواج أمر معقّد».

«أمّا بالنسبة إليّ، فإنّ كلّ هذه التعقيدات، وهذه التحضيرات تعجبني

كثيراً... ثمّ علينا أن نعيش سويّة طيلة حياتنا، أليس كذلك؟... وعلى هذه السيرة، ماذا نقرّر بشأن رحلة شهر العسل؟».

شعر مارتشيلّو لأوّل مرّة بشيء يشبه الشفقة على جوليا، وذلك إلى جانب عواطفه المتسامحة والواضحة المعتادة. وأدرك أنّه لا يزال هناك متّسع من الوقت كي يتراجع عن فكرة باريس، حيث عليه أن يقوم بمهمّته، وأن يتحوّل إلى مكان آخر يقضي فيه شهر العسل. ويمكنه أن يقول بعدها في الوزارة إنّه قد تراجع عن ذلك التكليف. لكنّه أدرك أيضاً وفي الوقت نفسه أن هذا مستحيل. فهذه المهمّة هي أكثر خطواته ثباتاً وخطورة وحسماً على طريق الحياة الاعتياديّة وبصورة نهائيّة. كما هي خطوات أيضاً في الاتّجاه نفسه، وإن كانت أقلّ أهميّة في رأيه، الزواج بجوليا وحفل الزواج والاحتفالات الدينيّة والاعتراف وتناول القربان المقدّس.

لم يتوقّف لفترة طويلة على تحليل هذه التأمّلات التي لم يشْعَ عن خلفيّاتها الكئيبة بل والمؤسفة، وهكذا فقد أجاب على عجل: «لقد فكّرت بعد كل شيء أنّ بوسعنا الذهاب إلى باريس».

صفّقت جوليا من فرح كاد أن يسكرها: «آه، رائع... باريس... حلمي!». ألقت بذراعيها على عنقه وقبّلته بعنف. «لو تعرف كم أنا مسرورة... لكنّي لم أشأ أن أقول لك كم كنت أرغب في الذهاب إلى باريس... كنت أخشى أنّ الكلفة عالية».

قال مارتشيلّو: «الكلفة هي نفسها مثل بقيّة الأماكن، لكن لا تقلقي فيما يتعلّق بالمال... فهذه المرّة سنجده».

كانت جوليا مسحورة. وكانت تكرّر: «كم أنا مسرورة». انضمّت بقوّة إلى مارتشيلّو وهي تتمتم: «هل تحبّني؟ لماذا لا تقبّلني؟». وهكذا عاد ذراع خطيبته مرّة أخرى ليحيط برقبته، وفمها على فمه. لكنّ حرارة القبلة تضاعفت هذه المرّة بسبب امتنانها. شعر مارتشيلّو بالاضطراب وفكّر: «يمكنني الآن إذا أردت أن أمتلكها هنا، على هذه الأريكة»، وبدا له أنّه يشعر مرّة أخرى بهشاشة ما أسماه طبيعيّة واعتياديّة. انفصلا عن بعضهما بعضاً في النهاية، فقال مارتشيلّو وهو يبتسم: «لحسن الحظ أنّنا سنتزوّج عن قريب... وإلّا

فإنّي أخشى أن نصبح عشّاقاً في يوم من الأيّام». هزّت جوليا كتفيها ووجهها ما زال متلوّناً بسبب القبلة، وهي تجيب بصفاقتها الساذجة والمتحمّسة: «إنّي أحبّك كثيراً... ولا أطلب أفضل من ذلك». فسألها مارتشيلّو: «حقّاً؟».

فقالت بحماسة: «حتّى الآن إذا شئت، حتّى في هذا المكان، الآن...»، وكانت قد أخذت بيد مارتشيلّو وبدأت تقبّلها ببطء وهي تنظر إليه بعينين برّاقتين منفعلتين. لكنّ الباب انفتح فانسحبت جوليا إلى الوراء. ودخلت أمّ جوليا.

فكّر مارتشيلّو وهو يراها تقترب، أنّ هذه أيضاً هي إحدى الشخصيّات الكثيرة التي دخلت في حياته بسبب بحثه عن حياة اعتياديّة منجية. فلا شيء مشترك بينه وبين تلك المرأة العاطفيّة التي تفيض دائماً بالحنان المؤثّر، أجل لا شيء سوى رغبته في الارتباط بشكل دائم وعميق بمجتمع إنسانيّ متماسك وراسخ. كانت أمّ جوليا، السيّدة ديليا جينامي، امرأة بدينة، بدا أن حالات التراجع التي يحتّمها التقدّم في العمر بدأت تظهر على شكل تفسّخ وانحلال في جسدها ونفسها على حدّ سواء، فالأوّل تأثّر بظهور دهون مرتجّة وخالية من العظام، والثاني يميل إلى جنوح نحو طيبة جسديّة مقرفة. ففي كلّ خطوة تتحرّك بها، كان يبدو أنّ هناك تحت ثيابها المهلهلة، قطعاً كاملة من جسمها المنفوخ تنحرف عن أمكنتها وتتنقّل من تلقاء نفسها. كما يبدو أنّ انفعالات متشنّجة تثور أمام أيّ لا شيء تافه، وتتحكّم بقوى سيطرتها على مشاعرها. فتنغمر عيناها الزرقاوان النديّتان بالدموع، وتنضمّ يداها في موقف كالنشوة. كما أنّ اقتراب موعد زفاف ابنتها الوحيدة قد ألقى في تلك الأيام بالسيّدة ديليا في حال دائمة من رقّة النفس والحنان: فلم تكن تنقطع عن البكاء من الفرح، كما أوضحت هي وقالت. وكانت تشعر في كلّ لحظة بالحاجة إلى احتضان جوليا أو صهر المستقبل الذي تولّعت به كأنّه ابنها، على حدّ تعبيرها. وكان مارتشيلّو، الذي كان يشعر بالحرج من هذه العواطف، يتفهّم مع ذلك أنّها ليست إلّا مظهراً من مظاهر الواقع الذي كان يريد الانغماس فيه، فكان لذلك يتحمّلها بل ويقدّرها، وبالسرور الداكن نفسه الذي كان يثيره في قلبه أثاث البيت القبيح، وأحاديث جوليا وتحضيرات الزفاف وأوامر الشعائر التي كان يمليها دون لاتّانسي.

على أنّ السيّدة ديليا لم تكن هذه المرّة تفيض بالحنان، بل كانت ساخطة، وهي تلوّح بورقة في يدها وتقول بعد أن ألقت التحيّة على مارتشيلّو، الذي وقف احتراماً لها: «رسالة من مجهول... لكن قبل ذلك فلننتقل إلى هناك... كلّ شيء جاهز».

صرخت جوليا وهي تسرع وراء أمّها: «رسالة من مجهول؟».

«أجل، رسالة من مجهول... كم من الاشمئزاز يثيره أولئك الناس».

توجّه مارتشيلّو بدوره نحو غرفة الطعام، وهو يحاول أن يخفي وجهه بالمنديل. فلقد أثار نبأ الرسالة من مجهول حفيظته، ولم يشأ أن يظهر ذلك أمام المرأتين. فعندما سمع أمّ جوليا تقول «رسالة من مجهول» فكّر مباشرة «هناك من كتب عن شأن لينو»، لأنّ الأمرين سواء بالنسبة إليه. وقد صعد الدم إلى وجهه عندما فكّر هذا التفكير، وانقطعت أنفاسه، وتملّكته في الحال مشاعر خاطفة، لا يمكن تفسيرها، ملؤها الفزع والخجل والخوف، لم تعاوده إلّا في السنوات الأولى من المراهقة عندما كانت ذكرى لينو لا تزال حيّة في نفسه. كان الأمر أقوى منه. فتهاوت كلّ سلطة له في السيطرة على نفسه، كما تتهاوى حلقة ضعيفة من رجال الشرطة تحيط بحشود مأخوذين بالرعب على أمل أن يسيطروا عليهم. عضّ على شفتيه بشدّة أدمتهما، وهو يقترب من المائدة: لقد أخطأ إذاً في المكتبة عندما اقتنع وهو يبحث عن خبر الجريمة أنّ الجرح القديم قد التأم بالكامل. لأنّ الجرح لم يلتئم، بل كان أعمق ممّا يمكن له أن يتصوّر. لحسن الحظّ كان مكانه على الطاولة مقابل الضوء، وظهره للنافذة. فجلس متصلّباً وبصمت على رأس الطاولة، جوليا على يمينه والسيّدة جينامي على يساره. بينما بقيت رسالة المجهول على فوطة الطعام قرب صحن أمّ جوليا. دخلت في هذه الأثناء الخادمة الطفلة، وهي تحمل بيديها طبقاً مليئاً بالمعكرونة. غرز مارتشيلّو الشوكة الكبيرة في الكتلة الحمراء الزخمة، ورفع كميّة صغيرة من السباغيتّي ووضعها في طبقه. احتجّت المرأتان في الحال: «هذا قليل جدّاً... هل أنت صائم... خذ المزيد». وأضافت السيّدة جينامي: «أنت تعمل، يجب أن تأكل»، بل إنّ جوليا تناولت بعفويّة من الطبق كميّة أخرى من السباغيتّي وسكبتها في صحن خطيبها. فقال مارتشيلّو بصوت بدا له أنّه خامد وحزين بالفعل: «لا

أشعر بالجوع». فأجابت جوليا بحماسة وهي تسكب لنفسها: «الشهيّة تأتي بتناول الطعام». خرجت الخادمة وهي تحمل الطبق الذي كاد أن يكون فارغاً، فقالت الأمّ في الحال: «لم أشأ أن أظهر الرسالة... فكّرت أنّ الأمر لا يستحقّ ذلك... لكن في أيّ عالم نعيش...».

لم يقل مارتشيلّو شيئاً، حنا رأسه على صحنه وملأ فمه بالسباغيتّي. لكنّه ما زال يخشى أن تكون الرسالة ذات صلة بشأن لينو، رغم أنّ عقله كان يبرهن له أنّ هذا مستحيل. كانت خشية غير مفهومة لكنّها أقوى من أيّ تفكير. سألت جوليا: «لكن هل لنا أن نعرف في النهاية ماذا كتب فيها؟».

أجابت الأمّ: «أريد قبل كلّ شيء أن أقول لمارتشيلّو إنّه حتّى لو كتبوا في هذه الرسالة أشياء أسوأ ألف مرّة، فإنّه يجب أن يكون على ثقة أنّ محبّتي له لن تتغيّر... مارتشيلّو إنّك بالنسبة إليّ كأنّك ابني، وأنت تعرف أنّ محبّة الأمّ لابنها أقوى من أيّ تقوّل». فاضت عيناها فجأة بالدموع وهي تكرّر: «ابني بالفعل». ثمّ تناولت يد مارتشيلّو وحملتها إلى قلبها وهي تقول: «عزيزي مارتشيلّو». لم يعرف مارتشيلّو ماذا يفعل وماذا يقول، وبقي ساكناً وصامتاً بانتظار أن ينتهي ذلك الفيض من المشاعر. نظرت إليه السيّدة جينامي نظرة حنان وأضافت: «عليك أن تسامح يا مارتشيلّو هذه المرأة العجوز».

قالت جوليا التي كثيراً ما اعتادت على انفعالات أمّها هذه، ولا حاجة لأن تلقي إليها بالاً أو تشعر بالدهشة منها: «ما هذه الحماقات يا أمّي، أنت لست عجوزاً».

أجابت السيّدة ديليا: «بلى، إنّي عجوز ولم يبق أمامي إلّا قليل من السنين أعيشها». كان الحديث عن الموت القريب أخذ المواضيع المفضّلة لديها، ربّما لأنّها تريد أن تثير بهذا مشاعر نفسها، فضلاً عن أنّها تظنّ أنّ هذا قادر على تحريك مشاعر الآخرين. «سأموت عمّا قريب ولهذا فأنا سعيدة جدّاً لأنّي سأترك ابنتي لرجل طيّب مثلك يا مارتشيلّو».

كانت يد السيّدة ديليا تضغط على قلب مارتشيلّو وتجبره على اتّخاذ وضع غير مريح فوق طبق السباغيتّي، ولم يستطع أن يكبح حركة خفيفة صدرت عنه تنمّ عن نفاد صبره، فلم يفت الأمر على المرأة العجوز، لكنّها حسبتها

نوعاً من الاحتجاج على إفراطها في مدحه. فعادت لتؤكّد قائلة: «أجل، إنّك طيّب... طيّب جدّاً... وكثيراً ما أقول لجوليا: أنت محظوظة لأنك وجدت مثل هذا الشابّ الطيّب... أعرف جيّداً يا مارتشيلّو أنّ الطيبة لم تعد أمراً شائعاً. ولكن دع شخصاً يكبرك بسنوات عديدة أن يقول: لا يوجد شيء سوى الطيبة في هذا العالم... وأنت، لحسن الحظ، طيّب جدّاً جدّاً جدّاً».

قطّب مارتشيلّو حاجبيه ولم يقل شيئاً. فهتفت جوليا: «لكن دعيه يأكل هذا المسكين، ألا ترين أنّك لوّثت كمّه بالصلصة؟».

تركت السيّدة جينامي يد مارتشيلّو وتناولت الرسالة وهي تقول: «إنّها رسالة مكتوبة على الآلة الكاتبة... مختومة بخاتم بريد روما... لن أدهش يا مارتشيلّو إذا كان من كتبها هو أحد زملائك في المكتب».

«لكن هل يمكن لنا أن نعرف هذه المرّة ماذا كتبوا فيها؟».

قالت الأمّ وهي تناول الرسالة لابنتها: «ها هي. اقرئيها، لكن لا تقرئي بصوت مرتفع... فيها أشياء قبيحة لا أريد أن أسمعها... ثمّ أعطها لمارتشيلّو بعد أن تقرئيها».

شاهد مارتشيلّو بقلق خطيبته وهي تقرأ الرسالة. ثمّ لوت هذه فمها علامة على الازدراء وقالت: «يا للقرف». ثمّ ناولته إيّاها. كانت الرسالة مكتوبة على ورق الآلات الكاتبة، وليس فيها إلّا بضعة أسطر مطبوعة بشريط حبر باهت. «سيّدتي، إنّك عندما تسمحين لابنتك بالزواج من دكتور كليريشي، فأنت ترتكبين أسوأ من الخطأ، ترتكبين جريمة. فأبو الدكتور كليريشي موجود في مستشفى المجانين منذ عدّة سنوات لأنّه يعاني من جنون ذي أصل زهريّ، وأنت تعرفين أنّ هذا المرض وراثي. ما زال لديك الوقت لمنع هذه الزيجة. صديق».

فكّر مارتشيلّو بنوع من الإحباط: «هذا كلّ شيء». بدا له أنّه فهم أنّ خيبة أمله كانت أكبر من شعوره بالارتياح: كما لو أنّه كان يأمل أن يفهم شخص آخر مأساة طفولته وأن يحرّره من بعض أعباء تلك المعرفة. ومع ذلك، فقد صدمته جملة واحدة: «وتعلمين أنّ هذا المرض وراثيّ». كان يعرف حقّ المعرفة أنّ جنون أبيه لم يكن عن منشأ زهريّ، وأنّه لا يوجد خطر من أن

يصاب هو أيضاً بذلك الجنون في يوم من الأيّام مثل أبيه. ومع ذلك، فقد بدا له أنّ العبارة تشير في تهديدها الحاقد إلى جنون آخر، ربّما كان وراثياً بالفعل. كانت هذه فكرة مرفوضة من أساسها، ولم تفعل سوى أن لامست ذهنه. ثمّ أعاد الرسالة إلى أمّ جوليا، قائلاً بهدوء: «ليس فيها أيّ شيء حقيقيّ».

أجابت المرأة الطيّبة وقد شعرت بالإهانة: «لكنّي أعرف أنّ ليس فيها شيء حقيقيّ». ثمّ أضافت بعد قليل: «أنا أعرف فقط أنّ ابنتي ستتزوّج برجل طيّب، ذكي وشريف، وجادّ...»، ثمّ أنهت كلامها بنوع من الغنج: «وهو فتى وسيم».

فأكّدت جوليا: «إنّه فتى وسيم قبل كلّ شيء: يمكنك أن تقولي هذا بصوت مرتفع. وهذا هو السبب في أنّ من كتب تلك الرسالة يلمّح إلى أنّه مريض... لقد رأى أنّه جميل جدّاً، وظنّ أنّه من المستحيل ألّا يكون فيه شيء خاطئ... أغبياء».

لم يعد بوسع مارتشيلّو إلّا أن يفكّر «وماذا سيقولون إذا عرفوا أنّه كانت لي وأنا في الثالثة عشرة من عمري شبه علاقة غراميّة مع رجل قتلته». ولاحظ أنّ حزنه المعتاد ولامبالاته التأمّليّة قد عادا الآن بعد أن مرّ الخوف الذي أثارته الرسالة. لكنّه عندما نظر إلى خطيبته وإلى السيّدة جينامي، فكّر في نفسه: «ربّما لن يؤثّر فيهما لا البارد ولا الساخن... لأنّ جلد الناس الاعتياديّين جلد قاس»، وفهم أنّه يحسد المرأتين على «جلدهما القاسي».

فقال فجأة: «عليّ بالفعل أن أذهب اليوم لزيارة أبي».

«وهل ستذهب برفقة أمّك».

«أجل».

كان طبق المعكرونة قد فرغ، فدخلت الخادمة الطفلة، وغيّرت الصحون ووضعت على الطاولة طبقاً كبيراً من اللحم والخضار. قالت الأمّ وهي تستعيد الرسالة وتتفحّصها بعد أن خرجت الخادمة: «بودّي بالفعل أن أعرف من الذي كتب هذه الرسالة».

فقالت جوليا بغتة وبجدّيّة مفاجئة ومبالغ فيها: «أعطني تلك الرسالة».

تناولت الظرف ونظرت إليه بعناية، ثمّ انتزعت منه الورقة الرقيقة ودققت

فيها، ثمّ قطّبت حاجبيها وقالت في النهاية بنبرة مرتفعة وساخطة: «أعلم حقّ العلم من كتب هذه الرسالة... ليس هناك مجال للشكّ... آه... يا له من شرّير».

«لكن من هو؟».

فأجابت جوليا وهي تخفض بصرها على الطاولة: «شخص حقير».

لم يقل مارتشيلّو شيئاً. كانت جوليا تعمل سكرتيرة في مكتب محام، ففكّر أنّ الرسالة قد كتبها على الأرجح أحد المساعدين الكثيرين العاملين في المكتب. وأضافت: «إنّه من الحسّاد حتماً... خاصّة وأنّ مارتشيلّو يحتلّ مرتبة في عمله يودّ كثير من الرجال الحصول عليها».

فقال مارتشيلّو لخطيبته مع أنّه لم يكن يشعر بالفضول، بل لمجرّد الشكليّات: «إذا كنت تعرفين اسم من كتب الرسالة، فلماذا لا تقولينه؟».

ففكّرت وأجابت بدون سخط: «لا أستطيع»، «لكنّني أخبرتك: أنّه شخص حقير». أعادت الرسالة إلى أمّها وتناولت بعض الطعام من الطبق الذي كانت الخادمة تحمله أمامها. للحظة لم يتكلّم أيّ من الثلاثة. ثمّ استأنفت الأمّ بنبرة شكّ صادقة: «ومع ذلك فأنا لا أستطيع أن أصدّق أنّ هناك شخصاً سيّئاً لدرجة أنّه قادر على كتابة مثل هذه الرسالة ضدّ رجل مثل مارتشيلّو».

فقالت جوليا: «لا يحبّه الجميع كما نحبّه نحن الاثنتين يا أمّي».

سألت الأمّ بعد ذلك بغتة وبحماسة: «لكن من، من الذي يمكنه ألّا يحبّ حبيبنا مارتشيلّو؟».

لذلك فقد سألته جوليا التي بدا أنّها عادت إلى مرحها وتحوّلاتها المعتادة: «هل تعرف ماذا تقول أمّي عنك؟ تقول إنّك لست بشراً بل أنت ملاك... وهكذا فإنّك ربّما بدلاً من أن تدخل إلى بيتنا في يوم من هذه الأيّام عبر الباب... فإنّك ستطير وتدخل من النافذة». ثمّ كتمت ضحكتها وأضافت: «سيسرّ الخوريّ، عندما ستذهب إلى الاعتراف عنده، إذا عرف أنّك ملاك... لا يحدث له بالطبع أن يستمع كلّ يوم إلى اعترافات ملاك من الملائكة».

قالت الأمّ: «ها هي تعود لتسخر منّي كالعادة، لكنّي أنا لم أكن أبالغ...

فمارتشيلّو بالنسبة إليّ هو ملاك». هذا بينما كانت تنظر إلى مارتشيلّو بحنان حلو ومركّز سرعان ما جعل عينيها تفيض بالدموع. ثمّ أضافت بعد لحظة: «لقد عرفت في حياتي رجلاً واحداً طيّباً مثل مارتشيلّو... كان ذلك هو أبوك يا جوليا». خفضت عندها جوليا عينيها على الصحن، جادّة هذه المرّة كما يليق بالموضوع. تعرّض في هذه الأثناء وجه الأمّ إلى تحوّل تدريجيّ: فبينما كانت الدموع تفيض بغزارة من عينيها، نكّدت تكشيرة حزينة ملامحها الناعمة والطريّة التي تظهر تحت حلقات شعرها الأشعث، بحيث بدت الألوان والملامح وكأنّها تندمج وتخفي بعضها بعضاً وكأنّها تُرى من خلال زجاج تغمره مياه وفيرة. بحثت بسرعة عن منديلها، ثمّ رفعته إلى عينيها وهي تتمتم: «كان إنساناً طيّباً بالفعل... ملاكاً عن حقّ... وكنّا نعيش بسلام نحن الثلاثة... لكنّه مات وذهب إلى الأبد... إنّ مارتشيلّو يذكّرني بأبيك، بكل طيبته، ولهذا فإنّي أحبّه كلّ هذا الحبّ... وينفطر قلبي عندما أفكّر أنّ ذلك الرجل الطيّب قد مات». ضاعت الكلمات الأخيرة داخل المنديل. وقالت جوليا بهدوء:

«عليك يا أمّي أن تأكلي».

فقال الأمّ وهي تجهش بالبكاء: «لا، لا أشعر بالجوع، بل معذرة منكما... أنتما سعيدان ويجب ألّا تتعكّر السعادة بأحزان امرأة عجوز». ثمّ نهضت بعزم وتوجّهت نحو الباب وخرجت.

قالت جوليا وهي تنظر إلى الباب: «هل ترى، لقد انقضت ستّ سنوات بالفعل، لكنّ الأمر لا زال يبدو دائماً وكأنّنا في أوّل يوم».

لم يقل مارتشيلّو شيئاً. بل أشعل سيجارة وأخذ يدخّن وهو منخفض الرأس. ثمّ مدّت جوليا يدها وتناولت يده، سألته بنوع من التوسّل: «بماذا تفكّر؟».

كانت جوليا تسأله في كثير من الأحيان بماذا يفكّر، وذلك لفضول منها أو لخوفها من التعابير الجادّة والمنغلقة التي تظهر أحياناً على وجهه. أجابها مارتشيلّو: «كنت أفكّر بأمّك... لقد أحرجني مديحها... كما أنّها لا تعرفني بما يكفي لتقول إنّني طيّب».

أجابت جوليا وهي تضغط على يده: «إنّها لم تقل ما قالت للمجاملة... فهي تقول لي الأشياء نفسها حتّى في غيابك، غالباً ما تقول لي: ما أطيبه مارتشيلّو».

«لكن أنّى لها أن تعرف ذلك؟».

«هذه أمور يمكن رؤيتها». ثمّ نهضت جوليا وجاءت لتقف أمامه وهي تضغط بوركها المستدير على كتفه وتمرّر يدها بين شعره. «لماذا؟ أوَ لا تريد أن يقولوا عنك إنّك طيب؟».

أجاب مارتشيلّو: «لا أقول هذا، أقول فقط إنّ الأمر قد لا يكون صحيحاً».

هزّت رأسها: «العيب فيك أنّك متواضع جدّاً... انظر، أنا لست كأمّي التي تريد أن يكون الجميع طيّبين... أنا أرى أنّ هناك طيّبين وأشراراً... حسناً، أنت بالنسبة إليّ واحد من أفضل الأشخاص الذين قابلتهم في حياتي... ولا أقول هذا لأنّنا خطيبان ولأنّي أحبّك... أقوله لأنّ هذه هي الحقيقة».

«لكن ما هي ماهيّة هذه الطيبة؟».

«قلت لك إنّها أمور ترى... لماذا يقال إنّ هذه المرأة جميلة؟... لأنّها تبدو جميلة... وهكذا فإنّك أنت تبدو طيّباً».

«ممكن» قال مارتشيلّو وهو يخفض رأسه. لم تكن قناعة المرأتين بأنّه طيّب جديدة عليه، لكنّها كانت تربكه بشدّة. فما هي ماهيّة هذه الطيبة؟ وهل هو طيّب بالفعل؟ أو، أليس ما تسمّيه جوليا وأمّها طيبة، هو لا اعتياديّته، أي ابتعاده وغيابه عن الحياة العامّة المشتركة؟ ثمّ فكّر من جديد أنّ الرجال الاعتياديّين ليسوا طيّبين، لأنّ ثمن الاعتياديّة باهظ ويجب دفعه عن علم أو بغير علم، وبأنواع مختلفة من التواطؤ، كلّها سلبيّة، تشمل عدم الحساسيّة والغباء والجبن إن لم يكن حتّى الإجرام. أيقظه من هذه التأمّلات صوت جوليا وهي تقول: «بالمناسبة، هل تعلم أنّ الفستان قد وصل... أريد أن أريه لك... انتظرني هنا...».

خرجت بتهوّر فنهض مارتشيلّو من الطاولة، وذهب إلى النافذة وفتحها. كانت النافذة تطلّ على الشارع، أو بالأحرى، لا يرى أيّ شيء تحتها لأنّ الشقّة موجودة في الطابق الأخير وتقع فوق إفريز المبنى شديد البروز.

ولكن كان هناك وراء الفراغ ملحق المبنى المقابل: صفّ من النوافذ ستائرها الخشبيّة الخارجيّة مفتوحة، ويمكن من خلالها تمييز الغرف من داخلها. كانت شقّة شبيهة جدّاً بشقّة جوليا: غرفة نوم، يبدو أنّ الأسرّة لا تزال غير مرتّبة فيها، غرفة جلوس «جيّدة» بالأثاث المعتاد المزيّف والداكن، غرفة طعام يمكن رؤية ثلاثة أشخاص فيها، رجلين وامرأة، جالسين على طاولتها في تلك اللحظة. كانت الغرف مقابله قريبة جدّاً لأنّ الشارع لم يكن عريضاً، وفي الواقع فقد كان بوسع مارتشيلّو أن يرى بوضوح الأشخاص الثلاثة حول الطاولة في غرفة الطعام: رجل بدين وكبير في السنّ، أبيض الشعر، ورجل آخر أصغر منه، نحيل وأسمر، وامرأة شقراء ناضجة ومكتنزة الجسم. كانوا يتناولون طعامهم بهدوء، على طاولة شبيهة بالطاولة التي جلس عليها قبل قليل هو بالذات، وتحت مصباح لا يختلف كثيراً عن مصباح الغرفة التي كان فيها. مع ذلك، وعلى الرغم من أنّه يراهم قريبين جدّاً لدرجة توحي إليه أنّه يكاد أن يسمع كلامهم الذي يتحدّثون به، فقد كانوا يظهرون له بعيدين جدّاً، بل سحيقي البعد، ربّما لأنّ بروز الإفريز يسبّب إحساساً بالهاوية. لم يتمكّن إلّا أن يفكّر أنّ تلك الغرف هي الاعتياديّة بعينها: كان يراهم، وكان بوسعه أن يتحدّث إلى ثلاثتهم إذا رفع صوته شيئاً ما، ورغم هذا فقد كان خارج هذا الواقع، ليس من الناحية الماديّة وحسب، بل من الناحية المعنويّة أيضاً. أمّا بالنسبة إلى جوليا، فلم يكن لتلك المسافة ولذلك البعد وجود، فهذان حقيقة جسديّة بحتة بينما هي موجودة داخل تلك الغرف، وكانت موجودة فيها على الدوام، وهي قادرة إذا طلب منها ذلك أن تقدّم له بلا مبالاة جميع المعلومات التي بحوزتها عن أحوال الناس الذين يعيشون هناك، ذلك كما فعلت قبل قليل بضيوف حفل الزفاف. ولا توحي تلك اللامبالاة بألفة الأمر، بل بتشتّت الذهن. وفي الواقع، فهي لن تعطي أيّ اسم للاعتياديّة لأنّها مغموسة فيها بكامل جسمها وحتّى الرأس، تماماً مثل الحيوانات الذين، إذا تحدّثوا، فلن يقدّموا أيّ اسم للطبيعة التي يشكّلون جزءاً لا يتجزّأ منها لا يبقي على أيّ بقيّة. أمّا هو فإنّه موجود في الخارج، لذلك فإنّ الاعتياديّة تسمّى اعتياديّة بالنسبة إليه لأنّه مستبعد عنها ويشعر بها على أنّها كذلك لأنّها نقيض شذوذه ولا اعتياديّته. أمّا أن يكون مثل جوليا، فكان عليه أن يولد مثلها، أو...

فتح الباب خلفه فاستدار. برزت جوليا أمامه، وهي في فستان الزفاف من الحرير الأبيض، وهي تمسك بكلتا يديها بطرف الوشاح الطويل الذي يمتدّ من رأسها، لتظهره بكامل أبّهته. قالت ببهجة: «أليس جميلاً؟...انظر»، ثمّ دارت في المساحة الفاصلة بين النافذة والطاولة وهي لا تزال تمسك بكلتا يديها بالوشاح الممدود، لتعطي خطيبها الفرصة كي يتملّى بمنظر ثوب الزفاف من جميع أطرافه. رأى مارتشيلّو أن الثوب ليس إلّا فستان زفاف، يشبه في جميع النواحي فستان أيّ عروس أخرى. لكنّه سرّ لأنّ جوليا كانت سعيدة بالقدر نفسه بهذا الفستان الشائع بالفعل، وبالطريقة نفسها التي سعدت فيها الملايين والملايين من النساء الأخريات قبلها. كانت أشكال جسم جوليا المستديرة والبارزة مطبوعة بوضوح أخرق تحت الحرير الأبيض البرّاق. اقتربت على حين غرّة من مارتشيلّو وقالت له وهي تمدّ رأسها إليه بعدما تركت الوشاح يسقط من يدها: «أعطني الآن قبلة... لكن دون أن تلمسني، وإلّا فإنّ الثوب سوف يتجعّد». في تلك اللحظة أدارت جوليا ظهرها إلى النافذة وبقي مارتشيلّو تجاهها. وعندما انحنى ليلامس شفتي جوليا بشفتيه، رأى في غرفة الطعام في الملحق المقابل، أنّ الرجل ذا الشعر الأبيض قد نهض وخرج، بعد ذلك مباشرة، نهض الاثنان الآخران، أي الشابّ النحيف ذو الشعر الداكن والمرأة الشقراء، سويّة، وبشكل تلقائيّ تقريباً، من على الطاولة وتبادلا قبلة وهما واقفان. أعجبه المشهد، لأنّه يتصّرف عمليّاً هو الآخر أيضاً مثل هذين الاثنين اللذين شعر قبل قليل أنّ مسافة كبيرة تفصله عنهما. في اللحظة نفسها هتفت جوليا وقد فقدت صبرها: «إلى الجحيم هذا الفستان»، ثمّ أغلقت النافذة بيدها من غير أن تبتعد عن مارتشيلّو. ثمّ هوت بجسمها على جسمه بقوّة، وألقت بذراعيها على عنقه. تبادلا القبل في الظلام، وبمضايقة الوشاح، وبينما كانت خطيبته تضغط عليه وتتلوّى، وهي تتنهّد وتقبّله، فكّر مارتشيلّو أنّها تتصرّف ببراءة، ولا تلاحظ وجود أيّ تناقض بين هذا العناق وفستان الزفاف: وهذا دليل إضافيّ على أنّه مسموح للأشخاص العاديّين أن يأخذوا أقصى درجات الحرّيّة مع الاعتياديّة نفسها. انفصلا عن بعضهما بعضاً في نهاية الأمر، وقد فقدا أنفاسهما، ثمّ تمتمت جوليا قائلة: «يجب ألّا نفقد صبرنا... كلّها أيّام وستتمكّن من تقبيلي حتّى في الشارع».

قال لها وهو يجفّف فمه بالمنديل: «يجب أن أنصرف».

«سأرافقك».

خرجا على رؤوس أصابع الأقدام من غرفة الطعام وذهبا نحو الممرّ. قالت جوليا: «سنلتقي هذا المساء بعد العشاء»، وكانت قد انفعلت من هيامها وهي تستند إلى عمود وتنظر إليه من العتبة. وكان وشاحها قد مال عن رأسها بسبب القبلة وتدلّى إلى جانبه بطريقة غير متوازية. فاقترب مارتشيلّو منها وسوّى لها الوشاح وهو يقول: «هكذا أفضل». في تلك اللحظة سمعا بعض الأصوات على عتبة الطابق أسفل منهما. فانسحبت جوليا وتراجعت بخجل إلى الوراء وأرسلت له قبلة برؤوس أصابعها ثمّ أغلقت الباب بسرعة.

-III-

كانت فكرة الاعتراف تقلق مارتشيلّو. فهو لم يكن متديّناً إلى حدّ ممارسة الشعائر بصورة رسميّة. كما لم يكن على ثقة تامّة بأنّه كذلك بمعنى ميل طبيعيّ نحو التديّن. ومع ذلك فقد كان بوسعه أن يأخذ بعين الاعتبار أمر الاعتراف الذي طلبه دون لاتّانسي على أنّه أحد الأفعال التقليديّة العديدة التي تعهّد بها لترسيخ نفسه بشكل نهائي في الحياة الاعتياديّة، على ألّا يتضمّن هذا الاعتراف الكشف عن شيئين يعتبرهما في الواقع، ولأسباب مختلفة، غير قابلين للاعتراف بهما: أي مأساة طفولته، والمهمّة في باريس. وقد أخبره حدس مبهم أنّ هناك صلة رقيقة تجمع بين هذين الأمرين، رغم أنّه وجد صعوبة فيما بعد في أن يقول بوضوح ما هي تلك الصلة. وأدرك من ناحية أخرى أنّه، بين نظم كثيرة، لم يختر النظام المسيحيّ الذي يحرّم القتل، بل اختار غيره، أي نظاماً سياسيّاً حديثاً لا يبغض سفك الدماء. لأنّه يرى، وباختصار شديد، أنّ المسيحية غير قادرة بمئات باباواتها وكنائسها التي لا تُعدّ ولا تُحصى وقدّيسيها وشهدائها، على إعادته لينضمّ من جديد إلى المجتمع البشريّ بعد أن حالت بينهما قضيّة لينو. ذلك في الوقت الذي يرى فيه ضمنيّاً أنّ ذلك كان يسيراً على الوزير البدين وذي الفم المصبوغ بأحمر الشفاه، كما على معاونه ذي المشاعر الباردة، وعلى رؤسائه في المخابرات. لم يكن مارتشيلّو يفكّر بكلّ هذا، بل كان يشعر به بطريقة غامضة، ممّا كان يزيد في أحزانه، كمن لا يرى أمامه إلّا مخرجاً واحداً، بينما أغلقت دونه كلّ المخارج الأخرى، كما أنّ هذا المخرج المتبقّي لا يرضيه. عندما استقلّ الحافلة التي تؤدّي إلى ساحة سانتا ماريّا ماجوره كان يفكّر أنّ عليه أن يتّخذ قراراً، أنّه من الضروريّ الاختيار: إمّا أن يقدّم اعترافاً كاملاً، وفقاً لقواعد

الكنيسة، أو أن يقتصر على اعتراف جزئيّ لإرضاء جوليا. ورغم أنّه لم يكن يمارس شعائر الدين بل لم يكن مؤمناً في الأساس، فإنّه كان ميّالاً للبديل الأوّل: وكأنّه يرجو أن يتمكّن بواسطة الاعتراف، من أن يتأقلم على أقلّ تقدير، مع قدره مرّة أخرى، هذا إذا لم يستطع أن يغيّره بالكامل. بينما كان الترام يسير، أخذ هو يناقش المشكلة في ذهنه بالجدّيّة المملّة والمتحذلقة، نوعاً ما، نفسها. وكان يشعر بالاطمئنان تقريباً في شأن لينو، وهو قادر على أن يروي قصّته كما حدثت في الواقع، ولا يمكن حينها للخوريّ إلّا أن يبرّئه من ذنبه بعد أن يفكّر بالأمر ويعطيه بعض التوصيات المعتادة. أمّا بالنسبة للمهمّة فالأمر يختلف كلّيّة، وهو يعرف أنّها تنطوي على الاحتيال والخيانة بل ولربّما أدّت في نهاية المطاف إلى موت أحد الأشخاص. والمشكلة بالنسبة إلى المهمّة لم تكن في الحصول على الموافقة بل هي أساساً في التحدّث عنها. ولم يكن هو واثق من مقدرته على ذلك، أي على التحدّث عنها. لأنّ هذا يعني التخلّي عن قاعدة من أجل قاعدة أخرى، وأن يُخضع للدينونة المسيحيّة أمراً يعتبر حتّى الآن مستقلّاً تمام الاستقلال، أي عدم الالتزام ضمنيّاً بالصمت والسرّية، ويعني باختصار أن يتعرّض للخطر كلّ البناء الشاقّ الذي بناه من أجل الدخول في الحياة الاعتياديّة. ومع ذلك فقد كان يرى أنّ هناك جدوى من المحاولة، على الأقلّ لأنّ هذا يؤدّي إلى إقناعه مرّة أخرى بمتانة هذا البناء بعد القيام باختباره للمرّة الأخيرة.

ومع ذلك فقد أدرك أنّه كان يفكّر في هذه البدائل دون أن يتفاعل معها وينفعل بها، بل بخمول نفس وبرودة روح، كأنّه يتفرّج عليها تقريباً، وكما لو أنّه قد حزم أمره واختار حلوله، وأنّ كلّ ما يجب أن يحدث في المستقبل قد تمّ حسمه مسبقاً، وإن لم يكن يعرف كيف ومتى. لكنّ الشك كان يمزّقه بعض الشيء، ولدرجة أنّه عندما دخل إلى الكنيسة الفسيحة، المليئة بالظلال والصمت والبرودة التي تريح حقّاً بعد الضوء والضوضاء وحرارة الشارع، نسي شأن الاعتراف وأخذ يتجوّل حول تلك الأماكن المقفرة، ومن ممرّ إلى آخر، كأنّه سائح متكاسل. ولطالما أحبّ هو الكنائس لأنّها أماكن آمنة وسط عالم متقلّب، منشآت غير عرضيّة كان في أوقات أخرى يجد فيها ما كان يبحث عنه من تعبير كامل ورائع: فهناك النظام، والقواعد، والضوابط.

بل كان يحدث معه في الواقع وفي كثير من الأحيان أن يدخل إلى إحدى الكنائس الكثيرة جدّاً في روما، وأن يجلس على مقعد من غير أن يصلّي، بل يتأمّل شيئاً ما يعتقد أنّه سيناسبه إذا كانت الظروف مختلفة. لم يكن يغريه في الكنائس تلك الحلول التي تطرحها، والتي لا يمكن له القبول بها، بل كانت النتائج التي لا يمكن له إلّا أن يقدّرها ويعجب بها. لقد أحبّ كلّ تلك النتائج. ولكنّ حبّه كان يزداد لها كلّما كانت تتعلّق بأمر مهيب ورائع، أي وباختصار، بأمر غير دينيّ: وكان يبدو له أنّ هذه الكنائس التي يتبخّر فيها الدين لتصبح دنيويّة جليلة ومنظّمة، تصلح لأن تكون نقطة انتقال من معتقد دينيّ ساذج إلى مجتمع عاقل بالغ، لا يمكن له أن يوجد مع ذلك بدون ذلك الاعتقاد البعيد.

كانت الكنيسة خالية مقفرة في ذلك الوقت. ذهب مارتشيلّو إلى تحت المذبح، ثمّ اقترب من أحد أعمدة الجناح الأيمن ونظر من جانب الأرضيّة وهو يحاول إلغاء قامته ويضع عينه على مستوى الأرض: فرأى كم هي فسيحة الأرض عندما ينظر إلى منظورها كما تنظر إليها النملة، كأنّها سهل يثير نوعاً من الدوّار. ثمّ رفع عينيه وبصره وتتبّع البريق الضعيف الذي يبعثه الضوء الخافت فوق السطح المحدّب لأجسام الرخام الضخمة، والذي ينتقل من عمود إلى عمود آخر وصولاً إلى بوّابة المدخل. دخل أحدهم في تلك اللحظة وهو يرفع حجاب الستارة، فدخلت معه مرآة من الضوء الأبيض القاسي: وكم كانت صغيرة هناك في آخر الكنيسة هيئة ذلك المؤمن الذي أطلّ على العتبة. ذهب مارتشيلّو إلى خلف المذبح ونظر إلى فسيفساء نصف الدائرة في الخلفيّة. توقّف انتباهه على صورة للمسيح بين أربعة قدّيسين، ففكّر أنّ من صوّره في تلك الهيئة لم يكن يشعر بأيّ شكّ فيما هو اعتياديّ وما هو غير اعتياديّ. ثمّ خفض رأسه وهو يتوجّه ببطء نحو كشك الاعتراف في الجناح الأيسر. ظنّ أنّه من غير المجدي أن يندم الآن على أنّه لم يولد في زمن آخر وفي ظروف أخرى: فهو على ما هو عليه بالضبط، لأنّ زمنه وظروفه لم تعد هي نفسها مثل التي سمحت حينها بإنشاء تلك الكنيسة. ويكمن التزامه اليوم في إدراك هذه الحقيقة.

اقترب من كشك الاعتراف، وكان ضخماً بالقياس إلى الكنيسة،

ومصنوعاً من خشب محفور غامق اللون. وصل في الوقت المناسب ليرى الخوري وهو يجلس ويغلق الستارة ويختفي وراءها، فلم ير وجهه. قام بالحركة المعتادة وقبل أن يركع رفع بنطاله من فوق ركبته كي لا يتجعّد، ثمّ قال بصوت منخفض: «أودّ أن أعترف».

أجاب صوت الخوري من الجهة الأخرى، بنبرة خافتة ولكن صريحة ومتعجّلة، أنّ بوسعه أن يفعل ذلك دون شكّ. كان صوتاً ضخماً لكنّه عميق ومنخفض، صوت رجل ناضج تتّضح فيه لكنة أهل الجنوب القويّة. استوحى مارتشيلّو رغماً عنه صورة خوري ذي وجه سوّدته اللحية، بحاجبين كثيفين وأنف ضخم وأذنين مليئتين بالشعر. وفكّر أنّه رجل من مادّة كشك الاعتراف نفسها الخشبيّة السميكة الصلبة، لا يهتمّ بالشكوك ولا بتوافه الأمور. وكما توقّع فقد سأله الخوري منذ متى لم يعترف فأجاب أنّه لم يعترف مطلقاً منذ زمن طفولته وأنّه يريد أن يعترف الآن لأنّه يريد أن يتزوّج. فقال صوت الخوري بعد شيء من الصمت ومن وراء شبك الكوّة وبنبرة فيها كثير من اللامبالاة: «لقد أسأت جدّاً يا بنيّ... وكم هو عمرك؟» فقال مارتشيلّو: «ثلاثون سنة».

فقال الخوري بلهجة المحاسب الذي يعلن خصوم الميزانيّة على الملأ: «لقد عشت ثلاثين سنة بين الخطايا». ثمّ استأنف بعد دقيقة: «لقد عشت ثلاثين سنة مثل البهائم وليس كمخلوق إنسانيّ».

عضّ مارتشيلّو على شفتيه. إنّ سلطة خوري الاعتراف تلك، والتي عبّر عنها بتلك الطريقة السريعة والوديّة ليحكم على وضعه قبل أن يعرف تفاصيله، هي سلطة يعرف الآن أنّها تثير حفيظته ولا يمكن له القبول بها. هذا لا يعني أنّ الخوري لا يعجبه، فهو رجل صالح على الأرجح يقوم بعمله بكلّ دقّة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المكان وإلى هذه الشعيرة. لكنّ هذا كان كلّ على عكس ما في الوزارة، فهناك كان يستاء من كلّ شيء، إلّا أنّ سلطتها كانت تبدو له بدهيّة ولا يمكن التشكيك فيها. أمّا هنا فإنّه يشعر برغبة تمرّد غريزيّة. ومع ذلك فقد أجهد نفسه ليقول:

«لقد ارتكبت كلّ الخطايا... حتّى الكبيرة منها».

«كلّها؟».

ففكّر أن يقول له إنّه قد قتل ليرى ما هو تأثير ذلك عليه. تردّد، ثمّ تمكّن بعد شيء من الجهد أن يقول بصوت واضح وصارم: «أجل، كلّها، بل إنّي قتلت».

فهتف الخوري في الحال بحيويّة ليس فيها أيّ سخط ولا دهشة: «لقد قتلت ولم تشعر بالحاجة إلى الاعتراف».

رأى مارتشيلّو أنّ هذا بالضبط ما يجب أن يقوله الخوري: لا فزع ولا دهشة، بل مجرّد سخط رسميّ لأنّه لم يعترف في وقته عن خطيئة كبيرة كهذه الخطيئة. وقد امتنّ للخوري، كما يمكن أن يمتنّ لضابط شرطة يسارع ليأمر باعتقاله عند سماع هذا الاعتراف نفسه، ودون تضييع وقت في التعليقات. وفكّر أنّ الجميع عليهم أن يمثّلوا أدوارهم وبهذا فقط يمكن للعالم أن يستمرّ. هذا بينما أدرك من جديد أنّه لم يشعر بأيّ إحساس خاصّ وهو يكشف عن مأساته تلك. وقد دهش من هذه اللامبالاة التي تتناقض بشدّة مع تأثّره العميق قبل قليل عندما قالت أمّ جوليا إنّها قد تلقّت رسالة من مجهول. فقال بصوت هادئ: «لقد قتلت عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري... دفاعاً عن النفس، وعن غير قصد تقريباً...».

«أخبرني كيف حدث ذلك».

غيّر وضعيّته قليلاً بسبب بعض الخدر في ركبتيه، ثمّ بدأ: «ذات صباح، بعد الخروج من المدرسة، تذرّع رجل بحجّة واقترب منّي... وكنت أنا في ذلك الوقت أرغب بشدّة في الحصول على مسدّس... ليس مسدّس لعب، بل مسدس حقيقي... وقد وعدني هو بإعطائي مسدّساً وأفلح بهذه الحجّة في إقناعي بالصعود إلى سيّارته... كان هو سائقاً لدى امرأة أجنبيّة وكانت السيّارة تحت تصرّفه طيلة النهار لأنّ صاحبتها كانت وقتها في رحلة خارج البلد... كنت وقتها ساذجاً وعندما قدّم لي تلك العروض، لم أفهم حتّى ماذا تعني».

«أيّ عروض؟».

قال مارتشيلّو بتأنٍّ: «عروضاً غراميّة، ولم أكن أعرف وقتها ما هو الحبّ، وما هو طبيعيّ فيه أو شاذّ... صعدت إذاً، فأخذني إلى فيلّا سيّدته».

«وماذا حدث هناك؟».

«لا شيء، أو لا شيء تقريباً... حاول في البداية شيئاً ما، ثمّ ندم وحملني على أن أعده بألّا أستجيب له مرّة أخرى إذا حدث ودعاني إلى الصعود إلى السيّارة».

«ماذا تعني بعبارة لا شيء تقريباً، هل قبّلك مثلاً؟».

قال مارتشيلّو بشيء من الدهشة: «لا، لكنّه أحاط خصري بيده للحظة، ونحن في الممرّ».

«واصل».

«ومع ذلك فهو كان يتوقّع أنّه لن يكون قادراً على نسياني... وفي الواقع فقد جاء في اليوم التالي لينتظرني مرّة أخرى عند الخروج من المدرسة... وأخبرني في هذه المرّة أيضاً أنّه سيعطيني المسدّس الذي كثيراً ما كنت أتمنّى امتلاكه، وقد تدلّلت في البداية قليلاً ثمّ وافقت على الصعود».

«وإلى أين ذهبتما؟».

«إلى الفيلّا مثل المرّة الماضية، إلى غرفته...».

«وكيف تصرّف هذه المرّة؟».

قال مارتشيلّو: «تغيّر هذه المرّة بشدّة، وبدا أنّه قد خرج عن طوره... قال لي إنّه لن يعطيني المسدّس، وإنّ عليّ أن أفعل كلّ ما سيمليه عليّ سواء بالحسنى أو بالإكراه... وكان يمسك بالمسدّس بيده وهو يتحدّث بهذا الكلام... ثم أمسك بي بذراعه ورماني على السرير، فهوى رأسي على الجدار... بينما سقط المسدّس على السرير وركع هو ليعانق قدميّ... أخذت عندها المسدّس ونهضت عن السرير وتراجعت بضع خطوات، فصرخ عندئذ وهو يفتح ذراعيه: «اقتلني، أجل، اقتلني قتلة الكلاب...». لذلك، فقد أطلقت النار عليه، وكأنّي أطيع أوامره، فسقط على السرير... هربت أنا بعد ذلك ولم أعد أعرف عنه شيئاً... حدث هذا منذ سنين كثيرة... لكنّي ذهبت خلال هذه الأيام إلى المكتبة لأرى صحف ذلك الوقت، فاكتشفت أنّ الرجل قد مات في تلك الليلة نفسها، في المستشفى».

روى مارتشيلّو القصّة دون تسرّع، وكان يختار كلماته بعناية ويلفظها بدقّة. أدرك أثناء حديثه أنّه لم يكن مثل العادة يشعر بشيء، لا شيء سوى ذلك الإحساس البارد والبعيد بالحزن الذي كان يشعر به بغضّ النظر عمّا يفعله أو يقوله. سأله الخوري على الفور، ودون أن يعلّق على القصّة بأيّ شكل من الأشكال: «هل أنت متأكّد من أنّك قد قلت الحقيقة كاملة؟».

فأجاب مارتشيلّو بدهشة: «طبعاً، بالتأكيد».

فاستأنف الخوري حديثه وقد أثير بغتة: «أنت تعرف أنّه لن يكون للاعتراف أيّ قيمة، وأنّك تقترف إثماً خطيراً إذا أخفيت بعض الحقائق أو شوّهت الحقيقة أو بعض جوانب الحقيقة... فماذا حدث بالفعل بينك وبين ذلك الرجل في المرّة الثانية؟».

«لكن... ذلك الذي قلته».

«ألم يحدث بينكما أيّ علاقة جسديّة؟ ألم يستعمل العنف ضدّك؟».

لم يتمكّن مارتشيلّو عندها إلّا أن يفكّر أنّ هذا يرى أنّ القتل أقلّ أهميّة من خطيئة اللوطيّة. فأكّد:

«لم يحدث إلّا ما سبق وأخبرتك به».

فلم ينثن الخوريّ عن عزمه وتابع كلامه قائلاً: «قد يقال إنّك قتلت الرجل لتنتقم بسبب أمر أوقعه فيك...».

«لم يفعل لي أيّ شيء على الإطلاق».

حدث بعدها صمت قصير رأى أنّه مشوب بشيء واضح من عدم التصديق. ثمّ سأله الخوري بغتة وبطريقة غير متوقّعة على الإطلاق: «هل حدث بعد ذلك أن أقمت علاقات مع رجال؟».

«لا... كانت حياتي الجنسيّة وما زالت حتّى الآن طبيعيّة بصورة كاملة».

«ماذا تعني بالحياة الجنسيّة الطبيعيّة؟».

«أنا رجل، ومن هذه الناحية، ومثلي مثل جميع الآخرين... فقد عرفت المرأة لأوّل مرّة في بيت دعارة، وكنت في السابعة عشرة من عمري... ثمّ لم يحدث أن أقمت بعد ذلك علاقات إلّا مع نساء».

«وهل تسمّي هذه حياة جنسيّة طبيعيّة؟».

«أجل، لماذا؟».

فقال الخوريّ وكأنّه انتصر: «هذا أيضاً غير طبيعيّ، هذا أيضاً خطيئة... ألم يخبرك أحد بهذا يا ابني المسكين؟... الحياة الطبيعيّة هي الزواج وإقامة علاقة مع الزوجة بهدف وضع نسل في هذا العالم».

فقال مارتشيلّو: «هذا ما أنا بصدد فعله».

«جيّد، لكنّ هذا لا يكفي... فأنت لا يمكن لك أن تقترب من مذبح الكنيسة ويداك ملطّختان بالدماء».

«وأخيراً»، لم يتمكّن مارتشيلّو إلّا أن يقول هذا في نفسه، لأنّه ظنّ أنّ الخوريّ قد نسي الموضوع الرئيسيّ في هذا الاعتراف. فقال بأشدّ ما يستطيع من التواضع: «أخبرني أنت ماذا يجب عليّ أن أفعل».

قال الخوري: «يجب عليك أن تتوب، وبالتوبة الصادقة العميقة وحدها تستطيع أن تكفّر عن الإثم الذي ارتكبته».

كانت ردّة فعل مارتشيلّو أنّه قال: «لقد تبت. إذا كانت التوبة تعني تمنّي عدم الإصرار على فعل شيء معيّن، فأنا قد تبت بالتأكيد». وكان بودّه أن يضيف: «لكنّ هذه التوبة لم تكف... لم يكن بوسعها أن تكفي»، لكنّه لجم نفسه. فقال الخوري بسرعة: «واجبي هو أن أحذّرك أنّ إذا ما قلته الآن غير صحيح، فلن يكون لتبرئتي لك أيّ قيمة... هل تعرف ماذا ينتظرك إذا كنت تخدعني؟».

«ماذا؟».

«اللعنة».

لفظ الخوري هذه الكلمة بنوع خاصّ من المسرّة. ونقّب مارتشيلّو في خياله ليعرف ماذا يمكن لهذه الكلمة أن تستحضر فيه، فلم يجد شيئاً: ولا حتّى الصورة القديمة للهب نيران الجحيم. لكنّه أدرك في الوقت نفسه أنّ الكلمة تعني أكثر ممّا نوى الخوري تحميلها. فاقشعرّ بدنه من الألم، وكأنّه فهم أنّ تلك اللعنة باقية، بالتوبة أو بدونها، وأنّه ليس بمقدور الخوري أن يحرّره منها. فكرّر بمرارة: «لقد تبت عن حقّ».

«وليس لديك شيء آخر تضيفه؟».

صمت مارتشيلّو للحظة قبل أن يجيب. لأنّه أدرك أنّ الوقت قد حان ليتحدّث عن مهمّته التي تتضمّن كما يعرف حقّ المعرفة أعمالاً تستدعي الإدانة، لا بل هي مدانة مسبقاً بالتعاليم المسيحيّة. كان يتوقّع هذه اللحظة وعلّق بحقّ أهميّة قصوى على قدرته على الكشف عن المهمّة. وبما أنّه كان بصدد تحريك شفتيه ليتكلّم، فقد شعر شعوراً هادئاً وحزيناً بالاكتشاف الذي كان يتوقّعه، أي إنّه قرف قرفاً لا يمكن التغلّب عليه. لم يكن ذلك اشمئزازاً أخلاقيّاً ولا خجلاً ولا، باختصار، أيّ شعور بالذنب. لكن شيئاً مختلفاً جدّاً لا علاقة له بالذنب. كما لو أنّه كبت وتثبيط مطلق، يمليه نوع من التواطؤ والإخلاص العميق. فليس عليه أن يتحدّث عن المهمّة، هذا كلّ شيء: وكان يأمره بهذا وبقوّة، ضميرُه نفسه الذي بقي صامتاً وخاملاً عندما صرّح هو أمام الخوري بقوله: «لقد قتلتُ». لم يقتنع تماماً بالأمر، فحاول أن يتحدّث من جديد، لكنّه شعر مرّة أخرى، وكأنّه يسمع آليّة قفلٍ تنقرُ عند تدوير المفتاح، سمع بإحساس من النفور يلجم لسانه ويمنعه من الكلام. وهكذا تأكّدت فيه، مرّة أخرى، وبوضوح أكبر، قوّة السلطة التي يمثّلها في الوزارة الوزيرُ المحتقر ومعاونه الذي لا يقلّ عنه حقارة. إنّها تلك السلطة الغامضة، مثلها مثل كلّ السلطات، التي تضرب جذورها على ما يبدو في أعماق روحه، في حين لا تلامس سلطة الكنيسة سطح نفسه، رغم أنّها أكبر في ظاهر الأمر. وهكذا فقد قال وهو يكذب لأوّل مرّة: «هل عليّ أن أخبر خطيبتي قبل أن نتزوّج بما قلته لك اليوم؟».

«أو لم تخبرها البتّة قبل الآن؟».

«لا، قد تكون هذه أوّل مرّة».

قال الخوري: «لا أرى ضرورة لذلك، ستثير الاضطراب في نفسها بلا فائدة... وقد يضع هذا في خطر سلام الأسرة وأمنها».

قال مارتشيلّو: «الحقّ معك».

تبع ذلك صمت جديد. ثمّ قال الخوريّ كمن ينهي الحديث، وكما لو أنّه يطرح السؤال الختاميّ الأخير: «وأخبرني يا بنيّ... هل كنت يوماً ما طرفاً أو

هل أنت الآن طرف في بعض الجماعات أو الطوائف التخريبيّة؟». لم يكن مارتشيلّو يتوقّع مثل هذا السؤال، فصمت لحظة مرتبكاً، وهو يفكّر أنّه من الواضح أنّ الكاهن طرح هذا السؤال بأمر من سلطة أعلى، بهدف التحقّق من ميول المؤمنين السياسيّة. ومع ذلك، فقد كان من المهمّ أنّه طرحه: فهذا الكاهن الذي يتعامل مع الطقوس بصورة رسميّة، وعلى أنّها شعائر خارجيّة لمجتمع يرغب في أن يكون جزءاً منه، يطلب الآن وعلى وجه التحديد عدم معارضة هذا المجتمع. كان يرغب أن يجيب: «لا، أنا طرف في جماعة تطارد الجماعات التخريبيّة»، لكنّه كبت هذه الإغراءات الخبيثة وقال بكلّ بساطة: «الحقيقة هي أنّي موظّف في الدولة».

لا بدّ أنّ هذه الإجابة قد أسعدت الخوري، لأنّه استأنف كلامه بعد صمت قصير وقال بهدوء: «عليك الآن أن تعدني بأنّك ستصلّي... لكن ليس لبضعة أيّام أو بضعة أشهر...أو بضع سنوات... بل كلّ حياتك... عليك أن تصلّي من أجل روحك وروح ذلك الرجل... وعليك أن تحمل على الصلاة زوجتك وأطفالك... إذا أنجبت أطفالاً... فالصلاة فقط يمكنها أن تجعل الله يعبأ بك ويرحمك... هل فهمتني؟... والآن احن رأسك خشوعاً لنصلّي سويّة.

خفض مارتشيلّو رأسه بطريقة آليّة وأخذ يستمع إلى الخوري وهو يتلو الصلاة باللّاتينيّة بصوته الخافت والمستعجل، على الطرف الآخر من شبّاك الكوّة. ثمّ نطق الخوري بصوت أعلى، وباللاتينيّة أيضاً، عبارة الغفران والتبرئة، فنهض مارتشيلّو عندئذ من على كرسيّ الاعتراف.

لكنّه، وبينما كان يمرّ أمام كرسي الاعتراف، انفتح الستار وطلب منه الخوري أن يتوقّف. اندهش مارتشيلّو من أن يراه مشابهاً في كلّ شيء لما كان قد تخيّله: فهو بدين نوعاً ما، أصلع، وله جبهة مستديرة كبيرة، وحاجبان كثيفان، وعينان بنّيتان مستديرتان وجادّتان، لكن لا تنمّان عن ذكاء، وفم ممتلئ. ففكّر أنّه خوري من كهنة البلدات الصغيرة لا يزال طالباً. في هذه الأثناء، أعطاه الخوري بصمت كتيّباً صغيراً عليه صورة ملوّنة على الغلاف: *حياة القدّيس أغناطيوس دي لويولا، موجّه إلى الشباب الكاثوليكيّ*. قال مارتشيلّو وهو يتفحّص الكتيّب: «شكراً». أومأ الكاهن مرّة أخرى

كأنّما ليقول لا شكر على واجب، ثمّ أغلق الستارة. وسار مارتشيلّو نحو بوابّة المدخل.

حدّق وهو يغادر الكنيسة بمشهدها بالكامل وبصفوف أعمدتها وسقفها الموزّع على عدّة طبقات وأرضيّتها المقفرة ومذبحها، وبدا له أنّه يودّع إلى الأبد الصورة القديمة المتبقيّة عن عالم كان يتمنّاه ويعرف أنّه لم يعد من الممكن أن يتحقّق. كان هذا نوعاً من السراب على المقلوب، تحمله خطاه ليبتعد أكثر فأكثر عن ماضٍ نهائيّ لا رجوع عنه. ثمّ إنّه رفع الستارة وخرج وسط الضوء الساطع للسماء الصافية، واحتضنته الساحة المليئة بخردة عربات الترام الصاخبة، وذات الخلفيّة المبتذلة التي تشكّلها مبان بلا هويّة، وكثير من المحلّات التجاريّة.

-IV-

عندما ترجّل مارتشيلّو من الحافلة، في الحيّ الذي تسكن فيه أمّه، أدرك على الفور تقريباً أنّ هناك رجلاً يتبعه عن بعد. بقي يرمقه بنظرات عابرة وهو يمشي على غير عجلة من أمره بمحاذاة جدران الحدائق الصامتة، وعلى طول الطريق المقفرة. كان رجلاً متوسّط القامة، قويّ البنية بعض الشيء، ذا وجه مربع تعلوه تعابير صادقة تنمّ عن حسن نيّة مشوب بشيء من المكر المبطّن، كما هو الأمر في كثير من الأحيان في بعض الفلّاحين. كان يرتدي بزّة باهتة اللون بين البنيّ والأرجوانيّ، يعتمر قبّعة فاتحة، بلون يشبه اللون الرماديّ، وكانت مضغوطة بالكامل على رأسه، وإن كانت حافّتها مرفوعة على جبهته، كما يفعل الفلّاحون أيضاً. لو رآه مارتشيلّو ذات يوم في سوق في ساحة إحدى القرى، لظنّ أنّه مزارع. كان الرجل قد ركب في حافلة مارتشيلّو نفسها، ثمّ نزل في الموقف نفسه، وهو يتبعه الآن على الرصيف الآخر، دون أن يكلّف نفسه عناء التخفّي، وكان يضبط سرعته على سرعة مارتشيلّو، ولم يتركه بعينيه للحظة. لكنّ نظرته الثابتة تلك بدت متردّدة، كما لو أنّ الرجل لم يكن واثقاً كلّ الثقة من هويّة مارتشيلّو ويريد أن يتأكّد من ملامحه قبل أن يقترب منه.

وهكذا صعدا سويّة على الطريق المنحدرة وسط سكون الساعات الأولى من منتصف النهار وحرّها. فكانت لا ترى إلّا قضبان البوّابات المغلقة، ولا شيء غير ذلك في الحدائق. ولم يكن بمقدور أحد أن يرى كم هي طويلة الطريق تحت النفق الأخضر الذي تشكّله أشجار الفلفل الملتفّة. في النهاية أثار خلوّ الطريق وسكونها شكوك مارتشيلّو، لأنّها ظروف مؤاتية لأيّ مفاجأة أو اعتداء، ولا بدّ أنّ الرجل الذي يتبعه قد اختارها عن عمد. لذلك فقد أخذ

بغتة قراره ونزل من على الرصيف واجتاز الشارع ليتحرّك باتّجاه الرجل. وعندما أصبح على مسافة قريبة منه، سأله: «هل كنت تبحث عنّي؟».

كان الرجل قد توقّف هو الآخر، وعلت وجهه تعابير الخوف، وقال بصوت مخنوق: «العفو، لقد تبعتك لأنّنا ذاهبان على الأرجح إلى المكان نفسه... وإلّا فإنّي لن أسمح لنفسي... العفو، ألست أنت دكتور كليريشي؟».

قال مارتشيلّو: «أجل، أنا هو، وأنت من أنت؟».

قال الرجل وهو يؤدّي تحيّة شبه عسكريّة: «أورلانـدو، موظّف في الخدمات الخاصّة. أرسلني الكولونيل باودينو... وأعطاني عنوانين... عنوان الفندق الذي تسكن فيه وهذا العنوان... وبما أنّي لم أجدك في الفندق فقد جئت أبحث عنك هنا، وكنت أنت بالصدفة في حافلة الترام نفسها... هناك أمر مستعجل».

فقال مارتشيلّو دون مقدّمات: «تفضّل إذاً»، ثمّ توجّه نحو باب فيلّا أمّه. سحب من جيبه المفتاح وفتح الباب ودعا الرجل إلى الدخول. أطاع الرجل وهو يخلع القبّعة احتراماً، وكشف عن رأسه المستدير تماماً والشعر الأسود متبعثر عليه، يحيط بصلع أبيض مستدير يتوسّط جمجمته ويوحي بأنّه يصبغه. سبقه مارتشيلّو عبر الدرب وتوجّه نحو نهاية الحديقة، حيث يعرف أنّ هناك عريشة يوجد تحتها طاولة وكرسيّان من حديد. رغم أنّه كان يمشي أمام العميل، فلم يستطع إلّا أن يلاحظ من جديد مظهر الحديقة المهمل المتوحّش. أمّا الحصى الأبيض النظيف الذي كان يتسلّى في طفولته باللعب فوقه، فقد اختفى منذ سنين، وانطمر أو تبعثر. وكشف أكثر من أي شيء آخر عن مسار الدرب، الذي غزته الأعشاب الضارّة، وعن بقايا تحويطتين صغيرتين من شجيرات الآس غير المتشابهة والمتقطّعة، رغم أنّه لا يزال من الممكن التعرّف عليها. أمّا الأصص المحيطة بصفّيْ الشجيرات فكانت مغطّاة هي أيضاً بأعشاب برّيّة، كما حلّ محلّ الورود وغيرها من النباتات المشابهة، شجيرات وأعشاب خشنة متشابكة بصورة كثيفة. بعد ذلك، كانت تشاهد هنا وهناك، في ظلّ الأشجار، أكوام قمامة وصناديق تغليف مثقّبة وقوارير مكسورة وما شابه ذلك من أشياء غير متجانسة والتي

يلقى بها عادة إلى السقيفة. قلب عينيه مشمئزاً من هذا المنظر، وتساءل من جديد بدهشة صادرة عن قلبه: «لكن لماذا لا يرتّبونها؟ لن يأخذ منهم إلّا القليل من الوقت... لماذا؟». على مسافة قريبة، كان هناك درب آخر يمتدّ بين جدار الفيلّا والسور المحيط بها، وهو الجدار نفسه المغطى باللبلاب، والذي كان في طفولته يتواصل من خلاله مع جاره روبرتو. سبق العميل إلى تحت العريشة وجلس على الكرسيّ الحديديّ، ودعاه إلى الجلوس أيضاً. لكنّ العميل بقي واقفاً باحترام. وقال على عجل: «سيّدي الدكتور، إنّها مسألة صغيرة... لقد تلقّيت تعليمات أن أخبرك من طرف الكولونيل أنّه يجب أن تتوقّف وأنت في طريقك إلى باريس في بلدة س». وسمّى العميل بلدة ليست بعيدة عن الحدود، «وأن تبحث هناك عن السيّد غابريو، في الرقم ثلاثة من شارع دي غليشيني».

فكّر مارتشيلو: «هذا تعديل في البرنامج»، ومن المألوف في المخابرات على ما يعرف أنّهم يغيّرون التعليمات في آخر لحظة في سبيل تضييع المسؤوليّة وبعثرة الآثار. ولم يستطع إلّا أن يسأل: «لكن ماذا يوجد في شارع دي غليشيني؟ شقّة خاصّة؟»

قال العميل بابتسامة عريضة بين الإحراج والتلميح: «ليس هذا بالفعل يا دكتور»، «يوجد هناك بيت دعارة... تدعى صاحبة البيت إنريكيتا بارودي... لكن عليك أن تسأل عن السيّد غابريو... والبيت، مثل كلّ البيوت المشابهة، يبقى مفتوحاً حتّى منتصف الليل... ولكن من الأفضل يا دكتور أن تذهب إلى هناك في الصباح الباكر... عندما لا يكون هناك أحد... وسأكون أنا أيضاً هناك». التزم العميل الصمت للحظة، ثمّ أضاف بحرج بعد أن رأى أنّه غير قادر على تفسير وجه مارتشيلّو الخالي من أيّ تعبير: «هذا أضمن وأكثر أماناً، يا دكتور».

لم ينبس مارتشيلّو ببنت شفة، بل رفع عينيه نحو العميل وتأمّله للحظة. كان عليه أن يصرفه الآن، لكنّه أراد أن يضيف بعض العبارات غير الرسميّة التي تبرهن على تعاطفه معه ، ولم يعرف هو أيضاً لماذا، ربّما بسبب التعبير الصادق والودّي المرسوم على وجهه العريض المستدير، وهكذا فقد قال: «منذ متى وأنت تعمل في هذا المجال يا أورلاندو؟».

«من عام 1925 يا دكتور».

«في إيطاليا على الدوام؟».

فأجاب العميل وهو يتنهّد، وكأنّه يريد أن يفيض بما في نفسه: «يمكن أن نقول البتّة تقريباً. إيه، لو أخبرتك يا دكتور كيف كانت حياتي وكم أمضيت من المتاعب... دائماً في حركة: تركيّا، فرنسا، ألمانيا، كينيا، تونس... لم أتوقّف أبداً». صمت برهة وهو يحدّق بمارتشيلّو، ثمّ أضاف بتعبير بلاغيّ لكنّه صادق: «كلّ ذلك من أجل العائلة والوطن أيّها السيّد الدكتور».

رفع مارتشيلّو بصره ونظر مجدّداً إلى الموظف الذي بقي منتصباً وقبعته في يده، ثمّ قال له إشارة إلى توديعه: «حسناً إذاً يا أورلاندو... بلّغ الكولونيل أنّي سأتوقّف في س. حسب رغبته».

«أجل، سيّدي الدكتور». ثمّ حيّاه العميل وابتعد على طول جدار الفيلّا.

بقي مارتشيلّو وحده، فحدّق في الفضاء أمامه. كان الجو حارّاً تحت العريشة، وكانت أشعّة الشمس تتسلّل عبر أوراق الكرمة الأمريكيّة وأغصانها، لتحرق وجهه مكان عيون الضوء الباهر. أمّا الطاولة الحديديّة، المطليّة بالمينا التي كانت ذات يوم ناصعة، فهي اليوم ملوّنة ببياض وسخ ومرقّط في عدّة أماكن بقشور سوداء من الصدأ. وكان بوسعه أن يرى من خارج العريشة، امتداد جدار السور الفاصل وحفرة اللبلاب التي كان يستخدمها للتواصل مع روبرتو. لا يزال اللبلاب هناك، وربّما لا يزال من الممكن النظر من خلاله إلى الحديقة المجاورة. لكنّ عائلة روبرتو لم تعد تسكن في الفيلّا المجاورة، ففيها الآن طبيب أسنان يستقبل زبائنه في العيادة. نزلت فجأة سحليّة على ساق الكرمة الأمريكيّة وتسلّلت بلا خوف على الطاولة. كانت سحليّة كبيرة من أكثر الأنواع شيوعاً، ذات ظهر أخضر وبطن أبيض ينبض على مينا الطاولة المصفرّ. اقتربت السحليّة من مارتشيلّو بسرعة، وبخطوات وثب قصيرة، ثمّ توقّفت برأسها المدبّب المرفوع نحوه، وعينيها السوداوين الصغيرتين الثابتتين وهما تنظران إلى الأمام. نظر إليها بمحبّة ووقف خشية أن يخيفها. وهنا تذكّر صباه أيّام كان يقتل السحالي، وكيف عمل وقتها عبثاً على تخليص نفسه من تأنيب الضمير عن طريق اللجوء إلى كسب مؤازرة

روبرتو الخجول ليتضامن معه. ثمّ كيف لم يتمكّن حينها من إيجاد شخص يريحه من عبء الذنب. وهكذا بقي وحده في مواجهة ميتة السحالي. فوجد في تلك العزلة برهاناً على جريمته. لكنّه ليس كذلك الآن، على ما يعتقد، ولن يكون بمفرده بعد الآن. فهو حتّى لو ارتكب الآن جريمة، ولطالما ارتكب مثلها لأغراض معيّنة، فإنّ الدولة برمّتها ستنحاز إلى جانبه وكذلك المنظّمات السياسيّة والاجتماعيّة والعسكريّة التي تتفرّع عنها، بالإضافة إلى عدد كبير من الناس الذين يفكّرون مثله، بل ودول أخرى من خارج إيطاليا، مع ملايين من الأشخاص الآخرين. هنا فكّر أنّ ما هو على وشك أن يقوم به، أسوأ بكثير من قتل بعض السحالي. ومع ذلك فهناك كثيرون يؤيّدونه، بدءاً من العميل أورلاندو، وهو الرجل الطيّب، المتزوّج والأب لخمسة أطفال.

«من أجل العائلة والوطن»، تشبه هذه العبارة الساذجة، على الرغم من الحماسة التي صدرت عنها، راية جميلة بلون فاتح تخفق في يوم مشمس، يحرّكها نسيم عليل على وقع الموسيقى ومسيرة الجنود. بقيت هذه العبارة تتردّد في أذنه عالياً بشجنها الممزوج بالأمل والحزن. «من أجل العائلة والوطن»، هذا كاف بالنسبة إلى أورلاندو، فلماذا لا يكون كافياً بالنسبة لي أيضاً؟

سمع ضجيج محرّك في الحديقة، من ناحية المدخل، فوقف على الفور بحركة فظّة أفزعت السحليّة فهربت. غادر العريشة دون تسرّع وتوجّه نحو المدخل. وجد سيّارة قديمة سوداء مركونة في الطريق، على مسافة قصيرة من البوّابة التي ما زالت مفتوحة. كان السائق يرتدي بزّة بيضاء وكمّين زرقاوين، وكان بصدد إغلاق البوّابة، لكنّ مارتشيلّو رآه وهو يتوقّف ويرفع قبّعته.

قال له مارتشيلّو بصوت هادئ: «سنذهب اليوم إلى المصح يا آلبيري، فمن غير المجدي أن تعيد السيّارة إلى الكراج».

فأجاب السائق : «أجل، يا سيّد مارتشيلّو»، فرمقه مارتشيلّو بنظرة مائلة. كان آلبيري هذا شابّاً ببشرة زيتونيّة وحدقتين سوداوين كالفحم وسط عينين بيضاوين ببريق البورسلان. كانت قسماته منتظمة وأسنانه ناصعة البياض ومتراصّة، وشعره أسود مصفّف بعناية. ليس طويلاً، لكنّه كان يعطي انطباعاً

بأنّ أبعاده كبيرة، ربّما لأنّ يديه وقدميه صغيرتان. كان بعمر مارتشيلّو لكنّه يبدو أكبر منه، ربّما بسبب نعومته الشرقيّة التي كانت تظهر في تفاصيل قسماته، والمقدّر لها على ما يبدو أن تنقلب إلى سمنة بمرور الزمن. نظر إليه مارتشيلو مرّة أخرى وهو يغلق البوّابة بامتعاض شديد، ثمّ توجّه إلى الفيلّا.

فتح الباب - النافذة ودخل إلى الصالون، وسط الظلام تقريباً. صدمته الرائحة النتنة التي تلوّث الجوّ، والخفيفة مقارنة بجوّ الغرف الأخرى حيث كانت كلاب أمّه العشرة تتجوّل بكلّ حرّيّة، لكنّها كانت تبرز هنا بصورة أشدّ لأنّه لم يدخل إلى المكان، وعلى الإطلاق تقريباً. عندما فتح النافذة تسلّل شيء من الضوء إلى الصالون، فرأى الأثاث وقد غطّي بأردية رماديّة، والسجّاد ملفوفاً ومسنوداً قائماً في الزوايا، وآلة البيانو مغطّاة بستائر مشبوكة بالدبابيس. عبر الصالون وغرفة الطعام ومرّ في المدخل، وتوجّه نحو الدرج. كان هناك قرب الفسحة الوسطى وعلى رخام إحدى الدرجات (لأنّ السجّادة التي اهترأت منذ زمن طويل وأزيلت لم تتجدّد مطلقاً) روث كلب فاستدار حوله كي لا يدوس فوقه. عندما وصل إلى شرفة العتبة الأخيرة، توجّه نحو باب غرفة أمّه وفتحه. لم يملك الوقت ليفتحه بالكامل، إذ هجمت عليه الكلاب العشرة هجوم سيل كبير حجز لفترة طويلة ثمّ فاض، ثمّ تسلّلت من بين قدميه وتبعثرت وهي تنبح على طول الشرفة والدرج. تردّد متململاً وهو يشاهدهم يهربون، رشيقين بأذيالهم المنتصبة ووجوههم الساخطة الشبيهة بوجوه القطط. ثمّ جاءه من الغرفة، الغارقة في شبه ظلّ، صوت أمه: «هل هو أنت يا مارتشيلّو؟».

«أجل يا أمّي، إنّي أنا... لكن هذه الكلاب؟».

«دعهم يجرون، يا لهم من قدّيسين بؤساء... كانوا محبوسين طيلة الصباح... دعهم يذهبون».

قطّب مارتشيلّو حاجبيه من السخط ودخل. بدا له مباشرة أنّ الهواء في الغرفة غير صالح للتنفّس: فالنوافذ المغلقة قد حفظت من الليل روائح مختلفة ومختلطة من النوم والكلاب والعطور، وبدا أنّ حرارة الشمس الحارقة خلف المصاريع قد جعلتها تتخمّر وتتحمّض. ثمّ توجّه متيبّساً

وبكلّ حذر نحو السرير، كما لو أنّه يخشى، بتحرّكه، أن يتّسخ أو يتشرّب بتلك الروائح. ثمّ جلس على حافّة السرير، ويداه على ركبتيه.

تمكّن ببطء، بعد أن اعتادت عيناه على الضوء الخافت، أن يرى الغرفة بأكملها. كان الضوء ينتشر تحت النافذة من وراء الستائر الطويلة الصفراء والملوّثة التي بدت له كأنّها مصنوعة من ذلك القماش الناعم نفسه الذي صنعت منه كثير من الملابس الداخليّة المبعثرة في أنحاء الغرفة، رأى على ذلك الضوء الخافت صفوف كثير من صحون الألمنيوم المعدّة لطعام الكلاب. كما تبعثرت على الأرض الأحذية والجوارب. ورأى بالقرب من باب الحمّام وفي زاوية شبه مظلمة، ثوباً ورديّ اللون بقي على الكرسي منذ ألقي به في الليلة السابقة، وكان نصفه على الأرض بينما تدلّى كمّه. انتقلت عيناه الباردتان والمفعمتان بالقرف من الغرفة إلى السرير الذي كانت تستلقي عليه أمّه. وكما هي العادة فهي لم تلق بالاً إلى أن تتغطّى عند دخوله فظهرت شبه عارية. كانت مستلقية، وجمعت ذراعيها وراء رقبتها الموضوعة على مسند السرير المنجّد بحرير أزرق مهترئ ومسودّ، كانت تنظر إليه بثبات وصمت. بدا وجهها الهزيل صغيراً تحت كتلة شعرها المبعثر ضمن جناحين بنّيين منتفخين، كأنّه مثلّث الشكل، تطغى عليه عيناها اللتان وسّعهما الظلّ وسوّدهما فظهرتا كعيون الموتى. كانت ترتدي ثوباً داخليّاً شفّافاً أخضر يصل بالكاد إلى أعلى فخذيها. ففكّر من جديد أنّها لا تبدو الآن تلك المرأة الناضجة التي كانت، بل مجرّد طفلة شاخت وهزلت. ظهر صدرها الهزيل وعظام القفص المصفوفة كأنّها مشحوذة. كما ظهر تحت القماش ثديان هزيلان وعليهما نقطتان مستديرتان داكنتان، لا بروز فيهما. لكنّ الفخذين أثارتا بالفعل الاشمئزاز والشفقة على حدّ سواء في نفس مارتشيلّو: كانتا نحيفتين وفارغتين كأنّهما فخذا فتاة في الثانية عشرة من عمرها، لم تتّخذ بعد أشكالاً نسائيّة. كان عمر أمّه يتّضح من خلال بعض تشقّقات التمزّق الذي أصاب الجلد كما اللون: أي في ذلك البياض الجليديّ، العصبيّ، المرقّط ببقع غامضة مزرقّة أو داكنة. ففكّر أنّها قد تكون نتيجة «صدمات»، أو بسبب «عضّات آلبيري». لكنّ ساقيها ظهرتا مثاليّتين تحت الركبة، بقدم صغيرة وأصابع متناسقة. كان مارتشيلّو يفضّل عادة عدم إظهار مزاجه السيئ

لأمّه، لكنّه لم يتمكّن هذه المرة أيضاً من كبح جماح نفسه، فقال لها بازدراء ومن غير أن ينظر إليها: «لقد قلت لك عدّة مرّات ألّا تستقبليني هكذا، وأنت نصف عارية»، فأجابت وقد نفد صبرها، لكن دون أيّ بغضاء: «أوه، يا لهذا الولد المتعصّب الذي وجدته»، ذلك وهي تسحب طرف الغطاء لتغطّي به جسمها. تكلّمت بصوت أجشّ، ممّا أثار أيضاً استياء مارتشيلّو. خاصّة وأنّه ما زال يذكر كيف كان يسمعه في صباه حلواً وصافياً كصوت الأناشيد. أمّا هذه البحّة فلا بدّ أنّها بسبب الكحول والمعاناة.

قال بعد لحظة: «هل نذهب اليوم إذاً إلى المصحّ؟».

قالت الأمّ وهي تنهض وتبحث في الوقت نفسه عن شيء ما خلف مسند السرير: «دعنا نذهب إلى هناك، رغم أنّي أشعر بألم شديد، كما أنّ زيارتنا لذلك المسكين لا تنفعه على الإطلاق، لا في كثير ولا قليل».

قال مارتشيلّو وهو يضع رأسه بين ذراعيه وينظر إلى الأسفل: «لكنّه يبقى زوجك وأبي».

فقالت: «أجل، إنّه كذلك بكلّ تأكيد».

كانت قد عثرت على مفتاح الضوء فكبسته. فأضاء على المنضدة المجاورة للسرير مصباح خافت الضوء، وبدا لمارتشيلّو أنّه ملفوف بقميص نسائيّ. استأنفت كلامها وهي تنهض عن السرير وتضع قدميها على الأرض: «هذا رغم أنّي، وأقول لك الحقيقة، أتمنّى أن يموت... على كلّ فهو لن يدرك ذلك حتّى... كما أنّي لن أنفق عندها مزيداً من المال على المصحّ... ولم يبق معي منه إلّا القليل... فكّر...»، ثمّ أضافت بنبرة أصبحت فجأة حزينة: «فكّر أنّي سأضطرّ ربّما إلى الاستغناء عن السيّارة».

«حسناً، وما هو الضرر في هذا؟».

فقالت باستياء ووقاحة كالأطفال: «هناك ضرر كبير. لأنّي بذريعة السيّارة أستطيع إبقاء آلبيري ورؤيته متى شئت... أمّا بعد ذلك فلن يكون بوسعي أن أراه من جديد».

قال مارتشيلّو بهدوء وهو يغرز أصابع يده في اليد الأخرى: «لا تكلّميني يا أمي عن عشّاقك».

«عشّاقي... إنّه الوحيد الذي لي... وبما أنّك تكلّمني أنت عن تلك الدجاجة التي هي خطيبتك، فعندي الحقّ في أن أتحدّث عنه، يا لعزيزي المسكين، وهو ألطف منها بكثير وأشدّ ذكاءً منها».

الغريب أنّ مارتشيلّو لم يستأ من هذه الشتائم التي وجّهتها أمّه لخطيبته جوليا التي لم تكن تطيقها. لكنّه فكّر: «أجل، قد تبدو بالفعل كأنّها دجاجة... لكنّه يروق لي أن تكون هكذا كما هي»، فقال بنبرة حلوة: «هل تريدين إذاً أن ترتدي ثيابك... إذا أردنا أن نذهب إلى المصحّ فقد حان الوقت لأن نتحرّك؟».

«بالفعل، حالاً». ثمّ عبرت، وبخفّة الظلال، الغرفة على رؤوس أصابع قدميها، وتناولت في طريقها الثوب الورديّ من على الكرسيّ ورمته على كتفيها، ثمّ فتحت باب الحمّام واختفت وراءه.

توجّه مارتشيلّو فور خروج أمّه نحو النافذة وفتحها. كان الهواء في الخارج حارّاً وساكناً، ومع ذلك فقد بدا له وكأنّه يشعر بنوع حادّ من الارتياح، كما لو أنّه يرى أمامه نهراً جليديّاً وليس حديقة ذات جوّ خانق. بدا له أيضاً أنّه يشعر وفي الوقت نفسه بحركة الهواء وراءه في الداخل، مثقلاً بعطور متفسّخة ونتن الحيوانات، وهو يتحرّك ببطء قبل أن يخرج من النافذة، شبيهاً بقيء جوّيّ ضخم يفيض من حلق البيت الملوّث إلى الخارج. وقف للحظة طويلة، وعيناه تنظران إلى الأسفل حيث أوراق شجرة اللحلحة الكثيفة التي تحيط النافذة بأغصانها، ثمّ استدار نحو الغرفة. صعق من جديد بمنظر الفوضى والإهمال، لكنّ المنظر أثار في نفسه هذه المرّة الحزن وليس القرف. بدا له فجأة أنّه يتذكّر أمّه كما كانت في صباها، فشعر بأحاسيس عميقة من التمرّد الأليم جرّاء هذا الانحلال والفساد اللذين غيّراها من الصبيّة التي كانت إلى المرأة التي أصبحت. كان هناك بالتأكيد شيء غير مفهوم، شيء لا يمكن إصلاحه في أصل هذا التحوّل، وهو ليس العمر ولا العواطف ولا التدهور الماليّ ولا نقص الذكاء ولا أيّ سبب محدّد آخر. إنّه شيء شعر به دون أن يجد تفسيراً له، وبدا له كأنّه كلّ واحد مع تلك الحياة، بل إنّه شكّل ذات مرة أعظم قيمة لها، لكنّه أصبح لاحقاً، وبنوع من التحوّل الغامض، عادة سيّئة بشكل مميت. استدار بعيداً

عن النافذة ومشى نحو صندوق الملابس، وقد رميت فوقه أشياء كثيرة لا معنى لها، ومن بينها صورة لأمّه في شبابها.

نظر إلى ذلك الوجه الناعم، تين العينين البريئتين، ذلك الفم الساحر، وتساءل والرعب يملأه لماذا لم تعد كما كانت في ذلك الوقت. برز في هذا السؤال اشمئزازه من جميع أشكال الفساد والانحلال، لكنّ ما جعل هذه الأشكال لا تطاق هو شعوره المرير بتأنيب الضمير وألمه كابن لها: فلربّما كان ذنبه هو، أنّ والدته قد هوت بنفسها على هذا النحو، ربّما لو أنّه أحبّها بقدر أكبر أو بطريقة مختلفة، لما كانت قد وقعت في هذه العزلة البائسة. لاحظ أنّ عينيه قد فاضتا بالدموع بسبب هذه الأفكار، فهزّ رأسه بقوّة وهو يرى تلك الصورة بطريقة ضبابيّة. في تلك اللحظة انفتح باب الحمام وظهرت الأمّ عند المدخل بردائها. لكنّها سارعت وغطّت عينيها بإحدى ذراعيها وهي تصرخ: «أغلق... أغلق النافذة... كيف يمكن لك تحمّل هذا الضوء».

أسرع مارتشيلّو وذهب ليغلق النافذة، ثمّ اقترب من أمّه وأخذها من ذراعها وأجلسها قربه على حافّة السرير، ثمّ سألها بلهجة لطيفة: «وأنت كيف تستطيعين يا أمّي أن تتحمّلي كلّ هذه الفوضى؟». فنظرت إليه بتشكّك وحرج: «لا أعرف كيف يحدث ذلك معي... عليّ كلّما استخدمت غرضاً أن أعيده إلى مكانه... ولكن، لسبب ما، لا يمكنني تذكّر ذلك أبداً».

فقال مارتشيلّو بغتة: «ماما، إنّ لكلّ عمر طريقته في الحياة الكريمة... فلماذا تهاونت يا أمّي بحقّ نفسك بهذه الطريقة؟».

كان يضغط على إحدى يديها، وكانت هي تمسك باليد الأخرى مشجباً يتدلّى منه ثوبها. ظنّ للحظة أنّه يرى في عينيها الواسعتين والمفعمتين بحزن طفوليّ شيئاً من ألم يعيه قلبها: وفي الواقع فقد أصيبت شفتا أمّه بشيء خفيف من الرجفان. ثمّ ظهرت عليها تعابير غضب طردت كلّ الانفعالات. وما لبثت أن صاحت: «أعرف أنّه لا يعجبك شيء من كلّ ما أنا عليه ومن كلّ ما أفعله... فأنت لا تتحمّل كلابي، ولا ملابسي، ولا عاداتي... لكنّي أنا ما زلت صبيّة يا عزيزي وأريد أن أتمتّع بحياتي وعلى طريقتي الخاصّة...». ثمّ أنهت حديثها وهي تسحب يدها بعنف: «والآن اتركني، وإلّا فكيف لي أن أرتدي ثيابي».

لم يقل مارتشيلّو شيئاً. تنحّت الأمّ في زاوية، تحرّرت من ثوبها وتركته يسقط على الأرض، ثمّ فتحت الخزانة وارتدت الثوب أمام مرآة الباب. اتّضح هزال عظام وركيها المستدقّة الشديد بعدما ارتدت الثياب، وكذلك هزال كتفيها الغائرتين وصدرها الفارغ. نظرت إلى نفسها للحظة في المرآة، وسوّت شعرها بيدها، ثمّ تواثبت لتنتعل حذاء من أحذيتها المبعثرة على الأرض. ثمّ قالت وهي تتناول حقيبة يد من الصندوق وتتوجّه نحو الباب: «فلنذهب الآن».

«ألن تضعي القبّعة؟».

«لماذا، لا حاجة لذلك».

أخذا ينزلان على الدرج. قالت الأمّ: «لم تحدّثني عن زفافك».

«سأتزوّج بعد غد».

«إلى أين ستذهب في شهر العسل؟».

«إلى باريس».

قالت الأمّ: «شهر عسل تقليديّ». عندما وصلت إلى الممرّ ذهبت نحو باب المطبخ ونبهت الطبّاخة: «أوصيك يا ماتيلدِه... أعيدي الكلاب إلى البيت قبل حلول الليل».

خرجا إلى الحديقة. كانت السيّارة ذات اللون الأسود الباهت موجودة هناك خلف الأشجار، متوقّفة في درب المدخل. قالت الأمّ: «لقد أخذت قرارك إذاً، ولا تريد أن تأتي لتسكن معي... مع أنّ زوجتك لا تروق لي كثيراً، لكنّي كنت سأقوم حتّى بهذه التضحية... خاصةً وأنّه توجد أماكن كثيرة هنا».

أجاب مارتشيلّو: «لا، يا ماما».

قالت بخفّة: «أنت تفضّل أن تسكن في تلك الشقّة الرهيبة: أربع غرف ومطبخ». ثمّ انحنت لتقطف ورقة من الأعشاب، لكنّها ترنّحت وكانت ستقع لولا أنّ مارتشيلّو كان جاهزاً ليتداركها ويسندها بيده. شعر تحت أصابعه بلحم ذراعها الطريّ الهزيل وهو يترجرج على ما يبدو فوق العظام، كأنّه خرقة قماش ملفوفة حول عصا، فأحسّ من جديد بالشفقة عليها. دخلا

إلى السيّارة بينما كان آلبيري يمسك بالباب المفتوح وقبّعته في يده. ثمّ أخذ آلبيري مكانه وقاد السيّارة إلى خارج البوابّة.

انتهز مارتشيلّو فرصة نزول آلبيري من جديد كي يغلق البوّابة، وقال لأمّه: «قد آتي بكلّ سرور لأسكن معك... إذا صرفت آلبيري ووضعت شيئاً من النظام في حياتك... وتوقّفت عن تناول تلك الحقن».

نظرت إليه بالميل بعينين غير متفهّمتين. لكنّ أنفها الحسّاس ارتجف في حركة ما لبثت أن انتقلت إلى فمها الصغير والذابل المتجعّد، على شكل ابتسامة مضطربة باهتة. «هل تعرف ماذا قال لي الطبيب... إنّي قد أموت ذات يوم».

«لماذا لا تتوقّفي إذاً؟».

«قل لي لماذا عليّ أن أتوقّف».

صعد آلبيري إلى السيّارة وهو يضع على أنفه نظّارته السوداء. انحنت الأمّ إلى الأمام ووضعت يدها على كتفه. كانت يداً نحيلة، شفّافة، بشرتها مشدودة على الأوتار وملطّخة ببقع حمراء مزرقّة، وأظافرها بلون أحمر يميل إلى السواد. كان بودّ مارتشيلّو ألّا ينظر، لكنّه لم يتمكّن. فرأى يدها وهي تتحرّك على كتف الرجل حتّى دغدغت أذنه بمداعبة خفيفة. قالت الأمّ: «فلنذهب إذاً إلى المصحّ».

قال آلبيري من غير أن يلتفت: «حسناً، أيّتها السيّدة».

أغلقت الأمّ الزجاج الفاصل وتهالكت على الفرش، بينما كانت السيّارة تتهادى بلطف على الطريق. عندما ارتمت على المقعد نظرت إلى ابنها بالميل وقالت وسط دهشة مارتشيلّو الذي لم يكن يتوقّع منها مثل هذا التنبّؤ بأفكاره: «أنت غاضب لأنّي داعبت آلبيري، أليس صحيحاً؟».

قالت هذا وهي تنظر إليه بتلك الابتسامة الطفوليّة اليائسة والمضطربة نوعاً ما. أمّا مارتشيلّو فلم يفلح في تغيير تعابير الانزعاج على وجهه. فأجاب: «لست غاضباً... لكنّي كنت أفضّل لو أنّي لم أشاهد ذلك».

قالت من غير أن تنظر إليه: «لا يمكن لك أنت أن تفهم ماذا يعني بالنسبة للمرأة أن تصبح غير صبيّة، هذا أسوأ من الموت».

صمت مارتشيلّو. بدأت السيّارة تتهادى بصمت تحت أشجار الفلفل فيسمع صوت حفيف أرياش الأغصان وهي تلامس زجاج النوافذ. أضافت الأمّ بعد دقيقة: «أرغب في بعض الأحيان أن أكون عجوزاً... سأصبح وقتها عجوزاً نحيلة، نظيفة». ثمّ ابتسمت مسرورة وغارقة في هذا الوهم «وبهذا أكون مثل الوردة الجافّة التي توضع بين صفحات الكتب». وضعت يدها على ذراع مارتشيلّو وسألته: «ألا تفضّل أن تكون أمّك مثل تلك العجوز، مخمّرة، محفوظة، وكأنّما في النفتلين؟».

نظر إليها مارتشيلّو وأجاب بارتباك: «ستكونين كذلك في يوم ما».

قالت له وهي تنقلب إلى الجدّيّة وتنظر إليه وتبتسم بحزن: «هل ترى ذلك حقّاً؟... أمّا أنا فإنّي على قناعة بأنّك ستجدني في يوم من هذه الأيّام ميّتة في تلك الغرفة التي تكرهها جدّاً».

سأل مارتشيلّو: «ولمَ يا أمّي؟». لكنّه كان يدرك أنّ أمّه تتكلّم بجدّيّة ويمكن أن تكون على حقّ أيضاً: «ما زلت صبيّة، وعليك أن تعيشي».

«هذا لا يعني أنّي لن أموت قريباً، أعرف ذلك، أخبروني بذلك في البروج». مدّت يدها فجأة تحت عينيه وهي تضيف دون أيّ مواصلة في الحديث: «هل يعجبك هذا الخاتم؟»، كان خاتماً ضخماً بحلقة مشغولة وعليه حجر من النوع القاسي بلون حليبيّ. قال مارتشيلّو وهو لا يكاد ينظر إليه: «أجل، إنّه جميل».

حوّلت الأمّ كلامها وقالت: «هل تعرف أنّي أفكّر أحياناً أنّك أخذت كلّ شيء من أبيك... فهو أيضاً كان، عندما كان في رشده، لا يعجبه شيء... ولا يرى شيئاً في الأشياء الجميلة... لم يكن يفكّر إلّا في السياسة... مثلك».

لم يكن مارتشيلّو يعرف هو أيضاً لماذا لم يتمكّن هذه المرة، من كبت هذا الإحساس البالغ بالضيق. قال: «يبدو لي أنّه لا يوجد شيء مشترك بيني وبين أبي... أنا شخص عقلانيّ، طبيعيّ باختصار... أمّا هو، فحتّى قبل أن يدخل إلى المصحّ، وعلى حدّ ما أذكره، وما كنت تؤكّدينه لي أنت أيضاً، كان دائماً... كيف يمكنني أن أقول؟... مشتعلاً بعض الشيء».

«أجل، لكنكما تشتركان في بعض الأشياء... فأنتما لا تتسلّيان في الحياة

ولا ترغبان أن يتسلّى الآخرون...». نظرت للحظة إلى خارج النافذة ثمّ أضافت على حين غرّة: «لن آتي إلى حفل زفافك... على كلّ يجب ألّا تستاء منّي، لأنّي لا أذهب إلى أيّ مكان... لكن بما أنّك ابني بعد كلّ شيء، فأعتقد أنّه عليّ تقديم هديّة لك... فماذا ترغب؟».

أجاب مارتشيلّو بلا مبالاة: «لا شيء يا أمّي».

قالت الأم بسذاجة: «هذا مؤسف، لو كنت أعرف أنّك لا تريد شيئاً، لما أنفقت مالاً... لكنّي الآن اشتريتها... خذ». فتّشت في حقيبتها وأخرجت علبة بيضاء مربوطة بمطّاطة: «إنها علبة سجائر... فقد لاحظت أنّك تضع السجائر في جيبك...» ثمّ فتحت العلبة وأخرجت منها علبة أخرى فضّيّة، مسطّحة ومقلّمة بكثافة، ففتحتها وأعطتها لابنها. كانت مليئة بالسجائر الشرقيّة، فاغتنمت الفرصة وتناولت واحدة منها وجعلت مارتشيلّو يشعلها لها. فقال بشيء من الحرج، وهو ينظر إلى علبة السجائر المفتوحة في حضن أمّه، دون أن يلمسها. «إنّها جميلة جدّاً ولا أعرف كيف أشكرك يا أمي... ربّما كانت أجمل ممّا أستحقّه».

قالت الأمّ: «أفّ، كم أنت مملّ». ثمّ أغلقت العلبة وأقحمتها بحركة مغالاة لطيفة في جيب سترة مارتشيلّو. استدارت السيّارة بشيء من العنف حول زاوية الشارع فوقعت الأمّ فوق مارتشيلّو، وانتهزت الفرصة لتضع يديها على كتفيه، ثمّ ألقت برأسها إلى الخلف وهي تنظر إليه: «أعطني قبلة لقاء الهديّة، هل تريد؟».

انحنى مارتشيلّو ولمس بشفتيه خدّ أمّه. استلقت إلى الخلف على المقعد وقالت وهي تتنهّد وتضع يدها على صدرها: «ما أشدّ هذا الحرّ... عندما كنت صغيراً لم يكن يتوجّب عليّ أن أستجدي منك القبلة... كنت طفلاً حنوناً».

قال مارتشيلّو على حين غرّة: «هل تذكرين يا أمّي ذلك الشتاء عندما مرض أبي؟».

قالت الأمّ بسذاجة: «بكلّ تأكيد، كان شتاءً رهيباً... كان يريد أن ينفصل عنّي ويأخذك معه... كان قد بدأ يفقد رشده... لحسن الحظّ، وأقول لحسن الحظّ بالنسبة إليك، أنّه جنّ بالكامل وعرف عندها أنّ الحقّ معي في الاحتفاظ بك عندي... لماذا هذا السؤال؟.

قال مارتشيلّو وهو يحاول تجنّب النظر إلى أمّه: «حسناً، في ذلك الشتاء كان حلمي هو ألّا أعيش معكما، أنت وأبي، بل أن تضعاني في معهد داخليّ، وهذا لم يكن يمنعني من حبّك... لهذا فعندما تقولين إنّي تغيّرت منذ ذلك الحين، فإنّك لا تقولين الحقّ... فقد كنت آنئذٍ كما أنا الآن... ولم أكن أستطيع وقتها ولا الآن تحمّل الصخب والفوضى... هذا كلّ ما في الأمر». تكلّم بجفاء وبنوع من القسوة، وما لبث أن ندم على ذلك بعد أن رأى تعابير الإحباط تعتّم وجه أمّه. ومع ذلك فهو لم يرغب في أن يقول شيئاً يمكن أن يظهر كأنّه تراجع: فقد قال الحقيقة، ولا يمكن له للأسف أن يقول غير الحقيقة. لكنّها، وفي الوقت نفسه، أفاقت على إدراكها غير السارّ بأنّها تفتقر إلى الشفقة على الأبناء، فشعرت مرّة أخرى وأقوى من أيّ وقت مضى بالكآبة المعتادة تضغط على قلبها. قالت الأم بنبرة استسلام: «ربّما كنت أنت على حقّ». في تلك اللحظة توقفت السيّارة.

ترجّلا وسارا نحو بوّابة المصحّ. كان الشارع يمرّ وسط حيّ هادئ، على طرف فيلّا ملكيّة قديمة. كان شارعاً قصيراً: وكان هناك على أحد جانبيه خمسة أو ستة مبانٍ قديمة مخفيّة نوعاً ما بين الأشجار. وتمتدّ في الجهة الأخرى أسوار المصحّ. بينما يحجب الرؤية في الصدر جدار رماديّ قديم والنباتات الكثيفة التي تملأ الحديقة الملكيّة. كان مارتشيلّو يزور أباه منذ سنوات عديدة مرّة واحدة على الأقلّ كلّ شهر، ومع ذلك، فهو لم يألف بعد هذه الزيارات، وكان في كلّ مرة يشعر بإحساس من الاشمئزاز واليأس. وكان ذلك هو الشعور نفسه الذي كانت تثيره في نفسه زياراته لأمّه في الفيلّا التي قضى فيها سنيّ طفولته ومراهقته. ولكنّه كان أقوى بكثير: فالفوضى والفساد في بيت أمّه قابلان للإصلاح على ما يبدو، بينما لا يوجد أيّ علاج لجنون الأب، الذي يبدو أنّه يلمّح إلى فوضى وفساد عامّين وغير قابلين للشفاء على الإطلاق. وهكذا فقد شعر، مرّة أخرى، عندما دخل إلى تلك الغرفة برفقة أمّه، بتوعّك بغيض يمزّق فؤاده وتنقصف بسببه ركبتاه. أدرك أنّ لونه قد شحب، ورغم أنّه كان يلقي نظرات خاطفة على القضبان السوداء المنصوبة على بوّابة المصحّ، فقد شعر للحظة، برغبة هستيريّة في التخلّي عن الزيارة والتذرّع بحجّة ما تمكّنه من الانصراف. أمّا الأمّ فلم تنتبه إلى اضطراب نفسه،

لذلك فقد قالت وهي تتوقّف أمام باب صغير أسود وتضغط على زرّ الجرس المصنوع من البورسلان: «هل تعرف ماذا كان آخر هوس شعر به؟».

«ما هو؟».

«إنّه وزير لدى موسوليني... بدأ هذا معه منذ شهر... ربّما لأنهم سمحوا له بقراءة الصحف».

قطّب مارتشيلّو حاجبيه لكنّه لم يقل شيئاً. فتح الباب فظهر ممرّض شابّ بقميص أبيض: قويّ البنية، طويل القامة، أشقر، رأسه حليق ووجهه أبيض منتفخ بعض الشيء. قالت له الأمّ بلطف: «صباح الخير يا فرانز. كيف حالك؟».

قال الممرّض بلكنة ألمانيّة واضحة: «اليوم نحن أحسن من البارحة، البارحة كنّا في حال سيّئة جدّاً».

«سيّئة جدّاً؟».

«توجّب علينا ارتداء ثوب التقييد» بدا الممرّض مسروراً من استمراره في استعمال صيغة الجمع، مثل المربّيات عندما يتكلّمن عن الأطفال.

«ثوب التقييد... يا للرعب».

كانوا في هذه الأثناء قد دخلوا وساروا على الدرب الضيّق بين جدار السور وحائط المصحّ. «الثوب، يجب أن ترى هذا الثوب... إنه ليس ثوب تقييد بالفعل، بل هو ثوب عاديّ لكنّه يساعد على إبقاء الذراعين ثابتتين... كنت أظنّ قبل أن أراه أنّه ثوب نوم حقيقيّ... لكنّه أمر محزن حقّاً أن نراه مقيّداً بهذا الشكل، وذراعاه ملفوفتان حول وركيه». وهكذا واصلت الأمّ حديثها بخفّة بل كما لو بشيء من المرح. استداروا حول المصحّ وولجوا إلى ساحة أمام الواجهة الرئيسيّة. وكان المصحّ عبارة عن بناء أبيض بثلاثة طوابق وبمظهر مسكن عاديّ، لولا تلك القضبان الحديديّة فوق النوافذ. قال الممرّض وهو يصعد بسرعة على درج تحت الشرفة: «البروفيسور بانتظاركما، أيّتها السيّدة كليريشي». ثمّ استبق الزائريْن عبر مدخل عار في الظلّ، وذهب ليقرع على باب مغلق كان عليه لوحة بالمينا كتب عليها: الإدارة.

فُتح الباب على الفور، وباندفاع الرجل الضخم الكبير، خرج مدير

المصحّ البروفيسور إرميني بسرعة للقاء الزائرين. «سيّدتي، تحيّاتي... دكتور كليريشي، صباح الخير». رنّ صوته المرتفع كرنين جرس من برونز في صمت العيادة المتجمّد، وبين تلك الجدران العارية. مدّت الأمّ يدها، فحنى البروفيسور بجهد واضح جسمه الملفوف في الثوب، رغبة منه في تقبيلها لياقةً. أمّا مارتشيلّو فقد اقتصر على إلقاء تحيّة عابرة. كان وجه البروفيسور يشبه إلى حدّ كبير بومة الحظيرة: عينان واسعتان مستديرتان وأنف كبير منحن كالمنقار وشارب أحمر يتدلّى فوق الفم الصاخب الواسع. لكنّ هذا التعبير لم يأت لوصف الطائر الليليّ الحزين، وإنّما للتندّر ببصيرة محسوبة بتؤدة. تقدّم وسار أمام الأمّ ومارتشيلّو وصعد على الدرج، وعندما وصلوا إلى وسط الدرج، تدحرج عليه شيء معدنيّ رمي بقوّة من العتبة. في الوقت نفسه تردّد صدى صرخة شديدة تبعتها قهقهة. انحنى البروفيسور والتقط ذلك الشيء ورأى أنّه صحن من الألمنيوم. فقال وهو يلتفت نحو الزائريْن: «لا داعي للقلق، إنّها دونيغالي، وهي سيّدة عجوز هادئة جدّاً في العادة، لكنّها تؤخذ بعض الأحيان بفكرة رمي كلّ ما يقع تحت يديها... قه، قه، قد تصبح بطلة في ألعاب الرمي إذا تركوها وشأنها». أعطى الصحن للممرض ومضى وهو يثرثر عبر الممرّ الطويل وبين صفّيْ أبواب مغلقة: «كيف حدث يا سيّدتي أنّك ما زلت في روما؟ كنت أظنّ أنّك ذهبت إلى المصايف في الجبل أو على البحر».

قالت الأمّ: «سأسافر بعد شهر... لكنّي لا أعرف إلى أين سأذهب... أرغب في تجنّب مدينة البندقيّة لمرّة واحدة على الأقلّ».

«قال البروفيسور وهو يستدير عند زاوية الممرّ: «نصيحة يا سيدتي، اذهبي إلى إيسكيا... كنت هناك في رحلة قبل أيّام فقط ... إنّها أعجوبة رائعة... ذهبنا إلى مطعم اسمه كارمينيلّو: تناولنا حساء سمك كان أحلى من أنشودة شعريّة». استدار البروفيسور نصف استدارة وأجرى حركة مبتذلة لكنّها معبّرة فوضع إصبعيه على زاوية فمه: «إنّها أنشودة بل ملحمة، أقول لك: شيء من الأسماك الكبيرة جدّاً... ثمّ القليل من كلّ شيء: كرات اللحم، أسماك عقربيّة، كلب البحر، المحار الصغير الرائع، الجمبري، والحبّار... وكل ذلك مع صلصة المارينارا... بالثوم المقليّ بالزيت مع البندورة وقطع

الفلفل الحارّ... ولا أضيف شيئاً آخر يا سيّدتي»، بعد أن تكلّم مقلّداً بمرح لهجة المنطقة من أهل نابّولي ليصف حساء السمك، استأنف البروفيسور كلامه بلهجة أهل روما أي لهجته الأصليّة، مضيفاً: «هل تعرفين ماذا قلت لزوجتي؟ قلت لها هل تراهني على أنّنا ستتّخذ لنا بيتاً خلال هذه السنة في إيسكيا؟؟»

فقالت الأم ، «أنا أفضّل كابري».

قال البروفيسور بقسوة غير مقصودة: «لكنّ كابري مكان للأدباء والأشخاص المنحرفين». في تلك اللحظة جاء من إحدى الغرف المغلقة صراخ حادّ. اقترب البروفيسور من الباب، نظر للحظة في المنظار ثمّ أسرع وأغلقه والتفت ليقول: «إسكيا، يا سيّدتي العزيزة، إسكيا هي المكان المطلوب: حساء السمك، البحر، الشمس، حياة الهواء الطلق... ليس هناك إلّا إسكيا».

وقف الممرّض هانز الذي كان قد سبقهم ببضع خطوات، وانتظر ثابتاً أمام أحد البواب، فبدت هيئته ضخمة على خلفيّة الضوء الخافت القادم من النافذة في آخر الممرّ. فسأله البروفيسور بصوت منخفض: «هل أخذ وضعه؟». أومأ الممرّض بالإيجاب. ففتح البروفيسور ودخل وتبعته الأمّ ومارتشيلّو.

كانت الغرفة صغيرة وعارية، فيها سرير مثبّت بالجدار وطاولة من خشب أبيض موضوعة مقابل النافذة المسدودة بقضبان الحديد المعتادة. نظر مارتشيلّو إلى أبيه وهو يرتعش من الاشمئزاز، كان جالساً إلى الطاولة، وظهره إلى الباب، مستغرقاً في الكتابة. كانت خصل شعره الأبيض تبرز من رأسه ومن فوق عنقه الهزيل المغروس في فتحة الرقبة أعلى السترة المخطّطة الخشنة. كان يجلس بطريقة جانبيّة نوعاً ما، قدماه داخل نعلين ضخمتين من اللبّاد، وقد برز المرفقان والركبتان، بينما مال رأسه إلى طرف. فرأى مارتشيلّو أنّه يشبه في كلّ شيء دمية قطعوا الحبال التي تحرّكها. لم يلتفت بعد أن دخل عليه الزوّار الثلاثة. بل بدا في واقع الأمر كأنّه قد زاد من حرصه ومن تكريس نفسه للكتابة. ذهب البروفيسور ووقف بين النافذة

والطاولة وقال بنوع من المرح الزائف: «كيف حالك اليوم أيّها المقدّم... إيه كيف حالك؟».

لم يجب المجنون، واكتفى برفع يده كأنّما ليقول: «دقيقة، ألا ترى أنّي مشغول». رمى البروفيسور الأمّ بنظرة تفاهم وهو يقول: «دائماً بهذه المذكّرة، ألا ترى أيّها المقدّم أنّها ستكون طويلة جدّاً؟... كما أنّ الدوتشِه[1] لا يملك الوقت لقراءة أشياء طويلة... وهو نفسه يوجز ويتكلّم بالمختصر المفيد فقط... أوصيك إذاً بالإيجاز أيّها المقدّم».

كرّر المجنون الحركة التي سبق وأن قام بها، فلوّح بيده ذات العظام الناتئة وأشار إلى الأعلى، ثمّ، وبنوبة غضب غريبة، ألقى ورقة في الهواء فوق رأسه المنحني، فسقطت في وسط الغرفة. انحنى مارتشيلّو ليلتقطها: فرأى أنّها لا تحتوي إلّا على بضع كلمات غير مفهومة مكتوبة بخطّ متعرّج ومليء بخطوط تحت الكلمات. ربّما لم تكن تلك ولا حتّى كلمات. بينما كان يتفحّص الورقة، أخذ المجنون يرميه بأوراق أخرى وبحركة الانشغال العنيفة نفسها. كانت الأوراق تتطاير فوق ذلك الرأس الأشيب وتبعثر وسط الغرفة. وبينما كان يرمي أوراقه، كانت حركات المجنون تزداد عنفاً، حتّى امتلأت الغرفة بتلك الأوراق. قالت الأمّ: «يا لعزيزي المسكين، كان يهوى الكتابة على الدوام».

انحنى الأستاذ قليلاً على المجنون: «أيّها المقدّم زوجتك وابنك... موجودان هنا ألا تريد أن تراهما؟» تكلّم المجنون هذه المرة وأخيراً لكن تمتمةً، بصوت خافت ومتسرّع مشحون بنبرة عداء، تماماً مثل أيّ شخص يتضايق عندما يزعجوه وهو يقوم بعمل مهمّ: «قل لهما أن يعودا غداً... هذا إن لم يكن لديهما مقترحات ملموسة يقدّمانها... ألا ترى أنّ غرفة الانتظار محتشدة بأناس لا يتوفّر لديّ وقت لأسلّم عليهم؟».

همست الأمّ قائلة لمارتشيلّو: «يظنّ أنّه وزير».

أكّد البروفيسور ذلك: «وزير الخارجيّة».

قال المجنون فجأة وهو يواصل الكتابة، وبصوت مخنوق منهك: «قضيّة

1- Duce – دوتشِه، لقب موسوليني الرسميّ (م).

هنغاريا... رئيس الحكومة ذاك الموجود في براغ... في لندن ماذا يفعل؟ والفرنسيّون لماذا لا يفهمون؟ لكن لماذا لا يفهمون؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟». وكان يلفظ كلمة «لماذا؟» بصوت يزداد ارتفاعاً في كلّ مرّة، إلى أن لفظها آخر مرّة بما يشبه الصراخ والزعيق، ثمّ قفز من على كرسيّه واستدار ليواجه زوّاره. رفع مارتشيلّو عينيه ونظر إليه. بدا وجهه الأسمر تحت شعره الأبيض المنتصب، هزيلاً سقيماً تخطّه أخاديد طولانيّة عميقة. ظهر متأثّراً بتعابير جدّيّة متأسّفة وجليلة، وكأنّه يشعر بالقلق من محاولة التكيّف مع مناسبة يتخيّلها، تقتضي خطاباً خلال المهرجان. وكان المجنون يمسك بورقة رفعها على مستوى عينيه، ثمّ بدأ يقرأها دون أيّ تأخير، وبسرعة غريبة لاهثة: «أيّها الدوتشه، يا زعيم الأبطال، يا ملك الأرض والبحار والسماء، يا أمير، أيّها البابا، أيّها الإمبراطور، أيّها القائد والجنديّ»، وهنا قام المجنون بحركة تدلّ على نفاد صبره لكنّها متناسبة مع كلماته التبجيليّة، ويمكن أن تعني: «إلخ إلخ»، «أيّها الدوتشه، لقد كتبت في هذا المكان الذي»، وهنا قام المجنون بحركة جديدة كأنّما ليقول: «سأتجاوز هذا، فهو بدهيّ»، ثمّ استأنف: «في هذا المكان كتبت مذكّرة أرجوك أن تقرأها من السطر الأوّل» وهنا توقّف المجنون ونظر إلى زوّاره «إلى السطر الأخير. هذه هي المذكّرة». بعد هذا التقديم، ألقى المجنون بالورقة على الأرض، والتفت نحو الطاولة وتناول ورقة أخرى وأخذ يقرأ المذكّرة. لكنّ مارتشيلّو لم يفهم هذه المرّة كلمة واحدة. صحيح أنّ المجنون كان يقرأ بصوت واضح ومرتفع، لكنّ سرعته المميّزة كانت تجعله يدمج الكلمة بالأخرى، كما لو أنّ حديثه كلّه ليس إلّا كلمة واحدة بطول لم يسبق له مثيل. ففكّر أنّ الكلمات كانت تنصهر على لسانه قبل أن يلفظها، كما لو أنّ نيران الجنون النهمة تذيب شكلها، كما يفعل الشمع، وتدمجها في مادّة خطابيّة واحدة طريّة وغرويّة ولا يمكن تمييزها.

بدا أنّه كلمّا مضى في القراءة كانت الكلمات تتداخل فيما بينها، فتقصّر الواحدة الأخرى وتقلّص الثانية غيرها، كما بدا كأنّ المجنون نفسه أخذ يغرق في هذا النوع من انهيارات الكلام. وكان في أحيان كثيرة يرمي الأوراق بعد قراءة الأسطر الأولى منها، ذلك إلى أن توقّف فجأة عن القراءة بشكل كامل، فقفز عندها على السرير بحركة خفّة مدهشة، وانسحب هناك إلى زاويته،

وهو واقف مقابل الحائط ليبدأ من جديد، على ما يبدو، في صراخه وزعيقه.

أمّا المعنى فقد كان مارتشيلّو يفهمه من خلال حركاته أكثر من فهمه الكلمات التي كانت كالعادة مفكّكة بلا معنى. كان المجنون يشبه تماماً الخطيب الذي يتخيّل أنّه يطلّ من على شرفة مرتفعة، فيرفع مرّة كلتا ذراعيه إلى السقف، ويهمّ في مرّة أخرى ويمدّ يده كأنّما ليوحي ببعض التفاصيل، ثمّ يبدأ بالتهديد بقبضة مشدودة، ثمّ يفتح راحتي يديه على مستوى وجهه. بعد ذلك لا بدّ أن يصدر في لحظة ما بعض التصفيق عن الجماهير الخياليّة التي يخاطبها المجنون، لأنّه بدا أنّه يفتح راحتيه نحو الأسفل ليأمر بالتزام الصمت بتلك الحركة المألوفة. لكنّه من الواضح أنّ التصفيق لم ينقطع، لا بل زادت حدّته، عندها، وبعد أن طلب المجنون الصمتَ من جديد بتلك الحركة المتوسّلة، فإنّه وثب عن السرير إلى الأرض وجرى نحو البروفيسور وأمسكه من كمّه وهو يسأله بصوت باك: «أرجوك أن تأمرهم بالتزام الصمت... ماذا يهمّني أنا من هذا التصفيق... إنّه إعلان حرب... كيف يمكن إعلان الحرب إذا كان التصفيق يمنعك من الكلام؟».

قال البروفيسور بعلوّ شخصه: «سنؤجّل إعلان الحرب أيّها المقدّم إلى الغد».

فصرخ المجنون بحنق ممزوج بالخوف واليأس: «غداً، غداً، غداً... غداً على الدوام... يجب إعلان الحرب في الحال». «ولماذا أيّها المقدّم، ماذا يهمّنا؟ أوَ مع هذا الحرّ؟». ذلك بينما كان البروفيسور يهزّ كتفيه بحركة خبيثة. فنظر إليه المجنون بحيرة، لأنّه من الواضح أنّ الملاحظة قد شتّتت أفكاره. لذلك فقد صرخ: «سيتناول الجنود إذاً البوظة... فالبوظة تؤكل في الصيف، أليس كذلك؟».

قال البروفيسور: «أجل، البوظة تؤكل في الصيف». فقال المجنون بلهجة المنتصر: «إذاً، بوظة، كثيراً من البوظة، بوظة للجميع». ثمّ توجّه وهو يدمدم نحو الطاولة وأمسك بالقلم وهو واقف على قدميه وكتب بسرعة على الورقة الأخيرة المتبقيّة ثمّ ناولها للبروفيسور: «هذا هو إعلان الحرب... أنا لم أعد أستطيع التحمّل... خذها أنت لمن يجب أن يستلمها... يا لقرع هذه

الأجراس، يا لهذه الأجراس». أعطى الورقة للطبيب ثمّ ذهب وجلس على الأرض في زاوية قرب السرير، كالوحش المرعوب، وأمسك رأسه بيديه وهو يردّد بقلق: «هذه الأجراس ... ألا يمكن أن يتوقّف لحظة واحدة قرع هذه الأجراس؟».

ألقى الطبيب نظرة سريعة على الورقة ثمّ ناولها لمارتشيلّو. كان مكتوباً في أعلى الورقة: «مذابح وأحزان». ثمّ تحت هذا: «لقد تمّ إعلان الحرب»، كل ذلك بالخطّ نفسه، الكبير والمليء بالتعرّجات. قال الطبيب: «مذابح وأحزان هذا شعار من شعاراته... تجده مكتوباً على كلّ تلك الأوراق... لديه هوس بهاتين الكلمتين، ثمّ غمغم المجنون بكلمة «الأجراس».

فسألت الأمّ بحيرة: «لكن هل يسمعها حقّاً؟».

«نعم، على الأرجح... إنّها من هلوسات السمع... مثل التصفيق قبل قليل... يمكن للمرضى أن يسمعوا أصواتاً مختلفة... بل وأصوات بكلمات... أو أصوات حيوانات... أو أصوات محرّكات، كمحرّك الدرّاجة الناريّة مثلاً».

صرخ المجنون بصوت رهيب: «الأجراس». فتراجعت الأمّ نحو الباب وهي تتمتم: «لا بدّ أنّ هذا مرعب بالنسبة إليه، يا لعزيزي المسكين، من يعلم كم هو يتألّم... أنا أشعر كأنّي سأجنّ عندما أقف تحت الناقوس وقت رنين الأجراس».

سأل مارتشيلّو: «لكن هل يتألّم حقّاً؟».

«ألا تتألّمان إذا سمعتما لساعات وساعات أجراساً برونزيّة كبيرة تدقّ بالقرب من آذانكما؟» ثمّ التفت البروفيسور إلى الرجل المريض وأضاف: «سنقوم الآن بإسكات الأجراس... سنرسل قارع الأجراس إلى النوم... سنعطيك الآن شيئاً تشربه ولن تسمعها مرّة أخرى». أشار إلى الممرّض الذي خرج على الفور، ثم التفت نحو مارتشيلّو: «إنّها أشكال خطيرة من الألم... ينتقل فيها المريض من النشوة الهستيريّة إلى الاكتئاب العميق... فقبل قليل كان يقرأ وهو مبتهج، أمّا الآن فهو مكتئب... هل تريدان أن تقولا له شيئاً معيّناً؟».

نظر مارتشيلّو إلى أبيه الذي واصل الغمغمة بشكل يثير الشفقة، ورأسه بين يديه، ثمّ قال بصوت بارد: «لا، لا يوجد لديّ ما أقوله، ثمّ ما الفائدة؟... فهو لن يفهمني في كلّ الأحوال».

قال البروفيسور: «يفهمون في بعض الأحيان، يفهمون أكثر ممّا يبدو لنا، كما يعرفون الأشخاص، ويخدعوننا نحن الأطبّاء أيضاً، هه، هه ليست الأمور بهذه البساطة».

اقتربت الأم من المجنون وقالت بلطف: «أنطونيو، هل عرفتني؟... هذا مارتشيلّو، ابنك... سيتزوّج بعد غد... هل فهمت؟ إنه سيتزوّج».

نظر المجنون إلى الأمّ بما يشبه الأمل، كما ينظر الكلب الجريح إلى صاحبه الذي ينحني فوقه ويسأله بكلمات بشريّة عمّا يؤلمه. التفت الطبيب إلى مارتشيلّو وهتف: «زفاف، زفاف، لم أكن أعلم شيئاً عن الأمر أيّها الدكتور العزيز... أحرّ التهاني... تهانيّ الصادقة بالفعل». فقال مارتشيلّو بجفاء: «شكراً».

قالت الأمّ بسذاجة وهي تتوجّه نحو الباب: «يا لعزيزي المسكين، إنّه لا يفهم... لو فهم لما كان مسروراً، كما أنّي غير مسرورة».

قال مارتشيلّو بإيجاز: «أرجوك يا أمّي».

فأجابت الأمّ بنبرة المصالحة: «لا يهمّ، زوجتك يجب أن تعجبك أنت، وليس الآخرين». ثمّ التفتت نحو المجنون وقالت: «وداعاً يا أنطونيو»، فغمغم المجنون: «الأجراس».

خرجوا إلى الممرّ، فالتقوا بفرانز وهو قادم يحمل كوب الجرعة المهدّئة. فتح البروفيسور الباب وقال: «الغريب يا دكتور أنّ المعتوه يواكب الأحداث ويعرف مستجدّاتها... ولديه حساسيّة تجاه كلّ ما يحرّك الناس... فهناك الفاشيّة، وهناك الدوتشه، لذلك نرى أنّ كثيراً من المرضى يصابون بهوس الفاشيّة والدوتشه، تماماً مثل أبيك... ولم يكن بوسعنا معرفة عدد المرضى الذين كانوا يظنّون أنفسهم خلال الحرب أنّهم جنرالات ويريدون أن يأخذوا محلّ الجنرالين كادورنا أو دياز... بل، وعندما طار نوبيله قبل وقت قصير إلى القطب الشماليّ، رأيت منهم ثلاثة مرضى على الأقلّ ادّعوا أنّهم يعلمون

علم اليقين أين توجد الخيمة المقلوعة وأنّهم اخترعوا جهازاً خاصّاً لإنقاذ الغارقين... فالمجانين على اطّلاع دائم ... والحقيقة أنّهم لا ينقطعون رغم جنونهم عن المشاركة في الحياة العامّة، فليس الجنون إلّا وسيلة يستخدمونها في تلك المشاركة... كمواطنين صالحين لكن وهم على ما هم عليه بالطبع من جنون. ضحك الطبيب ببرود، مسروراً على ما يبدو من حسن مزاجه. ثمّ التفت نحو الأمّ، وقال بنيّة واضحة لإطراء مارتشيلّو: «أمّا فيما يتعلّق بالدوتشه، فنحن مجانين جميعاً مثل زوجك، أليس كذلك، مجانين يجب أخذهم بعلاج الحمّام البارد وثوب التقييد... وليست إيطاليا كلّها إلّا مشفى واحداً كبيراً للمجانين، قه، قه، قه. فقالت الأمّ وهي تجاري بسذاجة إطراء الطبيب: «من هذه الناحية ابني مجنون بكلّ تأكيد. لا بل إنّي قلت لمارتشيلّو ونحن في طريقنا إلى هنا إنّ هناك نقاطاً تشابه بينه وبين أبيه المسكين».

أبطأ مارتشيلّو خطاه حتّى لا يسمع حديثهما. رآهما يمشيان نحو نهاية الممرّ ثمّ يستديران ويختفيان وهما يواصلان الحديث. توقّف ومعه قطعة الورق التي كتب عليها أبوه إعلان الحرب. تردّد، وأخرج محفظته من جيبه، ووضع فيها قطعة الورق. ثمّ أسرع الخطى وانضمّ إلى الطبيب وأمّه في الطابق الأرضي.

كانت الأمّ تقول: «وداعاً إذاً أيّها البروفيسور... لكن هذا المسكين الغالي... ألا توجد بالفعل أيّ طريقة لشفائه؟».

أجاب الطبيب دون مباهاة، وكأنّه يكرّر عبارات آليّة مستهلكة: «لا يستطيع العلم في الوقت الحالي فعل أيّ شيء حيال الأمر».

قال مارتشيلّو: «وداعاً، بروفيسور».

«وداعاً، دكتور، وتهانيّ الحارّة، من جديد».

سارا على الدرب المفروشة بالحصى، وخرجا إلى الطريق، ووصلا بالقرب من السيّارة. كان آلبيري يقف بجانب الباب المفتوح، وقبّعته في يده. صعدا من غير أن يقولا أيّ كلمة، وانطلقت السيّارة. التزم مارتشيلّو الصمت قليلاً ثمّ سأل أمّه: «أريد يا أمّي أن أتوجّه إليك بسؤال... أظنّ أنّ بوسعي أن أكلّمك بصراحة، أليس كذلك؟».

«أيّ سؤال؟» قالت الأمّ بذهن مشتّت، وهي تسوّي وجهها أمام المرآة الصغيرة في علبة البودرة.

«هل هذا الذي أسمّيه أنا أبي والذي زرناه لتوّنا، هو أبي حقّاً».

أخذت الأمّ تضحك: «أنت بالفعل غريب في بعض الأحيان... ولماذا يجب ألّا يكون أباك؟».

«ماما، كان لك وقتها» تردّد مارتشيلّو للحظة ثمّ أنهى كلامه «بعض المغرمين... فهل يمكن أن... ؟».

«أوه، لكن لا يمكن أن يمكن أيّ شيء» ، قالت الأم بسخرية هادئة: «المرّة الأولى التي قرّرت فيها أن أخون أباك، كنت قد بلغت أنت الثانية من عمرك...»، ثمّ أضافت: «وما يثير الفضول حقّاً أنّ الظنّ بأنّك ابن شخص آخر هو الذي قاد على وجه التحديد إلى جنون أبيك... لأنّه كان متشبّثاً بشكوكه بأنّك لست ابنه... وهل تعرف ماذا فعل ذات يوم؟... أخذ صورة لي وأنا معك عندما كنت طفلاً...».

فأنهى مارتشيلّو كلامها: «وبقر عينيْ الاثنين معاً».

قالت الأمّ بنوع من الدهشة: «آه، كنت على علم إذاً، بدأ جنونه بتلك الطريقة... كان مهووساً بفكرة أنّك ابن شخص معيّن كنت أراه في بعض الأحيان... لكنّه غنيّ عن القول أنّ ذلك كان خيالاً من خيالاته... إنّك ابنه، يكفي إلقاء نظرة عليك...».

فلم يتمكّن مارتشيلّو إلّا أن يقول: «الحقيقة أنّي أشبهك أكثر ممّا أشبهه».

فأكّدت الأمّ: «كلا الاثنين». أعادت علبة البودرة إلى حقيبتها وأضافت: «سبق وأن قلت لك إنّكما كلاكما مهووسان بالسياسة... لكنّه مهووس بها بجنونه، وأنت والحمد لله شخص سليم...».

لم يقل مارتشيلّو شيئاً وأدار وجهه ناحية النافذة. فتشبيهه بأبيه كان يزعجه بشكل كبير. كما أنّه كان ينفر دائماً وبتصميم أخرق وظالم من العلاقات العائليّة المنسوبة إلى اللحم والدم. لكنّ التشابه الذي ألمحت إليه أمّه، كان بغيضاً بالنسبة إليه، فضلاً عن أنّه أثار مخاوفه بشكل غامض. فما هي العلاقة التي تربط بين جنون أبيه وبين أعمق أسرار وجوده؟ تذكّر العبارة التي قرأها

في قطعة الورق: «مذابح وأحزان»، فارتجف جسمه بألم، فالأحزان تركبه مثل جلد ثان أشدّ حساسيّة من الجلد الأصليّ، أمّا المذابح...

بدأت السيّارة تسير في شوارع وسط المدينة، تحت ضوء الشفق الأزرق الكاذب. قال مارتشيلّو لأمّه: «سأنزل أنا هنا»، وانحنى ليقرع الزجاج وينبّه آليري. قالت الأم: «سأراك إذاً عند عودتك» في إشارة ضمنيّة إلى أنّها لن تحضر حفل الزفاف. فامتنّ لها على تحفّظها: فهذه هي، على الأقلّ، بعض فوائد الخفّة واللامبالاة. نزل، وأغلق الباب بعنف، ثمّ ابتعد وسط الناس.

القسم الثاني

-I-

بمجرّد أن بدأ القطار في التحرّك، عاد مارتشيلّو إلى المقصورة بعد أن كان يتحدّث أو بالأحرى يستمع إلى كلام حماته من وراء نافذة القطار. أمّا جوليا فقد بقيت على النافذة: وكان بوسع مارتشيلّو أن يراها من مقصورته وهي تطلّ في الممرّ وتنحني إلى الأمام وتلوّح بمنديلها، بنوع من اندفاع الحماسة الذي جعل تلك الحركة حركة مؤثّرة جدّاً رغم أنّها شائعة ومعروفة. واعتقد أنّها ستظلّ بلا شكّ تلوّح بمنديلها ما دامت تظنّ أنّها ترى أمّها على مقعد المحطّة. وأنّ مجرّد التوقّف عن رؤيتها هو أوضح إشارة تعني بالنسبة إليها الابتعاد النهائيّ عن حياتها كفتاة، ابتعاد تخشاه كما تتمنّاه في الوقت نفسه. وبانطلاق القطار اكتسى هذا الابتعاد شكلاً مؤلماً. نظر مارتشيلّو للحظة أخرى ومن جديد إلى زوجته وهي تطلّ من النافذة، وهي ترتدي ثوبها الفاتح الذي جعلته حركة التلويح بيدها يتجعّد حول أشكالها البارزة، ثمّ استلقى على الوسائد وأغمض عينيه.

عندما فتحهما من جديد، وبعد دقيقة من الوقت، لم تكن زوجته في الممرّ، وكان القطار بدأ يجري وسط الحقول الممتدّة عبر سهل قاحل لا أشجار فيه، تلفّه ظلال المغيب تحت السماء المخضرّة. وكانت الأرض ترتفع بين الحين والآخر على تلال جرداء، وتظهر الوديان بين التلال، التي ذهل لرؤيتها خالية من المنازل ومن الناس. وقد أكّدت بعض بقايا الطوب

في أعلى التلال هذا الشعور بالعزلة. ففكّر مارتشيلّو أنّ هذا منظر طبيعيّ مريح، يحمل على التأمّل وتبحّر الخيال. هذا بينما بدأ القمر يرتفع في الأفق آخر السهل، أحمر كالدم، وإلى جانبه نجمة بيضاء برّاقة.

اختفت الزوجة فرغب مارتشيلّو لبضع دقائق في ألّا تعود: كان يريد أن يفكّر ويتأمّل ويشعر للمرّة الأخيرة أنّه وحيد. بدأ يذهب بذاكرته إلى ما قام به خلال الأيّام القليلة الماضية، فأدرك وهو يتذكّرها أنّه يشعر برضا عميق وصادق عن الأمر. رأى أنّ هذه كانت الطريقة الوحيدة لتغيير حياته ونفسه: أن يعمل وأن يتحرّك في الزمان والمكان. كان يحبّ كالعادة، وعلى وجه الخصوص الأشياء التي تؤكّد له علاقاته بالعالم الاعتياديّ، أو بالعالم الذي يمكن تخيّله على أقلّ تقدير. هذه هي الآن صبيحة الزفاف: ها هي جوليا تتنقّل من غرفة إلى أخرى، بسعادة، وبفستان الزفاف وحفيف الحرير. ثمّ ها هو عندما دخل إلى المصعد يحمل باقة زنبق في يده المغلّفة بالقفاز. ثمّ حماته التي، ما إن دخل، حتّى ألقت بنفسها بين ذراعيه وهي تبكي. ثمّ جوليا وهي تسحبه إلى خلف باب الخزانة لتقبّله على راحتها. ثمّ وصول الشهود من أصدقاء جوليا، وهما طبيب ومحام، فضلاً عن صديقين له من الوزارة. ثمّ الذهاب من البيت إلى الكنيسة، بينما يتفرّج الناس من النوافذ والأرصفة على السيّارات الثلاث، هو وجوليا في الأولى، والشهود في الثانية، وفي الثالثة حماته مع صديقتين لها. وقد حدث خلال الرحلة حادث فريد: عندما توقّفت السيّارة عند إشارة مرور، أطلّ شخص على حين غرّة من النافذة: كان أحمر الوجه وملتحياً وأصلع عند الجبهة وبارز الأنف. كان متسوّلاً، لكنّه لم يطلب صدقة بل قال بصوت أجشّ: «ألا تعطوني من سكاكر الزفاف، أيّها العروسان؟» ذلك وهو يمدّ يده إلى داخل السيّارة. أثارت مارتشيلّو إطلالة ذلك الوجه التي تزامنت مع مدّ اليد نحو جوليا بطريقة غير مهذّبة. وهكذا فقد أجاب بحدّة مبالغ فيها على الأرجح: «ابتعد، هيّا ابتعد، لا يوجد معنا سكاكر». هنا صاح الرجل بملء صوته، وهو سكران على ما يبدو: «فلتحلّ عليك اللعنة»، ثمّ اختفى. خافت جوليا فضمّت نفسها إليه وهي تتمتم: «هذا نذير شؤم». فهزّ هو كتفيه وأجاب: «حماقات... إنّه سكران». وبعد أن تحرّكت السيّارة نسي هو الحادث من أساسه.

جرى كلّ شيء كالعادة في الكنيسة، أي بطقوس احتفاليّة مهيبة وهادئة. انتشر جمع صغير من الأقارب والأصدقاء على المقاعد الأولى أمام المذبح الرئيسي، الرجال بملابسهم السوداء، والنساء بثياب ربيعيّة فاتحة. كانت الكنيسة، وهي غنيّة ومزخرفة للغاية، قد أسّست في ذكرى قدّيس معارض للإصلاح. وفي الواقع فقد كان هناك تمثال لهذا القديس مصنوع من رخام رماديّ اللون، وأكبر من الحجم الطبيعيّ، وعيناه متوجهتان نحو السماء وكفّاه مفتوحتان، وقد وضع التمثال تحت تاج ضخم من البرونز المذهّب رفع خلف المذبح الرئيسي. كما ظهرت خلف التمثال حنيةُ الكوّة المزيّنة بالرسوم الجداريّة ذات الأسلوب الباروكيّ الرقراق والحيويّ. جثا هو وجوليا أمام درابزين الرخام فوق وسادة من المخمل الأحمر. وتوزّع الشهود خلفهم، اثنان فاثنان، وقوفاً على الأقدام. كان الحفل طويلاً، لأنّ عائلة جوليا أرادت أن يكون بكامل المهابة. ويدأ منذ بدء الحفل، أرغن موجود في أعلى الشرفة فوق أعمدة المدخل، بدأ يعزف ثمّ لم يتوقّف بعد ذلك. فيدمدم مرّة بهدوء، لينشر مرّة أخرى ألحانه البهيجة في نغمات مثيرة تحت الأقواس التي تردّد صداها. كان الخوريّ بطيئاً جدّاً، وبشكل جعل انتباه مارتشيلّو يتشتّت وأخذ يراقب أنحاء الكنيسة، ذلك بعد أن كان يراقب بإعجاب كلّ تفاصيل الحفل الذي جرى كما كان يتصوّره وكما أراده، وبعد أن أصبح على قناعة بأنّه يقوم الآن بكلّ ما قام به قبله ملايين العرسان عبر مئات السنين. لم تكن هذه كنيسة جميلة، لكنّها واسعة جدّاً ومبنيّة بمهابة المسارح مثل جميع كنائس اليسوعيّين. كان التمثال الضخم للقدّيس ،هو راكع تحت تاج المظلّة في موقف نشوة، يشرف على مذبح مطليّ بألو.ن تحاكي رسم الرخام، ومليء بالشمعدانات الفضّيّة والمزهريّات الغاصّة بالورود والتماثيل المزخرفة والمصابيح البرونزيّة. خلف تاج المظلّة كانت تنحني الكوّة التي زخرفتها يد رسّام من ذلك العصر بصور غيوم متبخّرة، مثل تلك التي ترسم عادة على ستائر مسارح العصر، تنتفخ على مدى سماء زرقاء وتخطّط سيوف الضوء المنبعث عن شمس مخفيّة. وكانت تجلس فوق الغيوم شخصيّات مقدّسة مختلفة مرسومة كيفما اتّفق، وبروح تزيينيّة أكثر ما هي دينيّة. كانت تبرز بينها وتتصدّرها جميعها، صورة الأب الخالد، وما كان لمارتشيلّو إلّا أن

يلمح في ذلك الرأس الملتحي الموضوع في المثلّث صورة المتسوّل الذي أطلّ قبل قليل على نافذة السيّارة ليطلب سكاكر الزفاف ثمّ لعنه. في تلك اللحظة عزف الأرغن لحناً قويّاً وبحدّة تكاد تكون تهديديّة لا تشير إلى أيّ حلاوة، لذلك فإنّ ذلك التشبيه الذي كان بوسعه أن يحمله على الابتسام (الأب الخالد متنكّراً بثياب متسوّل يطلّ على نافذة تاكسي ليطلب السكاكر) استدعى إلى ذاكرته، ولا يعرف حتّى هو سبب ذلك، آيات من التوراة تتعلّق بقابيل، كانت قد وقعت تحت نظره عندما فتح التوراة ذات يوم بالصدفة بعد بضع سنين من قضيّة لينو. «فَقَالَ[1]: «مَاذَا فَعَلْتَ؟ صَوْتُ دَمِ أَخِيكَ صَارِخٌ إِلَيَّ مِنَ الأَرْضِ. فَالآنَ مَلْعُونٌ أَنْتَ مِنَ الأَرْضِ الَّتِي فَتَحَتْ فَاهَا لِتَقْبَلَ دَمَ أَخِيكَ مِنْ يَدِكَ.

مَتَى عَمِلْتَ الأَرْضَ لاَ تَعُودُ تُعْطِيكَ قُوَّتَهَا.

تَائِهاً وَهَارِباً تَكُونُ فِي الأَرْضِ». فَقَالَ قَايِينُ لِلرَّبِّ: «ذَنْبِي أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحْتَمَلَ. إِنَّكَ قَدْ طَرَدْتَنِي الْيَوْمَ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ، وَمِنْ وَجْهِكَ أَخْتَفِي وَأَكُونُ تَائِهاً وَهَارِباً فِي الأَرْضِ، فَيَكُونُ كُلُّ مَنْ وَجَدَنِي يَقْتُلُنِي».

فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «لِذلِكَ كُلُّ مَنْ قَتَلَ قَايِينَ فَسَبْعَةَ أَضْعَافٍ يُنْتَقَمُ مِنْهُ».

وَجَعَلَ الرَّبُّ لِقَايِينَ عَلاَمَةً لِكَيْ لاَ يَقْتُلَهُ كُلُّ مَنْ وَجَدَهُ.

بدت له حينئذ هذه الآيات وكأنّها كتبت خصّيصاً له، هو الملعون على جريمته غير المقصودة، وإن كان في الوقت نفسه قد أصبح مقدّساً ولا يمكن المساس به بسبب تلك اللعنة. لكنّ تلك عادت إلى ذاكرته في ذلك الصباح في الكنيسة وهو ينظر إلى صورة اللوحة الجداريّة، فبدت له، مرّة أخرى، أنّها مناسبة للتعريف بقضيته. وهكذا، وببرود، ولكن وهو على قناعة قاتمة بأنّه يُغرق أداة تفكيره في أرض خصبة من المقارنات والمعاني، وبينما كان الاحتفال الدينيّ مستمرّاً، أخذ يتكهّن حول هذه النقطة: إذا كانت هناك لعنة حقّاً، فلماذا جرى إلقاؤها؟ عند هذا التساؤل عادت إلى ذهنه الأحزان الشديدة المتواصلة التي كانت تثقل كاهله، كمن يتيه ويعرف أن لا سبيل

1- الأبيات منقولة كما هي من سفر التكوين 4-10 إلى 15.

أمامه إلّا أن يتيه، ويعلم بالغريزة، إن لم يكن بالوعي، أنّه ملعون. لكن ليس لأنّه قتل لينو، بل لأنّه كان يحاول وما زال يحاول أن يتحرّر من عبء التوبة والفساد ولا اعتياديّة هذا الخطأ، لكن بعيداً عن الدين وأماكن الدين. ثمّ عاد وفكّر ماذا بوسعه أن يفعل، فهو جُبل على ذلك ولا يستطيع أن يغيّر نفسه. وباختصار، فلا سوء نيّة لديه، ولكنّه يقبل فقط قبولاً صادقاً بالحال التي ولد فيها، وبالعالم الذي وجد نفسه يعيش فيه. وهي حال بعيدة عن الدين، وهو عالم يبدو أنّه استبدل الدين بأمور أخرى. ولا بدّ أنّه كان يفضّل أن يعهد بحياته إلى شخصيّات الديانة المسيحيّة القدامى المليئة بالحنان، إلى الربّ العادل بالفعل، وإلى العذراء المشبعة بحنان الأمومة، وإلى المسيح المليء بالرحمة. لكنّه وفي اللحظة نفسها التي كان يشعر فيها بهذه الرغبة، أدرك أنّ تلك الحياة لا تتعلّق به ولا يمكن له لهذا أن يعهد بها إلى من يشاء ويرغب، وأنّه أصبح خارج الدين ولا يمكن له أن يعود إليه، حتّى لمجرّد أن يتطهّر ويصبح اعتيادياً. فالاعتياديّة كما يراها أصبحت الآن في مكان آخر، أو أنّه ما زال عليها أن تأتي وأن تبنى بمشقّة وشكوك ودمويّة.

كما لو ليؤكّد هذه الأفكار، نظر في تلك اللحظة إلى جانبه، إلى تلك التي ستكون زوجته في غضون بضع دقائق. كانت جوليا راكعة، مضمومة اليدين، متوجّهة بوجهها وعينيها نحو المذبح، وبدت أنّها مفتونة بنشوة مرحة، ومفعمة بالأمل. ومع ذلك، فقد شعرت بنظراته إليها كما لو أنّها يد تلامس جسمها، فاستدارت على الفور وابتسمت له بعينيها وفمها: ابتسامة لطيفة، متّضعة، ممتنّة، بريئة ببراءة تكاد تكون حيوانيّة. بادلها الابتسامة بابتسامة أخرى، لكن بانفتاح أقلّ. بعد ذلك اندفعت في نفسه طاقة، كأنّما انبثقت من تلك الابتسامة، لم يجربها منذ أن عرف جوليا، وكانت مفعمة إن لم يكن بحبّ حقيقيّ، فبمودّة عميقة ممزوجة بالرحمة والحنان. ثمّ تخيّل للحظة أنّه، ويا للغرابة، أخذ يعرّيها بعينيه من ملابسها، فخلع عنها ثوب الزفاف، ثم ملابسها الداخليّة الحميميّة، ورآها بصدرها وبطنها وهي مزهرة سليمة وفتيّة، عارية إلى جانبه وهي مضمومة اليدين وجاثية على ركبتيها فوق تلك الوسادة من المخمل الأحمر. وكان هو عارياً مثلها، وكانا في سبيلهما لأن يقترنا، بعيداً عن أي طقوس دينيّة، كما تقترن الحيوانات في الغابة. وتخيّل أنّ

ذلك القران قد تمّ بالفعل، صدّق أم لم يصدّق بالطقوس التي كان يمارسها في تلك اللحظة، وأنّه تمخّض عن ولادة أولاده كما يحبّ ويتمنّى. بدا له أنّ هذه التأمّلات قد جعلت قدميه تقفان، لأوّل مرّة، على أرض راسخة آمنة، ففكّر: «عن قريب ستكون هذه زوجتي... وسأمتلكها... وعندما أمتلكها، ستنجب الأطفال... وسيكون هذا في الوقت الحالي، وفي غياب ما هو أفضل من ذلك، نقطة الانطلاق نحو الحياة الاعتياديّة». لكنّه رأى جوليا في تلك اللحظة وهي تحرّك شفتيها وتتمتم بصلاتها، فبدا له أنّ تلك الحركة المتابعة قد كست فجأة ذلك العريَ وألبستها فساتين الزفاف كما بضربة ساحر، كما فهم من ناحية أخرى أنّ جوليا مؤمنة إيماناً راسخاً بطقوس هذا القران، لكنّه لم يشعر بأيّ استياء من هذا الاكتشاف. بل إنّه وعلى العكس من ذلك، كاد أن يشعر بشيء من الارتياح لذلك. فالاعتياديّة بالنسبة إلى جوليا ليست، كما هي بالنسبة إليه، أمراً يجب إيجاده وإعادة بنائه، لأنّه موجود في الأساس، وهي منغمسة فيه ولن تخرج منه أبداً مهما حدث.

وهكذا انتهى الحفل بما يكفي من مشاعر الانفعال والمودّة التي غمرته بعد أن ظنّ في البداية أنّه غير قادر على الإحساس بها، مشاعر نبعت من أعماق قلبه ونفسه وليس بسبب إيحاء أوحاه هذا المكان وهذه الصلوات. أي إنّ كلّ شيء قد جرى باختصار بحسب القواعد التقليديّة المعتادة، وبشكل أثار سرور ليس فقط أولئك الذين يعتقدون بهذه الطقوس، بل سروره أيضاً، هو الذي لا يعتقد بها وإن كان عازماً على التصرّف كما لو أنّه يعتقد. عندما خرج متكئاً على ذراع زوجته، وفي لحظة توقّفه السريع تحت البوّابة أمام درج الكنيسة، سمع أمّ جوليا وهي تقول خلفه لصديقتها: «إنّه طيّب جدّاً، جدّاً جدّاً... ألم تري كيف كان منفعلاً... إنّه يحبها حبّاً شديداً... ولم يكن بوسع جوليا أن تجد زوجاً أفضل منه». فكان سعيداً لأنّه كان قادراً على الإيحاء بمثل هذا الوهم.

وهكذا فإنّه، وما إن انتهت تأمّلاته هذه، حتّى شعر مباشرة أنّ صبره كاد أن ينفد وأنّه متحمّس تقريباً للقيام بدوره الزوجيّ من النقطة التي تركه فيها بعد حفل الزفاف. كان الليل قد انسدل في هذه الأثناء، وعندما أبعد عينيه عن نافذة القطار رآها ممتلئة بظلام أسود فيه بعض التلألؤ، فعاد لينظر في

الممرّ ويبحث عن جوليا. أدرك أنّه يشعر بنوع من الغضب بسبب غيابها، لكنّ الأمر أسعده لأنّه مؤشّر على ما بدا له على اعتياديّته الطبيعيّة التي أخذ الآن يمثّل بها دوره. وهنا تساءل فيما إذا كان عليه أن يأخذ جوليا وهما على السرير غير المريح الموجود في عربة القطار، أو أن ينتظر وصوله إلى المكان الذي تنتهي فيه المرحلة الأولى من الرحلة أي إلى س. عندما خطر في ذهنه هذا التساؤل شعر برغبة قويّة ومفاجئة بها، لذلك فقد رأى أنّه من الأفضل أن يأخذها في القطار. ذلك أنّ هذا ما يجب أن يحدث في رأيه في مثل هذه الحالات، كما أنّه يشعر من ناحية أخرى بضرورة هذا التصرّف بسبب شهوته من ناحية وللقيام من ناحية أخرى بواجباته الزوجيّة. لكنّ جوليا هي عذراء، كما يعرف بكلّ تأكيد، وسيكون من العسير عليه أن يأخذها بسهولة. وهنا أدرك أنّه سيكون أقرب إلى السعادة فيما إذا حاول في البداية، ولو دون جدوى، فضّ هذه العذريّة، وأن يضطرّ بعد ذلك إلى انتظار وصوله إلى الفندق في س. وما فيه من راحة على السرير المزدوج. وإذا كانت مثل هذه الأمور تحدث للعرسان الجدد، وهي مضحكة من كثرة اعتياديّتها، فإنّه أراد أن يتشبّه بأكثر الرجال اعتياديّة بين الاعتياديّين، ولو كلّفه هذا أن يتّهم بأنّه عنين عاجز.

كان بصدد أن يطلّ على الممرّ، عندما فتح بابه ودخلت جوليا. كانت ترتدي تنّورتها المعتادة وقميصها، وخلعت السترة التي كانت تضعها فوق ذراعها. كان صدرها المزهر يندفع باكتنازه من خلال كتّان القميص ليحوّله إلى لون العريّ الورديّ. كما كان يعلو وجهها ضوء الرضا والسرور. أمّا عيناها، اللتان بدا أنّهما توسّعتا بشيء يفوق العادة من شدّة الاضطراب والوهن، فقد ظهرتا وكأنّما تنمّان عن بعض الأرق الشهوانيّ، عن ارتباك يصل إلى حدّ الخوف. راقب مارتشيلّو كلّ هذا بسرور عارم: فجوليا هي عروس تستعدّ بالفعل لأن تهب نفسها لأوّل مرّة. استدارت بطريقة خرقاء مضحكة (وكانت هي تتحرّك دائماً بطريقة خرقاء مضحكة، لكن محبّبة، مثل حيوان سليم بريء) لتغلق الباب وتسحب الستارة، ثمّ حاولت وهي منتصبة أمامه أن تعلّق سترتها على مشجب حمّالة الحقائب. لكنّ القطار كان يجري بسرعة فائقة، وبدا أنّه سيخرج عن سكّته عندما غيّر مساره بعنف من سكّة

إلى أخرى، وهكذا فقد وقعت جوليا فوقه. وقد عالجت أمر وقوعها بنوع من الخبث، فهوت على حضنه وهي تعانق رقبته بذراعيها. شعر مارتشيلّو بكلّ ثقل جسمها فوق رجليه الهزيلتين، فأحاط تلقائياً بخصرها. قالت له بصوت خافت: «هل تحبّني؟» وبحثت في الوقت نفسه بفمها عن فمه. تبادلا القبل لفترة طويلة بينما كان القطار يجري بسرعة قد يقال إنّها متواطئة مع القبلة، وعند كلّ هزّة كانت أسنانهما تصطكّ ببعضها بعضاً ويبدو أنّ أنفها يرغب في اقتحام وجهه. تباعدا في النهاية، ومن غير أن تنزل جوليا عن حضنه، تناولت، وهي الواعية، منديلاً من حقيبتها ونظّفت به شفتيه وهي تقول: «يوجد على شفتيك كيلو على أقلّ تقدير من أحمر الشفاه». استغلّ مارتشيلّو، وهو يتألّم، هزّة جديدة للقطار، ليحرّك ذلك الجسم الثقيل ويجعله ينزلق على المقعد. فقالت له: « ألا تريدني أيّها الشرّير؟». فقال مارتشيلّو وقد أحرج بعض الشيء:

«لا بدّ أنّهم قادمون لترتيب الأسرّة».

فواصلت كلامها دونما انقطاع وهي تنظر حولها: «هل تعرف أنّ هذه هي المرّة الأولى التي أركب فيها قطاراً بعربات نوم!».

فلم يتمكّن مارتشيلّو إلّا أن يبتسم من سذاجة نبرتها وسألها: «وهل يعجبك؟».

نظرت حولها من جديد وقالت: «يعجبني جدّاً. متى يجيئون لتسوية الأسرّة؟».

«عن قريب».

صمتا. ثمّ نظر مارتشيلّو إلى زوجته فرأى أنّها هي أيضاً تنظر إليه، لكنّ تعابير وجهها اختلفت، وكادت تبدو خجولة خائفة، رغم ما بقي فيها من اتّقاد وسرور من اللحظات السابقة. شعرت أنّه ينظر إليها فابتسمت له، كما لو لتعتذر، ثمّ مدّت يدها من غير أن تنبس ببنت شفة لتمسك بيده. بعد ذلك سالت على خدّيها دمعتان من عينيها اللطيفتين الرطبتين، وتلتهما دمعتان أخريان. كانت جوليا تبكي وهي تواصل النظر إليه، وتحاول أن تبتسم له برقّة من خلال دموعها. في النهاية حنت رأسها بزخم مفاجئ وأخذت تقبّل

يده بسرعة. شعر مارتشيلّو بالارتباك جرّاء هذا البكاء: لأنّ جوليا كانت ذات طبع مرح ولم تكن عاطفيّة جدّاً، وكانت هذه هي المرّة الأولى التي يراها تبكي. لكنّ جوليا لم تترك له الوقت الكافي كي يكوّن أيّ فرضيّة، بل قالت على عجل وهي تنهض: «اعذرني إذا بكيت... لكنّي فكّرت أنّك أفضل منّي بكثير وأنّي لست جديرة بك».

فقال مارتشيلّو مبتسماً: «إنّك تتكلّمين الآن كما تتكلّم أمّك».

رأى أنّها تنفث من أنفها ثمّ تجيب بكلّ هدوء: «لا، لأنّ أمّي تقول هذه الأشياء من غير أن تعرف السبب... أمّا أنا فلديّ أسبابي».

«ما هي؟».

نظرت إليه مطوّلاً ثمّ فسّرت قولها: «يجب أن أقول لك شيئاً ربّما لن تحبّني بعد أن أقوله أبداً... عليّ أن أقول ذلك».

«أيّ شيء؟».

أجابت ببطء وهي تنظر إليه بانتباه، كما لو أنّها تريد أن تبغت تعابير الازدراء التي تخشاها حين ظهورها: «أنا لست كما...».

«يعني؟».

«باختصار، أنا لست... عذراء».

نظر إليها مارتشيلّو وفهم فجأة أنّ صفة الاعتياديّة التي كان ينسبها حتّى الآن إلى زوجته، ليست في واقع الأمر موجودة فيها. ولم يعرف ماذا يوجد هناك خلف بداية هذا الاعتراف، لكنّه عرف بكلّ تأكيد أنّ جوليا ليست، وبحسب كلامها، مثل ما كان يظنّ ويعتقد. فعاده إحساس بالشبع المبكّر من الأفكار التي كان بصدد الاستماع إليها، فضلاً عن رغبة برفض هذا الإسرار. لكنّه كان عليه قبل كلّ شيء أن يطمئنها. وكان هذا أمراً سهلاً بالنسبة إليه، لأنّ تلك العذريّة الشهيرة، وجدت أم لم توجد، لا تهمّه في الحقيقة في شيء. فأجاب بنبرة ودّيّة: «لا تقلقي... لقد تزوّجتك لأنّي أحبّك... وليس لأنّك عذراء».

قالت جوليا وهي تهزّ رأسها: «كنت على ثقة أنّ عقليّتك حديثة... وأنّك لن تعطي الأمر أيّ وزن... لكنّه كان عليّ أن أخبرك في كلّ الأحوال».

«العقلية الحديثة»، لم يستطع مارتشيلّو إلّا أن يفكّر في هذا باستمتاع. كانت

العبارة تشبه جوليا وتعوّض عن عدم عذريّتها. كانت عبارة بريئة، وإن كانت براءتها تختلف عمّا كان يفترضه. فقال وهو يمسك بيدها: «هيّا، دعينا ننسى الأمر». وابتسم لها.

بادلته جوليا الابتسامة. لكنّ الدموع فاضت من عينيها وانهمرت على خدّيها بينما كانت تبتسم له. فاحتجّ مارتشيلّو: «هيّا، هيّا... ماذا حلّ بك الآن... ألم أقل لك إنّ الأمر لا يهمّني في شيء؟».

بدرت عن جوليا حركة مميّزة. فقد أحاطت عنقه بذراعيها لكنّها أدارت رأسها على صدره، وهي تبكي في أسفله كي لا يراها مارتشيلّو. «عليّ أن أخبرك بكلّ شيء».



«كلّ شيء عن ماذا؟».

«عن كلّ ما حدث لي».

«لا يهمّني».

«أرجوك، قد تكون هذه نقطة ضعف فيّ... لكن إذا لم أخبرك فسيبدو لي أنّي أخفي عنك شيئاً ما».

قال مارتشيلّو وهو يداعب شعرها: «لكن لماذا، لا بدّ أنّه كان لك عشيق... شخص ما بدا لك أنّك تحبّينه... أو أنّك كنت تحبّينه بالفعل... فلماذا يجب أن أعرف عن هذا؟».

فأجابت مباشرة وبلهجة ازدراء: «لا، لم أكن أحبّه، ولم يكن يبدو لي أنّي أحبّه... لكنّنا كنّا خليلَين يمكن القول حتّى اليوم الذي خطبتني فيه، لكنّه لم يكن صغير السنّ مثلك... كان عجوزاً بعمر ستّين سنة: كان مقرفاً، قاسياً، كثير الطلبات... صديق عائلة، وأنت تعرفه».

«من هو؟».

فقالت بإيجاز: «المحامي فينيتسيو».

فانتفض مارتشيلّو: «لكنّه كان أحد الشهود...».

«بالفعل، هذا ما أراده بالفعل... لم يكن بودّي أن يكون ذلك، لكن لم يكن بوسعي أن أرفض طلبه، خاصّة وأنّه قبل أن أتزوّج، ولم يكن هذا أمراً سهلاً...».

تذكّر مارتشيلّو أنّه لم يعجب يوماً بالمحامي فينيتسيو ذاك، وقد صدف أنّه التقى به كثيراً في منزل جوليا: رجل صغير القامة، يميل إلى الشقرة، أصلع، يضع نظّارات ذهبيّة، أنفه مدبّب يتجعّد عندما يضحك، وفمه بلا شفتين. وتذكّر أيضاً أنّه رجل هادئ جدّاً وبارد الطبع، لكنّه، وعلى الرغم من هدوئه وبرودته، عدوانيّ ومتغطرس بطريقة مؤسفة. وهو شديد البنية، فقد خلع ذات يوم سترته بسبب الحرّ وشمّر أكمام قميصه فتكشّف عن ذراعين بيضاوين غليظتين ومنتفختين بالعضلات. وهكذا فلم يستطع إلّا أن يصيح فيها: «ولكن ماذا كنت تجدين فيه؟».

«بل هو الذي وجد أمراً فيّ... فتحوّلت بسرعة إلى عشيقة له، لكن ليس لشهر واحد أو لسنة واحدة، بل لستّ سنين».

هنا أجرى مارتشيلّو في ذهنه عمليّة حسابيّة سريعة: عمر جوليا الآن هو واحد وعشرون سنة أو أكثر بقليل، إذاً... وهنا كرّر بدهشة: «ستّ سنوات؟».

«أجل، ستّ سنوات، كان عمري خمس عشرة سنة عندما... هل فهمتني؟». لاحظ أنّ جوليا، على الرغم من أنّها تتحدث عن أشياء لا تزال تؤلمها بحسب كلّ المظاهر، إلا أنّها تحافظ على نبرتها اللطيفة المعتادة عندما تثرثر بلا مبالاة. «ويمكن القول إنّه قد استغلّني في اليوم نفسه الذي مات فيه أبي المسكين... وإذا لم يكن في ذلك اليوم نفسه، فلربّما في الأسبوع نفسه... بوسعي على كلّ أن أخبرك بتاريخ مؤكّد: كان ذلك بالضبط بعد ثمانية أيام من جنازة أبي... الذي، لاحظ جيّداً، كان صديقه المقرّب الذي يثق به...». صمتت للحظة، وكأنّما لتؤكّد بصمتها على فجور الرجل، ثمّ تابعت: «بقيت أمي تبكي وكانت تكثر بالطبع من الذهاب إلى الكنيسة... وقد جاء هو ذات مساء عندما كنت وحدي في المنزل، لأنّ أمّي خرجت وكانت المرأة في المطبخ... كنت أجلس في الغرفة إلى الطاولة، مستغرقة في كتابة الواجب المدرسي... كنت وقتها في الصفّ الخامس وأستعدّ للشهادة... دخل على رؤوس أصابعه، وجاء من خلفي، فانحنى على الورقة وسألني عمّا أفعله... أخبرته، دون أن أستدير... لم أكن أشعر بأيّ شكّ، أوّلاً لأنّني، ويمكنك أن تصدّق، كنت بريئة براءة فتاة في الثانية من عمرها، ثمّ لأنّه كان قريباً لي تقريباً... وتخيّل أنّي كنت أدعوه عمّي... فقلت له إنّني

أقوم بتحضير موضوع اللغة اللاتينيّة، أمّا هو، هل تعرف ماذا فعل؟ أخذني من شعري بيد واحدة لكن بقوّة... وكان في كثير من الأحيان يفعل ذلك على سبيل اللعب، لأنّ شعري كان رائعاً، طويلاً ومموّجاً، وكان يقول إنّه يغري أصابعه... عندما أحسست أنّه يجرّني من شعري، وأنا ما زلت على ظنّي بأنّه يمزح معي، قلت له: «دعني، إنّك تؤلمني...» لكنّه، بدلاً من أن يتركني، أجبرني على الوقوف، وبقي يمسك بي بذراعه الممدودة، ثمّ قادني نحو السرير، الموجود كما هو الآن، في الزاوية بجانب الباب... وكنت أنا بريئة جدّاً ولم أفهم شيئاً، فقلت له على ما أذكر: «دعني... يجب عليّ أن أكتب وظيفتي...». في تلك اللحظة ترك شعري... لكن، لا، لا أستطيع إخبارك...».

كان مارتشيلّو على وشك أن يطلب منها الاستمرار، ظنّاً منه أنّها توقّفت بسبب الخجل، لكنّ جوليا تابعت، لأنّها لم تتوقّف أساساً إلّا لمضاعفة تأثير حديثها: «على الرغم من أنّني لم أكن قد بلغت الخامسة عشرة من عمري، إلّا أنّ جسمي كان قد نضج وأصبحت مثل النساء... حسناً، لم أرغب في إخبارك لأنّ مجرّد الحديث عن الأمر لا يزال يؤلمني... إذاً، ترك شعري ليمسك بصدري، وأمسكه بقوّة لدرجة أنّني لم أتمكّن حتّى من الصراخ وكدت أن يغمى عليّ... بل ربّما أغمي عليّ بالفعل... لا أعرف ما حدث بعد ذلك الضغط: كنت مستلقية على السرير وهو فوقي، ففهمت كلّ شيء، لكنّ قواي تلاشت وأصبحتُ كالشيء بين يديه، خاملة، خائرة القوى، مسلوبة الإرادة... وهكذا فعل بي كلّ ما يريده... بكيت بعد ذلك، فقال لي إنّه يحبّني، وإنّه مجنون بي، أي ذلك الكلام المعتاد... لكنّه أضاف وقال :إنّ عليّ أن أسايره وألّا أخبر أمّي بشيء من هذا إذا كنت لا أرغب في أن يقوم بتدميرنا... ويبدو أنّ أبي قد أجرى مؤخّراً بعض الأعمال بطريقة خاطئة فأصبحت حياتنا المادّيّة متعلّقة الآن به... وهكذا فقد عاد بعد ذلك اليوم عدّة مرّات... لكن على غير انتظام... وفي الوقت الذي لم أكن أتوقّع مجيئه... كان يدخل إلى غرفتي على رؤوس أصابعه وينحني فوقي ويسألني بصوته القاسي: «هل كتبت وظائفك؟ لا؟ إذاً تعالي اكتبيها معي...». ثمّ كان يمسك بي كالعادة من شعري ويقودني بذراعه الممدودة إلى السرير...

لا أقول لك كم كان يحبّ أن يمسك بي من شعري»، وضحكت من تذكّر عادات عاشقها القديم، لكن بودّ، كما يتذكر المرء صفة ما معيّنة ومحبّبة... وسارت الأمور على هذا المنوال لحوالي سنة... وكان يقسم لي أنه يحبّني وكان سيتزوّجني لو لم يكن عنده زوجة وأولاد... ولا أدّعي أنّه لم يكن صادقاً... لكنّه لو كان يحبّني حقّاً، فإنّ الطريقة الوحيدة للبرهان على ذلك هي في تركي وشأني... كفى، بعد سنة، شعرت باليأس وقمت بمحاولة للتخلّص منه: فقلت له إنّي لا أحبّه ولن أحبّه ما حييت، وإنّه لا يمكن لنا أن نبقى على هذا المنوال، وإنّي لا أتمكّن من فعل أيّ شيء و.ني أتألّم وإنّي لم أنجح في نيل الشهادة، وإذا لم يتركني فإنّي سأترك أنا الدراسة... لذلك تصوّر فقد ذهب إلى أمّي وقال لها إنّه فهم طبعي ورأى أنّي لست مهيّأة للدراسة، وأنّ من مصلحتي الآن وقد بلغت السادسة عشرة من عمري أن أبدأ بالعمل... وأنّه سيبدأ بتقديم وظيفة لي كسكرتيرة في مكتبه... هل فهمت؟ وقد قاومت بالطبع ما استطعت، لكنّ أمّي المسكينة قالت لي إنّي ناكرة للجميل وإنّه قام بالكثير وما زال يقوم بالكثير لصالحنا، وإنّه لا يجب عليّ أن أترك هذه الفرصة السانحة تفوتني، وهكذا أصبحت في النهاية مجبرة على القبول... أصبحت طيلة النهار معه في المكتب، ويمكنك أن تتخيّل أنّه لا يمكن لي حتّى التفكير بالكفّ عن ذلك... وهكذا استأنفت علاقتي به ممّا جعلني أعتاد الأمر من غير أن أحتجّ أو أقاوم... وتعرف كيف تجري الأمور، فقد كان يبدو لي أنّ الآمال انقطعت، وأنّه عليّ القبول بالواقع... لكن عندما قلت لي أنت قبل سنة إنّك تحبّني ذهبت مباشرة إليه وأخبرته أنّ كلّ شيء قد انتهى بالفعل هذه المرّة... لكنّه احتجّ وهدّدني هو النذل قائلاً: إنّه سيذهب إليك ويخبرك بكلّ شيء... فهل تعرف ماذا فعلت؟ تناولت قطّاعة ورق حادّة كانت موضوعة على مكتبه ووضعتها فوق حلقه وقلت له: «إذا فعلت ذلك سأقتلك...». وقلت له أيضاً: «إنّه من العدل أن يعرف بعلاقتنا... لكنّي أنا التي سأخبره بذلك، وليس أنت... أنت منذ اليوم لا شيء بالنسبة إليّ... وإذا حاولت فقط ومجرّد محاولة في أن تحول بيني وبينه فتأكّد أنّي سأقتلك... قد أذهب إلى السجن، لكنّي سأقتلك... قلت ذلك بنبرة معيّنة فهم منها أنّي أقول ذلك بجدّيّة... ومن يومها لم يتنفّس

أبداً... عدا أنّه عاد وانتقم بكتابة تلك الرسالة من مجهول التي تكلّم فيها عن أبيك...».

فلم يتمكّن مارتشيلّو إلّا أن يهتف قائلاً: «آه، كان هو إذاً من كتبها».

«هذا مفهوم، وقد عرفت مباشرة نوع الورق والآلة الكاتبة»، ثمّ صمتت لحظة ثمّ أمسكت بيد مارتشيلّو وأضافت بقلق مفاجئ: «لقد أخبرتك الآن بكلّ شيء، ويبدو لي أنّي استرحت... ربّما لم يكن عليّ أن أخبرك بهذا، فلربّما لن تكون قادراً على تحمّلي بل وربّما كرهتني».

لم يجب مارتشيلّو بشيء وبقي صامتاً لفترة طويلة. لم تثر قصّة جوليا في نفسه كراهيةً للرجل الذي استغلّها ولا شفقة عليها هي التي تمّ استغلالها. خاصّة وأنّ أسلوب اللامبالاة والتعقّل الذي روت به القصّة وعبّرت به عن اشمئزازها وسخطها، كان يستبعد أيّ مشاعر حاسمة كالكراهيّة والشفقة. وهكذا، وكما لو أنّ العدوى أصابته، فقد بدأ يميل هو نفسه إلى اعتبارٍ مماثل لا يخلو من مشاعر التساهل والاستسلام. لكنّه، ومع ذلك، فقد شعر بإحساس في بدنه مليء بالدهشة المجرّدة عن أيّ حكم، شبيه بإحساس المرء عندما يسقط في فراغ لم يكن يتوقّع وجوده. ثمّ، وكما لو بسبب فعل ارتداديّ، فقد تفسّت كآبته أمام هذا التأكيد غير المتوقع لقاعدة الانحطاط التي تأمّل للحظة أن تستثنى جوليا منها. لكنّ الغريب أنّ قناعته بالاعتياديّة العميقة التي تتّصف بها شخصيّة جوليا لم يبد أنّها تزعزعت بأيّ شكل من الأشكال. وكان قد فهم على حين غرّة أنّ الاعتياديّة لا تكمن في تجنّب بعض التجارب، بمقدار ما تكمن في طريقة تقييمها. وقد شاءت الصدف أن يكون هو مثل جوليا قد احتفظ لنفسه شيئاً في حياته يخفيه عن الآخرين قبل أن يعترف به بالنتيجة. لكن بينما كان هو يشعر أنّه غير قادر على إخبار جوليا عن لينو، فإنّ جوليا لم تتردّد في الكشف عن علاقتها بالمحامي، بعد أن اختارت لهذا اللحظة المناسبة بحسب رأيها، أي لحظة زواجهما، الذي يجب أن يعني في أساسه إلغاء الماضي وفتح طريقة جديدة بالكامل تسلكها في حياتها. وقد أثارت هذه الفكرة سروره لأنّها تؤكّد رغم كلّ شيء اعتياديّة جوليا التي تكمن بالضبط في مقدرتها على إنقاذ نفسها بالوسائل القديمة المعتادة التي تستند إلى الدين والعواطف. ألهتْه هذه التأمّلات وأدار عينيه نحو النافذة فلم

يلاحظ أنّ صمته أرعب زوجته. ثمّ شعر أنّها تحاول أن تعانقه وسمع صوتها وهي تسأله: «ألا تتكلّم؟ صحيح إذاً أنّي أثرت قرفك... قل الحقيقة: أنت لم تعد قادراً على تحمّلي وأنا أثير قرفك». كان بودّ مارتشيلّو أن يطمئنها، فقام بحركة تنبئ بأنّه سيبادلها العناق. لكنّ رجّة في القطار حرفت حركته، فضربها بكوعه دون قصد منه وأصاب وجهها. لكنّ جوليا فسّرت هذه الضربة غير المقصودة على أنّها إشارة رفض لها، فنهضت وانتصبت على قدميها. في تلك اللحظة دخل القطار في نفق وهو يطلق صفرة باكية طويلة ويزيد من شدّة العتمة على زجاج النوافذ. وعندما ضخّم الصدى الصادر عن أقواس النفق ضجيج القطار، بدا له أنّه يسمع صرخة بكاء تنطلق من جوليا، بينما كانت هي تمدّ ذراعيها إلى الأمام، وتتأرجح متعثّرة وهي تسير نحو باب المقصورة. شعر بالدهشة ونادى عليها دون أن ينهض من مكانه: «جوليا». وكان الجواب أنّه رآها وهي تذهب متأرجحة حزينة لتفتح الباب وتختفي في الممرّ.

وقف ساكناً للحظة، ثم خاف فجأة ونهض وخرج هو الآخر. كانت المقصورة في منتصف العربة، ورأى على الفور زوجته وهي تسرع نحو نهاية الممرّ الفارغ حيث يوجد باب الخروج. عندما رآها وهي تهرب على السجّادة الناعمة السميكة، وبين جدران خشب الماهوجني، تذكّر العبارة التي قالتها لعشيقها القديم: «إذا تكلمت، سأقتلك»، وفكّر أنّه قد تجاهل على الأرجح جانباً من جوانب شخصيّتها عندما خلط بين اللطف والتراخي. وفي اللحظة نفسها رأى أنّها انحنت لتصارع مقبض الباب. فلحق بها بقفزة واحدة وأمسك بها من ذراعها وأجبرها على النهوض.

سألها بصوت خافت رغم ضجيج القطار: «لكن ماذا تفعلين يا جوليا؟ ماذا ظننت؟ كان ذلك بسبب القطار... كنت أريد أن ألتفت لكنّي أصبتك».

كانت قد صلّبت جسمها بين ذراعيه، وكأنّها تستعد للعراك. لكنّها هدأت على ما يبدو عندما سمعت صوته الهادئ والمليء بالدهشة الصادقة. ثمّ قالت بعد لحظة وهي تحني رأسها: «اعذرني، ربّما كنت على خطأ، لكنّي تخيّلت أنّك كرهتني فراودتني رغبة بإنهاء الأمر... لم تكن مجرّد حركة، لأنّي كنت سأفعل ذلك بالفعل لو أنّك لم تأت».

«لكن لماذا... ماذا خطر في بالك؟».

رآها وهي تهزّ كتفيها: «هكذا، حتّى أتجنّب مزيداً من التعب... كان الزواج بالنسبة إليّ أهمّ ممّا تظنّ... لذلك فقد رأيت أنّني لن أستطيع المضيّ قدماً بعدما فهمت، وعلى ما بدا لي، أنّه لم يعد بإمكانك تحمّلي...». هزّت كتفيها مرة أخرى ثمّ أضافت وهي ترفع أخيراً وجهها إليه وتبتسم: «وبهذا، فإنّك كنت ستصبح أرمل حالما تزوّجت».

نظر إليها مارتشيلّو للحظة ومن غير كلام. وفكّر أنّه من الواضح أنّها صادقة، وأنّها تعطي بالفعل أهمّيّة كبرى للزواج، وأكبر ممّا يظنّ ويتخيّل. لذلك فقد فهم وسط دهشته العارمة أنّ عبارتها المتواضعة كانت تشير إلى مشاركة معقّدة في طقس الزواج الذي كان بالنسبة إلى جوليا كما يجب أن يكون، لا أقلّ ولا أكثر، وعلى عكس ما هو بالنسبة إليه. لذلك لم يكن من المستغرب أنّها فكّرت بالانتحار، بعد ذلك التفاني العاطفيّ، وبعد أوّل خيبة أمل صادفتها. وقال في نفسه: إنّ هذا كان نوعاً من الابتزاز قامت به جوليا، أي إمّا أن تسامحني أو أقتل نفسي. وهنا شعر بالارتياح من جديد، لأنّه وجدها كما كان يرغب فيها أن تكون. عندما استدارت جوليا مرّة أخرى وبدا كأنّها تنظر إلى النافذة، قام بتطويق خصرها وهو يهمس في أذنها: «تعلمين أنّني أحبّك».

فاستدارت نحوه وقبّلته بعاطفة متّقدة كادت أن تخيف مارتشيلّو. وهنا فكّر أنّ بعض المتعبّدات في الكنائس يقبّلن بهذه الطريقة أرجل التماثيل والصلبان والتمائم. كان ضجيج النفق يتلاشى بينما بقي صوت العجلات المعتاد وهي تجري بسرعة في الهواء الطلق. وهنا تباعدا.

لكنّهما بقيا مقابل بعضهما بعضاً أمام النافذة، يدها في يده، وهما يتأمّلان ظلام الليل. في النهاية قالت جوليا بصوت عاديّ: «انظر هناك... ما هذا؟ هل هو حريق؟».

كان حريقاً بالفعل، شبيهاً بوردة حمراء، وهو يبرق الآن وسط الزجاج المظلم. قال مارتشيلّو: «من يدري؟». ثمّ أغلق النافذة. اختفى بريق الزجاج المنعكس في الليل، وضرب تيّار الهواء البارد الذي يثيره جري القطار على

وجهه، لكنّ الوردة الحمراء بقيت معلّقة بشكل غامض في الظلام، ولم يكن واضحاً ما إذا كانت بعيدة أم قريبة، مرتفعة أم منخفضة. بقي يتأمّل بعد ذلك لفترة طويلة بتلات النار تلك، كانت أربع أو خمس بتلات من نار بدت وكأنها تتحرّك وهي تخفق، ثمّ توجّه ببصره نحو سكّة الحديد التي كان ظلّه وظلّ جوليا يجريان فوقها سويّة مع أضواء القطار الخافتة، وهنا شعر فجأة بإحساس حيرة شديدة. لماذا هو الآن في هذا القطار؟ ومن هي المرأة التي تقف بجانبه؟ وإلى أين هو ذاهب؟ بل ومن هو نفسه؟ ومن أين أتى؟ لم يكن يشعر بمثل هذا الارتباك، بل كان على العكس يحبّ ذلك الشعور باعتباره أمراً مألوفاً ويشكّل على الأرجح أعمق أساسات كيانه. وهكذا فقد فكّر بكلّ برود: «إنّني مثل تلك النار في أعماق هذا الظلام... أشتعل وأنطفئ من غير سبب، وبلا نتائج... شيء من حطام معلّق في الظلام».

جفل على سماع صوت جوليا وهي تنبهّه: «لا بدّ أنّهم قد انتهوا من إعداد الأسرّة» فأدرك أنّه بينما كان هو تائهاً بين تأمّلاته بتلك النار البعيدة، فإنّ الأمر المهمّ بالنسبة إليها كان ولا يزال حبّهما، أو بالأحرى، وبشكل أكثر دقّة، لقاء جسديهما عمّا قريب، وهذا باختصار، ما كان يفعله في تلك اللحظة ولا شيء آخر. وكانت هي قد توجّهت نحو المقصورة، وليس بغير نفاد صبر مخفيّ، فتبعها مارتشيلّو على مسافة معيّنة، وقد تباطأ على العتبة ليترك المفتّش يخرج قبل أن يدخل هو. كانت جوليا واقفة أمام المرآة وهي تخلع قميصها وتفكّك أزراره من الأسفل إلى الأعلى، غير عابئة بالباب الذي ما زال مفتوحاً. قالت له من غير أن تلتفت: «خذ أنت السرير العلويّ... وأنام أنا في ذلك السفليّ».

أغلق مارتشيلّو الباب، تسلّق على السرير وبدأ مباشرة في خلع ملابسه، وهو يلقي ثيابه تباعاً فوق شبكة السرير. جلس عارياً ينتظر فوق الغطاء، وهو يحيط ركبتيه بذراعيه. سمع جوليا وهي تتحرّك، وصوت كأس يرنّ على دعائم السرير، وصوت حذاء يقع على السجّادة وأصوات أخرى. ثمّ انطفأت بحركة مفاجئة الأضواء القويّة وساد ضوء مصباح الراحة القرمزيّ، فقال صوت جوليا: «هل تريد أن تأتي؟» مدّ مارتشيلّو رجليه واستدار ووضع قدماً واحدة على السرير السفلي ثمّ انحنى إلى جنب كي يتمكّن من الدخول. عند ذلك رأى جوليا وهي مستلقية عارية وذراعها فوق عينيها، وساقاها

ممدودتان ومتباعدتان. ظهر جسدها تحت ذلك الضوء المزيّف والخافت، ببياض لؤلؤيّ بارد، مع لطخ سوداء بين الفخذين والإبطين، وبلون ورديّ داكن على الصدر. وقد يقال إنّ جسمها بدا هامداً بسبب شحوبه الشبيه بشحوب الأموات، ولأنّها كانت جامدة بصور تامّة. لكنّها، ما إن أصبح مارتشيلّو فوقها، حتّى اهتزّت فجأة، كما تهتز المصيدة وتنقر قبل أن تنغلق على الصيد، ذلك وهي تجذبه إليها وتلقي ذراعيها حول رقبته. بعد قليل من الوقت دفعته بعنف إلى الوراء، وتكوّمت على نفسها قرب الجدار، وقد وضعت جبينها على ركبتيها. هنا أدرك مارتشيلّو أنّ ذلك الذي أخذته منه بتلك العجالة ثمّ أغلقت عليه واحتفظت به بغيرة شديدة داخل رحمها، لم يعد ملكاً له، بل سينمو في داخلها... كما فكّر أنّه فعل ذلك على ما يعتقد ليتمكّن من أن يقول أمام نفسه ومرّة واحدة على الأقلّ: «هكذا أصبحت رجلاً مثل غيري من جميع الرجال... لقد أحببت، وارتبطت بامرأة وولد منّي شخص آخر».

-II-

عندما بدا له أنّ جوليا قد نامت، نهض مارتشيلّو من السرير ووضع قدميه على الأرض وبدأ يرتدي ملابسه. كانت الغرفة مغمورة بظلّ ضوء نضر وشفّاف، مما يحمل على تخمين سطوع ضوء جميل من أضواء حزيران في السماء وفوق البحر: إنّها بالفعل غرفة فندق على شاطئ الريفييرا، مرتفعة وبيضاء، مزيّنة بالجصّ الأزرق على شكل أزهار وبتلات وأوراق شجر، فيها أثاث خشبيّ فاتح اللون على نمط الجصّ المورّد، وهناك في إحدى الزوايا نخلة خضراء كبيرة. ما إن ارتدى ثيابه حتّى ذهب على رؤوس أصابعه نحو ستائر النافذة فشقّها ونظر إلى الخارج. فامتدّ البحر أمامه على الفور مبتسماً، وأكثر اتّساعاً ممّا هو في الحقيقة بسبب صفاء الأفق بلونه الأزرق شديد الزرقة، والذي بدا كأنّه يضيء كلّما ارتفعت موجة وهبّ شيء من النسيم، بتلألؤ زهرة من ضوء الشمس. خفض مارتشيلّو بصره وحوّله عن البحر إلى الممشى، وكان مقفراً ولا أحد يجلس على المقاعد المصفوفة تجاه البحر تحت ظلال أشجار النخيل، ولا أحد يسير على الإسفلت الرماديّ النظيف. راقب لفترة طويلة هذا المنظر قبل أن يغلق ستائر النافذة ويلتفت بعدها لينظر إلى جوليا المستلقية على السرير. كانت عارية ونائمة. كانت وضعيّة جسمها المائل إلى جنب، ترفع إلى الأعلى استدارة وركها الباهتة والواسعة، والذي بدا أنّ جذعها يتفرّع عنه رخواً وبلا حياة، مثل ساق نبات ذابل يتدلّى من الإناء. كان مارتشيلّو يعرف أنّ ظهرها ووركيها هما الشيء الوحيد الصلد والمشدود في ذلك الجسم. أمّا الرأس فكان مخفيّاً وراء الكتفين ولا يرى. شعر مارتشيلّو بغتة أنّه لا ينظر إلى شخص بل إلى آلة من لحم، خاصّة بعد أن تذكّر أنّه امتلك زوجته قبل دقائق قليلة، أجل آلة من لحم، جميلة ومحبّبة

لكن وحشيّة مخصّصة للحبّ وللحبّ وحسب. ما لبثت أن تحرّكت، كأنّما أيقظتها نظراته الخالية من الشفقة، ثمّ تنهدّت بعمق وقالت بصوت واضح: «مارتشيلّو». اقترب منها على الفور، وأجاب بمودّة: «إنّي هنا». فرآها وهي تستدير وتحوّل من جانب إلى الجانب الآخر ذلك الثقل من اللحم الأنثويّ، وترفع ذراعيها كالعمياء لتطوّق وركيه. وقبّلته بشغف وتواضع فيهما كثير من الميل إلى الصنميّة الشغوفة، وبقيت بلا حراك للحظة، ثمّ احتضنته وسقطت مرّة أخرى على السرير، والشعر يلفّ وجهها الذي غلب عليه النوم. نامت من جديد، في الوضع نفسه الذي كانت عليه من قبل، لكنّها غيّرت جنبها من اليمين إلى اليسار. أخذ مارتشيلّو سترته من على المشجب وتوجّه على رؤوس أصابعه نحو الباب وخرج إلى الممرّ.

نزل على الدرج العريض، فعبر عتبة الفندق وخرج إلى الممشى. انبهر للحظة بأشعّة الشمس التي كان البحر يموّجها في نقاط تبرق بحدّة. وعندما أغمض عينيه، نبّهه الظلام إلى رائحة بول الأحصنة الواخز وهو يضرب أنفه.

كانت العربات واقفة على صفّ واحد، ثلاث ثلاث أو أربع أربع، في مقطع مظلّل خلف الفندق، بينما نام الحوذيّون على صناديق العربات بمقاعدها المغطّاة بأقمشة بيضاء. توجّه مارتشيلّو إلى أوّل عربة وركب فيها، ثمّ قال بصوت مرتفع العنوان الذي يقصده: «شارع غليشيني». رأى أنّ الحوذيّ قد رماه بنظرة سريعة ذات مغزى، ثمّ ضرب الحصان بالسوط، دون أن ينبس ببنت شفة.

قطعت العربة مسافة معتبرة على طول الواجهة البحريّة، ثمّ دخلت في شارع قصير من الفيلّات والحدائق. كانت تنتصب في نهاية الطريق تلّة ليغوريا المكسوّة بالكروم المشرقة والمنقّطة بأشجار الزيتون الرماديّة، مع بضعة منازل حمراء شاهقة تنتصب بنوافذها الخضراء. كانت الطريق تتّجه نحو جانب التلّة بصورة مباشرة. انقطعت فجأة الأرصفة والإسفلت، ممّا فسح المجال لظهور نوع من المسار العشبي. توقّفت العربة فرفع مارتشيلو بصره: كان يرى في آخر حديقة منزلاً بثلاثة طوابق، رماديّ اللون، بسقف أسود مصنوع بقطع من الآجر الرماديّ المزرقّ وفيه بعض النوافذ. قال الحوذي بلهجة جافّة: «هنا» وبعد أن أخذ أجره أدار الحصان بسرعة. ظنّ

مارتشيلّو أنّ الحوذيّ قد شعر بالإهانة لأنّه جاء إلى هذا المكان، لكنّه رأى وهو يدفع الباب أنّه هو من نسب إليه القرف الذي كان يشعر به هو بالذات.

سار في الطريق بين سياجين من الشجيرات المغبرّة، وتوجّه نحو الباب الزجاجيّ الملوّن. لطالما كره هذه البيوت ولم يذهب إليها إلّا مرّتين أو ثلاث مرّات خلال سنيّ المراهقة، وكان يشعر في كلّ مرّة بالاشمئزاز والتوبة من أمر حقير لم يكن عليه أن يفعله. صعد بقلب مليء بالغثيان على الدرجتين أو الثلاث درجات، ودفع الباب الزجاجيّ الذي وضعوا عليه جرساً كاشفاً ودخل في دهليز أمام درج له درابزين من خشب. شمّ رائحة كريهة، وهي مزيج بين بودرة الوجه والعرق ومنيّ الرجال. كان البيت غارقاً في الصمت وفي خدر ظهيرة فصل الصيف. بينما كان ينظر حوله، برزت ولا يعرف من أين فتاة كالخادمة بملابس سوداء، وترتدي مئزراً أبيض مربوطاً بالحزام. كانت صغيرة القدّ نشيطة وظهر وجهها المدبّب مثل وجه نمس، تنعشته عينان برّاقتان، انتصبت أمامه بعبارة «صباح الخير» رنّانة نطقتها بصوت مرح. فقال لها وهو يرفع قبّعته باحترام زائد على الأرجح: «يجب أن أتكلّم مع سيّدة البيت». فأجابت المرأة بلهجة عامّيّة: «حسناً، أيّها الوسيم، ستتحدّث معها، ولكن في هذه الأثناء انتظرها في الصالون... ستأتي سيّدة البيت... ادخل إلى هناك». شعر مارتشيلّو بالإهانة لأنّها لم تكلّمه بلهجة الاحترام ولأنّها أساءت فهمه، لكنّه اندفع مع ذلك ودخل عبر الباب المفتوح قليلاً. بدت له الصالة العموميّة، الواسعة والمستطيلة، مهجورة بين الظلال المتناثرة هنا وهناك، فيها أرائك مبطّنة بقماش أحمر مصفوفة حول الجدران. كانت الأرضيّة مغبرّة مثل أرضيّة غرف الانتظار في محطّات القطارات، كان قماش الأرائك أيضاً، بالياً ومتّسخاً، ويؤكّد قذارة هذا المكان العموميّ رغم حميميّة البيت وسرّيته. جلس مارتشيلّو متردّداً على إحدى تلك الأرائك. في تلك اللحظة بالذات، جرى ما يجري عندما تفرغ أحشاء البطن مخزونها الثقيل فجأة، وبعد سكون طويل، وهكذا فقد حدث في جميع أنحاء البيت ما يشبه قعقعة التفكّك، وانحدرت كثير من الأقدام كأنّها تدمّر الدرج الخشبيّ. ثمّ حدث ما كان يخشاه. فقد فُتح الباب وأعلن صوت الخادمة الرقيق: «ها هنّ الآنسات... كلّهنّ تحت تصرّفك».

دخلن متكاسلات، بفتور، بعضهنّ نصف عاريات، والبعض الآخر يرتدين شيئاً أكثر من الثياب، اثنتان سمراوان وثلاث شقراوات، وثلاث متوسّطات الطول، وواحدة صغيرة وأخرى ضخمة. جاءت الأخيرة وجلست بجانب مارتشيلّو، وتهاوت على الأريكة وهي تتنهّد بنوع من الرضا والتعب. أشاح في البداية بوجهه عنها، ثم انجذب واستدار قليلاً لينظر إليها. كانت ضخمة بالفعل، شكلها هرميّ، وركاها أعرض من خصرها وخصرها أعرض من كتفيها وكتفاها أعرض من رأسها، أمّا رأسها فصغير ووجهها مسطّح تحيط بجبهته جديلة سوداء ملتوية. كانت ترتدي حمّالة صدر من الحرير الأصفر تلفّ ثدييها المنتفخين والمنخفضين. وكانت تنّورتها الحمراء تنفتح في أسفل السرّة بالكامل، وكالستارة المفتوحة، على سواد العورة وبياض الفخذين الضخمين.

عندما أدركت أنّه ينظر إليها، ابتسمت بنوع من التفاهم مع إحدى زميلاتها الجالسة أمام الجدار تجاهها، ثمّ تنهدّت قبل أن تمرّر يدها بين ساقيه كما لو لتباعد بينهما كي لا يشعر بالحرارة. شعر مارتشيلّو بالغضب من هذه الوقاحة الخاملة، وكان بودّه أن يبعد تلك اليد التي بدأت تفرك تحت بطنه، لكنّه لم يملك القوّة على التحرّك. إن أكثر ما أثار دهشته في هذه الماشية الأنثويّة هذه هي صفة السقوط التي لا يمكن إصلاحها. وهي الصفة نفسها التي كانت تجعله يرتجف من الرعب أمام عريّ أمّه وجنون أبيه. وكانت هي تقريباً أساس حبّه الهستيريّ للنظام والهدوء والوضوح ورباطة الجأش. في النهاية قالت المرأة بصوت متسامح من المزاح، وهي تلتفت نحوه: «ألم تعجبك هؤلاء الحريم؟... ألن تقرّر؟» لذلك فقد نهض على الفور وسط فورة اشمئزاز محموم، وخرج مسرعاً من الصالة، فبدا له أنّ بعض الضحك والعبارات الفاحشة قد ودّعته باللهجة العاميّة. توجّه غاضباً نحو الدرج وفي ذهنه الصعود إلى الطابق العلويّ والذهاب بحثاً عن سيّدة البيت. لكنّ الجرس الكاشف على الباب رنّ في تلك اللحظة من خلفه مرّة أخرى، وعندما استدار، رأى على العتبة شخصاً مذهولاً، لكنّه ظهر بالنسبة إليه في ذلك الحين مفعماً بالروح الأبويّة، كان ذلك هو العميل أورلاندو...

فصاح العميل مباشرة: «صباح الخير أيّها الدكتور، إلى أين أنت ذاهب

أيّها الدكتور؟». توقّف مارتشيلّو بعد أن هدأ فجأة، وقال: «الحقيقة، أظنّ أنّهنّ اعتقدن أنّي أحد الزبائن...».

قال العميل وهو يهزّ رأسه: «نساء غبيّات، تعال معي أيّها الدكتور... سأقودك أنا... إنّهم بانتظارك أيّها الدكتور».

تقدّم أمام مارتشيلّو وعبر الباب الزجاجيّ إلى الحديقة. سار أحدهما خلف الآخر على طول طريق الشجيرات، ثمّ استدارا خلف الفيلّا. لقد أحرقت الشمس هذا الجزء من الحديقة بحرارتها الجافّة والغبار والنباتات البرّيّة. لاحظ مارتشيلّو أنّ جميع مصاريع نوافذ المبنى كانت مغلقة وكأنّه غير مأهول. حتّى الحديقة المليئة بالأعشاب بدت مهجورة. سار العميل بعد ذلك نحو مبنى أبيض منخفض يحتلّ بالكامل الجزء الخلفيّ من الحديقة. هنا تذكّر مارتشيلّو أنّه قد لاحظ في بعض المنتجعات الساحليّة منازل مثل هذا البيت، وذلك في آخر الحدائق وخلف فيلّات مماثلة. ذلك أنّ الملّاك يؤجّرون في الصيف فيلّاتهم، ويقتصرون من أجل الربح على السكن في عدد قليلة من الغرف. فتح العميل الباب دون أن يطرقه وأطلّ قائلاً: «ها هو الدكتور كليريشي».

تقدّم مارتشيلّو فوجد نفسه في غرفة مؤثّثة بصورة جزئيّة لتكون مكتباً. كان الهواء مفعماً بالدخان، ويجلس إلى الطاولة رجل مضموم اليدين، ووجهه متّجه إليه. كان الرجل من رجال الألب، وكان في وجهه شفافيّة برّاقة كالمرمر الورديّ، وهو منقّط بشيء من النمش الأصفر. كانت عيناه بلون أزرق ساطع، يميل إلى الحمرة، مع رموش بيضاء، تشبه رموش بعض الوحوش التي تعيش بين ثلوج القطب. كان مارتشيلّو قد تعوّد على التناقض المثير للقلق بين الأسلوب البيروقراطيّ الباهت والواجبات الشرسة في كثير من الأحيان لدى العديد من زملائه في المخابرات، لذلك فإنّه لم يستطع إلا أن يقول في نفسه :إنّ هذا الشخص كان على الأقلّ في مكانه على أكمل وجه. كان هناك ما هو أكثر من القسوة في ذلك الوجه الشبيه بوجه الأشباح: ففيه نوع من الغضب الذي لا يرحم وإن كان موجوداً ضمن الصلابة التقليديّة المعروفة عن المواقف العسكريّة. بعد لحظة من السكون المحرج، نهض الرجل فجأة وأظهر قامته الصغيرة: «غابريو». ثم جلس على الفور واستمر بنبرة ساخرة:

«ها أنت أخيراً يا دكتور كليريشي».

كان صوته معدنيّاً مزعجاً. فجلس مارتشيلّو بدوره، ثمّ قال دون أن ينتظر أن يقدّمه أحد: «وصلت هذا الصباح».

«وفي الواقع، فقد كنّا ننتظرك هذا الصباح».

تردّد مارتشيلّو: هل عليه أن يخبره بشهر العسل؟ قرّر أن لا يفعل وأنهى حديثه بهدوء: «لم أستطع القدوم قبل ذلك».

قال الرجل بجفاء وهو يدفع بعلبة السجائر نحو مارتشيلّو: «هل تدخّن؟». ثمّ بدأ يقرأ ورأسه إلى الأسفل في ورقة موضوعة على الطاولة. «تركوني هنا، في هذا المنزل المضياف على الأرجح، لكنّه ليس سرّيّاً على الإطلاق، دون معلومات، دون توجيهات، ودون نقود تقريباً... هذا هو الأمر». قرأ المزيد للحظة طويلة ثمّ رفع وجهه، وأضاف: «قيل لك في روما أن تأتي لرؤيتي، أليس كذلك؟».

«أجل، لقد جاءني العميل الذي أدخلني إلى هنا وأخبرني أنّه عليّ أن أقطع رحلتي لأقدّم نفسي إليك».

نزع غابريو السيجارة من فمه ووضعها بحرص على طرف صحن السجائر، وقال: «هذا بالضبط ما حصل. يبدو أنّهم غيّروا رأيهم في آخر لحظة... فتغيّر البرنامج».

لم يرفّ لمارتشيلّو جفن، لكنّه لا يعرف من أين أتته تلك الموجة التي ضربته فشعر بالارتياح والأمل يملآن نفسه: فلربّما سُمح له بتجزئة الرحلة، وتقليصها إلى الأسباب الظاهرة: أي شهر العسل في باريس. ومع ذلك فقد قال بصوت واضح: «يعني؟».

فتابع غابريو حديثه قائلاً: «يعني أنّ الخطّة قد تعدّلت، ومن ثمّ فقد تعدّلت مهمّتك أيضاً. أي إنّه كان يجب مراقبة المسمّى كوادري، وكان عليك أن تقيم علاقة معه، وأن توحي له بالثقة، فيكلّفك ربّما ببعض المهام... لكنّ رسائل روما الأخيرة أشارت إلى أنّ كوادري شخص غير مريح ويجب أن يقضى عليه»، هنا استعاد غابريو السيجارة وعبّ منها نفساً قبل أن يعيدها إلى صحن السجائر. ثمّ شرح بلهجة استطراديّة: «أي إنّ مهمّتك أصبحت لا

شيء تقريباً... ستقتصر على الاتّصال بكوادري مستفيداً من معرفتك به، ثمّ تعرّف به عميلنا أورلاندو الذي سيذهب هو أيضاً إلى باريس... بوسعك مثلاً أن تدعوه إلى مكان عامّ يمكن أن يتواجد فيه أورلاندو أيضاً: مثل مقهى أو مطعم... يكفي أن يراه أورلاندو معك ويتأكّد من هويّته... هذا هو المطلوب منك... بعدها يمكن لك أن تكرّس نفسك لشهر العسل كما يحلو لك».

فكّر مارتشيلّو بدهشة: هذا يعني أنّ غابريو يعرف أيضاً بشهر العسل. لكنّه أدرك في الحال أنّ هذه الفكرة ليست إلّا قناعاً مزيّفاً يحاول فكره من خلالها أن يخفي اضطراباته عن نفسه. والحقيقة أنّ غابريو قد كشف له ما هو أهمّ من معرفته بشهر العسل: أي بقرار القضاء على كوادري. لذلك فقد بذل جهداً عنيفاً كي يتمكّن من تفحّص هذا الأمر المأساويّ والاستثنائيّ الجديد بموضوعيّة كاملة. فقام مباشرة بصياغة ملاحظة أساسية: إنّ التخلّص من كوادري لا يستدعي على الإطلاق وجوده ومجيئه إلى باريس، إذ يمكن للعميل أورلاندو أن يجد ضحيّته ويتعرّف عليها بمفرده. فرأى أنّهم يريدون له في الحقيقة أن يشارك في العمليّة بصورة فعليّة، ولو كانت غير ضروريّة، أي إقحامه بمشاركة كاملة ومرّة إلى الأبد. أمّا فيما يتعلّق بتغيير الخطّة، فلا شكّ أنّه تغيير ظاهريّ. فمن المؤكّد أنّ الخطّة التي عرضها غابريو للتوّ، كانت وقت زيارته للوزارة، قد صيغت بالفعل وتمّ تحديدها بكلّ تفاصيلها، وما التغيير الظاهر إلّا بسبب حرصهم المميّز على توزيع المسؤوليات وخلطها. ففي حال حدوث تطوّرات غير مناسبة، يمكن للوزارة أن تعلن براءتها من الأمر، لأنّه لا هو، ولا غابريو على الأرجح، قد تلقّيا أوامر مكتوبة. وبهذا لا يقع ذنب القتل إلّا على عاتقه وعاتق غابريو وأورلانـدو والمنفذّين الفعليّين الآخرين.

تردّد ثمّ اعترض لكسب الوقت وقال: «يبدو لي أنّه لا حاجة لأورلاندو بي كي يعثر على كوادري... أظنّ أنّ اسمه موجود حتّى في دليل الهاتف».

قال غابريو بجهوزيّة شبه متسرّعة، وكأنّه قد توقّع هذا الاعتراض: «هذه هي الأوامر».

حنى مارتشيلّو رأسه. كان يدرك أنّه قد استدرج إلى نوع من الفخّ، وأنّه،

بعد أن قدّم إصبعاً، أُخِذَت الآن منه بالحيلة ذراعه كلّها. لكنّ الغريب أنّه أدرك بعد أن تلاشى وقْع المفاجأة أنّه لا يشعر بأيّ اشمئزاز حقيقيّ بسبب تغيير الخطّة، ولم يشعر إلّا بالإصرار على استسلامه الكئيب، كما هو الأمر عند التصدّي لتنفيذ واجب يبقى ثابتاً ومؤكّداً، رغم أنّه غير مقبول ولا سارّ. لم يكن العميل أورلاندو يعرف على الأرجح الآليّة الداخليّة في هذا الواجب، أمّا هو فكان يعرف، لكنّ الفرق يكمن في هذه النقطة وحسب. إذ لا يمكن له ولا لأورلاندو أن يهربا ممّا أسماه غابريو أوامر والتي كانت في الواقع ظروفاً شخصيّة راسخة، ولا يمكن لأيّ منهما كليهما أن يجد خارجها سوى الفوضى والتعسّف. وهكذا فقد قال في نهاية أمر وهو يرفع رأسه: «حسناً إذاً... وأين أجد أورلاندو في باريس؟».

أجاب غابريو بعد أن ألقى نظرته المعتادة على قطعة الورق أمامه على الطاولة: «أخبرنا أنت بعنوانك... وسيبحث أورلاندو عنك فيه».

وهكذا فلم يتمكّن مارتشيلّو إلّا أن يفكّر أنّهم لا يثقون بي كلّ الثقة، أو أنّهم لا يعتبرون في أيّ حال أنّه من المناسب إعطائي عنوان العميل في باريس. أخبر غابريو باسم الفندق الذي ينوي النزول فيه، فكتبه غابريو في أسفل الورقة. ثمّ أضاف بلهجة أكثر وديّة كما لو أنّه يشير إلى أنّ القسم الرسميّ من هذه المقابلة قد انتهى: «هل زرت باريس في السابق؟».

«لا، إنّها المرّة الأولى».

فقال غابريو بلهجته البيروقراطيّة المريرة: «أمّا أنا فقد زرتها قبل سنتين من انتهاء أمري في هذا الجحر. بعد أن يذهب المرء إلى باريس تبدو له حتّى روما مجرّد ضاحية... فتصوّر مكاناً كهذا!». أشعل سيجارة بعقب السيجارة المنتهية وأضاف بتباه جافّ: «عشت في باريس حياة مخمليّة... شقّة، سيّارة، صداقات، علاقات نسائيّة... هل تعلم أنّ باريس هي المدينة المثلى من هذه الناحية». رأى مارتشيلّو أنّ عليه أن يجاري ودّ غابريو، ولو أنّه يكره ذلك، فقال: «ومع ذلك، فلا يمكن للمرء أن يشعر بالملل وهو قرب بيت مثل هذا!».

هزّ غابريو رأسه: «هه، كيف لك أن تستمتع بأجسادٍ تباع بالكيلو... لا» ثمّ أضاف: «هل تمزح؟... المورد الوحيد هنا هو الكازينوهات».

«لا، أبداً».

قال غابريو وهو ينسحب إلى الوراء على كرسيّه، وكأنّما ليشير إلى أنّ المقابلة قد انتهت. «رغم ذلك فالأمر مهمّ، الحظّ يمكن أن يبتسم لأيّ شخص، لي كما لك... وليس من قبيل الصدفة أنّه مؤنث[1]... المهمّ أن تمسك به في الوقت المناسب». نهض وذهب نحو الباب وفتحه. رأى مارتشيلّو أنّه صغير بالفعل، قصير الرجلين، جذعه صلب مسجون ضمن سترة خضراء بلون وتفصيل عسكريّين. وقف غابريو للحظة وهو ينظر إلى مارتشيلّو، تحت شعاع من أشعّة الشمس، زاد على ما يبدو من شفافيّة بشرته اللامعة والورديّة، ثمّ قال: «من المفترض أنّنا لن نرى بعضنا البعض مرّة أخرى... لأنّك ستعود بعد باريس مباشرة إلى روما».

«أجل، هذا مؤكّد تقريباً».

سأل غابريو على حين غرّة، وكأنّما عن سوء خاطر: «هل أنت بحاجة إلى أيّ شيء؟...».

«لا، شكراً، لست بحاجة لأي شيء».

«رافقتك السلامة إذاً، مع تمنّياتي بحظّ طيّب».

تصافحا وسرعان ما أغلق غابريو باب الكوخ. سار مارتشيلّو باتّجاه البوّابة.

ولكن ما أن وصل إلى شارع الشجيرات، حتّى أدرك أنّه نسي قبّعته بسبب هروبه بسرعة من الصالة العموميّة. فتردّد في العودة لأنّه سيشمئزّ من تلك الصالة التي تفوح منها روائح الأحذية والبودرة والعرق. ومن ناحية أخرى كان يخشى نكات النساء وتقريظاتهنّ. لكنّه ما لبث أن حسم أمره وعاد فدفع الباب فانطلق رنين الجرس المعتاد.

لم يظهر هذه المرّة أحد، لا الخادمة ذات الوجه النمسيّ ولا واحدة من بقيّة النساء. لكنّه سمع صوتاً قادماً عبر الباب المفتوح من الصالة العمومية، معروفاً بالفعل، ضخماً وطلقاً، صوت العميل أورلاندو، فتشجّع وأطلّ على العتبة.

1- كلمة الحظّ تعني بالإيطاليّة: «فورتونا» La fortuna)) وهي مؤنّث.

كانت الصالة فارغة. وكان العميل جالساً في زاوية الباب بجوار امرأة لا يذكر مارتشيلّو أنّه رآها بين أولئك اللاتي أتين عند مجيئه أوّل مرّة. كان العميل يحيط خصرها بذراعه بحركة ودٍّ مضحكة، ولم يزعج نفسه بتسوية جلسته عندما رأى مارتشيلّو. فشعر هذا بنوع من الحرج وبشيء من الغضب الغامض، وأبعد عينيه عن أورلاندو وحوّلهما نحو المرأة.

كانت تجلس متيبّسة، كما لو أنّها تريد أن تصدّ بطريقة ما رفيقها أو أن تدفعه عنها على الأقلّ. فتاة سمراء، جبهتها بيضاء عالية، وعيناها صافيتان، وجهها طويل نحيف، وفمها كبير ينعشه أحمر شفاه غامق اللون، ويعلوه تعبير أقرب إلى الازدراء. كانت ترتدي ملابس عادية تقريباً: فستاناً قصيراً من الحرير الأبيض يكشف عن نحرها وذراعيها. والإغراء الوحيد فيه أنّ تنّورته مفتوحة في أسفل الخصر مباشرة، وتكشف عن البطن وساقين متعامدتين، طويلتين ونحيفتين وأنيقتين تنمّان عن جمال رقّاصة بريء. كانت تضغط على سيجارة مشتعلة بين إصبعيها، لكنّها لم تكن تدخّن: بل وضعت يدها على ذراع الأريكة، بينما كان الدخان يرتفع في الهواء. أمّا يدها الثانية فقد أرختها على ركبة العميل، كما توضع اليد على رأس كلب وفيّ ضخم، حسب ما تخيّل مارتشيلّو. لكن أكثر ما صدمه هو جبهتها، فهي ليست بيضاء بقدر ما كانت ساطعة بشكل غامض بسبب تعابير عينيها القويّة: وقد جعله نقاء ضوئها يفكّر ببعض التيجان الماسيّة التي كانت النساء يضعنها ذات مرّة على رؤوسهنّ خلال الحفلات الراقصة. بقي مارتشيلّو ينظر إليها بدهشة ولفترة طويلة، لكنّه لم يعرف وهو ينظر كنه شعوره المؤلم الممزوج بالأسف والازدراء. خاف أورلاندو من إلحاح النظرات التي رآها في هذه الأثناء، فلم يجد بدّاً من النهوض.

قال مارتشيلّو: «قبّعتي». بقيت المرأة جالسة وأخذت تنظر إليه بدورها، لكن دون أيّ فضول. بينما أسرع العميل وعبر الصالة ليتناول القبّعة من على أريكة بعيدة. عندها فهم مارتشيلّو فجأة لماذا ألهمته رؤية المرأة ذلك الشعور المؤلم من الأسف. فقد لاحظ أنّها لا ترغب في الواقع بإرضاء رغبات العميل، وقد آلمه أن يجدها خاضعة لعناقه ورأى في ذلك تدنيساً لا يحتمل. ومن المؤكّد أنّها لم تكن تعرف شيئاً عن الضوء الذي كان يشعّ من جبهتها

والذي لا ينتمي إليها بشكل من الأشكال، كما لا ينتمي الجمال بصورة عامّة لمن هو جميل. ومع ذلك، فقد بدا له أنّ واجبه يقضي منه تقريباً أن يمنعها من أن تحني تلك الجبهة المضيئة لترضي نزوات أورلاندو الجنسيّة. بل إنه فكّر للحظة باستخدام سلطته كي يخرجها من الصالة: لا بدّ أنّهم سيثرثرون لبعض الوقت، لكنّه سيخرج بعد ذلك وبمجرّد أن يتأكّد أنّ العميل قد اختار امرأة أخرى. في موازاة هذه الأفكار، راودته فكرة جنونيّة تدعوه لإخراجها من بيت الدعارة عسى أن تبدأ نوعاً آخر من الحياة. لكنّه ما لبث أن أدرك أنّ هذا من ضرب الخيال: فهي لا يمكن إلّا أن تكون شبيهة بزميلاتها، وهي مثلهنّ قد ضاعت وكادت أن تفسد من غير أن تدرك ذلك، وبطريقة لا رجعة عنها. شعر بعد ذلك بمن يلمس ذراعه: كان ذلك أورلاندو وهو يمدّ يده بالقبّعة. فتناولها بطريقة آليّة.

وجد العميل الوقت ليفكّر بنظرات مارتشيلّو الغريبة تلك. فتقدّم بخطوة وأشار إلى المرأة كما يشار بالطعام أو الشراب إلى ضيف معتبر، واقترح عليه: «إذا أردت أيّها الدكتور، إذا كانت هذه تعجبك... فأنا أستطيع أن أنتظر».

لم يفهم مارتشيلّو في بداية الأمر. لكنّه عندما رأى ابتسامة أورلاندو المليئة باحترام ممزوج بالخبث، شعر أنّ أذنيه قد احمرّتا من الخجل. هذا يعني أنّ أورلاندو لم يتخلّ عن شيء، بل تكيّف فقط، وأراد أن يتركه يمرّ قبله، وذلك من باب مجاملة الصديق وانضباط المرؤوس: كما يجري بالضبط على طاولة البار أو على طاولة البوفيه. قال مارتشيلّو بسرعة: «لكنّك مجنون يا أورلاندو... افعل ما تراه مناسباً لك، فأنا يجب أن أنصرف».

قال العميل مبتسماً: «في هذه الحال يا دكتور». ثمّ رأى مارتشيلّو أنّه قام بالإشارة للمرأة، ثمّ رأى بألم أنّ المرأة قد نهضت على الفور عند تلك الإشارة، وجاءت مطيعة بطولها واستقامة قامتها، وبإكليل الضوء على جبهتها، دونما تردّد أو احتجاج، لتلبّي ببساطة مهنيّة دعوة العميل. تنحّى هذا جانباً ليفسح الطريق للمرأة وقال لمارتشيلّو: «سنلتقي عن قريب أيّها الدكتور». انسحب مارتشيلّو أيضاً بالرغم عنه تقريباً. فتقدّمت هي بين الاثنين، دونما سرعة، والسيجارة بين إصبعيها. لكن ما إن أصبحت قرب مارتشيلّو حتّى وقفت للحظة وقالت: «إذا أردتني فاسمي هو لويزا». وكما

كان يخشى فإنّ صوتها كان أجشّ ضخماً وخالياً من أيّ لطف. رأت لويزا أنّ عليها أن تضيف لتلك الكلمات حركة إغراء معيّنة، فأخرجت لسانها ولعقت شفتها العليا. فرأى مارتشيلّو أنّ كلماتها وحركتها قد أعفوه جزئيّاً من الندم على عدم حيلولته بينها وبين الذهاب مع أورلاندو. في هذه الأثناء، وصلت المرأة إلى الدرج، وهي لا تزال تتقدّم العميل. ألقت السيجارة المشتعلة على الأرض، وسحقتها بقدمها وهي ترفع تنّورتها بكلتا يديها لتسرع في الصعود. بينما كان أورلاندو يصعد على درجة خلفها . وفي النهاية اختفيا على عتبة الدرج. بينما كان هناك من يهبط على الدرج ويثرثر، على الأرجح فتاة أخرى مع زبونها. خرج مارتشيلّو بسرعة من البيت.

-III-

بعد أن كلّف بوّاب الفندق بالاتّصال برقم كوادري، ذهب مارتشيلّو للجلوس في إحدى زوايا القاعة. كان فندقاً كبيراً، وكان فناء المدخل كبيراً جدّاً أيضاً، فيه أعمدة تدعم الأقواس ومجموعات من الأرائك وفترينات عرضت فيها مصنوعات يدويّة فاخرة ومكاتب وطاولات، وكان هناك كثير من الناس يتنقّلون بين المدخل وقفص المصعد، ومن مكان البوّاب إلى مكتب الإدارة، ومن باب المطعم إلى الصالات المفتوحة خلف الأعمدة. كان مارتشيلّو يرغب في قضاء وقت الانتظار بالتفرّج على هذا الفناء المرح والمزدحم، لكن، وكما لو أنّ أحزانه الحاليّة جرفته إلى أعماق ذاكرته، فإنّ أفكاره تحوّلت على الرغم منه تقريباً، إلى الزيارة الأولى والوحيدة التي قام بها إلى كوادري قبل سنوات عديدة. كان مارتشيلّو في ذلك الوقت طالباً وكان كوادري أستاذه: وقد ذهب إلى منزل كوادري، وهو مبنى أحمر قديم بالقرب من المحطّة، لأخذ مشورته بشأن أطروحة تخرّجه. وقد صدم مارتشيلّو وقتها وبمجرّد دخوله، بالكميّة الهائلة من الكتب المتراكمة في كلّ ركن من أركان الشقّة. كما كان قد لاحظ أيضاً في غرفة الانتظار ستائر قديمة بدت وكأنّها تخفي أبواباً خلفها، لكنّه اكتشف عندما أزاحها صفوفاً وصفوفاً من الكتب الموضوعة داخل تجاويف في الجدران. كانت الخادمة قد سبقته عبر ممرّ طويل ومتعرّج بدا وكأنّه يدور حول فناء البناء، وكان الممرّ، على كلا الجانبين، مرصوفاً أيضاً بأرفف مليئة بالكتب والأوراق. أخيراً، بعد أن دخل مارتشيلّو إلى مكتب كوادري، وجد نفسه بين أربعة جدران، مليئة هي أيضاً بالكتب من الأرض إلى السقف. وكان هناك كتب أخرى موضوعة على الطاولة فوق بعضها البعض ومنظّمة على صفّين بينهما شقّ أطلّ منه وجه

البروفيسور الملتحي. لاحظ مارتشيلّو حينها وفي الحال أنّ وجه كوادري مسطّح بشكل غريب وغير متماثل، شبيه بقناع من الكرتون فيه عينان محاطتان بالأحمر وأنف مثلّث لصق بأسفله بطريقة تقريبيّة شاربان ولحية اصطناعيّة. كذلك كان الأمر بالنسبة إلى جبهته، إذ بدا أنّ شعره شديد السواد، وكأنّه مبلّل، يوحي بأنّه ليس إلّا باروكة لم توضع بطريقة صحيحة. أمّا بين شاربيه الشبيهين بالفرشاة ولحيته الشبيهة بالمكنسة، وكلاهما بلون أسود مشكوك في أمر سواده، فقد ظهر فمٌ شديد الاحمرار له شفتان لا شكل محدّد لهما. ولم يكن بوسع مارتشيلّو وقتها إلّا أن يفكّر أنّ سوء توزّع الشعر ناتج حتماً عن عدم وجود ذقن أو بسبب ندبة مرعبة. أي إنّ وجهه كان باختصار وجهاً لا يوجد فيه أيّ شيء طبيعيّ أكيد، وجه زائف، بل قناع بالكامل. عندما وقف البروفيسور ليستقبل مارتشيلّو، كشف بهذه الحركة قامته القصيرة وحدبته، أو بالأحرى التشوّه في كتفه اليسرى، ممّا يضيف لمسة مؤلمة إلى طريقة استقباله التي بدت مليئة بالحفاوة واللطف. عندما شدّ على يديه مصافحاً من خلال الكتب، نظر كوادري الذي يعاني من قصر النظر إلى ضيفه من وراء عدستي نظّارته، وهكذا فقد شعر مارتشيلّو للحظة أنّه لا يُرى من خلال عينين فقط، بل أربع عيون. لاحظ أيضاً الطراز القديم لثياب كوادري: من سترته الرسميّة، السوداء، المكفوفة بقطع قماش من حرير، وبنطال بخطوط سوداء أيضاً، وقميص أبيض، ياقتُه وكمّاه منشّاة، وهناك سلسلة ذهبيّة على صدّارته. لم يكن مارتشيلّو يستلطف كوادري بأيّ شكل: وكان يعرف منذ ذلك الوقت أنّه معاد للفاشيّة، وكان يرى أنّ عداء كوادري للفاشيّة، ومظهره الضعيف المريض المتّسخ، وثقافته وكتبه، وباختصار كلّ شيء فيه، يساهم على ما بدا له في تشكيل الصورة التقليديّة التي تستعملها الدعاية الحزبيّة لتثير الازدراء بحقّ المفكّر السلبيّ العاجز. من ناحية أخرى، أثارت في ذلك الحين اشمئزاز مارتشيلّو تلك الحفاوة الاستثنائيّة التي أظهرها كوادري، لأنّه رأى فيها دليلاً على زيفه. وبدا له أنّه من المستحيل أن يكون الرجل لطيفاً إلى هذه الدرجة من غير أن يكون كاذباً ولا يكنّ دوافع خفيّة في نفسه.

رحّب كوادري بمارتشيلّو بالتعابير المعتادة من الودّ الزائد. وكان غالباً ما يضمّنها كلمات مثل: «ابني العزيز» ، «ابني»، «أيّها الابن العزيز» ذلك

وهو يلوّح بيده البيضاء الصغيرة بين الكتب، كما طرح عليه الكثير من الأسئلة أوّلاً حول عائلته ثمّ عنه شخصيّاً. وعندما سمع بخبر وجود أبي مارتشيلّو في مصحّ للأمراض العقليّة، هتف قائلاً: «أوه، يا بنيّ المسكين، لم أكن أعرف ذلك، يا لها من مصيبة، يا لها من مصيبة مروّعة. أوَ لا يستطيع العلم فعل أيّ شيء لإعادته إلى عقله؟» لكنّه لم يستمع إلى إجابة مارتشيلّو بل انتقل على الفور إلى موضوع آخر. كان صوته يصدر عن الحنجرة، موزوناً ومتناغماً ولطيفاً جدّاً ومليئاً بالتعاطف والحرص. غير أنّ الغريب، مع ذلك، أنّ مارتشيلّو خمّن وقتها وجود نوع من اللامبالاة الكاملة وراء هذا الاهتمام والحرص المعلن: فكوادري الذي كان يهتمّ به بالفعل، لم يكن على الأرجح يراه حتّى. كما صدم مارتشيلّو أيضاً بعدم وجود تفاصيل ولا تقلّبات في نبرة كلام كوادري. كان يتكلّم دائماً بنبرة الحنان العاطفيّة المتساوية نفسها، سواء كان يتحدّث عن أشياء تتطلّب هذه النبرة أو عن أشياء أخرى لا تتطلّبها البتّة. في النهاية استفسر كوادري، بعد أسئلة كثيرة طرحها، عمّا إذا كان مارتشيلّو فاشيّاً. وبعد أن تلقّى منه إجابة إيجابيّة، أوضح له دون تغيير في اللهجة أو إظهار أيّ ردّ فعل، بل بطريقة شبه عابرة، كم كان صعباً عليه، هو الذي يكنّ مشاعر معادية للفاشيّة معروفة لدى الجميع، أن يواصل تدريس موادّ مثل الفلسفة والتاريخ في نظام مثل النظام الفاشيّ... هنا حاول مارتشيلّو أن يشرح، وهو يشعر بالحرج، سبب زيارته. لكنّ كوادري قاطعه في الحال: «ربّما تساءلت لماذا أقول لك كلّ هذه الأمور... إنّي لا أقولها لك يا بنيّ العزيز تكاسلاً ولا لأبوح بأمور شخصيّة... فأنا لا أسمح لنفسي بإضاعة وقت عليك أن تخصّصه للدراسة... أقول لك هذا لأبرّر أمامك بطريقة ما كون أنّي لن أتمكّن من الانشغال بك ولا بأطروحتك: لأنّي سأعتزل التدريس».

فكرّر مارتشيلّو متفاجئاً: «أنت ستعتزل التدريس».

فأكّد كوادري ذلك، وهو يفرك يده فوق فمه وشاربه بحركة معتادة. «أجل، ولو كان ذلك بألم شديد، بألم حقيقيّ لأنّني كرّست حتّى اليوم كلّ حياتي لكم، لكنّني أجد نفسي الآن مجبراً على ترك المدرسة». بعد لحظة، وبدون تشديد، بل بتنهّد، أضاف البروفسور: «أجل، لقد قرّرت الانتقال من

الفكر إلى العمل... ربما لا تبدو هذه العبارة جديدة عليك، لكنّها تعكس وضعي بأمانة».

هناك، وبعد ذلك، كاد مارتشيلّو أن يبتسم. لأنّ هذا البروفيسور كوادري بدا له في الواقع مضحكاً، فهذا الرجل الصغير بالبزّة الرسميّة، الأحدب، حسير النظر، الملتحي، الجالس على كرسيّ بين أكوام كتبه، ها هو يعلن أمامه أنّه قرّر الانتقال من الفكر إلى العمل. ومع ذلك، لم يكن هناك أيّ شكّ في معنى العبارة: فكوادري، الذي كان خصماً سلبياً لسنوات عديدة، منغلقاً داخل أفكاره وفي مهنته، قرّر أخيراً التحوّل إلى السياسة النشطة، ولربّما رمى نفسه في أتون التآمر. اعترت مارتشيلّو نوبة مفاجئة من الكراهيّة، فلم يستطع إلّا أن يحذّره، ببرودة مليئة بالتهديد: «لقد أسأت بإخباري بهذا الأمر... فأنا فاشيّ ويمكن لي حتّى أن أشي بك».

لكنّ كوادري أجابه بلطف شديد وانتقل من مخاطبته بلهجة الاحترام إلى لهجة الودّ[1]: «أعرف أنّك طيّب يا بنيّ العزيز، شريف وفتى صالح وأعرف أنّك لن تقوم أبداً بفعل من هذا النوع».

فكّر مارتشيلّو بريبة: «فليأخذه الشيطان». ثمّ أجاب بصراحة: «يمكن لي أن أفعل... لأنّ الشرف بالنسبة إلينا نحن الفاشيّين يكمن في الوشاية بالذات من أجل تحييد أشخاص مثلك ومنعهم من إلحاق الأذى».

هزّ البروفيسور رأسه: «أنت تعرف وأنت تتكلّم أنّ ما تقوله غير صحيح... أنت تعرف ذلك، أو الأصحّ أنّ قلبك يعرف ذلك... وفي الواقع فبما أنّك فتى شريف فقد حاولت أن تحذرني... بينما هل تعرف ماذا يمكن أن يفعل غيرك، الجاسوس الحقيقيّ؟ سيتظاهر بمجاراتي ثمّ يشي بي عندما أنطق بتصريح مسيء بالفعل... أمّا أنت فقد حذّرتني». وقد أجاب مارتشيلّو بحدّة: «حذّرتك لأنّي أظنّ أنّك غير قادر على أن تفعل ما سمّيته عملاً... فلماذا لا تكتفي بمهنة البروفيسور؟ ... عن أيّ عمل تتحدّث؟».

وقد أجاب كوادري حينها وهو يحدّق فيه: «العمل... لا يهمّ أن يقال ما هو». عند هذه الكلمات، لم يستطع مارتشيلّو إلّا أن يرفع عينيه إلى الجدران

1- أنتم: لهجة الاحترام. أنت: لهجة الودّ (م).

وما عليها من رفوف مليئة بالكتب. كشف كوادري بلمحة تلك النظرة، فأضاف بلطفه الشديد المعهود: «هل يبدو غريباً بالنسبة إليك أن أتحدّث عن العمل؟... وأنا بين كلّ هذه الكتب؟... إنّك تفكّر في هذه اللحظة: «ولكن ما هو العمل الذي يثرثر عنه هذا الرجل الصغير الملتحي الأحدب، المنحني، حسير النظر؟ قل الحقيقة، هل كنت تفكّر بهذا... كثيراً ما وصفت لك مجلّات حزبك الرجل الذي لا يعرف ولا يستطيع أن يعمل، المثقّف، ثمّ ها أنت تبتسم بحنان، عندما تراني بتلك الصورة... أليس كذلك؟».

شعر مارتشيلّو بدهشة شديدة من هذا الحدس الثاقب فهتف: «كيف كان لك أن تعرف هذا؟».

أجاب كوادري وهو ينهض على قدميه: «أوه، يا بنيّ العزيز، لقد فهمت ذلك على الفور يا بنيّ العزيز... لكنّ العمل لا يتطلّب أن تضع النسر الذهبيّ على قبّعتك والشارات على أكمامك... وداعاً، على أيّ حال، وداعاً، وداعاً، وأتمنّى لك التوفيق... وداعاً». قال هذا بلطف وبلا تردّد، وهو يدفع مارتشيلّو نحو الباب.

أدرك الآن مارتشيلّو وهو يعيد التفكير بذلك اللقاء، أنّ ازدراءه المتهوّر لكوادري الأحدب والملتحي والمتحذلق، كان يتضمّن الكثير من نفاد صبر الشباب وقلّة تجربتهم. ومن جهة أخرى فقد تمكّن كوادري بالذات أن يبرهن له على خطئه: فبعد أن هرب إلى باريس بعد أشهر قليلة من لقائهما، أصبح هناك، وبسرعة فائقة، واحداً من الزعماء المناهضين للفاشيّة، وربّما كان أقدرهم وأكثرهم استعداداً وأشدّهم عنفاً. وعلى ما يـ[illegible] فإنّه تخصّص بالعمل الرسوليّ، أي إنّه بعد أن استعمل تجربته التعليميّة ومعرفته بعقليّة الشباب، كان يتمكّن في أحيان كثيرة من استقطاب شباب كانوا غير مبالين أو حتّى بمشاعر معادية ودفعهم بعد ذلك إلى تنفيذ أعمال جريئة وخطيرة وكارثيّة بالفعل، إن لم يكن بالنسبة إليه الذي كان مصدر إلهامهم، فبالنسبة إليهم هم الذين كانوا ينفّذون من الناحية العملية. ومع ذلك، فإنّه لم يكن يبدو أنّه يشعر، وهو يلقي بأتباعه هؤلاء في أتون الصراع، بأيّ من الاهتمامات الإنسانية التي يمكن للمرء أن ينسبها إليه، بسبب شخصيّته. ولقد ضحّى بهم في الواقع بسهولة عندما رماهم إلى أعمال يائسة لا يمكن تبريرها إلّا ضمن

خطط طويلة المدى، تتضمّن بحكم الضرورة نوعاً من اللامبالاة القاسية بحياة الإنسان. أي إنّ كوادري كان يتمتّع باختصار بنوعيّة رجال السياسة الحقيقيّين، أو طبقة معيّنة منهم: فهو كان داهية وفي الوقت نفسه متحمّساً، وكان مفكّراً وفي الوقت نفسه ناشطاً، وكان بريئاً صريحاً وفي الوقت نفسه خبيثاً، وكان يتوخّى الحذر وفي الوقت نفسه متهوّراً. وقد اهتمّ مارتشيلّو، بحكم وظيفته، في كثير من الأحيان بكوادري، الذي وصفته تقارير الشرطة بأنّه عنصر خطير للغاية، وكان يشعر دائماً بالدهشة من قدرة الرجل على الجمع بين العديد من الصفات المتناقضة في صفة واحدة عميقة وغامضة. لذلك، ومن خلال ما تمكّن من معرفته على بعد، ومن خلال المعلومات التي كانت تصله، وإن لم تكن دقيقة على الدوام، فإنّه قام شيئاً فشيئاً بالعدول عن ازدرائه الأوّل ليحوّله إلى نوع من الاعتبار المرتاب. ومع ذلك، فقد بقيت في نفسه الكراهيّة الأصليّة، لأنه كان على قناعة بأنّ كوادري يفتقر، رغم الكثير من صفاته الإيجابيّة، إلى الشجاعة، وهذا ما بدا له واضحاً من كونه يدفع أتباعه إلى الخطر المميت، دون أن يعرّض بنفسه لذلك الخطر.

ارتعب وهو يلوك هذه الأفكار عندما تفاجأ بصوت خادم الفندق الذي كان يسير بسرعة في الصالة وهو يصرخ باسمه بصوت مرتفع. لكنّه كاد يظنّ للحظة، أنّه يصرخ باسم شخص آخر، خاصّة وأنّ الخادم كان يتكلّم بالفرنسيّة. لكنّ «مسيو كلاريتشي» هذا كان هو. على الرغم من ذلك، فقد تظاهر أمام نفسه أنّه شخص آخر بالفعل، وحاول بنوع من الغثيان أن يتخيّل كيف يمكن أن يكون ذلك الشخص: هو، بوجهه، وشخصه، وملابسه. في هذه الأثناء ذهب الخادم بعيداً باتّجاه غرفة الكتابة، وبقي ينادي عليه. فنهض مارتشيلّو وتوجّه مباشرة إلى كابين الهاتف.

تناول السمّاعة الموضوعة على سطح الطاولة ورفعها إلى أذنه. سأله صوت نسائي صاف يكاد أن يكون غنائياً، بالفرنسيّة، من هو على الهاتف. أجاب مارتشيلّو باللغة نفسها: «أنا إيطاليّ... كليريشي، مارتشيلّو كليريشي... أرغب في التكلّم مع البروفيسور كوادري».

«إنّه مشغول جدّاً... لا أعرف إذا كان يستطيع المجيء... قلت إنّك تدعى كليريشي؟»

«أجل، كليريشي».

«انتظر لحظة».

سمع صوت السمّاعة وهي توضع على طاولة، ثمّ صوت خطى تبتعد وفي النهاية صمت مطبق. انتظر مارتشيلّو طويلاً وتوقّع صوت خطى أخرى تنبئ عن عودة المرأة أو وصول البروفيسور. لكنّ صوت كوادري رنّ فجأة، وصدر دون مقدّمات عن ذلك الصمت العميق: «آلو، كوادري... من المتكلّم؟».

شرح مارتشيلّو بسرعة: «اسمي مارتشيلّو كليريشي... كنت طالباً عندك، عندما كنت تدرّس في روما... أرغب في رؤيتك».

كرّر كوادري الاسم بشكّ: «كوادري»، ثمّ قال بحسم بعد لحظة: «كليريشي، لا أعرفه».

فأصرّ مارتشيلّو: «بلى، أيّها البروفيسور. جئت لأزورك قبل أن تعتزل التدريس بأيّام... كنت أريد أن أقدّم لك موضوع أطروحتي».

قال كوادري: «دقيقة، كليريشي، لا أذكر البتة هذا الاسم... لكنّ هذا لا يمنع أنّك على حقّ... وهل تريد أن تراني؟».

«لماذا؟».

أجاب مارتشيلّو: «بلا أيّ سبب، بما أنّي كنت طالباً عندك، ثمّ سمعت في الآونة الأخيرة أنّهم يتكلّمون كثيراً عنك... فأردت أن أراك، هذا كلّ شيء».

قال كوادري بلهجة الاستسلام: «حسناً، تعال لنلتقي في بيتي».

«متى؟».

«اليوم بالذات... بعد الظهيرة... بعد الغداء، تعال لنتناول القهوة... في حوالي الثالثة».

قال مارتشيلّو: «عليّ أن أقول إنّي في رحلة شهر عسل... هل يمكن أن أصطحب زوجتي معي؟».

«هذا مفهوم... بالطبع... إلى ذلك الحين».

تمّ إغلاق الهاتف، فوضع مارتشيلّو أيضاً السمّاعة بعد لحظة من التفكير. لكنّه لم يكد يخرج من الكابين حتّى جاء ذلك الخادم نفسه الذي نادى باسمه قبل بقليل في القاعة، وقال له: «إنّهم يريدونك على الهاتف».

قال مارتشيلّو وهو يحاول الخروج: «لكنّي تكلّمت بالفعل».
«لا، هناك شخص آخر قد طلبك».
عاد إلى الكابين بطريقة آليّة ورفع السمّاعة من جديد. فصرخ مباشرة في أذنه صوت ضخم لطيف وترحيبيّ: «هل أنت الدكتور كليريشي؟»
عرف مارتشيلّو صوت العميل أورلاندو فأجاب بهدوء: «نعم، هذا أنا».
«هل كانت رحلتك جيّدة يا دكتور؟».
«أجل، رائعة».
«هل السيّدة على ما يرام؟».
«في أحسن حال».
«وما رأيك بباريس؟».
فأجاب مارتشيلّو وقد نفد صبره من تلك المودّة الزائدة: «لم أخرج بعد من الفندق».
«اعلَم... باريس تبقى باريس... إذاً هل نلتقي أيّها الدكتور؟».
«بكلّ تأكيد يا أورلاندو... أخبرني فقط عن المكان».
«أنت لا تعرف باريس أيّها الدكتور، سأعطيك موعداً في مكان من السهل أن تجده... المقهى التي في زاوية ساحة مادّالينا... لن تخطئها، على اليسار وأنت قادم من رو رويال... سترى الطاولات خارج المقهى... لكنّي سأنتظرك في الداخل... لا يوجد أحد في الداخل».
«حسناً، في أيّ ساعة؟».
«أنا موجود في المقهى... لكنّي أستطيع الانتظار كما تريد...»، «بعد نصف ساعة».
«هذا رائع أيّها الدكتور... بعد نصف ساعة».
خرج مارتشيلّو من الكابين وتوجّه نحو المصعد. سمع وهو يدخل إلى المصعد صوت الخادم نفسه وهو ينادي على اسمه بصوت مرتفع للمرّة الثالثة، فشعر هذه المرّة بدهشة حقيقيّة. وعادة ما يشبه الأمل في حدوث تدخّل خارق، كأن يسمع، وهو يرفع قرن الأبنوس أي سمّاعة الهاتف، صوت عرّاف يقول له كلمة حاسمة عن حياته. وهكذا عاد أدراجه بقلب معلّق، ودخل إلى الكابين للمرّة الثالثة.

«هل هذا أنت يا مارتشيلّو؟». وهكذا سمع صوت زوجته الخافت يداعب أذنه.

فلم يستطع إلّا أن يهتف، ولم يعرف فيما إذا كان بخيبة أمل أو بارتياح: «آه، هذه أنتِ».

«أجل، أنا طبعاً... من ظننت إذاً أنّي قد أكون؟».

«لا شيء... لكن بما أنّي كنت أنتظر مكالمة...».

«ماذا تفعل؟» سألته بنبرة حنان حزين.

«لا شيء، كنت في طريقي للصعود إليك لأقول لك إنّي سأخرج وأعود بعد ساعة».

«لا، لا تصعد... سأدخل إلى الحمّام... حسناً، سأنتظرك إذاً بعد ساعة في بهو الفندق».

«ساعة ونصف أفضل».

«ساعة ونصف لابأس، لكن لا تتأخّر، أرجوك».

«قلت هذا كي لا أجعلك تنتظرين... لكن سترين أنّي سأعود في غضون ساعة».

فقالت على عجل، كما لو أنّها تخشى أن يفارقها مارتشيلّو: «هل تحبّني؟».

«بالطبع، لماذا هذا السؤال؟».

«هكذا... هل كنت ستعطيني قبلة لو كنت الآن قربي؟».

«بالتأكيد... هل تريدين أن أصعد؟».

«لا، لا، لا تصعد... وأخبرني...».

«ماذا؟».

«أخبرني، هل أعجبتك هذه الليلة؟».

فقال بنوع من الخجل: «ما هذه الأسئلة يا جوليا». فأضافت في الحال: «المعذرة... لا أعرف حتّى أنا ماذا أقول... إذاً هل تحبّني؟».

«سبق وأن قلت لك نعم».

«المعذرة... تفاهمنا إذاً، سأنتظرك بعد ساعة ونصف... إلى اللقاء، حبيبي».

أعاد السمّاعة إلى مكانها وفكّر أنّه لا يمكن له أن يتلقّى الآن مزيداً من المكالمات. توجّه نحو الباب ودفعه وخرج إلى الشارع.

كان الفندق يطلّ على الشارع الموازي لنهر السين. عندما وقف على العتبة بقي ثابتاً للحظة، وقد تفاجأ بمشهد المدينة الطلق وباليوم الصافي. على مدّ النظر، وعلى طول سور النهر، كانت ترتفع من الأرصفة أشجار مورقة كبيرة، محمّلة بأوراق ربيعيّة برّاقة. كانت أشجار لا يعرفها، ربّما كانت من أصناف الكستناء. كانت شمس النهار الجميل تسطع فوق كلّ ورقة وتلونّها بلون أخضر فاتح مضيء ومبتسم. كانت رفوف البائعين المصطفّة على سور النهر مليئة بصفوف الكتب المستعملة وأكوام الصور المطبوعة، وكان الناس يسيرون على غير عجلة من أمرهم على طول تلك الرفوف، تحت الأشجار، وسط خلفة الشمس والظلال المرحة، وفي إغراءات أجواء التنزّه التي تسود خلال أيّام العطلة الهادئة. عبر مارتشيلّو الشارع وذهب لينظر على السور بين رفّ وآخر. كانت ترى وراء النهر المباني الرمادية ذات الأسقف المنحدرة المنتشرة على الضفّة الأخرى. وظهر على مسافة أبعد برجا نوتردام، ثمّ وراءهما أبراج كنائس أخرى، وظلال أبنية سكنيّة وأسقف ومداخن. لاحظ أنّ السماء كانت شاحبة وأشدّ اتّساعاً منها في إيطاليا، كما لو أنّها تعكس وجوداً خفيّاً ومزدحماً لتلك المدينة الشاسعة الممتدّة تحت قبّتها. خفض بصره ناحية النهر المحصور بين أسوار الحجارة المتعامدة، والمحاط بمقاعد نظيفة، فبدا له النهر في ذلك المقطع كأنّه مجرّد قناة صغيرة. خاصّة وأنّ المياه الدهنيّة والغنيّة، كانت بلون أخضر داكن، وهي تحاصر بدوّاماتها المتلألئة أعمدة الجسر القريب البيضاء. كان هناك زورق بلون أسود وأصفر يمخر تلك المياه الكثيفة من غير أن يثير رغوة، وكانت مدخنته تطلق دفقات دخان عنيفة، كما يرى فوقه رجلان يتحدثان في المقدّمة، يرتدي أحدهما قميصاً أزرق ويرتدي الآخر قميصاً داخليّاً أبيض. حطّ طائر سمين مألوف على السور قرب ذراعه، وغرّد بحيويّة كما لو أنّه يريد إخباره بشيء ما، ثمّ طار باتّجاه الجسر. لفت انتباهه شابّ نحيف، ربّما

كان طالباً، بثياب مهلهلة، يضع قبّعة على رأسه ويتأبّط كتاباً تحت ذراعه: كان يسير في اتّجاه نوتردام، دون عجلة، وكان يتوقّف أحياناً لينظر إلى الكتب وصور المطبوعات. راقبه، فصدمته جهوزيّته، ورأى أنّ بوسعه أن يكون ذلك الشابّ بالذات، رغم كلّ الالتزامات التي تثقل كاهله، عندها سيكون للنهر والسماء والسين والأشجار وكلّ باريس معاني أخرى بالنسبة إليه. رأى في تلك اللحظة نفسها سيّارة أجرة تسير ببطء على الإسفلت فأوقفها بإيماءة كادت أن تثير دهشته: لأنّه لم يفكّر في الأمر من قبل. صعد وأعطاه عنوان المقهى حيث كان ينتظره أورلاندو.

ارتمى على المقعد وأخذ ينظر إلى شوارع باريس بينما كانت التاكسي تسير. لاحظ مرح المدينة الرماديّة القديمة، لكن المبتسمة الجميلة رغم ذلك، كانت ممتلئة بحلاوة زكيّة بدا أنّها تهبّ من النوافذ مع النسيم الذي يثيره جري السيّارة. أعجبه رجال الشرطة المنتصبين على المفارق، ولم يعرف هو نفسه سبب ذلك، ربّما بسبب ما بدا له من أناقتهم بقبّعاتهم القاسية المستديرة ومعاطفهم القصيرة وأرجلهم الدقيقة. أطلّ أحدهم على النافذة وقال شيئاً ما للسائق، وكان أشقر مليئاً بالحيويّة وشاحب اللون، بتلك الصفّارة التي يقبض عليها بأسنانه، وكانت ذراعه مسلّحة بعصا بيضاء ممدودة خلفه لإيقاف حركة السير. أعجبته أشجار الكستناء الكبيرة التي كانت تضرب بأغصانها الزجاج البرّاق على الواجهات الرماديّة القديمة، أعجبته لافتات المحلّات، القديمة الطراز، والمكتوبة بأحرف بيضاء مليئة بالزخارف على خلفيّات بنيّة أو خمريّة، بل أعجبته حتّى الأشكال القبيحة لسيّارات الأجرة والحافلات بأغطية محرّكاتها الشبيهة بوجوه الكلاب عندما تخفض رؤوسها لتشمّ الأرض. مرّت سيّارة الأجرة، بعد توقف قصير، أمام مجلس النواب، بناء كالمعبد بطرازه الكلاسيكيّ الجديد، ودخلت في الجسر ثمّ أسرعت نحو نصب المسلّة في بيازا ديلّا كونكورديا. وهنا فكّر وهو ينظر إلى الميدان العسكري الضخم، المغلق في نهايته بأروقة مصطفّة كأفواج الجنود خلال عرض عسكريّ، فكّر: هذه إذاً هي عاصمة فرنسا التي كان يجب تدميرها. أمّا الآن فيبدو أنه يحبّ منذ زمن طويل هذه المدينة الممتدّة أمام عينيه، حتّى قبل ذلك اليوم الذي زارها فيه للمرّة الأولى. ومع ذلك، فإنّ

هذا الإعجاب بجمال المدينة المهيب والرائع والسعيد أكّد شعوره الكئيب بالواجب الذي كان على وشك القيام به. وفكّر من جديد أنّه ربّما لو كانت باريس أقلّ جمالاً، لكان بإمكانه التهرّب من هذا الواجب، الهرب، وتحرير نفسه من ذلك القدر، لكنّ جمال المدينة عاد ووضعه بالطريقة نفسها في الجانب المعادي والسلبيّ الموجود في كثير من الجوانب البغيضة للقضيّة التي يحارب من أجلها. وجد أنّه عندما يفكّر بهذه الأشياء، فإنّه يشرح لنفسه عبثيّة حاله. وقد فهم أنّه يشرحها بهذه الطريقة لأنّه لا توجد طريقة أخرى لشرحها، وبالتالي لقبولها بحريّة ووعي.

توقّفت التاكسي فترجّل مارتشيلّو أمام المقهى التي عيّنها أورلاندو. كانت الطاولات المصطفّة على الرصيف كما وصفها له العميل، مزدحمة، لكنّه عندما دخل إلى المقهى وجد أنّها مقفرة. كان أورلاندو جالساً إلى طاولة موضوعة في تجويف نافذة. ما إن رآه حتّى نهض وأشار ليدعوه إليه.

اقترب مارتشيلّو دون تسرّع وجلس أمام العميل. يمكن من خلال زجاج النافذة رؤية الناس من خلفه وهم جالسون في الخارج، في ظلّ الأشجار، كما يُرى أبعد من ذلك جزء من الرواق والواجهة المثلّثة لكنيسة المجدليّة. طلب مارتشيلّو القهوة. انتظر أورلاندو حتّى انصرف النادل ثمّ قال: «أنت تظنّ أيّها الدكتور أنّهم سيقدّمون لك قهوة إكسبرسّو كما في إيطاليا، لكنّ هذا وهم... لا توجد في باريس قهوة جيّدة مثل قهوتنا... سترى، أيّها الدكتور، أيّ حساء سيقدّمونه لك».

كان أورلاندو يتحدّث بنبرته الهادئة المعتادة المليئة بالاحترام واللطف. فكّر مارتشيلّو وهو يلقي نظرة خاطفة على العميل ويسكب قليلاً من تلك القهوة المذمومة: «وجهه صادق شريف، وجه فلاّح، مزارع، مالك ريفيّ صغير». انتظر حتّى شرب أورلاندو القهوة ثمّ سأله: «من أين أنت يا أورلاندو؟».

«أنا؟ من ضواحي مدينة باليرمو[1]، أيّها الدكتور».

كان مارتشيلّو يظنّ بلا سبب ظاهر أنّ أورلاندو من مواليد إيطاليا

1- عاصمة منطقة جزيرة صقلّية، جنوبيّ إيطاليا (م).

الوسطى، في منطقة أومبريا أو ماركيه. لكنّه عندما نظر إليه الآن بطريقة أفضل، فهم أنّه أخطأ التقدير بسبب مظهره الريفيّ المربوع، لكنّه لم يكن في وجهه أيّ أثر من وداعة وهدوء تلك المنطقتين. أجل، كان وجهه وجه رجل شريف ولطيف، لكنّ عينيه السوداوين اللتين تبدوان متعبتين تنمّان عن ثقل أنثويّ يكاد أن يكون شرقيّاً لا علاقة له بتلك المناطق، كما لم تكن لطيفة ولا صافية ابتسامة فمه العريض الذي ينفتح بلا شفتين تحت الأنف الصغير غير المتوافق مع بقيّة الوجه وذي الشكل السيئ، ومع ابتسامة الفم العريض الخالي من الشفتين. فقال متمتماً: «ما كنت لأعتقد هذا أبداً...».

فسأله أورلاندو بنوع من الحيويّة: «ومن أين كنت تظنّني؟».

«من وسط إيطاليا».

بدا أنّ أورلاندو فكّر قليلاً قبل أن يقول بصراحة لا تخلو من الاحترام: «أراهن أنّك أنت أيضاً أيّها الدكتور تشارك في الحكم الخاطئ المسبق».

«أيّ حكم؟».

«حكم أهل الشمال ضدّ إيطاليا الجنوبيّة وضدّ صقلّية على وجه الخصوص... قد لا تقول أنت هذا أيّها الدكتور، لكن هذا هو الواقع». وهزّ أورلاندو رأسه بألم. فاحتجّ مارتشيلّو: «الحقيقة أنّي لم أفكّر البتّة بهذا... ظننت أنّك من وسط إيطاليا بسبب مظهر جسمك».

لكنّ أورلاندو لم يعد يستمع إليه، وأجاب بشكل قاطع: «بل إنّي أقول إنّ هذا نوع من الدلف»، ومن الواضح أنّه شعر بالسرور من استعمال هذه الكلمة غير المعتادة. «في الطريق، في البيت، في كلّ مكان، حتّى في العمل... يصل الأمر ببعض الزملاء من أهالي الشمال إلى تأنيبنا حتّى بسبب السباغيتّي... فأجيب أنا حينها: قبل كلّ شيء أصبحتم أنتم أيضاً تأكلون السباغيتّي أكثر منّا، ثمّ... ما ألذّ تلك العصيدة التي تتباهون بها!...».

لم يجب مارتشيلّو بشيء. على كلّ لم يكن يسءه أن يتحدّث أورلاندو بأشياء لا علاقة لها بالمهمّة: لأنّه يتجنّب بهذا التعامل بطريقة عائليّة ودودة مع موضوع رهيب لا يستطيع أن يتحمّله. قال أورلاندو فجأة وبقوّة: «صقلّية: الكذبة الكبرى... والمافيا على سبيل المثال... لو أنّك تعرف ما لا يمكنهم

قوله عن المافيا... لا يوجد بالنسبة إليهم شخص واحد من صقلّية ليس من المافيا... هذا بصرف النظر عن كونهم لا يعرفون شيئاً عن المافيا».

قال مارتشيلّو: «المافيا لم تعد موجودة».

قال أورلاندو بنبرة لا تدلّ على أنّه مقتنع بالكامل: «من المفهوم أنّها لم تعد موجودة، لكن صدّقني، حتّى لو كانت بعدها موجودة، فهي أفضل وأفضل بكثير من بعض الظواهر المماثلة في الشمال، مثل مجرمي ميلانو والباراباس في تورينو... فهؤلاء جبناء، مستغلّو نساء، لصوص، ومتجبّرون مع الضعفاء، أمّا المافيا فهي مدرسة في الشجاعة، على أقلّ تقدير.

قال مارتشيلّو ببرودة: «العفو، لكن عليك أن تشرح لي يا أورلاندو في أيّ شيء تكمن مدرسة شجاعة المافيا».

بدا أنّ السؤال قد حيّر أورلاندو، ليس بسبب برودة نبرة مارتشيلّو التي تكاد تكون بيروقراطيّة، بل بسبب تعقّد الموضوع الذي لا يجيز جواباً مباشراً وشافياً. فقال وهو يتنهّد: «إيه يا دكتور، لقد طرحت عليّ سؤالاً ليس من السهل الإجابة عليه... فالشجاعة في صقلّية هي الصفة الأولى التي يتّصف بها الرجل الشريف، والمافيا تسمّي نفسها الجمعيّة المشرّفة... فماذا تريد منّي أن أقول: فمن الصعب على من لا يعرف المكان ولم ير بأمّ عينه أن يفهم. تخيّل يا دكتور مكاناً ما مثل بار أو مقهى أو مطعم أو حانة تجتمع فيه مجموعة من رجال مسلّحين معادين لرجل من المافيا، حسناً، ماذا بوسع هذا أن يفعل؟... لا أن يستنجد برجال الكارابنييري، لا أن يترك البلد، بل يخرج من بيته بثياب جديدة، وقد حلق لحيته، ويدخل إلى ذلك المكان وحيداً وغير مسلّح، ويقول كلمتين أو ثلاث كلمات من التي يجب أن تقال، كافية وافية... فما ظنّك عندها؟ وعيون الجميع عليه، من مجموعة الأعداء، والأصدقاء، والبلد بأكمله... وهو يعرف ذلك ويعرف أيضاً أنّ أمره سينتهي إذا عبّر عن شيء من الخوف بنظرات غير ثابتة كما يجب، وبصوت ليس هادئاً كما يجب، وبوجه ليس صافياً كلّ الصفاء... لذلك فإنّ أهمّ ما يجتهد ليحقّقه هو كيف يمكن له تجاوز هذا الامتحان: بنظرات جريئة، بصوت هادئ، بحركات مضبوطة، بلون عاديّ في الوجه... هذه أشياء تبدو سهلة

إنما تقال... لكن لا بدّ من مجابهتها لمعرفة مدى صعوبتها... هذه هي أيّها الدكتور، وعلى سبيل المثال، مدرسة شجاعة المافيا».

مع أنّ أورلاندو انغمس بحماسة في هذا الحديث، فإنّه نظر بعد ذلك ببرود مشوب ببعض الفضول إلى وجه مارتشيلّو، وكأنّما ليقول له: «إذا لم أخطئ فإنّنا لسنا هنا للكلام عن المافيا». لاحظ مارتشيلّو ذلك، فنظر بطريقة جليّة إلى الساعة على معصمه. ثمّ قال بنبرة قويّة: «فلنتحدّث الآن قليلاً عن أمورنا، يا أورلاندو، سألتقي اليوم بالبروفيسور كوادري... وعليّ بحسب التعليمات أن أشير إليك بالبروفيسور كي تتمكّن من التأكّد من هوّيته... هذا هو دوري، أليس كذلك؟».

«بلى يا دكتور».

«حسناً، سأدعو البروفيسور كوادري إلى العشاء أو إلى قهوة هذا المساء... لكنّني لا أستطيع بعد تعيين المكان... بوسعك أن تكلّمني على هاتف الفندق حوالي الساعة السابعة هذا المساء وعندها سأخبرك بالمكان... أمّا بالنسبة إلى البروفيسور كوادري فلنتّفق منذ الآن على طريقة الإشارة إليه... ولنقل مثلاً إنّ البروفيسور كوادري سيكون أوّل شخص أصافحه بعد أن أدخل إلى المقهى أو المطعم... هل أنت موافق؟».

«اتّفقنا أيّها الدكتور».

قال مارتشيلّو وهو ينظر من جديد إلى ساعته: «عليّ الآن أن أنصرف». وضع على الطاولة ثمن القهوة ونهض وخرج، فتبعه العميل عن بعد.

عانق أورلاندو بنظره من على الرصيف حركة السير الكثيفة في الشارع حيث كان يتحرّك ببطء شديد صفّان من السيّارات في اتّجاهين مختلفين، وقال بنبرة حاسمة: «باريس».

«ليست هذه هي أوّل مرة تزور فيها باريس، أليس كذلك يا أورلاندو؟» سأله مارتشيلّو وهو يبحث بعينيه عن تاكسي فارغة.

«أوّل مرّة؟» قال العميل بنوع من التباهي الأحمق، «أيّ أوّل مرّة... حاول قليلاً أيّها الدكتور وقل رقماً».

«كيف لي أن أعرف».

قال العميل: «اثنتا عشرة مرّة، وهذه الثالثة عشرة».

التقط سائق تاكسي بسرعة نظرات مارتشيلّو وجاء ليتوقّف أمامه. قال مارتشيلّو وهو يركب في التاكسي: «وداعاً يا أورلاندو، سأنتظر مكالمتك هذا المساء إذاً»، فأشار العميل بيده إشارة تدلّ على التفاهم. صعد مارتشيلّو إلى التاكسي وأعطى السائق عنوان الفندق.

بينما كانت التاكسي تسير، بدا أنّ كلمات العميل الأخيرة، اثنتا عشرة، والثالثة عشرة (اثنتا عشرة مرّة في باريس، وهذه الثالثة عشرة) أخذت تستطيل في أذنه بوقعها وتوقظ أصداء بعيدة في ذاكرته. كمن يطلّ على مغارة وهو يصرخ فيكتشف أنّ صوته ينعكس في أعماق غير معروفة. ثمّ ذكّرته فجأة تلك الأرقام بقوله إنّه سيشير بكوادري إلى العميل بالمصافحة، وفهم لماذا لجأ إلى فكرة المصافحة، بدلاً من إبلاغ أورلاندو ببساطة أنّه يمكن التعرّف إلى كوادري من حدبته: كانت ذكريات طفولته البعيدة عن قصص التاريخ المقدّس هي التي جعلته ينسى الإشارة إلى عاهة البروفيسور التي كانت أفضل بكثير من المصافحة من أجل التعريف به بشكل أكيد. كان عدد الرسل اثني عشر رسولاً وكان الثالث عشر هو الذي عانق المسيح ليدلّ عليه الحرس المجتمعون في الحقل لاعتقاله. وهكذا بدأت صور الشخصيّات التقليديّة التي ظهرت في محطّات آلام المسيح، والتي كثيراً ما تذكر في الكنائس، تتطابق مع مشهد حديث في مطعم فرنسيّ بطاولاته الممدودة وزبائنه الجالسين لتناول الطعام، ثمّ هو الذي ينهض ليذهب نحو كوادري ويمسك بيده، بينما يراقب العميلُ أورلاندو الاثنين معاً. ثمّ صورة يهوذا، الرسول الثالث عشر، وهي تختلط بصورته وتقترن بملامحه لتصبح بعد ذلك صورته هو بالذات.

شعر برغبة في أن يناقش نفسه حول هذا الأمر، فتسلّى وهو يفكّر بهذا الاكتشاف. «ربّما فعل يهوذا ما فعله للأسباب نفسها التي أفعل بها أنا أيضاً ما أفعله» وفكّر كذلك «وكان عليه هو أيضاً أن يفعل ذلك رغم أنّه لم يكن يحبّه، لأنّه كان من الضروريّ، بعد كلّ شيء، أن يقوم شخص ما بذلك... فلماذا الخوف إذاً؟ ولنقرّ أيضاً أنّني اخترت دور يهوذا... فماذا يعني هذا؟».

أدرك أنّه لم يكن خائفاً في الواقع على الإطلاق. وإن كان غارقاً، على أكبر تقدير، وكما أدرك أيضاً، في نوع من الكآبة الباردة التي اعتاد عليها، وهي ليست في آخر الأمر مزعجة على الإطلاق. ثمّ فكّر من جديد، وليس لتبرير نفسه بل لتعميق المقارنة وإدراك حدودها، أنّ يهوذا كان يشبهه، أجل، ولكن إلى حدّ معيّن فقط. إلى حدّ المصافحة، بل ربّما، إذا أردنا، حتّى إلى حدّ الخيانة مفهومة بمعناها العامّ للغاية. بعد ذلك يتغيّر كلّ شيء، فيشنق يهوذا نفسه أو يُعتقد على الأقلّ أنّه لا يمكن له إلّا أن يشنق نفسه، لأنّ أولئك الذين اقترحوا عليه أن يخون ودفعوا له ثمن خيانته لم يتحلّوا بالشجاعة لدعمه وتبرير عمله. أمّا هو فلم يكن له أن ينتحر أو حتّى أن ييأس لأنّه يرى خلفه... يرى حشوداً مجتمعة في الساحات وهي تصفّق لحكّامه ومن أمره بفعل ذلك، وفي هذا تبرير ضمنيّ له ولإطاعته الأوامر. وفكّر أنّه لم يتلقّ في نهاية الأمر شيئاً بالمعنى المطلق على ما فعله. فأيّ ثلاثين ديناراً. إنّه الواجب والواجب فقط، على حدّ قول العميل أورلاندو. وهكذا فقد تلاشى هذا التشبيه، وغاب، ولم يترك وراءه سوى أثر من التباهي الممتلئ بالسخرية. ثمّ خلص إلى أنّ المهمّ هو أنّ هذه المقارنة وردت في ذهنه، وأنّه طوّرها، وأنّه وجدها مقارنة سليمة، ولو للحظة واحدة فقط.

أرادت جوليا بعد الإفطار أن تعود إلى الفندق لتغيير فستانها قبل الذهاب إلى كوادري. لكن عندما نزلا من المصعد، أحاطت ذراعها بخصره وهمست: «ليس صحيحاً أنّني كنت أريد تغيير فستاني... أردت فقط أن نبقى وحدنا لفترة من الوقت». مشيا على طول الممرّ المقفر الطويل، بين صفّين من الأبواب المغلقة، وخصره محاط بتلك الذراع الحنونة، فلم يستطع مارتشيلّو إلّا أن يفكّر أنّ تلك الرحلة إلى باريس هي بالنسبة إليه رحلة في مهمّة عمل، أمّا بالنسبة إلى جوليا فهي كانت وقبل كلّ شيء مجرّد شهر عسل. نجم عن ذلك ، كما رأى، أنّه ليس مسموحاً له تشتيت انتباهه عن دور العريس الجديد الذي وافق على تمثيله عندما صعد إلى القطار معها، ذلك حتّى لو شعر أحياناً، كما هو الحال الآن، بشعور مؤلم، بعيد جدّاً عن اضطرابات الحبّ. لكن كانت هذه هي الاعتياديّة التي طالما بحث عنها، إنّها هذه اليد التي تحيط بخصره، هذه النظرات، هذه المداعبات، أمّا ما كان بصدد فعله سويّة

مع أورلاندو، فهو ليس إلّا ثمن تلك الاعتياديّة وعليه أن يدفعه بدمه. وصلا في هذه الأثناء إلى الغرفة، ولم تترك يدها خصره ودخلا سويّة بعدما فتحت جوليا الباب بيدها الأخرى. تركته بمجرّد أن دخلت، ثمّ أدارت المفتاح في القفل وقالت: «هل تريد أن تغلق النافذة؟» ذهب مارتشيلّو إلى النافذة وأنزل الستارة. عندما استدار، رأى أنّ جوليا كانت واقفة إلى جانب السرير، وهي تخلع ثيابها بدءاً من رأسها، فبدا أنّه فهم ما تقصده عندما قالت: «أردت فقط أن نبقى وحدنا لفترة من الوقت». فذهب بصمت وجلس على حافّة السرير، في الجانب الآخر من جوليا. أصبحت الآن بثوبها الداخليّ وجواربها فقط. وضعت ثوبها بعناية شديدة على كرسيّ قرب السرير، خلعت حذاءها، ثمّ رفعت أخيراً وبحركة خرقاء قدماً ثمّ القدم الأخرى واستلقت خلفه على ظهرها، بعدما ثنت ذراعها تحت رقبتها. صمتت لحظة ثمّ قالت:

«مارتشيلّو».

«ماذا هناك؟».

«لماذا لا تستلقي هنا، بالقرب منّي؟».

أطاع مارتشيلّو وانحنى ليخلع حذاءه واستلقى إلى جانب زوجته. اقتربت منه جوليا في الحال وضمّت جسمها إليه وسألته: «ماذا بك؟».

«أنا؟ لا شيء... لماذا؟».

«لا أعرف، يبدو لي أنّك قلق جدّاً».

أجاب: «هذا انطباع لابدّ أنّك ستشعرين به مراراً، إنّه مزاجي العاديّ، وأنت تعرفين أنّه ليس مزاجاً مرحاً... لكنّ هذا لا يعني أنّي قلق».

صمتت وهي تعانقه، ثمّ استأنفت: «لم يكن صحيحاً أنّي طلبت منك المجيء إلى هنا لتحضير نفسي... لكنّه لم يكن صحيحاً أيضاً أنّي كنت أريد أن نبقى سويّة لبعض الوقت... الحقيقة هي غير ذلك».

دهش مارتشيلّو هذه المرّة وندم على شكوكه بأنّها كانت تشعر وبكلّ بساطة برغبة جنسيّة عارمة. خفض بصره فرأى عينيها مضمختين بالدموع وهما تحدّقان فيه من الأسفل إلى الأعلى. سألها بعطف، لا يخلو من بعض الانزعاج: «أنا الذي يجب أن يسألك الآن ماذا بك».

فاستأنفت قائلة: «معك الحقّ»، وبدأت في البكاء مباشرة بشهقات صامتة سمع هزّاتها تنعكس على جسمه. انتظر مارتشيلّو للحظة عسى أن ينتهي هذا البكاء غير المفهوم. لكن بدا أنّ البكاء يتضاعف شدّة. فسألها وهو يحدّق بالسقف: «لكن هل يمكن لي أن أعرف لماذا تبكين؟».

شهقت جوليا لفترة أخرى ثمّ واصلت بشيء من السلوى ظهرت في صوتها الحزين: «ليس هناك من سبب... لأنّي حمقاء غبيّة».

أرخى مارتشيلّو عينيه نحوها وأصرّ. «هيّا... لماذا تبكين؟». رأى أنّها تنظر إليه بعينيها الدامعتين وقد بدأ ينعكس فيهما شيء من الأمل. ثمّ ابتسمت جوليا ابتسامة خفيفة وذهبت بيدها لتأخذ منديلاً من جيبه. جفّفت عينيها، ونفثت أنفها، وأعادت المنديل إلى جيبه ثمّ عانقته من جديد وهي تتمتم: «إذا أخبرتك لماذا أبكي فستقول إنّي مجنونة».

فقال وهو يداعبها: «هيّا، تشجّعي، أخبريني لماذا كنت تبكين».

قالت: «تصوّر، لقد رأيتك على الإفطار مشتّت الذهن، بل قلق البال، فظننت أنّك قد مللت منّي، وأنّك ندمت على الزواج بي... ربّما بسبب ما قلته لك في القطار، هل تذكر، ذلك المحامي، وقلت في نفسي إنّه قد أدرك على الأرجح أنّه قد ارتكب حماقة، هو، بكلّ المستقبل الذي أمامه، بكلّ ذكائه، وبكلّ طيبته، عندما تزوّج بامرأة تعيسة مثلي... بعد ذلك، بعد أن فكّرت بهذه الأشياء، فكّرت أن أخطو الخطوة الأولى... أي أن أغادر دون أن أقول لك شيئاً لأوفّر عليك عناء الوداع... وكذلك قرّرت، وبمجرّد عودتنا إلى الفندق، أن أحزم حقيبتي وأغادر... أن أعود مباشرة إلى إيطاليا وأن أتركك في باريس».

فهتف مارتشيلّو بدهشة: «لكنّك لا تتكلّمين بجدّ». فاستأنفت كلامها وهي تبتسم مرتاحة لدهشته: «أكثر من الجدّ، أعلم أنّي عندما كنّا في بهو الفندق وابتعدت أنت لحظة لشراء السجائر، ذهبت أنا بسرعة إلى بوّاب الفندق ورجوته أن يحجز لي مكاناً في قطار الأسرة إلى روما، هذا المساء... بجدّ وعن حقّ، كما ترى».

قال مارتشيلّو وهو يرفع صوته رغماً عنه: «لكنّك مجنونة».

فاستأنفت: «لقد قلت لك إنّك ستفكّر أنّي مجنونة... لكنّي في تلك اللحظة كنت على ثقة، على ثقة مطلقة بأنّي أفعل ذلك لمصلحتك، أن أغادر، وأن أتركك... أجل كنت على ثقة كما أنّي على ثقة الآن» ثمّ أضافت وهي تلامس شفتيه بفمها: «بأنّي أقبّلك».

فسألها مارتشيلّو مضطرباً: «لماذا كنت واثقة إلى هذا الحدّ؟».

«لا أعرف... هكذا... كما نكون واثقين من أشياء عديدة... بدون سبب».

فلم يتمكّن إلّا أن يهتف بشيء من التأسّف البعيد: «ولماذا غيّرت رأيك؟».

«لماذا؟ من يدري؟... ربّما لأنّك نظرت إليّ في المصعد بطريقة معيّنة أو على الأقلّ لأنّي ظننت أنّك تنظر إليّ بطريقة معينة... ثمّ تذكّرت أنّي قد قرّرت السفر وأنّي طلبت مكاناً في قطار الأسرّة، وفكّرت بعدها أنّه لا يمكن لي أن أتراجع، فبدأت أبكي».

لم يقل مارتشيلّو شيئاً. ففسّرت جوليا هذا الصمت على طريقتها الخاصّة، وسألت: «هل أنت منزعج... قل... هل أنت منزعج بسبب قطار الأسرّة؟... لكنّهم يمكن أن يعيدوا البطاقة، واعلم... ندفع عشرين بالمائة فقط».

فأجاب ببطء وكأنّه يفكّر: «ما هذه الحماقة؟».

فقالت وهي تخنق ضحكة متشكّكة ما زال يرتعش فيها شيء من الخوف: «أنت منزعج لأنّني لم أسافر بالفعل؟».

أجاب: «هذه حماقة أخرى». لكن بدا له أنّه ليس صادقاً كلّ الصدق هذه المرّة. لذلك فقد أضاف كي يقمع تردّده الأخير أو تأنيب ضميره الأخير: «لو أنّك سافرت لتحطّمت حياتي كلّها». فبدا له أنّه قال الحقيقة، هذه المرّة، ولو بطريقة غامضة. أو ليس من الأفضل ربّما أن تنهار حياته كلّها، تلك الحياة التي بناها بدءاً من قضيّة لينو، بدلاً من أن تتثاقل بأعباء أخرى والتزامات أخرى، لتشبه بذلك بناءً سخيفاً يضيف إليه مالكه المفتون شرفات وأبراج وبلكونات إلى درجة الإضرار بتماسكه وصموده؟ أحسّ بذراعيْ جوليا تحيطان به، ثمّ سمع صوتها وهي تهمس: «هل تقول ذلك عن جدّ بالفعل؟».

أجاب: «أجل، أقول هذا جادّاً».

لكنّها أصرّت على الموضوع بسرور وبنوع من الخيلاء المليء بالفضول: «لكن ماذا كنت ستفعل لو أنّي تركتك حقّاً وسافرت... هل كنت ستجري ورائي؟».

تردّد قليلاً ثمّ أجاب، بينما بدا له أن صدى تأسّف بعيد يتردّد في صوته: «لا، لا أعتقد، ألم أقل لك إنّ حياتي كلّها كانت ستتحطّم؟».

«هل كنت ستبقى في فرنسا؟».

«أجل، ربّما».

«والوظيفة؟ هل كنت ستستغني عن وظيفتك؟».

فأجاب مفترّاً بهدوء: «لا معنى لها بدونك... ولا أقوم بعملي إلّا لأنّك موجودة».

فبدا وكأنّها تكاد تشعر بسعادة فائقة وهي تتخيّله وحده، بدونها: «ولكن ماذا كنت ستفعل بعد ذلك؟».

«كنت سأفعل ما يفعله كلّ من يغادر بلده ويترك مهنته لأسباب من هذا النوع، وكنت سأتكيّف مع أيّ مهنة مهما كانت: من غسيل الصحون إلى البحّار وسائق السيّارة... أو كنت سألتحق بالفيلق الأجنبيّ... ولكن لماذا هذا الاهتمام بمعرفة ذلك؟».

«هكذا... على سبيل الحديث فقط... في الفيلق الأجنبي؟ أو باسم مستعار؟».

«على الأرجح».

«أين هو مقرّ الفيلق الأجنبيّ؟».

«في المغرب على ما أظنّ... وفي أماكن أخرى أيضاً».

«في المغرب... تخيّل أنّي كنت أحسب...»، تمتمت وهي تنضمّ إليه شهوةً وغيرة. ثمّ حلّ الصمت. بقيت جوليا بلا حراك، وعندما نظر مارتشيلّو إليها، رأى أنّها أغمضت عينيها، بدا أنّها قد نامت. عندها أغمض عينيه هو أيضاً وأراد أن يغفو. لكنّه لم يتمكّن من النوم، رغم شعوره بالإرهاق والتعب الشديد والخمول. كما شعر بإحساس مؤلم وعميق من التمرّد على كيانه كلّه. وقرعت ذهنه بإصرار مقارنة فريدة: شعر أنّه ليس إلّا

خيطاً، ولا شيء سوى خيط من البشريّة يعبره بلا توقّف تيار طاقة رهيبة لا يملك له رفضاً ولا قبولاً. خيط مثل أسلاك الجهد العالي المرفوعة على أعمدة كتب عليها «خطر الموت». لم يكن هو إلّا أحد تلك أسلاك الطاقة، وكان التيّار ينبض أحياناً في جسده دون أن يضايقه، بل كان يمدّه في الواقع بقوّة أشدّ، أمّا في أوقات أخرى، كما هو الأمر الآن على سبيل المثال، فكان يبدو له قويّاً جدّاً وشديداً جدّاً، بحيث يودّ عندها أن يكون خيطاً غير مشدود ولا نابض، بل مقطوعاً ومرمياً ليصدأ بين أكوام الحطام في آخر فناء الورشة. ثمّ لماذا عليه هو بالذات أن يتحمّل نقل التيّار، بينما لا يلمسه كثيرون غيره مجرّد لمس؟ ثمّ، ومرّة أخرى، لماذا لا يتوقّف التيّار أبداً، ولم يتوقّف أبداً عن التدفق من خلاله ولو للحظة واحدة؟ وأخذت هذه المقارنة تتفصّل وتنقسم في أسئلة ليس لها جواب، بينما تزايد في هذه الأثناء الحنين الأليم إلى شيء من السبات، فتغشّى عقله، وحجبت عنه مرآة وعيه. في النهاية غلبه النعاس، فبدا له أنّ النوم قد قطع التيّار بطريقة ما فأصبح هو بالفعل، ولو لمرّة واحدة، مجرّد قطعة سلك صدئ، مرميّ في الزاوية بين قمامة أخرى. لكنّه شعر في الوقت نفسه بيد تلمس ذراعه، فنهض جالساً ورأى جوليا قرب السرير، بكامل ثيابها والقبّعة على رأسها. قالت له بصوت خافت: «أخبرني، أليس علينا أن نذهب إلى كوادري؟». نهض مارتشيلو ووقف على قدميه وحدّق بعينيه للحظة في ضوء الغرفة الخافت، وهو يترجم كلامها في عقله: «ألا يجب أن نقتل كوادري؟»... ثمّ إنّه سألها وكما أنّه يمزح معها: «وإذا لم نذهب إلى كوادري... بل نعود لننام لبعض الوقت؟».

رأى وهو ينظر إلى جوليا من الأسفل إلى الأعلى أنّ السؤال مهمّ، ولربّما لم يفت الأوان على نقض كلّ شيء أنكاثاً. لكنّه وجد أنّها تنظر إليه بتردّد، وغير مسرورة على ما يبدو من اقتراحه البقاء في الفندق، الآن بعد أن أنهت استعدادها للمغادرة. ثمّ إنّها قالت: «لكنّك نمت بالفعل... نمت ما يقرب من ساعة... ثمّ ألم تقل لي إنّ زيارة كوادري هذ هي مهمّة لحياتك المهنيّة؟» التزم مارتشيلّو الصمت للحظة ثمّ أجاب: «نعم، هذا صحيح... إنّها مهمّة جدّاً».

انحنت ساعتها لتقبّله على جبهته، وقالت له بمرح: «إذاً، هيّا بماذا تفكّر؟ أسرع، هيّا، ارتد ملابسك، لا تكن كالمقعدين».

قال مارتشيلّو وهو يتظاهر بالتثاؤب: «لكنّي لا أريد الذهاب، أريد فقط أن أنام». فبدا لها أنّه صادق هذه المرّة: «النوم، النوم، النوم». فأجابت جوليا وهي تمشي ببطء نحو المرآة لترى نفسها بانتباه: «ستنام هذه الليلة، لقد أخذت التزاماً، وقد تأخّر الوقت لتغيير البرنامج». كانت تتكلّم بحكمتها اللطيفة المعتادة، فرأى مارتشيلّو أنّها رائعة بالفعل، وأنّه مدهش وذو مغزى أنّها تقول دائماً الأشياء الصحيحة وهي لا تعي ذلك. في تلك اللحظة رنّ جرس الهاتف على المنضدة إلى جانب السرير. رفع مارتشيلّو ذراعه وتناول السمّاعة وقرّبها من أذنه. كان البوّاب وتكلّم ليعلمه أنّه حجز على قطار الأسرّة إلى روما لهذا المساء. فقال مارتشيلّو دون تردّد: «الغِ الحجز، فالسيّدة لن تسافر»، رمته جوليا من أمام المرآة بنظرة خجولة من الاعتراف بالجميل. فقال مارتشيلّو وهو يعيد السمّاعة: «انتهى الأمر... سيلغون الحجز ولن تسافري بعد ذلك؟.

«هل أنت غاضب منّي؟».

«وماذا خطر ببالك الآن؟».

نهض من السرير، وانتعل حذاءه، ودخل إلى الحمّام. بينما كان يغسل شعره ويمشّطه، تساءل ماذا ستقول ربّما جوليا إذا أخبرتها بحقيقة مهنته وشهر العسل. بدا له أنّه قادر على الإجابة بالقول إنّها لن تدينه بل وإنّها ستوافق عليه في نهاية المطاف، وإن كانت ستفعل ذلك بشيء من الخوف ولربّما سألته عمّا إذا كان من الضروريّ حقّاً أن يفعل ما يفعله. كانت جوليا طيّبة بلا شكّ. ولكن ليس خارج الحدود المقدّسة للعواطف العائليّة، فوراء هذه الحدود يبدأ بالنسبة إليها عالم مظلم ومشوّش، يمكن أن يجري فيه حتّى أن يُقتل أستاذ أحدب وملتح لأسباب سياسيّة. ثمّ خلص بالمثل، ضمن تأمّلاته وهو يخرج من الحمّام، أنّ عليه أن يناظر ويسمع رأي زوجة العميل أورلاندو. نهضت جوليا التي كانت تنتظر جالسة على السرير وقالت: «هل أنت منزعج لأنّني لم أتركك تنام؟ هل كنت تفضّل عدم الذهاب إلى كوادري؟».

أجاب مارتشيلّو وهو يتقدّمها في الممرّ: «على العكس، لقد أحسنت صنعاً». أحسّ الآن أنّه قد تحرّر وبدا له أنه لم يعد يشعر بأيّ تمرّد على قدره. كان تيّار الطاقة ما زال يسري في جسمه لكن دون ألم ولا مصاعب، كأنّه يسري في قناته الطبيعيّة. أخذ ينظر وهو على ضفاف نهر السين خارج الفندق، إلى صورة المدينة الرماديّة الشاسعة المنتشرة وراء سدّ النهر، تحت السماء الصافية الواسعة. اصطفّت أمامه رفوف الكتب المستعملة، وكان المارّة يمشون ببطء، ويتوقّفون للتفرّج عليها. بل ظنّ أنّه يرى من جديد ذلك الشابّ ذا الثياب المهلهلة، يسير ببطء على الرصيف وعلى طول الرفوف، والكتاب تحت ذراعه، باتّجاه نوتردام. أو ربّما كان شخصاً آخر يشبهه في طريقة اللبس، في الهيئة بل في القدر أيضاً. لكنّه بدا وكأنّه ينظر إليه دون حسد، وإن بشعور بارد وثابت بالعجز: فهو هو والشابّ هو الشابّ، ولا يوجد أيّ شيء يمكن فعله. مرّت تاكسي فأوقفها بإشارة من يده وصعد بعد جوليا وأعطى عنوان كوادري.

عندما دخل مارتشيلّو إلى بيت كوادري صعق باختلافه عن الشقّة التي رآه فيها أوّل وآخر مرّة في روما. فالبناء الموجود في حيّ حديث، في نهاية شارع صغير متعرّج، يشبه بشرفاته المربّعة البارزة ذات الواجهات الملساء، خزانة ذات أدراج مفتوحة، أعطاه إحساساً بحياة بدهيّة بلا هويّة واضحة، مستنيرة بنوع من التقليد الاجتماعيّ، كما لو أنّ كوادري، أراد بعد أن استقرّ في باريس، أن يختلط بالمجموعة البرجوازيّة الفرنسيّة الميسورة المتجانسة. ثمّ رأى مزيداً من الاختلافات بعد دخوله إلى البيت: فمكان الإقامة في روما كان قديماً ومظلماً ومليئاً بقطع الأثاث والكتب والأوراق، وكلّها مغبّرة ومهملة، أمّا هذا البيت فهو على العكس من الأوّل مشرق وجديد ونظيف وليس فيه إلّا القليل من الأثاث ولا أثر للدراسات. انتظرا بضع دقائق في الصالون، وهو عبارة عن غرفة واسعة وعارية فيها مجموعة واحدة من الأرائك موضوعة في زاوية حول طاولة سطحها من زجاج. التفصيل الوحيد ذو الذوق غير الشائع كثيراً كان عبارة عن لوحة كبيرة معلّقة على أحد الجدران، من أعمال رسّام تكعيبي: مزيج زخرفيّ بارد من الدوائر والمكعّبات والأسطوانات والمتوازيات بألوان مختلفة. أمّا الكتب التي

أثارت إعجاب مارتشيلّو في روما، فلا يوجد منها حتّى كتاب واحد. وإذا أخذ بعين الاعتبار الأرضيّة الخشبيّة المصقولة بالشمع، والستائر الطويلة الباهتة، والجدران الفارغة، فلا بدّ أن يعتقد أنّه موجود على عتبة مسرح حديث، وسط ديكور أنيق مقتضب لمسرحيّة بفصل واحد ليس فيها إلّا شخصيّات قليلة. ما هي تلك المسرحيّة؟ إنّها حتماً مسرحيّته هو وكوادري، لكن بينما أصبح الفصل المسرحيّ معروفاً لديه، فقد بدا له، ولا يعرف السبب في ذلك، أنّ الشخصيّات لم تظهر كلّها. فبعضها ما زال غائباً، ولربّما ساعد تدخّلها على تغيير مجريات الفصل بالذات.

وكما تأكيداً لهذا الحدس الغامض، فتح الباب في آخر الصالون ودخلت بدلاً من كوادري امرأة شابّة، كانت على الأرجح هي نفسها حسب ظنّ مارتشيلّو التي تكلّمت معه بالفرنسيّة على الهاتف. اقتربت وهي تمشي على الأرضيّة العاكسة، طويلة ورخصة القدّ بشكل فريد، ورشيقة في طريقة مشيها، ترتدي فستاناً صيفيّاً أبيض ذا تنّورة فضفاضة. لم يستطع مارتشيلّو في اللحظة الأولى من الامتناع عن النظر، بنوع من المتعة الخفيّة، إلى ظلّ جسدها، الظاهر في شفافيّة الفستان: ظلّ باهت ولكن ذو خطوط واضحة دقيقة وأنيقة، كأنّها لاعبة جمباز أو راقصة. ثمّ رفع عينيه إلى وجهها فتأكّد من أنّه سبق له وأن رآها من قبل، ولكن دون أن يتضّح له أين ومتى. اقتربت من جوليا، وضغطت على كلتا يديها بألفة تكاد تكون عائليّة وأوضحت لها بلغة إيطاليّة قويمة لا تخلو من لكنة فرنسيّة قويّة أنّ البروفيسور مشغول وسيأتي في غضون دقائق قليلة. بودّ أقلّ، كما بدا لمارتشيلّو، بل بسرعة تقريباً، استقبلته من بعيد، ثمّ دعتهما للجلوس. درسها مارتشيلّو بعناية بينما كانت تتحدّث مع جوليا، يثيره الفضول في تحديد ذكرياته الغامضة التي أنبأته أنّه قد عرفها من قبل. كانت طويلة، لها يدان وقدمان كبيرة، وكتفان عريضتان، وخصر نحيف بشكل لا يصدّق خاصّة تحت صدرها العارم وفوق وركيها العريضتين. كانت الرقبة الطويلة والنحيلة تسند وجهاً شاحباً، خالياً من المكياج، قليل الانتعاش، كما لو أنّما من عذاب، على الرغم من شبابه، تسوده تعابير استعداد حيويّة وقلق وهموم. أين رآها من قبل؟ استدارت نحوه فجأة كما لو أنّها شعرت بأنّه يراقبها: ساعد التناقض بين نظرتها المضطربة والمركّزة

وبين صفاء جبهتها العالية المضيئة، ساعده فجأة على إدراك المكان الذي التقى بها بالفعل، أو بالأحرى حيث التقى بامرأة أخرى تشبهها: كان ذلك في بيت الدعارة في س. عندما عاد إلى الصالة العموميّة لاستعادة قبّعته، فوجد أورلاندو بصحبة البغي لويزا. والحقيقة أنّ الشبه يقتصر على الشكل الخاصّ الذي يميّز جبهتها وما فيها من بياض وإضاءة يشبهان حتّى في هذه المرأة أيضاً تاجاً ملكيّاً، أمّا فيما تبقّى فإنّ المرأتين تختلفان بصورة واضحة. ففم البغي كان عريضاً ودقيقاً، أمّا فم هذه فصغير ومكتنز ومقفل، شبيه على ما رأى بوردة صغيرة ذات بتلات كثيفة ذابلة بعض الشيء. فرق آخر كان يكمن في اليد، فيد البغي كانت أنثويّة ناعمة، وممتلئة. بينما تكاد يد هذه المرأة تشبه أيدي الرجال، صلبة، حمراء، متوتّرة. وأخيراً فقد كان صوت البغي أجشّ رهيباً كما هو شائع في أصوات النساء اللاتي يعملن في هذه المهنة، أمّا صوت هذه فكان جافّاً وصافياً ومجرّداً يثير السرور مثل موسيقى مرضية وناعمة، صوت امرأة من نساء المجتمع.

لاحظ مارتشيلّو أوجه الشبه وهذه الاختلافات. ولاحظ أيضاً بعد ذلك، وبينما كانت المرأة تتحدّث مع زوجته، البرودة الشديدة في موقفها تجاهه. ففكّر أنّ كوادري ربّما يكون قد أخبرها بميوله السياسيّة السابقة، وبأنّه يفضّل عدم استقباله. وتساءل أيضاً عمّن قد تكون: فكوادري لم يكن، على ما يذكر، رجلاً متزوّجاً. كما أنّ هذه تظهر بسلوكها المكتبيّ أنّها ربّما كانت سكرتيرته، أو على الأقل من المعجبات به في لباس سكرتيرة. استرجع مشاعره التي شعر بها في بيت س. عندما رأى البغي لويزا تصعد على الدرج إلى جانب أورلاندو: كانت مشاعر تمرّد عاجز، مشاعر شفقة مؤلمة، ثمّ فهم فجأة أنّ تلك المشاعر لم تكن في الحقيقة سوى رغبة الأحاسيس وهي مقنّعة بغيرة روحيّة، وها هي تعود إليه الآن كاملة وبدون أقنعة، تجاه المرأة الجالسة مقابله. أعجبته بطريقة جديدة مثيرة، وشعر بالرغبة في أن يثير إعجابها، لذلك فقد سبّبت له ألماً حادّاً تلك العداوة التي تنمّ عنها كلّ حركاتها. في النهاية قال، وكأنّما رغماً عنه، وهو لا يفكّر بكوادري بل بها: «لديّ انطباع بأنّ زيارتنا لا تسرّ البروفيسور... ربّما كان مشغولاً جدّاً».

أجابت المرأة مباشرة ودون أن تنظر إليه: «على العكس، لقد قال لي

زوجي إنّه سيلتقي بكما بكلّ سرور... بل إنّه تذكّرك بالفعل... إنّنا نرحّب هنا بكلّ من يأتي من إيطاليا... صحيح، هو مشغول جدّاً... لكنّ زيارتك تسرّه بشكل خاصّ... انتظر، سأذهب لأرى إذا كان قادماً». لفظت هذه الكلمات بعجلة غير متوقّعة أثلجت قلب مارتشيلّو. عندما خرجت سألته جوليا من غير أن تظهر أيّ فضول: «لماذا تظنّ أن البروفيسور كوادري لن يكون مسروراً لرؤيتنا؟».

أجاب مارتشيلّو بهدوء: «دفعني إلى التفكير بهذا موقف هذه السيّدة العدائيّ».

فهتفت جوليا: «غريب، لقد رأيت فيها العكس تماماً... بدا لي أنّها مسرورة جدّاً من رؤيتنا... كما لو أنّنا كنّا على معرفة ببعضنا بعضاً... لكن هل سبق لك وأن قابلتها؟».

أجاب وهو يشعر بأنّه يكذب: «لا، لم أقابلها قبل هذا اليوم... ولا أعرف حتّى من تكون».

«أليست زوجة البروفيسور؟».

«لا أعرف، لا يبدو لي أنّ كوادري متزوّج... ربّما كانت سكرتيرته».

فهتفت جوليا بدهشة: «لكن إذا كانت قد قالت: زوجي. أين كان رأسك وقتها؟... قالت هذا بالذات: زوجي... بماذا كنت تفكّر؟».

وهكذا فإنّ مارتشيلّو لم يتمكّن إلّا أن يفكّر أنّ المرأة أثارت اضطراباً في نفسه حتّى تشتّت انتباهه إلى حدّ الصمم. أسرّه هذا الاكتشاف فرغب أن يكلّم جوليا قليلاً عنها، كما لو أنّها ليست طرفاً في القضيّة بل شخصاً غريباً يمكن له أن يسرّ إليه ما يشاء بكلّ حرّيّة. فقال: «لقد تشتّت انتباهي... زوجته؟ لا بد أنّه تزوّج عن قريب إذاً».

«لماذا؟».

«لأنّه كان عازباً عندما تعرّفت إليه».

«لكن ألم تكن أنت وكوادري تتراسلان؟».

«لا، كان هو أستاذي، ثمّ ذهب ليستقرّ في فرنسا وأنا أراه اليوم للمرّة الأولى بعد ذلك اليوم».

«غريب، كنت أظنّ أنّكما صديقين».

تبع ذلك صمت طويل. ثمّ فتح الباب الذي كان مارتشيلّو قد سمّر عليه عينيه. ظهر على العتبة شخص لم ير فيه بدايةً كوادري. وعندما نزل بصره من عينيه إلى كتفيه رأى البروز الذي يرفعهما إلى مستوى الأذن تقريباً وأدرك أنّ كوادري، بكلّ بساطة، قد حلق ذقنه. ثمّ رأى شكل وجهه الغريب، شبه السداسيّ، وذلك الاتّساق أحادي البعد في وجهه، مثل قناع مسطّح مطليّ عليه شعر مستعار أسود. تعرّف أيضاً على عينيه البرّاقتين الثابتتين، المحاطتين بهالة حمراء. وكذلك أنفه المثلّث، الشبيه بمطرقة الباب، وفمه العديم الشكل مثل دائرة من اللحم الأحمر الحيّ. الشيء الجديد الوحيد فيه كان ذقنه التي كانت مخفيّة بلحيته، وكانت صغيرة ومعوجّة ومطويّة كلّها تحت شفته السفليّة، وتنمّ عن قبح كبير ربّما كان ذا دلالة على شخصيّة الرجل.

بدلاً من بدلة المصرفيّ التي رآه فيها مارتشيلّو في المرّة الأولى والأخيرة التي قابله فيها، كان كوادري يرتدي الآن ما يفضّله الأحدب من ألوان فاتحة، أي بزّة رياضيّة بلون السلحفاة. وكان يرتدي تحت السترة قميصاً رسمت عليه رقعة شطرنج باللونين الأحمر والأخضر، على طريقة رعاة البقر الأمريكيّين، وربطة عنق برّاقة. قال وهو يستقبل مارتشيلّو بلا مبالاة تامّة لكن بنبرة وديّة في الوقت نفسه: «كليريشي، أليس كذلك؟ بكلّ تأكيد، ما زلت أذكرك بالفعل... خاصّة وأنّك آخر طالب جاء لزيارتي قبل مغادرتي إيطاليا... أنا سعيد جدّاً برؤيتك من جديد، يا كليريشي».

فكّر مارتشيلّو أنّه حتّى الصوت لم يتغيّر، بقي حلواً وفي الوقت نفسه بسيطاً وعاطفيّاً وغائباً. في هذه الأثناء قدّم زوجته إلى كوادري الذي تظاهر بمزيد من اللياقة وانحنى لتقبيل اليد التي مدّتها إليه جوليا. قال مارتشيلّو بشيء من الحرج وهم يجلسون: «أنا في شهر العسل في باريس، ولذا رأيت أن من المناسب أن آتي لزيارتك... كنت أستاذتي ... لكنّي سبّبت لك ربّما بعض الإزعاج».

أجاب كوادري بالحلاوة المؤثّرة المعتادة: «لكن لا، يا بنيّ العزيز، لا، أنا على العكس من ذلك سعيد جدّاً... لقد أحسنت صنعاً إذ تذكّرتني... بل إنّي

أستقبل بحفاوة هنا أيّ شخص يأتيني من إيطاليا، يكفي أنّه يكلّمني باللغة الإيطاليّة الجميلة». أخذ علبة سجائر من على الطاولة، ونظر فيها، فرأى أنّها تحتوي على سيجارة واحدة فقط، فتنهّد وقدّمها إلى جوليا: «خذيها يا سيّدتي... أنا لا أدخّن، وزوجتي كذلك، لذلك فإنّنا ننسى دائماً أنّ الآخرين يحبّون التدخين... إذاً فأنت تحبّين باريس؟... أعتقد أنّ هذه ليست المرّة الأولى التي تزورينها».

فكّر مارتشيلّو أنّ كوادري يريد أن يجري الأحاديث المعتادة. فأجاب عن جوليا: «لا، إنّها المرّة الأولى لنا نحن الاثنين».

فأسرع كوادري ليقول: «في هذه الحال عليّ أن أحسدكما، لأنّه يجب حسد كلّ من يأتي لأوّل مرّة إلى هذه المدينة الرائعة... وخاصّة إذا كان في شهر عسل، وفي هذا الموسم، وهو أحسن الفصول في باريس». تنهّد من جديد وسأل جوليا بلطف: «وما هو انطباعك عن باريس أيّتها السيّدة».

لم تنظر جوليا إلى كوادري بل إلى زوجها وهي تجيب: «أنا؟ الحقيقة أنّ الوقت لم يتح لي لرؤيتها... لقد وصلنا البارحة».

قال كوادري بنبرة عامّة وكأنّه يفكّر في شيء آخر: «سترين سيّدتي، أنّها مدينة جميلة جدّاً، جميلة جداً».. وكلّما عشت فيها، زاد إعجابك بهذا الجمال... لكن عليك يا سيّدتي أن لا تنظري فقط إلى الآثار وهي رائعة بلا شكّ، لكنّها ليست أكثر روعة من آثار المدن الإيطاليّة... عليك أن تتجوّلي في باريس، ودعي زوجك يجوب بك في أحياء باريس... فالحياة في هذه المدينة تتميّز بمجموعة متنوّعة ومدهشة حقّاً...».

قالت جوليا، من غير أن تدرك على ما يبدو السمة التقليديّة والساخرة إلى حدّ ما التي اتّصف بها حديث كوادري: «لم نر حتّى الآن إلّا القليل القليل». ثمّ التفتت إلى زوجها، ومدّت يدها لتلمس يده بلطف: «لكننا سنتجوّل فيها، أليس كذلك يا مارتشيلّو؟».

قال مارتشيلّو: «بالتأكيد».

فاستأنف كوادري بالنبرة نفسها: «عليكما أن تتعرّفا قبل كلّ شيء إلى الشعب الفرنسيّ... إنّه شعب لطيف... ذكيّ، حرّ، ورغم أنّ هذا يتناقض

جزئياً مع الفكرة التي تكوّنت عن الفرنسيّين، فهو شعب طيب أيضاً. فقد تحوّل ذكاؤهم الرقيق والحسّاس إلى نوع من الطيبة... هل تعرفان أحداً في باريس؟».

أجاب مارتشيلّو: «لا نعرف أحداً، وأخشى أنّ هذا لن يكون ممكناً لأنّنا سنبقى هنا لفترة أسبوع على الأكثر».

«هذا مؤسف، مؤسف حقّاً، إذ لا يمكن إعطاء بلد ما حقّه من التقدير إذا لم يعرف سكّانه...».

سألت جوليا وقد رأت أنّها مرتاحة لهذا الحديث الشبيه بالدليل السياحيّ: «باريس هي مدينة التسالي الليليّة، أليس كذلك؟ نحن لم نر بعد شيئاً... لكنّنا نريد أن نذهب، هناك العديد من صالات الرقص والأمكنة الليليّة، أليس كذلك؟».

فقال البروفيسور بذهن مشتّت: «آه، طبعاً، هناك التابارين، البوات[1]، أو الصناديق كما يسمّونها هنا، والحقيقة هي أنّنا لا نتردّد عليها كثيراً... نذهب أحياناً عندما يأتينا صديق إيطالي، فنستغلّ جهله في هذا الأمر لتثقيف أنفسنا... لكنّها دائماً هي الأشياء نفسها، وإن كانت تتحلّى هنا بالجمال والأناقة التي تتميّز بهما هذه المدينة... وكما ترين سيّدتي فإنّ الشعب الفرنسيّ شعب جاد، جادّ جداً... عاداته عائلية فعلاً... لذلك ربّما ذهلت إذا عرفت أنّ الغالبيّة العظمى من أهالي باريس لم تطأ أقدامهم تلك البوات. لأنّ الأسرة هنا مهمّة للغاية، بل أكثر ممّا في إيطاليا... كما أنّهم من الكاثوليك الصالحين أغلب الأحيان... أكثر من إيطاليا، وإذا كان تديّنهم أقلّ في مظاهره الشكليّة، فإنّه أعمق في حقيقته... لذلك ليس من المستغرب أنّهم يتركون لنا البوات نحن الأجانب... وهي مصدر ربح ممتاز بعد كلّ شيء... كما تدين باريس بجزء كبير من ازدهارها للبوات وبصفة عامّة إلى الحياة الليليّة».

قالت جوليا: «هذا يثير الفضول، فأنا كنت أظنّ أنّ الفرنسيّين يلهون كثيراً خلال الليل»، ثم أضافت وقد احمرّ وجهها: «أخبروني أنّ التابارنيس

1- ملاهي ليليّة تشتهر بها باريس (م).

تبقى مفتوحة طيلة الليل وأنّها دائماً مزدحمة، كما كان الأمر عندنا خلال احتفالات الكرنفال».

قال البروفيسور وهو مشتّت الذهن: «أجل، لكنّ الذين يذهبون إليها هم أجانب على الأغلب».

فتح الباب ودخلت السيّدة كوادري وهي تحمل بيديها صينيّة عليها إبريق وفناجين قهوة. قالت بمرح: «اعذروني، فالخادمات الفرنسيّات لسن كأولئك الإيطاليّات... فاليوم كان هو يوم راحة بالنسبة إلى خادمتي، وقد ذهبت مباشرة بعد الإفطار... لهذا عليّ أن أعمل كلّ شيء لوحدي». فكّر مارتشيلّو أنّها مرحة بالفعل بطريقة غير متوقّعة، وهناك كثير من الروعة في مرحها وفي حركات هذه المرأة العظيمة الطلقة والخفيفة الظلّ.

قال البروفيسور بنوع من الحيرة: «لينا، إنّ السيّدة كليريشي ترغب برؤية بوات... فبأيّ منهم يمكن أن ننصحها؟».

«أوه، هناك الكثير منها، إنّها لا تفتقر إلى الخيارات» قالت بمرح، وهي تصبّ القهوة في الفناجين، وقد انتصبت على إحدى رجليها، بينما بقيت الأخرى ممدودة إلى الخارج، كما لو لإظهار القدم الكبيرة في حذاء بدون كعب، «يوجد الكثير منها لجميع الناس ولكلّ الجزادين». قدّمت لجوليا الفنجان ثمّ أضافت بغير تركيز: «لكن يمكن لنا أن نأخذهما نحن، يا إدموندو، إلى بوت ما... وستكون هذه فرصة جيّدة لك لتتخلّص من بعض أعباء العمل».

مرّر الزوج يده على ذقنه كما لو أنّه يريد تمليس لحيته، وأجاب: «حتماً، بكلّ تأكيد، ولِمَ لا؟».

ثمّ قالت وهي تواصل تقديم القهوة إلى مارتشيلّو وزوجته: «هل تعرفون ماذا نفعل؟ علينا في كل الأحوال أن نتناول العشاء خارج البيت، فلنتناول العشاء سويّة في مطعم صغير، لو كوك أو فين، على الضفّة اليمنى، وهو ليس باهظ الكلفة، وطعامه جيّد. ثمّ نذهب بعد العشاء لنرى مكاناً غريباً بحقّ... لكن يجب ألّا تخجل لهذا السيّدة كليريشي».

ضحكت جوليا وقد ابتهجت بذلك المرح وقالت: «لا أخجل بهذه السهولة».

«يدعى هذا البوات لا كرافات نوار، أي ربطة العنق السوداء» فسّرت معنى الاسم وهي تجلس على الأريكة قرب جوليا، ثمّ أضافت وهي تنظر إلى جوليا بابتسامة ذات مغزى: «إنّه ملهى يرتاده أشخاص من نوع خاصّ».

«ماذا تعنين بهذا؟».

«أي نساء لهنّ أذواق خاصّة... سترين... صاحبة المحلّ والنادلات يرتدين جميعاً السموكينغ ويضعن ربطات عنق سوداء... سترين كم هنّ مضحكات».

فقالت جوليا بشيء من الاضطراب: «آه، فهمت، لكن هل يستطيع أن يدخل الرجال أيضاً؟».

أضحك السؤال المرأة: «هذا مفهوم... إنّه مكان عامّ... صالة رقص صغيرة... تديرها امرأة لها ذوق خاصّ، وهي ذكيّة جدّاً بالفعل، لكن يمكن أن يدخل من يشاء... إنّه ليس دير راهبات...». كانت تضحك على دفعات قصيرة، وهي تنظر إلى جوليا. ثمّ أضافت بحيويّة: «لكن إذا لم يعجبك هذا المكان، فيمكننا الذهاب إلى مكان آخر... لكنّه سيكون أقلّ أصالة».

قالت جوليا: «لا ، لنذهب إلى هناك ... هذا يثير اهتمامي».».

قال البروفيسور دونما تخصيص: «ما أتعسهما». ثمّ نهض على قدميه: «عزيزي كليريشي، أريد أن أؤكّد لك أنّني سررت جدّاً برؤيتك وسأكون سعيداً أكثر لتناول العشاء الليلة مع زوجتك ومعك... سنتحدّث... هل ما زلت تكنّ المشاعر نفسها والأفكار ذاتها كما كنت في ذلك الوقت؟».

فأجاب مارتشيلّو بهدوء: «لا أهتمّ بالسياسة».

«هذا أفضل، هذا أفضل». أخذ البروفيسور يده وضغطها بين يديه وهو يضيف بلهجة حلوة وصادقة ومؤثّرة، مثل خوريّ يتكلّم مع شخص ملحد: «نستطيع إذاً أن نرجو ضمّك إلينا». رفع اليد إلى صدره باتّجاه القلب فتمكّن مارتشيلّو أن يرى وسط دهشته أنّ هناك في عينيه، الواسعتين والمستديرتين الجاحظتين، وميض دموع كان يحرف نظرته ويجعلها متوسّلة. ثمّ، وكما لو أنّه أراد أن يخفي انفعاله هذا، فقد ذهب كوادري بسرعة ليحيّ جوليا، وخرج وهو يقول: «ستتّفق زوجتي معكما حول برنامج هذا المساء».

أغلق الباب وجلس مارتشيلّو، بشيء من الحرج، على أريكة قرب الكنبة التي كانت تجلس عليها المرأتان. لقد بدا عداء الزوجة واضحاً له الآن بعد أن غادر كوادري. كانت تصرّ على تجاهل وجوده وتتحدّث إلى جوليا فقط: «هل رأيت محلّات الأزياء والخياطة ومصمّمات الأزياء؟...رو دي لا بي، فوبور سانت أونوريه، آفنيو دو ماتينيون؟».

قالت جوليا بلهجة من يسمع تلك الأسماء لأوّل مرّة: «الحقيقة، الحقيقة لا».

فتابعت السيّدة كوادري بشيء من الوصاية والإصرار اللطيف المغلّف بالتلميحات: «هل ترغبين في رؤية تلك الشوارع، والذهاب إلى بعض المحلّات، وزيارة بعض بيوت الأزياء؟... أؤكد لك أنّها ممتعة للغاية».

قالت جوليا: «آه، طبعاً»، ثمّ نظرت إلى زوجها وأضافت: «أرغب أيضاً باقتناء بعض الأشياء... قبّعة مثلاً».

فعرضت عليها المرأة، وقد وصلت إلى النتيجة الحتميّة لكلّ تلك الأسئلة: «هل ترغبين في أن آخذك إليها؟ إنّي أعرف بعض بيوتات الموضة... يمكن لي أن أقدّم لك شيئاً من النصائح أيضاً».

فقالت جوليا بامتنان متأرجح: «ليت ذلك».

«هل نريد الذهاب إلى هناك اليوم، بعد ظهر اليوم، بعد ساعة؟ هل تسمح لي بأخذ زوجتك بعيداً عنك لبضع ساعات؟» كانت هذه الكلمات الأخيرة موجّهة إلى مارتشيلّو، ولكن بنبرة مختلفة تماماً عن تلك التي استعملتها مع جوليا: أي بنبرة مستعجلة، يشوبها شيء من الازدراء. جفل مارتشيلّو ثمّ أجاب: «بالطبع... إذا كان ذلك يسرّ جوليا».

تهيّأ له أنّه فهم أنّ زوجته تفضّل التملّص من وصاية السيّدة كوادري، على الأقلّ بالحكم على نظرة الاستجواب التي نظرت بها إليه، وأدرك أنّه ردّ عليها بدوره بنظرة تأمرها بالقبول. لكنّه تساءل مباشرة بعد ذلك: هل فعلت هذا لأنّني أعجبت بهذه المرأة وأريد أن أراها مرّة أخرى، أو أنّي فعلت ذلك لأنّني في مهمّة ولا يناسبني أن أغضبها؟ شعر فجأة بالحزن الشديد لأنّه لا يعرف ما إذا كان يفعل الأشياء لأنّه يحبّ القيام بها، أو لأنّها تناسب خططه.

لكنّ جوليا اعترضت قائلة: «في الواقع، كنت أفكّر في الذهاب إلى الفندق للحظة...».

لكنّ الثانية لم تتركها تنهي العبارة: «هل تريدين التنشّط قليلاً قبل الخروج؟ والاغتسال بعض الشيء؟... لست بحاجة للذهاب إلى الفندق... بل يمكنك أيضاً إذا أردت أن تستريحي هنا، على سريري... أعرف كم هو متعب خلال السفر أن يتجوّل المرء طيلة النهار، دون التوقّف لدقيقة واحدة، خاصّة بالنسبة لنا نحن النساء... تعالي... تعالي معي يا عزيزتي». قبل أن تتمكنّ جوليا من التنفّس، كانت قد أجبرتها على النهوض بالفعل من الأريكة، وبدأت تدفعها بهدوء ولكن بثبات نحو الباب. عندما بلغتا العتبة تقريباً قالت لها مطمئنة، بنبرة حلوة لا تخلو من الحدّة: «سينتظرك زوجك هنا... لا تخافي، لن يضيع منك»، ثمّ أحاطت خصرها بذراعها، وجذبتها إلى الممرّ وأغلقت الباب.

بقي مارتشيلّو وحده، فنهض على قدميه وخطا بضع خطوات في أنحاء الغرفة. لقد بدا من الواضح له أنّ المرأة تكنّ له بغضاء لا رجعة عنها، وكان يريد أن يعرف السبب. لكنّ مشاعره أصبحت الآن مشوّشة: فهو يتألّم من ناحية، بسبب عداء شخص مثل هذه المرأة التي يريد بالفعل أن يكون محبوباً من قبلها، ومن ناحية أخرى، فإنّ فكرة أنّها تعرف حقيقته كانت تقلقه، لأنّ المهمّة ستصبح في هذه الحالة خطيرة بالفعل، فضلاً عن كونها صعبة. لكن ما جعله يعاني أشدّ المعاناة، كان ربّما شعوره باختلاط هذين القلقين المختلفين، وبشكل لا يعود فيه قادراً على التميز بينهما، أي بين قلق العاشق الذي يرى نفسه مصدوداً، وقلق العميل السرّيّ الذي يخشى أن ينفضح أمره. ثمّ إنّه أدرك من خلال الكآبة القديمة التي عادته مجدّداً أنّه حتّى لو نجح، من ناحية أخرى، في تبديد عداء المرأة، فإنه سيضطرّ إلى أن يضع من جديد العلاقات التي ستنجم عن ذلك في خدمة مهمّته. ذلك مثل ما حدث عندما اقترح على الوزارة الجمع بين شهر العسل والتكليف السياسي. ذلك هو حاله على الدوام.

فتح الباب خلفه ودخلت السّيدة كوادري. اقتربت من الطاولة وقالت: «كانت زوجتك مرهقة جدّاً، وأظنّ أنّها نامت الآن على سريري... وسنخرج سويّة بعد قليل».

قال مارتشيلّو بهدوء: «هذا يعني أنّك تصرفينني».

فأجابت بنبرة هادئة أنيقة: «أوه، لا، يا إلهي، لا. لكنّي أنا مشغولة جدّاً... والبروفيسور كذلك... وأنت ستكون مجبراً على البقاء وحيداً في هذا الصالون... بينما هناك ما هو أفضل لتفعله في باريس».

قال مارتشيلّو وهو يضع يديه على كتف أريكة بينما ينظر إليها: «العفو، لكن يبدو لي أنّك تعاديني... أليس كذلك».

فأجابت في الحال بشجاعة متهوّرة: «وهل هذا يدهشك؟».

قال مارتشيلّو: «أجل، فنحن لا نعرف بعضنا، هذه هي المرّة الأولى التي نرى فيها بعضنا بعضاً...».

فقاطعته بقولها: «أنا أعرفك حقّ المعرفة، حتّى لو كنت لا تعرفني».

فكّر مارتشيلّو: «ها قد وصلنا». أدرك أن عداء المرأة، الذي تأكّد الآن بطريقة لا شكّ فيها، يثير في قلبه ألماً حادّاً، يكاد يجبره على الصراخ. فتنهّد بحزن وقال بهدوء: «آه، هل أنت تعرفينني؟».

أجابت وعيناها تبرقان بضوء عدوانيّ: «أجل، أعرف أنّك موظّف في الشرطة، مخبراً براتب تدفعه حكومتك... فهل تشعر الآن بالدهشة إذا كنت أعاديك؟... لا أدري عن غيري، لكنّي أنا لا أطيق ليه موشار» وأضافت بنوع من المجاملة المهينة لتترجم ما سبق وأن قالته بالفرنسيّة: «لا أطيق الوشاة والجواسيس».

خفض مارتشيلّو بصره وصمت للحظة. كان ألمه حادّاً، كان ازدراء المرأة كأنّه نصل حادّ ينحت دونما شفقة في جرحه المفتوح. في النهاية قال لها: «وهل يعرف زوجك بالأمر؟».

فأجابت بدهشة مهينة: «بالطبع، كيف لك أن تفكّر أنه لا يعرف؟ بل هو الذي أخبرني بهذا».

لم يتمكّن مارتشيلّو إلّا أن يفكّر: «آه، إنّهما على علم بكلّ شيء إذاً». ثمّ استأنف بنبرة متعقّلة: «لماذا استقبلتمونا إذاً؟ ألم يكن أبسط أن ترفضا استقبالنا؟».

فقالت: «أنا لم أرغب بذلك في الواقع، لكنّ زوجي مختلف... زوجي هو نوع من القدّيسين... ما زال يعتقد أنّ الطيبة هي أفضل طريقة».

«قدّيس شديد الخبث»، كان بودّ مارتشيلّو أن يجيب. لكن ورد في خاطره أنّ هذا هو الواقع: لا بدّ أن جميع القدّيسين خبثاء، فصمت. ثمّ أضاف: «يؤسفني أنّك تعاديني بهذا الشكل، لأنّك لطيفة جدّاً بالنسبة إليّ».

«أشكرك. لكنّ استلطافك يرعبني».

تساءل مارتشيلّو عمّا عساه قد حدث له في تلك اللحظة: بدا له أنّ شيئاً كأنّه وهج ينبعث من جبين المرأة المضيء، وشعر في الوقت نفسه باندفاع يصدر عن أعماقه عنيفاً وشديداً، مثيراً وممزوجاً بمودّة يائسة. ثمّ أدرك فجأة أنّه أصبح قرب السيّدة كوادري، وأنّه أحاط خصرها بذراعه، وأنّه يجذبها، ويقول لها بصوت منخفض: «ولأنّك أيضاً تعجبينني بالفعل».

كانت مضغوطة عليه بشكل شعر معه مارتشيلّو بطراوة صدرها وانتفاخه وهو يخفق على صدره، فتمنّعت ونظرت إليه للحظة، قبل أن تقول: «آه، هذا رائع» ثمّ هتفت بصوت حادّ من الانتصار: «ممتاز... في شهر العسل، ومع ذلك فأنت على استعداد لخيانة زوجتك... ممتاز». وبعد أن قامت بحركة غاضبة لتحرير نفسها من ذراع مارتشيلّو، أضافت: «اتركني... وإلّا ناديت زوجي». فتركها مارتشيلّو على الفور. لكنّ عداء المرأة ما زال يجرفها، فانقلبت عليه، كما لو أنّه لا يزال يمسك بها، وصفعته على خدّه.

ثمّ بدا أنّها قد ندمت مباشرة على ما فعلته. فتوجّهت مباشرة نحو النافذة، نظرت للحظة إلى الخارج، ثمّ التفتت وقالت بلهجة عنيفة: «العفو». لكنّه بدا لمارتشيلّو أنّ هذا ليس ندماً بمقدار ما هو خشية من الأثر الذي يمكن أن تكون الصفعة قد أحدثته. ورأى أنّ لهجتها تنمّ عن حسابات أجريت وعن حسن إرادة ولا يظهر فيها أيّ ندم بل مجرّد حقد. فقال بحزم: «لم يبق أمامي الآن بالفعل إلّا أن أنصرف... أرجوك أن تخبري زوجتي وأن تدعيها للقدوم إلى هنا... وأن تعذرانا أنت وزوجك بالنسبة لهذا المساء، قولي له مثلاً إنّي نسيت أنّ عندي التزاماً آخر». ورأى أنّ كلّ شيء قد انتهى هذه المرّة، وأنّ المهمّة فضلاً عن حبّه للمرأة قد أصبحا في خطر.

ابتعد عن الطريق التي ستمشي عليها لتذهب إلى الباب. لكنّه رأى أنّها، بدلاً من ذلك، أخذت تحدّق بثبات في وجهه للحظة، ثمّ كشّرت بفمها

تكشيرة دلال مستاء واقتربت منه. لاحظ مارتشيلّو أنّ لهباً حاسماً ومضطرباً قد اشتعل في عينيها، وعندما وصلت إلى جانبه رفعت يدها ببطء ووضعتها من على بعد على خدّ مارتشيلّو وهي تقول: «لا، لا تذهب... أنت أيضاً تعجبني كثيراً... وإذا تصرّفتُ بهذا العنف فلأنّك تعجبني بالفعل... فلا تذهب وانس ما جرى». هذا بينما كانت تمرّ بيدها بمداعبة بطيئة على كلّ خدّه في حركة مضحكة لكن واثقة، مليئة بإرادة حاسمة، كأنّما لتزيل عنها ما علق عليها من حرق بسبب صفعتها.

نظر إليها مارتشيلّو، ونظر إلى جبهتها، ونظرات عينيها، وإلى ملمس يدها الخشن كأيدي الرجال، فشعر بشيء من الذهول، لأنّ هذه هي المرّة الأولى في حياته التي يشعر فيها بمثل هذا الاضطراب العميق، وبمثل هذا الانفعال المليء بالمودّة والأمل، منتفخاً في صدره يمنعه من التنفّس. كانت واقفة أمامه، ذراعها ممدودة، وهي تداعبه، فأحسّ بلمحة واحدة بجمالها وكأنّه قدر كان قد قدّر له منذ زمن بعيد، كأنّه وحي يغمر حياته كلّها: ففهم أنّه كان دائماً يحبّها، قبل ذلك اليوم، بل وقبل أن يستوحي وجودها في امرأة س. أجل، كانت هذه هي مشاعر الحبّ التي عليه أن يحسّ بها تجاه جوليا لو كان يحبّها، لكنّه يشعر بها الآن إزاء هذه المرأة التي لا يعرفها. ثمّ تحرّك نحوها ممدود الذراعين وحاول معانقتها. لكنّ المرأة تملّصت في الحال ولو بطريقة بدت له عاطفيّة ومتواطئة، ثمّ وضعت إصبعها على شفتيها وتمتمت: «أمّا الآن فانصرف... ستقابل هذا المساء». وقبل أن يتمكّن من إدراك ما حصل، كانت قد بدأت تخرجه من الصالون، وهي تدفعه نحو الممرّ وتفتح الباب. عندما أغلقت الباب وجد مارتشيلّو نفسه على منصّ سرج.

كان من المقرّر أن تستريح كلّ من لينا وجوليا قبل أن تذهبا لزيارة دور الأزياء. على أن تعود جوليا إلى الفندق ويأتي بعد الزوجان كوادري لاصطحابهما والذهاب لتناول العشاء سويّة. كانت الساعة حوالي الرابعة، أي إنّ هناك أكثر من أربع ساعات على العشاء، ولكن ثلاث فقط على الوقت الذي يجب أن يتّصل فيه أورلاندو بالفندق لأخذ عنوان المطعم. أي إنّ هناك ثلاث ساعات يمكن فيها لمارتشيلّو أن يبقى وحيداً. فما حدث في منزل كوادري جعله يرغب في العزلة، ليتمكّن على الأقلّ من فهم نفسه بشكل

أفضل. وقد فكّر وهو ينزل على الدرج أنّه بينما كان سلوك لينا لا يفاجئه، خاصّة وأنّها تعيش مع زوج أكبر منها بكثير ومنغمس كلّيّة في السياسة، فإنّ سلوكه هو، من ناحية أخرى، وبعد أيّام قليلة من الزفاف، بل وهو في شهر العسل، هو بالفعل مدعاة دهشة وخوف، وإن كان يثير غروره إلى حدٍّ ما. كان يظنّ حتّى الآن أنّه يعرف نفسه بما فيه الكفاية وبما يتيح له أن يتحكّم بنفسه متى شاء. لكنّه أصبح يدرك الآن أنّه ربّما كان على خطأ، ولا يعرف ما إذا كان هذا سبباً لمزيد من الفزع أو لكثير من السرور.

سار لفترة من زقاق إلى آخر، ثمّ وجد نفسه أخيراً في شارع عريض يمتد بشيء من الصعود، إنّه آفينو دو لا غراند آرميه[1]، كما قرأ في لافتة مكتوبة على طرف منزل. وفي الواقع، فإنّه عندما رفع عينيه، ظهر له بشكل غير متوقّع مربّع قوس النصر الضخم، يلوح من جانبه في أعلى الطريق. كان ضخماً مع أنّه مثل الشبح، بدا كأنّه معلّق في السماء الشاحبة، ربّما بسبب ضباب الصيف الذي لوّنها بالزرقة. شعر مارتشيلّو فجأة بإحساس جديد، وهو يمشي، بعينيه المثبّتتين على كتلة النصر. انتشى بهذا الشعور المفعم بالحرّيّة والانفتاح، كأنّما أزيح فجأة عن صدره وزن كبير كان يثقل كاهله، فأصبحت خطاه أخفّ وزناً وكاد أن يطير. تساءل للحظة فيما إذا كان عليه أن ينسب هذا الارتياح الشديد إلى حقيقة وجوده في باريس، بعيداً عن الاختناقات المعتادة، وأمام هذا النصب التذكاري الفخم: إذ يحدث في بعض الأحيان أن يخلط المرء بين أحاسيس الرفاهيّة الزائلة التي تعاود جسده، وبين الحركات العميقة داخل نفسه. لكنّه رأى وهو يفكّر بالأمر، أنّ هذا الإحساس إنّما نجم عن مداعبة يد لينا: فهم ذلك من تدفّق أفكاره المضطربة والمثيرة التي أزهرت في نفسه وهو يتذكّر تلك المداعبة. وهكذا فقد مرّ بيده بطريقة آليّة على خدّه حيث مرّت راحة يدها، ولم يسعه إلّا أن يغمض عينيه، وشعر بتلك الحلاوة، وكأنّه يستمتع من جديد بملامسة تلك اليد الخشنة والجريئة التي كانت تدور حول وجهه، ويتعرّف بمحبّة عليها.

ما هو الحبّ، تساءل وهو يمشي على الرصيف العريض، وعيناه تنظران

1- Avenue de la Grande Armée – شارع الجيش العظيم (م).

إلى قوس النصر، ما هو الحبّ الذي يدرك الآن أنّه أوشك، ربّما بسببه، على تحطيم حياته كلّها، وأنّه سيتخلّى عن زوجته التي تزوّجها لتوّه، وأن يخون عقيدته السياسيّة ويلقي بنفسه في أحضان مغامرة لا رجعة فيها؟ تذكّر أنّه أجاب على هذا السؤال، قبل سنوات عديدة، إلى صديقة له في الجامعة كانت تصدّه بقوّة، وقال لها إنّ الحبّ بالنسبة إليه هو بقرة تقف وسط مرج في الربيع، وثور يرتفع ليركبها. فكّر أيضاً أنّ ذلك المرج هو السجّادة البرجوازيّة الممدودة في صالون كوادري وأنّ لينا هي البقرة والثور هو بالذات. يقفان عاريين، على الرغم من اختلاف المكان والأطراف غير الحيوانيّة، إلا أنّهما يشبهان من جميع النواحي ذين الحيوانيْن. كما أنّ فوران الشهوة يُستنزف بالعنف الأخرق نفسه والعجلة نفسها. لكنّ التشابه يتوقّف عند هذا الحدّ. وهو تشابه واضح جدّاً وفي الوقت نفسه، غير مهمّ أبداً. لأنّ ذلك الفوران يتحوّل، بواسطة كيمياء روحيّة غامضة، إلى أفكار ومشاعر بعيدة جداً، لا يمكن أن تنسب إليه وحده، رغم أنّه هو الذي يهبها صفة الضرورة. فالرغبة ليست في الحقيقة إلّا مساعدة حاسمة وقويّة تقدّمها الطبيعة لشيء موجود قبلها وبدونها. إنّها يد الطبيعة التي تسحب من أحشاء المستقبل الوليد البشريّ الفاني، وليد أشياء المستقبل. فكّر، وهو يحاول أن يخفّف ويبرّد الثورة الاستثنائيّة التي اشتعلت في نفسه: «إنّي أرغب، ببسيط العبارة، أن أهجر زوجتي ونحن في شهر العسل، وأن أهرب من وظيفتي خلال قيامي بمهمّة، لأصبح عشيقها وأعيش معها في باريس». وتابع: «إنّي سأفعل ببساطة، وبالتأكيد، كلّ هذه الأشياء عندما أعرف أنّ لينا تحبّني كما أحبّها، للأسباب نفسها وبالقوّة ذاتها».

إذا حام في رأسه أيّ شكّ حول جدّيّة قراره هذا، فقد اختفى هذا الشكّ بالكامل، ذلك أنّه وصل إلى نهاية آفينو دو لا غراند آرميه، ورفع عينيه نحو قوس النصر. وفي الواقع، فها هو مشهد هذا النصب الذي أقيم للاحتفال بانتصارات طغيان مجيد، يبدو له الآن وكأنّه يذكّره بمشاعر أسفه على طغيان شبيه آخر كان يعمل حتّى الآن في خدمته بينما يستعدّ الآن لخيانته. ومن هنا فقد عمل إحساسه المتوقّع بهذه الخيانة على تخفيف بل على شبه تبرئة للدور الذي كان يلعبه حتّى ذلك الصباح، ليغدو بسيطاً يمكن تفهّمه ممّا

يساعد على قبوله. أي إنّه لم يعد، كما بدا له حتّى الآن، مجرّد ثمرةِ رغبةٍ خارجيّة بالاعتياديّة والتحرّر، بل على الأقلّ، نتاج ما يشبه الميل، أو على الأقلّ النزعة غير المصطنعة كلّيّة. ومن ناحية أخرى، فإنّ هذا التأسّف، الذي يشعر أنّه منفصل عنه لأنّه شعور ارتجاعيّ بالفعل، يؤكّد في الواقع وبطريقة أكيدة، على عدم قابليّة قراره ذلك للنقض.

انتظر بعض الوقت لتتوقّف حلبة دوران السيّارات حول النصب، ومن ثمّة فقد عبر الساحة وتوجّه مباشرة نحو النصب، فدخل وقبّعته في يده، تحت القوس حيث كانت توجد شاهدة الجنديّ المجهول. ها هي مكتوبة على النصب قوائم معارك النصر، التي يحمل كلّ منها، لكثير من الأشخاص، معاني الإخلاص وتكريس الذات التي كانت تربطه بحكومته حتّى لحظات قليلة مضت. ها هو الضريح الذي تحرسه شعلة متّقدة على الدوام، وهي رمز تضحيات أخرى ليست أقلّ أهميّة. عندما قرأ أسماء معارك نابوليون لم يستطع إلّا أن يتذكّر عبارة قالها أورلاندو: «كلّ شيء من أجل العائلة والوطن». ففهم فجأة أنّ ما يميّزه عن ذلك العميل، الذي كان مقتنعاً رغم أنّه غير قادر على أن يبرّر قناعته بشكل منطقيّ، إنّما هو مقدرته على الاختيار التي تفضحها أحزانه التي تلاحقه منذ زمن سحيق. أجل، لقد أجرى في الماضي اختياراته، وها هو يستعدّ الآن للاختيار من جديد. وما زالت أحزانه مختلطة بالأسف الذي يثير أفكاراً عن الأشياء التي يمكن لها أن تحدث، والتي عليه أن يتنازل عنها عندما يجري اختياره.

خرج من تحت القوس، وانتظر مرّة أخرى توقّف مرور السيّارات ووصل إلى رصيف شارع الشانزليزيه. بدا له أنّ القوس يمتدّ مثل ظلّ غير مرئيّ على الطريق الغنيّة المرحة التي تنحدر من عنده. كما بدا له أنّ هناك ولا شكّ رابطاً يسري بين ذلك الصرح الحربيّ وبين هذا الازدهار المسالم والبهيج الذي يسود جموع الناس المحتشدة على الأرصفة. ففكّر عندها أنّ هذا هو جانب عليه أيضاً أن يستغني عنه وينبذه. يعبّر الصرح عن عظمة دمويّة وظالمة تحوّلت فيما بعد إلى فرح وثروة تجهل أصولها، وتضحية دمويّة أصبحت بمرور الوقت، وبالنسبة للأجيال اللاحقة، قوّة وحرّيّة ورغد عيش. ففكّر مازحاً: هذه حجج أخرى جديدة لصالح يهوذا.

لكنّ القرار اتّخذ الآن وكان يشعر برغبة واحدة فقط: أن يفكّر في نينا ولماذا وكيف أحبّها. نزل متمهّلاً وقلبه مليء بهذه الرغبة إلى شارع الشانزليزيه، وكان يتوقّف بين الحين والآخر لمشاهدة بعض المحلّات، والصحف المعروضة في الأكشاك، والناس الذين يجلسون في المقاهي، وإعلانات دور السينما، ولافتات المسارح. كان الناس المحتشدون على الأرصفة يحيطون به من كلّ جانب بحركتهم الدائبة التي بدت له شبيهة بحركة الحياة نفسها. وكانت السيّارات بصفوفها الأربعة، أي بصفّين في كلّ اتّجاه، تصعد وتهبط على الطريق العريضة الواسعة، وتمضي أمام عينه اليمنى، بينما كانت تتعاقب أمام عينه اليسرى المحلّات الغنيّة واللافتات المرحة والمقاهي المزدحمة. وكان يسرع خطاه كلّما مشى، وكأنّه يريد أن يترك خلفه قوس النصر، الذي بدا له بغتة عندما التفت أنّه قد أصبح بعيداً جدّاً خلفه، وذلك بسبب البعد في حدّ ذاته والضباب الصيفيّ غير المرئيّ على الإطلاق. عندما وصل إلى آخر الشارع بحث عن مقعد في ظلّ أشجار الحدائق ثمّ جلس عليه مرتاحاً ومسروراً لأنّه سيتمكّن من أن يتفرّغ للتفكير في لينا.

شاء أن يعود إلى أوّل مرّة شعر فيها بوجودها: أي إلى زيارته لبيت الدعارة في س. فلماذا أوحت إليه تلك المرأة الجالسة في الصالة العموميّة بجوار العميل أورلاندو بمثل ذلك الشعور الجديد والعنيف؟ لقد تذكّر كيف صدمه بريق جبينها، وفهم أنّ ما جذبه أكثر ما جذبه في تلك المرأة، وبشكل كامل بعد ذلك في لينا، هو الصفاء الذي بدا له وقد أهين وتدنّس في البغي، وأنّه زاهٍ نضِرٌ في لينا. كما فهم أنّ ازدراءه للانحطاط والفساد والكدر الذي كان يطارده طيلة حياته ولم يخفّفه زواجه من جوليا، لا يمكن أن يتبدّد إلّا بقوّة ذلك الضوء الساطع الذي يحيط بجبهة لينا. وبدا له أنّ الصدفة في تشابه الأسماء، بين لينو الذي أوحى إليه لأوّل مرّة بذلك الازدراء، ولينا التي حرّرته منه، كان يحمل علامة ميمونة بالفعل. وهكذا فإنّه وجد من خلال لينا، وبطريقة طبيعيّة وعفويّة، وبقوّة الحبّ وحده، تلك الاعتياديّة التي طالما حلم بها. لكن ليس الاعتياديّة البيروقراطيّة التي طاردته خلال كلّ تلك السنين، بل اعتياديّة مختلفة ومن نوع يكاد أن يكون ملائكيّاً. وهكذا فإنّه أمام هذه الاعتياديّة المضيئة والأثيريّة، وجد أنّ وزن التزاماته السياسيّة، وزواجه من

جوليا، وحياته الموزونة والمملّة كرجل نظام، لم تكن أكثر من ضريح ضخم تبنّاه خلال انتظاره لتوقّعات غير واعية لمصير أشدّ جدارة. لكنّه تخلص الآن من ذلك الضريح فاستعاد نفْسه بواسطة الدوافع نفسها التي أدّت إلى تبنّيه له رغماً عن أنفه.

بينما كان جالساً على المقعد، مستسلماً لهذه الأفكار، وقعت عينه فجأة على سيّارة كبيرة، بدا كأنها تتباطأ تدريجيّاً خلال نزولها نحو ساحة ديلّا كونكورديا، ثمّ توقّفت قرب الرصيف، وليس بعيداً عنه في واقع الأمر. كانت سيارة سوداء وقديمة، وإن كانت فاخرة بشكلها العتيق الذي نال منه تألّقها الشديد وطلاؤها المصقول بالنيكل والقطع النحاسيّة على هيكل السيّارة. فكّر أنّها يجب أن تكون من نوع رولز رويز، فهاجمه فجأة خوف شديد مقرون بشعور ألفة رهيب، لا يعرف له سبباً. فأين ومتى سبق له وأن رأى هذه السيّارة؟ كان السائق رجلاً نحيل الجسم وغريب الشكل يرتدي بزّة زرقاء غامقة، وقد سارع بمجرّد أن توقّفت السيّارة، إلى الخروج وجرى ليفتح الباب. هنا برزت صورة في ذاكرة مارتشيلّو كان فيها جواب على سؤاله: السيّارة نفسها، من اللون نفسه، ومن العلامة التجاريّة نفسها، توقّفت حينها عند زاوية الطريق، في الشارع القريب من المدرسة بينما انحنى لينو ليفتح له الباب ويدعوه إلى الصعود بجانبه. في هذه الأثناء ، بينما كان السائق يقف على الباب، قبّعته في يده، امتدّت قدم رجل يرتدي بنطال فانيلّا رماديّ اللون، ينتهي بقدم تنتعل حذاءً أصفر لامعاً مصقولاً شبيهاً بنحاس السيّارة، امتدّت بحذر، ثمّ مدّ السائق يده، وظهر الشخص بأكمله لمارتشيلّو وهو ينزل على الرصيف، بشقّ الأنفس. رأى أنّه رجل كبير في السنّ، نحيل الجسم وطويل القامة جدّاً، وجهه قرمزيّ اللون وشعره ما زال ربّما أشقر، وكان متأرجح الخطى فكان يتكئ على عصا تنتهي بقطعة مطّاطية، لكنّ الغريب أنّه كان مع ذلك بهيئة الشباب. راقبه مارتشيلّو بعناية وهو يتقدّم ببطء من المقعد، وكان يتساءل من أين اكتسب هيئةَ الشباب هذا العجوز، لكنّه فهم السبب في الحال: من تسريحة شعره المائلة إلى جنب، ومن فراشة ربطة عنقه بلونها الأخضر التي كانت تزيّن ياقة قميصه الزاهي بخطوط ورديّة وبيضاء. كان العجوز يسير وعيناه تنظران إلى الأسفل، لكنّه ما إن وصل إلى

المقعد حتّى عرف مارتشيلّو أنّهما بلون أزرق برّاق وفيهما قسوة ساذجة، وشبابيّتين هما أيضاً. جلس في النهاية بصعوبة إلى جانب مارتشيلّو، بينما قدّم له السائق الذي كان يتبعه خطوة وراء خطوة، ومباشرة، ربطة صغيرة ملفوفة بورق أبيض، ثمّ انحنى انحناءة بسيطة وعاد إلى السيّارة وصعد إليها وبقي في مكانه وراء الزجاج الأماميّ.

تابع مارتشيلّو وصول العجوز ببصر منخفض، وهو يفكّر. تمنّى لو أنّه لم يشعر بهذا الرعب من مجرّد رؤية سيّارة تشبه سيّارة لينو، رغم أنّ هذا كان بالفعل سبب اضطراب بالنسبة إليه. لكنّ أكثر ما أخافه هو شعوره الحيّ الغامض الحادّ بالرهبة، والعجز، والعبوديّة الذي رافق ذلك الاشمئزاز. كان كما لو أنّ كلّ تلك السنوات لم تمرّ، أو أنّها، وهذا أسوأ، مرّت بلا جدوى، فبقي هو صبيّ ذلك الوقت، لينو ينتظره في السيارة وهو على وشك الصعود إليها تلبية لدعوة الرجل. شعر كما لو أنّه يتعرّض من جديد لذلك الابتزاز القديم، لكن لم يكن لينو هو من يفعل ذلك هذه المرّة، وليس هو من يغريه بطعم المسدّس، بل كان جسده بالذات، الذي تذكّر الأمر بكثير من الاضطراب. أرعبه هذا الحريق المقلق المفاجئ الذي ظنّ أنّه قد خمد منذ زمن طويل، فسحب تنهيدة وأخذ يفتّش بطريقة آليّة في جيوبه بحثاً عن السجائر. فقال له مباشرة صوت بالفرنسيّة: «سجائر؟... ها هي».

التفت فرأى أنّ الرجل العجوز كان يقدّم له، بيد حمراء مرتجفة قليلاً، علبة سجائر أمريكية مختومة. هذا بينما كان ينظر إليه نظرة غريبة، حازمة وطيّبة في الوقت نفسه. تناول مارتشيلّو العلبة بكثير من الحرج، من غير أن يقدّم شكره. ثمّ فتحها بسرعة، وأخرج سيجارة، وأعاد العلبة إلى الرجل العجوز.

لكن هذا أمسك بالعلبة وأدخلها بيد متسلّطة في جيب سترته، وقال له بنبرة تلميح: «إنّها لك... بوسعك أن تحتفظ بها».

شعر مارتشيلّو أنّه احمرّ خجلاً ثمّ شحب لونه بما لا يعلم من مزيج من مشاعر الغضب والخجل. ولحسن الحظّ فقد حطّت عيناه على حذائه: كان أبيض من كثرة الغبار ومشوّهاً من كثرة المشي. هنا خطر على باله أنّ الرجل العجوز قد ظنّ على الأرجح أنّه مجرّد شخص بائس أو عاطل عن العمل.

فانطفأ غضبه، وأخرج، دون أيّ تباه، العلبة من جيبه ووضعها على المقعد بينهما. لكن الرجل العجوز لم ينتبه لردّ العلبة، ولم يعد ينتبه إليه. ورأى مارتشيلّو أنّه فتح الربطة التي أعطاه إيّاها السائق وأخذ منها قطعة خبز. فتحها بيده المرتعشة، ببطء لكن بقوّة، ثمّ ألقى على الأرض بقطعتين أو ثلاث من لبّ الخبز، فطار على الفور من إحدى الأشجار المورقة التي ترمي بظلالها على المقعد، وحطّ على الأرض عصفور أليف، سمين وكبير. تواثب وتوجّه نحو لبّ الخبز، أدار رأسه مرّتين أو ثلاث مرّات ليراقب المكان حوله، ثمّ التقط الفتات بمنقاره وبدأ يأكله. رمى العجوز بثلاث أو أربع كسر من الفتات فطارت عصافير أخرى من على الأشجار المطلّة على الرصيف. أخذ مارتشيلّو يراقب المشهد بعينيه المشقوقتين، والسيجارة تشتعل بين شفتيه. ورغم أنّ العجوز كان منحني القامة ويداه ترتجفان، إلا أنّ شيئاً من أمارات المراهقة ظهر في منظره، أو بالأحرى أنّ الأمر لا يتطلّب الكثير من الجهد لتخيّله وهو مراهق. وقد ظهر في طرف وجهه فمه الأحمر الغنج، وأنفه المستقيم الكبير، وخصلة فتيّة من شعره الأشقر وقد تساقطت على جبهته، ما يحمل المرء على الظنّ بأنّه كان رشيقاً بالفعل خلال مراهقته. بل ربّما كان واحداً من أولئك الرياضيّين الشماليين الذين يجمعون بين جمال طفلة صغيرة وقوّة الرجولة. انحنى على نفسه، كأنّما دقّ بألم رأسه في صدره، ففتّت الخبزة بأكملها للعصافير. ثمّ سأل دون أن يتحرّك أو يستدير وبالفرنسيّة أيضاً: «من أيّ بلد أنت؟».

أجاب مارتشيلّو بإيجاز» «إيطاليّ».

فهتف العجوز وهو يلسع بحيويّة غريبة جبهته بضربة قويّة: «كيف حدث أنّي لم أفكّر بهذا، خاصّة وأنّي كنت أتساءل أين لي أن أكون قد رأيت وجهاً كوجهك كامل الخلقة... يا لي من غبيّ، أيّ بداهة، في إيطاليا... وما هو اسمك؟».

أجاب مارتشيلّو بعد لحظة من التردّد: «مارتشيلّو كليريشي».

«مارتشيلّو» كرّر العجوز وهو يرفع رأسه وينظر إلى الأمام. تبع ذلك صمت طويل. بدا كأنّ العجوز يفكّر، أو أنّه كان على ما ظنّ مارتشيلّو يجهد

نفسه كي يتذكّر أمراً ما. ثمّ التفت في نهاية الأمر نحو مارتشيلّو مزهوّاً كأنّما قد انتصر، وتلا باللاتينيّة:

Heu miserande puer, si qua fata aspera rumpas, tu Marcellus eris.»[1]

كان مارتشيلّو يعرف هذه الأبيات بحقّ، لأنّه كان قد ترجمها في المدرسة ولأنّ مزاح زملائه قد جذبه في ذلك الحين. لكنّها عندما تليت في تلك اللحظة، وبعد تقديم علبة السجائر، أعطته تلك الأبيات شعوراً مزعجاً من الإطراء الأخرق. وقد تحوّل هذا الشعور إلى هياج عندما رأى أنّ العجوز يرميه بنظرة إجماليّة من رأسه إلى أخمص قدميه قبل أن يقول له: «فيرجيل».

فكرّر بجفاء: «أجل، فيرجيل، وأنت من أيّ بلد؟». فقال العجوز: «أنا بريطانيّ»، والغريب أنّه تكلّم فجأة بإيطاليّة مثلي، بل ساخرة بعض الشيء، ثمّ أضاف بطريقة أغرب، وهو يخلط بين الإيطاليّة ولهجة نابولي: «أنوا عاش في نابولي سنين كثير... هل أنت[2] من نابولي؟».

«لا» قال مارتشيلّو وقد تحيّر لأنّه خاطبه فجأة بلهجة الودّ. بعد أن التهمت الطيور لبّ الخبز طارت من جديد. وكانت سيّارة الرولز رويز واقفة تنتظر أبعد بقليل قرب الرصيف. تناول العجوز عصاه ونهض بصعوبة وهو يقول لمارتشيلّو بنبرة آمرة وبالفرنسيّة هذه المرّة: «هل تريد مرافقتي إلى السيّارة؟... هل تتضايق إذا سندتني بذراعك؟».

أخذ مارتشيلّو ذراعه بطريقة آليّة، بقيت علبة السجائر على المقعد حيث تركها مارتشيلّو. «لقد نسيت السجائر»، قال له العجوز وهو يشير إلى العلبة برأس عصاه. تظاهر مارتشيلّو بأنّه لم يسمع وخطا أوّل خطوة نحو السيّارة. فلم يصرّ العجوز هذه المرّة بل سار معه.

كان العجوز يمشي ببطء، ببطء أشدّ بكثير من السابق عندما كان يسير

1- «أيّها الشابّ الجدير بالشفقة، لو كان بوسعك على الأقلّ أن تحطّم قدرك القاسي، أنت ستكون مارتشيلّو» (بيت من قصيدة لفيرجيل في الاينيده، (Virgilio, Eneide, VI, 883 (م)

2- قالها بلهجة الودّ (أنت)، بينما كان يخاطبه بلهجة الاحترام (أنتم) (م).

وحده، وبقي يتوكّأ على ذراع مارتشيلّو. لكنّ يده لم تبق ثابتة، بل كانت تصعد وتنزل لتداعب ذراع الشاب بطريقة تملّكيّة. شعر مارتشيلّو فجأة أنّ قلبه قد هبط، وعندما رفع عينيه فهم السبب: فالسيّارة كانت هناك تنتظرهما سويّة، وقد فهم أنّه سيدعى إلى الركوب فيها، كما جرى له منذ سنوات عديدة. لكنّ أكثر ما أرعبه حقّاً هو معرفته بأنّه لن يرفض الدعوة. وإذا كان الأمر مع لينو قد تعلّق برغبته بالمسدّس، بالإضافة إلى شيء من الغنج اللاواعي، فإنّه يدرك الآن، ووسط ذهوله الشديد، أنّ ذكرى مخاوفه حين استسلم لتلك الإغراءات الغامضة عادت إليه الآن فجأة، لتوقِعه بعد سنوات عديدة، في الفخّ نفسه، من غير أن يستطيع لها مقاومة. وفكّر أنّ هذا يحدث كما لو أنّ لينو قد تمكّن من التلذّذ به، وكما لو أنّه لم يقاوم لينو في واقع الأمر ولم يقتله. مرّت هذه الأفكار بسرعة كبيرة جدّاً في خاطره، وعندما رفع عينيه رأى أنّهما وصلا إلى السيّارة. كان السائق قد ترجّل منها لينتظر قرب الباب المفتوح، وهو يحمل قبّعته في يده.

قال العجوز من غير أن يترك ذراعه: «هل تريد إذاً أن تصعد؟» فأجاب مارتشيلّو مباشرة وهو سعيد بأنّه حزم أمره: «شكراً، لكنّه عليّ أن أذهب إلى فندقي... فزوجتي تنتظرني». فقال العجوز بخبث ودود: «يا للمسكينة، دعها تنتظر بعض الوقت... سيكون هذا مفيداً لها».

فكّر مارتشيلّو أنّه لا بدّ إذاً من تفسير الأمور، فقال: «ربّما أنّنا لم نتفاهم». ثمّ تردّد قليلاً، وعندما رأى بطرف عينه شاباً مشرّداً قد وقف قرب المقعد الذي بقيت عليه علبة السجائر، استأنف قائلاً: «أنا لست كما تظنّ... ربّما إنّك بحاجة لشخص مثل ذلك الفتى هناك» ثمّ أشار إلى المشرّد الذي كان في تلك اللحظة بالذات يدسّ علبة السجائر في جيبه. نظر إليه العجوز بدوره، فابتسم وأجاب مازحاً بصفاقة: «لديّ من هؤلاء بمقدار ما أشتهي».

«آسف» قال مارتشيلّو ببرودة بعد أن تحرّر من الأمر وهمّ بالانصراف. لكن العجوز أوقفه: «اسمح لي على الأقلّ بأن أرافقك...».

تردّد مارتشيلّو، نظر إلى الساعة: «حسناً، رافقني... بما أنّ الأمر يسرّك».

«يسرّني جدّاً»

صعدا، مارتشيلّو أوّلاً وتبعه العجوز. أغلق السائق الباب وجلس بسرعة في مكانه، ثمّ سأل العجوز: «إلى أين؟».

قال مارتشيلّو اسم الفندق، فالتفت العجوز نحو السائق وقال له كلمات بالإنكليزيّة، فانطلقت السيّارة.

كانت سيّارة صامتة ومريحة، كما لاحظ مارتشيلّو بينما كانت السيارة تجري بسرعة وصمت تحت الأشجار، في اتّجاه ساحة ديلّا كونكورديا. كان داخلها مبطّناً بلبّاد رمادي، وكان هناك زهريّة من الكريستال العتيق مثبّتة بالقرب من الباب، فيها بعض الغاردينيا. التفت العجوز، بعد دقيقة من الصمت، إلى مارتشيلّو وقال: «اعذرني على تلك السجائر... ظننت أنّك رجل فقير». قال مارتشيلّو: «لا يهمّ».

صمت العجوز من جديد ثمّ استأنف كلامه: «قلّما ما أخطئ... كنت سأقسم أنّـك... كنت واثقاً لدرجة أنّي خجلت من لجوئي إلى حجّة السجائر... كنت على ثقة أنّ نظرة واحدة ستكفي».

كان يتكلّم بلا مبالاة باردة وسعيدة وأنيقة. وكان من الواضح أنّه لا يزال يظنّ أنّ مارتشيلّو شاذّ. كانت نبرة تقرّبه هذه قويّة لدرجة أنّ مارتشيلّو كاد أن يميل إلى إرضائه بأن يجيب: «نعم، ربما أنّك على حقّ، فأنا... دون أن أعرف ذلك، رغماً عنّي... وقد تأكّدت من ذلك عندما قبلت بالصعود إلى سيّارتك». لكنّه قال بدلاً من ذلك بجفاء: «لقد أخطأت، هذا كلّ ما في الأمر». «بالفعل».

بدأت السيّارة بالدوران حول مسلّة ساحة كونكورديا. ثمّ توقّفت فجأة بعنف أمام الجسر. قال العجوز: «أتدري ما الّذي جعلني أفكّر بذلك؟»

«ماذا؟».

«عيناك... إنّهما لطيفتان للغاية، وجميلتان للغاية رغم أنّك تحاول إظهار الغضب فيهما... إنّهما تتحدّثان رغماً عنك». لم يقل مارتشيلّو شيئاً. بعد وقفة قصيرة استعادت السيّارة جريها على طول نهر السين ودخلت في شوارع خلف مجلس النواب، فبهت مارتشيلّو، واستدار نحو العجوز: «لكنّ فندقي على نهر السين».

قال العجوز: «سنذهب إلى بيتي، ألا ترغب بالذهاب إلى بيتي لتشرب شيئاً ما؟ ستبقى قليلاً ثمّ تعود إلى زوجتك».

بدا لمارتشيلّو فجأة أنه أخذ يعاني من شعور المذلّة والغضب العاجز نفسه الذي شعر به عندما ألبسه رفاقه قبل سنوات عديدة تنّورة وهم يصرخون عليه بسخرية «مارشيلّينا». فالعجوز، مثل رفاقه، لم يكن يصدّق برجولته. وأصرّ مثل رفاقه على اعتباره نوعاً من الأنثى. فقال بإصرار: «خذني من فضلك إلى الفندق».

«لكن هيّا... ماذا ستخسر؟... لحظة واحدة فقط».

«لقد أتيت معك فقط لأنّي كنت قد تأخّرت ورأيت من المناسب أن توصلني... أوصلني الآن».

«غريب، لكنّي فكّرت أنّك تريد أن أخطفك... كلّكم بهذا الشكل، بحاجة لأن نعاملكم بعنف».

«أؤكّد لك أنّك تخطئ إذ تستعمل هذه اللهجة معي... فأنا لست كما تظنّ... سبق وأن قلت لك، وأكرّر الآن قولي».

«كم أنت مرتاب... أنا لا أظنّ شيئاً... هيّا، لا تنظر إليّ بتلك الطريقة».

قال له مارتشيلّو بعد أن وضع يده في جيب سترته الداخليّة: «أنت من أردت هذا». وكان قد أخذ معه عندما سافر من روما مسدّساً صغيراً، وكان يحمله دائماً معه عوضاً عن أن يتركه في الحقيبة فيثير شكوك جوليا. سحب السلاح من جيبه وصوّبه بحذر باتّجاه سترة العجوز، وبطريقة يمكن للسائق أن يراه فيها. نظر العجوز إليه نظرة سخرية ودّيّة ثمّ خفض بصره. رآه مارتشيلّو وهو يتّخذ معالم الجدّ، فقال له فجأة وبنبرة مرتبكة تكاد ألّا تكون مفهومة: «هل ترى؟ اطلب الآن من سائقك أن يأخذني إلى الفندق».

أمسك العجوز مباشرة بالميكروفون وصرخ باسم فندق مارتشيلّو. أبطأت السيّارة سيرها ثمّ انعطفت في شارع جانبيّ. فوضع مارتشيلّو المسدّس في جيبه وقال:

«لا بأس الآن».

لم يقل الرجل العجوز شيئاً. بدا أنّه انتهى الآن من دهشته وبدأ ينظر باهتمام إلى مارتشيلّو، كما لو ليدرس وجهه. خرجت السيارة إلى ضفاف نهر السين، وبدأت تجري حول حواجز النهر. فرأى مارتشيلّو فجأة مدخل الفندق ببابه الأسطوانيّ تحت المظلّة الزجاجية. توقّفت السيارة.

«اسمح لي أن أقدّم لك هذه الزهرة»، قال العجوز وهو يتناول زهرة غاردينيا من الإناء ويمسك بها. تردّد مارتشيلّو، فأضاف العجوز: «إنّها لزوجتك».

أخذ مارتشيلّو الزهرة وشكره وقفز من السيّارة أمام السائق الذي كان ينتظر برأسه المكشوف قرب الباب المفتوح. ظنّ أنه سمع، أو ربّما كانت مجرّد هلوسة، صوت العجوز يحيّيه بالإيطاليّة: «وداعا مارتشيلّو!». لكنّه دخل الفندق دون أن يستدير، وهو يمسك بالغاردينيا بين إصبعيه.

-IV-

ذهب، إلى منصّة البوّاب وطلب مفتاح الغرفة. فقال البوّاب بعد أن بحث في لوحة المفاتيح: «إنّها فوق، أخذت زوجتك المفتاح وصعدت مع سيّدة أخرى». «سيّدة؟».

انزعج غاية الانزعاج، لكنّه شعر في الوقت نفسه، وبعد ذلك اللقاء بالعجوز، بسعادة قصوى لمجرّد سماعه بخبر وجود لينا في الغرفة مع جوليا. مشى مارتشيلّو نحو المصعد. نظر عند دخوله إلى الساعة على معصمه فرأى أنّها ليست السادسة بعد. كان لديه إذاً متّسع من الوقت ليخرج مع لينا بحجّة ما، وينزوي معها في إحدى صالات الفندق، ليقرّر مستقبله.

وسيتخلّص بعد ذلك مباشرة، وبالتأكيد، من العميل أورلاندو الذي من المفترض أن يتّصل به في الساعة السابعة. بدت له هذه الصدف أمراً ميموناً. بينما كان المصعد يصعد نظر إلى الغاردينيا التي ما زال يمسكها بين إصبعيه، فتأكّد فجأة أنّ العجوز لم يقدّمها له من أجل جوليا، بل من أجل زوجته الحقيقيّة، لينا. وهكذا فقد جاء الآن دوره كي يعطيها إيّاها عهداً على حبّهما.

مشى بسرعة في الممرّ، وذهب إلى غرفته ودخل دون أن يطرق الباب. كانت غرفة نوم مزدوجة كبيرة، فيها دهليز صغير بباب يفضي إلى الحمّام. أغلق مارتشيلّو الباب دون إحداث صوت، وبقي للحظة في عتمة الدهليز. ثمّ رأى أنّ باب غرفة النوم كان مواربًا، وأنّ هناك ضوءاً يتسرّب منه. فرغب بالتجسّس على لينا، وهي لا تراه، إذ بدا أنّه يمكن له بهذه الطريقة أن يتأكّد فيما إذا كانت تحبّه حقّاً. وضع عينه على الشقّ وبدأ ينظر.

كان هناك مصباح يلمع بضوئه على طاولة السرير. بينما تلتفّ بقيّة الغرفة

بشيء من الظلام. رأى جوليا جالسة على السرير، ظهرها يستند إلى الوسائد، وهي ملفوفة بقطعة قماش بيضاء: أي بمنشفة الحمّام بقماشها الإسفنجيّ. كانت تشدّ المنشفة بكلتا يديها إلى صدرها، لكنّها لم تكن قادرة على عدم كشف بطنها وساقيها في أسفل المنشفة، أو أنّها لم تكن ترغب بذلك. كما رأى مارتشيلّو لينا وهي جالسة عند قدمي جوليا على الأرض، فوق دائرة من تنّورتها البيضاء العريضة، كانت تطوّق بكلتا ذراعيها ساقي جوليا، وتلمس جبهتها ركبتيها، وصدرها على ساقيها. بدا أنّ جوليا كانت متوتّرة، لكن بلا عتب، بل، وقد يقال في الواقع، بشيء من الفضول والتسلية والتساهل، لذلك فقد مدّت رقبتها لترى من المرآة ما لم تكن تراه بسبب وضعها المائل قليلاً إلى الخلف. في النهاية قالت لينا، دون أن تتحرّك وبصوت منخفض: «هل لي أن أرجو أن لا تستائي من بقائي هكذا لفترة من الوقت؟».

«لا مانع، لكنّه عليّ أن أرتدي ثيابي بعد قليل».

بعد دقيقة صمت استأنفت لينا، وكأنّها تعود إلى حديث سابق: «لكن يا لك من غبيّة... ماذا سيحلّ بك؟... خاصّة وأنّك قلت أنت بنفسك لو لم تكوني متزوّجة فلن يكون لديك أيّ سبب يمنعك».

أجابت جوليا بنوع من الغنج: «ربّما قلت هذا كي لا أسيء إليك... ثمّ إنّي متزوّجة».

رأى مارتشيلّو وهو ينظر أنّ لينا كانت تتكلّم بينما أبعدت ذراعها عن ساقيْ جوليا. ثمّ قالت بسخرية شديدة، دون أن تتوقّف عن حركاتها البطيئة: «متزوّجة؟ لكن علينا أن نرى بمن».

قالت جوليا: «لكنّه يعجبني».

بدا أنّ يد لينا قد أخذت تتمدّد بشيء من التردّد اللطيف كأنّها رأس ثعبان. لكنّ جوليا أمسكت بها من معصمها وأعادتها بحزم إلى الأسفل، وهي تضيف بنبرة متسامحة، مثل مدبّرة منزل توبّخ طفلاً هائجاً: «لا تظنّي أنّي لا أراك».

أخذت لينا يد جوليا وبدأت في تقبيلها بهدوء وتأمّل، وتفرك من وقت لآخر كلّ وجهها بقوّة، داخل راحة يدها، كما يفعل الكلاب. ثم قالت وكأنّما بنفحة حنان شديد: «أيّتها الحمقاء الصغيرة».

تبع ذلك صمت طويل. كان الشغف الذي يميّز كلّ حركات لينا يتناقض بصورة فريدة مع لامبالاة جوليا وتلهّيها. وبينما زال عنها كلّ فضول فقد ظهرت غير مبالية بتقبيل لينا وفركها ليدها، ثمّ نظرت حولها وكأنّها تبحث عن ذريعة. سحبت في النهاية يدها وهمّت بالنهوض وهي تقول: «لكن عليّ الآن أن أرتدي ملابسي بالفعل».

أسرعت لينا ونهضت على قدميها هاتفة: «لا تتحرّكي... أخبريني فقط أين هي ملابسك... سألبسك أنا إيّاها».

انتصبت وظهرها إلى الباب، فأخفت وراءها جوليا بالكامل. سمع مارتشيلّو صوت زوجته وهي تقول متضاحكة:

«أو تريدين الآن أن تقومي بدور الخادمة...».

«وما يهمّك أنت؟... فأنت لا تخسرين شيئاً... بينما يعجبني الأمر جدّاً».

«لا، سأرتدي ثيابي بنفسي». وكما جرّاء نوع من الازدواجيّة، فقد خرج من شخص لينا بملابسها الكاملة، شخص جوليا العارية تماماً، مرّت على رؤوس أصابعها أمام عينيّ مارتشيلّو، قبل أن تغيب في آخر الغرفة. ثمّ جاء صوتها يقول:

«أرجوك ألّا تنظري إليّ... لا بل التفتي إلى الخلف... نظراتك تسبّب لي الخجل».

«هل تخجلين منّي؟... أنا امرأة أيضاً».

«أنت امرأة بالشكل... لأنّك تنظرين إليّ نظرة الرجال». «قولي مباشرة إذاً أنّك تريدين منّي أن أنصرف».

«لا، يمكنك أن تبقي، لكن لا تنظري إليّ».

«لكنّي لا أنظر إليك... يا حمقاء، وماذا تريدين أن يهمّني من النظر إليك؟».

لا تغضبي... افهميني: لو أنّك لم تكلّميني سابقاً بتلك الطريقة، فإنّي لم أكن لأخجل الآن ولكان بوسعك أن تنظري إليّ كما تشائين». قالت العبارة بصوت مخنوق، كأنّها تتكلّم من داخل ثوب سلكته من رأسها. «ألا تريدين أن أساعدك؟».

«يا إلهي، إذا كنت ترغبين بذلك كل تلك الرغبة...».

حزمت لينا أمرها، لكنّها تحرّكت بشيء من التراخي، وذهبت بتردّد رغم عنفها، وبحماسة رغم شعورها بالمهانة، وقفت للحظة أمام مارتشيلّو، قبل أن تختفي هي الأخرى في طرف الغرفة الذي جاء منه صوت جوليا. سادت لحظة من الصمت، ثمّ صاحت جوليا بصبر يبدو أنّه قد نفد، وإن لم يكن بنبرة خصام: «أوف، كم أنت مملّة». ولم تقل لينا شيئاً. كان ضوء المصباح ينير الآن السرير الفارغ، ويبرز التجويف الذي خلّفه وركا جوليا في المنشفة المبلّلة. انسحب مارتشيلّو من الشقّ وعاد إلى الممرّ.

أدرك أنّه قام، على بعد خطوات قليلة من الباب، بحركة ذات مغزى، حملته عليها تلك المفاجأة والاضطراب دون أن يدرك ذلك: فقد مزّق بين أصابعه بطريقة آليّة زهرة الغاردينيا التي قدّمها له الرجل العجوز والتي كانت مقدّرة إلى لينا. أسقط الزهرة على السجّادة وتوجه نحو الدرج.

نزل إلى الطابق الأرضيّ وخرج إلى ضفاف نهر السين، على ضوء الشفق الضبابيّ الكاذب. كانت الأضواء قد أنيرت بالفعل، بيضاء، وعلى شكل عناقيد، على الجسور البعيدة، وصفراء مزدوجة من السيّارات، وحمراء مستطيلة من النوافذ، بينما كان الليل يرتفع، مثل دخان قاتم، ليغطّي خضرة السماء الصافية، وراء سواد أبراج وأسقف الضفّة المقابلة. توجّه مارتشيلّو نحو حاجز ضفّة النهر وسند عليه كوعيه ونظر إلى الأسفل ليرى مياه السين التي ظهرت الآن داكنة اللون وهي تجرف بتيّاراتها القاتمة حبالاً من جواهر ودوائر من ألماس. كان يشعر شعوراً يشبه السكون المميت الذي يتبع الكارثة أكثر ممّا يشبه اضطراب الكارثة نفسها. فهم أنّه صدّق الحبّ لبضع ساعات خلال تلك الظهيرة، لكنّه أدرك أنّه يدور في عالم قاحل ومضطرب بصورة عميقة، لا يبذل فيه حبّاً حقيقيّاً، بل مجرّد علاقات حسّيّة، من أكثرها طبيعيّة وشيوعاً إلى أكثرها شذوذاً وغرابة. وبكلّ تأكيد فإنّ حبّ لينا له لم يكن حبّاً بالفعل، ولا حبّ لينا لجوليا. كما لا يمكن الكلام عن حبّ في علاقته بزوجته. بل ربّما كانت جوليا لا تحبّه أيضاً حبّاً حقيقيّاً، خاصّة بعد ما رأى من تساهلها ووقوعها في إغراءات لينا. في هذا العالم البرّاق والمظلم، الشبيه بغروب عاصف، يبدو أنّ هذه الشخصيّات الغامضة لرجال نساء ورجال نساء ممّن يلتقون ببعضهم بعضاً فيزدوجون ويخلطون غموضهم،

إنّما تشير إلى مغزى غامض هو أيضاً، ومع ذلك فهو مرتبط، على ما بدا له، بمصيره وباستحالة خروجه من هذا المصير. وبما أنّه لا يوجد حبّ، فإنّه، ولهذا السبب فقط، عليه أن يستمرّ فيما هو عليه حتّى الآن، عليه أن يكمل المهمّة، وعليه أن يتابع نواياه في تكوين أسرته مع جوليا الشهوانيّة والتي لا يمكن التنبؤ بشيء عنها . هذه هي الاعتياديّة: هذا التسليم، هذا الشكل الفارغ. وكلّ شيء خارجها، ليس إلّا اضطراباً وتشوّشاً وتسلّطاً.

لقد شعر بأنّه مضطرّ للتصرّف بهذه الطريقة خاصّة بعد ما ظهر الآن بوضوح في سلوك لينا. لقد كانت تحتقره بل وربّما كانت تكرهه أيضاً، كما قالت له بالفعل عندما صدقته القول. لكنّها تظاهرت أمامه بذلك الحبّ على أمل ألّا تقطع العلاقة معه ممّا يمنعها من رؤية جوليا التي أغرمت بها. لقد أصبح مارتشيلّو يدرك الآن أنّه لن يتمكّن أن يتوقّع منها ولا حتّى نوعاً من التعاطف أو الشفقة. وقد شعر بالفعل بألم حادّ وعجز كامل أمام هذا العداء النهائيّ الذي لا رجعة عنه، خاصّة وأنّه مدرّع بالشذوذ الجنسيّ والنفور السياسيّ والازدراء الأخلاقيّ.

وهكذا فإنّ ذلك البريق في عينيها وعلى جبهتها الصافية التي تنمّ عن الذكاء، والتي فتنته، لن تميل فوقه أبداً، لتنويره وتهدئته بودّها. لقد فضّلت لينا خفضها وإذلالها في التملّق والتوسّل وأشكال العناق الجهنّميّة. تذكّر عند هذه النقطة، أنّه عندما رآها تضغط بوجهها على ركبتي جوليا، أصيب بإحساس التدنيس نفسه الذي شعر به في منزل س. عندما رأى أنّ البغي لويزا تركت أورلاندو يعانقها. جوليا ليست أورلاندو بالطبع، لكنّه رأى أنّه يتمنّى بالفعل ألا تخضع جبهتها أمام أحد، ولذلك فقد أصيب بخيبة أمل.

حلّ الليل وهو مستغرق في هذه التأمّلات. نهض مارتشيلّو واستدار نحو الفندق. كان ذلك في الوقت المناسب ليرى شخص لينا الأبيض وهي تخرج مسرعة نحو سيّارة كانت متوقّفة على مسافة قصيرة من الرصيف. صعقه منظرها السعيد وشبه الحذر في الوقت نفسه، كأنّها نمس أو ابن عرس يتسلّل من قنّ دجاج مسروراً بفريسته. لم يكن منظرها منظر شخص تمّ صدّه، كما كان يعتقد، بل على العكس من ذلك. فلربّما تمكّنت لينا من انتزاع بعض الوعود من جوليا، أو أنّ جوليا سمحت، بسبب تعبها أو لشيء

من السليّة الجنسيّة، بالامتثال لبعض المداعبات المهمّة بالنسبة للينا، رغم أنّه لا قيمة لها بالنسبة إلى جوليا، وهي المتسامحة بالفعل تجاه نفسها وتجاه الآخرين. في هذه الأثناء، فتحت المرأة باب السيّارة، ثمّ صعدت، وانسحبت على جنبها، ثمّ أدخلت رجليها. رآها مارتشيلّو وهي تمرّ، بوجهها الوسيم المتغطرس الناعم والمستقيم في طرفه، ويداها على مقود السيّارة. عندما ابتعدت السيّارة عاد هو إلى الفندق.

صعد إلى الغرفة، دخل دون أن يقرع الباب. كانت الغرفة مرتّبة وجوليا جالسة بكامل ملابسها أمام مرآة التواليت وهي تنهي تسريح شعرها. سألته بهدوء من غير أن تلتفت: «أهذا أنت؟».

أجاب مارتشيلّو وهو يجلس على السرير: «أجل، هذا أنا».

انتظر لحظة ثمّ سألها: «هل تسلّيت؟».

التفتت الزوجة مباشرة إلى منتصف التواليت وأجابت بحيويّة: «جدّاً... لقد شاهدنا أشياء جميلة جدّاً، وتركت قلبي معلّقاً في عشر محلّات على الأقلّ».

لم يقل مارتشيلّو شيئاً. أنهت جوليا تسريحتها بصمت ثمّ نهضت وجاءت لتجلس هي أيضاً على السرير. كانت ترتدي ثوباً أسود، مفتوحاً عند العنق فتحة مزهرة واسعة، تبرز منها استدارتا صدرها الصلب الأسمر، كأنّهما ثمرتان جميلتان تبرزان من سلّة. كما علّقت وردة من قماش قرمزيّ قرب كتفها. وكان وجهها الجميل الفتيّ يعبّر كالعادة بعينيه المبتسمتين الواسعتين وفمه المكتنز عن فرحها المثير. ابتسمت جوليا، ربّما عن غير وعي منها، فكشفت عن أسنانها المنتظمة البيضاء بشكل ناصع والتي ظهرت بين شفتيها المصبوغتين بأحمر الشفاه البرّاق. أمسكت يده بمودّة، وقالت: «عليك أن تتخيّل ما حدث لي».

«ماذا حدث؟».

«تلك السيّدة، زوجة البروفيسور كوادري... حسناً، فكّر... إنّها ليست امرأة عاديّة».

«يعني؟».

«إنّها من أولئك النساء اللائي يغرمن بالنساء... أي إنّها، باختصار، أغرمت بي... هكذا... من أوّل نظرة... قالت لي هذا بعد أن ذهبت... لهذا كانت تصرّ على أن أبقى لأستريح في بيتها... قدّمت لي تصريح حبّ نظاميّ... من كان يصدّق هذا؟».

«وأنت؟».

«أنا لم أكن أتوقع مثل هذا الأمر... كنت في سبيلي لأن أغفو لأنّي كنت مرهقة بالفعل... ولم أفهم حينها شيئاً... لكنّي فهمت في النهاية، ولم أعرف بأي وجه أجابهها... هل فهمت، كان حبّاً بالفعل، عنيفاً، كالرجل تماماً... أخبرني بالحقيقة، هل كان بوسعك أنت أن تتوقّع هذا من امرأة مثل تلك المرأة، كانت تبدو منضبطة وسيّدة نفسها؟».

قال مارتشيلّو بصوت عذب: «لا، لم يكن لي أن أتوقّع هذا...» ثمّ أضاف: «كما أنّي لا أتوقّع على كلّ أن تقومي أنت بمبادلة تلك العواطف».

فهتفت وهي تنفجر في ضحكة بهيجة من الإطراء: «وكيف لي هذا؟ لكن هل تشعر أنت بالغيرة؟ وهل تغار من امرأة؟ حتّى لو افترضنا أنّني جاريتها فلا يمكن لك أن تغار... فالمرأة ليست رجلاً... لكن اطمئنّ... لم يحدث بيننا تقريباً أيّ شيء».

«تقريباً؟».

ردّت بتحفّظ: «قلت تقريباً، لأنّني عندما رأيتها يائسة أشدّ اليأس، وهي تقودني إلى الفندق، فقد سمحت لها بالشدّ على يدي».

«الشدّ على يدك فقط؟».

فهتفت من جديد بشيء من السرور: «إنّك تشعر بالغيرة إذاً. إنّك تغار حقّاً. لم أكن أعرفك بهذه الصفة... حسناً، نعم، إذا كنت تريد أن تعرف حقّاً»، ثمّ أضافت بعد لحظة: «لقد سمحت لها أيضاً أن تقبّلني... ولكن من أخت إلى أخت... ثمّ، بعدما أصرّت وأزعجتني، فقد طردتها عنّي. هذا كلّ شيء... والآن، أخبرني، هل ما زلت تشعر بالغيرة؟».

أصرّ مارتشيلّو على أن تتحدّث جوليا عن لينا، ليجد قبل كلّ شيء ومرّة أخرى الفرق المعتاد بينه وبين زوجته: فهو بقي مضطرباً طيلة حياته بسبب

أمر لم يحدث. بينما زوجته، المنفتحة على خوض جميع التجارب، تتساهل من ناحية أخرى، وتنسى في جسدها، حتّى قبل أن تنسى في نفسها. لذلك فقد سألها بهدوء: «لكن، هل كانت لديك مثل هذه العلاقات في الماضي؟».

فأجابت بحزم: «لا، أبداً». كانت هذه النغمة القاطعة غير مألوفة فيها لدرجة أنّ مارتشيلّو أدرك على الفور أنّها كانت تكذب. فأصرّ: «هيّا بنا... لماذا الكذب؟... من لا يعرف هذه الأمور، لا يتصرّف كما تصرّفتِ مع السيّدة كوادري... قولي الحقيقة!»

«لكن ماذا يهمّك من هذا؟».

«يهمّني أن أعرف».

صمتت جوليا للحظة وبصرها إلى أسفل، ثمّ قالت ببطء: «هل تذكر تلك القصّة مع ذلك الرجل، مع ذلك المحامي... حتّى اليوم الذي تزوّجتك فيه، كان يسبّب لي رعباً حقيقيّاً من الرجال، وهكذا فقد أقمت صداقة مع فتاة، لكنّها لم تدم إلّا قليلاً، كانت طالبة، من عمري... كانت تحبّني بالفعل، وكنت بحاجة بالفعل إلى هذا الحبّ، وقد عملت هذه العواطف بالذات على إقناعي... لكنّها ما لبثت أن انقلبت وأصبحت متطلّبة، تريدني كلّي لها، وغيّورة، لذلك فقد قطعت علاقتي بها... وكنت أراها من حين لآخر هنا وهناك في روما... مسكينة، ما زالت تحبّني». بعد لحظة من التردّد والحرج، عاد التعبير الهادئ المعتاد إلى وجهها، فأضافت وهي تمسك بيده: «كن مطمئناً، ولا تشعر بالغيرة، فأنت تعلم أنّني أحبّك أنت وحسب».

قال مارتشيلّو: «أعرف ذلك». ثمّ تذكّر دموع جوليا في قطار الأسرّة، ومحاولة الانتحار، فتأكّد من صدقها. وبينما كانت ترى أنّ غياب عذريّتها هي خيانة من الناحية التقليديّة، فإنّها لم تعلّق أيّ أهميّة على ماضيها السابق. تابعت جوليا أثناء ذلك: «لكنّي أقول لك، إنّ تلك المرأة مجنونة بالفعل... هل تعرف ماذا تريد؟ أن ننتقل جميعاً، في غضون أيّام قليلة، إلى بيتهم في سافويا... وتخيّل أنّها قد انتهت من وضع برنامج كامل بالفعل».

«أيّ برنامج؟».

«أن يسافر زوجها غداً، بينما تبقى هي لبضعة أيّام في باريس... لإنجاز

بعض أعمالها على ما قالت، لكنّي مقتنعة أنّ هذا من أجلي... وهي تعرض علينا أن نسافر سويّة لنقضي معهما أسبوعاً بين الجبال... ولم تتذكّر أنّنا في شهر عسل... وكأنّك أنت غير موجود بالنسبة إليها... بل إنّها كتبت لي عنوان بيت سافويا وحملتني على أن أقسم أنّي سأعمل على إقناعك بقبول الدعوة...».

«وما هو هذا العنوان؟».

« ها هو» قالت جوليا وهي تشير إلى قطعة ورق موضوعة على رخام المنضدة الصغيرة قرب السرير: «هل هذا يعني أنّك قد توافق؟».

«أنا لا، لكن ربّما أنت».

«بحقّ السماء، وهل تظنّ حقّاً أنّني أعطي أهمية لتلك المرأة... ألم أخبرك أنّني طردتها لأنّها أزعجتني بإصرارها!» في هذه الأثناء كانت قد نهضت من السرير، ثمّ غادرت الغرفة وهي لا تزال تتحدّث. ثمّ صاحت من الحمّام: «بالمناسبة، لقد اتّصل بك أحدهم منذ نصف ساعة... كان صوت رجل، إيطاليّ... لم يشأ أن يقول من هو... لكنّه ترك رقماً وطلب منك الاتّصال به بأسرع ما يمكن... وقد كتبت الرقم على قطعة الورق نفسها».

أخذ مارتشيلّو قطعة الورق وتناول دفتراً من جيبه كتب عليه بعناية عنوان منزل كوادري في سافويا، وكذلك رقم أورلاندو. شعر الآن كما لو أنّه عاد والتقط أنفاسه بعد الإثارة العرضيّة التي أصيب بها بعد ظهر ذلك اليوم، وممّا برهن له على ذلك كان وقبل كلّ شيء تلك الطريقة الآليّة التي أخذ يفعل بها الأشياء وما كان يصاحب ذلك من كآبة واستسلام. وهكذا فقد انتهى كلّ شيء، حسب رأيه. وضع دفتر الملاحظات في جيبه. بعد كل شيء، لم يكن ظهور ذلك الحبّ العابر في حياته، سوى هزّة ارتداديّة لهذه الحياة في شكلها النهائيّ. فكّر في لينا للحظة، ورأى أنّ هناك علامة واضحة أرسلها القدر، وكانت موجودة في شغفها المفاجئ بجوليا. لأنّ هذا ساعده على معرفة عنوان المنزل في سافويا، وبشكل يعني في الوقت نفسه، أنّه عندما يأتي أورلاندو ورجاله إلى المكان، فلن تكون لينا موجودة فيه بعد. أي إنّ سفر كوادري بمفرده وبقاء لينا في باريس هما أمران يتطابقان تماماً مع خطّة

المهمّة. أمّا لو سارت الأمور بخلاف ذلك، فسيكون من الصعب معرفة كيف له هو وأورلاندو أن ينجزا تلك المهمّة.

نهض وصرخ على زوجته التي كانت تنزل لتنتظره في بهو الفندق، وخرج. كان هناك كابين هاتف في آخر الممرّ، فتوجّه إليها على مهل، وبطريقة شبه آليّة. ولم يخرج من ضباب أفكاره إلّا على صوت العميل وهو يسأله مازحاً: «إذاً يا دكتور، أين سنتناول هذا الغداء؟». ثمّ أخذ يخبر أورلاندو ببطء لكن بوضوح عن رحلة كوادري.



-V-

عندما ترجّل من التاكسي في طريق صغيرة من الحيّ اللاتيني، رفع مارتشيلّو بصره إلى اللافتة. قرأ عبارة *لو كوك أو فان* مكتوبة بأحرف بيضاء على خلفيّة بنّية اللون، وقد وضعت اللافتة على ارتفاع الطابق الأوّل من بيت رماديّ قديم. دخلا إلى المطعم: كان هناك أريكة من المخمل الأحمر تحيط بالصالة، وكانت الطاولات مصفوفة أمام الأريكة، بينما المرايا القديمة المربّعة الموضوعة ضمن إطارات مذهّبة تعكس النور الهادئ الصادر عن الثريّا الرئيسيّة، وكذلك رؤوس الزبائن القليلين. رأى مارتشيلّو في الحال كوادري وهو جالس إلى جانب زوجته، وهو أصغر منها بمقدار الرأس، يرتدي ملابس سوداء، ويتفحّص من فوق نظّارته قائمة الطعام. بينما كانت لينا تنتصب بثبات وهي بثوب مخمليّ أسود يبرز بياض ذراعيها وصدرها وشحوب وجهها، وكان يبدو أنّها كانت تراقب الباب بقلق. عندما رأت جوليا نهضت بسرعة، وكان البروفيسور وراءها، مخفياً وراءها. شدّت المرأتان على أيدي بعضهما بعضاً. وعندما رفع مارتشيلّو عينيه بطريقة عرضيّة، رأى ما لم تصدّقه عيناه على ضوء أصفر بسيط صادر عن إحدى المرايا، رأى رأس أورلاندو الذي كان ينظر إليه. في الوقت نفسه، ارتجّت ساعة المطعم ذات الرقّاص وبدأت تتلوّى وتصرخ بأحشائها المعدنيّة قبل أن تدقّ في النهاية دقّاتها لتعلن عن حلول الساعة الثامنة، فسمع عندها صوت لينا وهي تهتف بسرور: «ما أدقّ هذه المواعيد». ارتجف مارتشيلّو، ثمّ مدّ يده ليصافح اليد التي مدّها إليه كوادري، بينما واصل الرقّاص دقّ ضرباته المليئة بحزن رهيب ومهيب. وعندما دقّ الرقّاص ضربته الأخيرة بقوّة، وقام هو بالضغط على كفّ كوادري، تذكّر أن هذه المصافحة تعني بموجب اتّفاقاته الإشارة

لأورلاندو بالضحيّة، فكاد يشعر بإغراء مفاجئ يجبره على الانحناء وتقبيل كوادري على خدّه الأيسر، تماماً كما فعل يهوذا الذي قارن نفسه به مازحاً في ظهيرة ذلك اليوم. بل بدا له وكأنّه شعر بخشونة ذلك الخدّ تحت شفتيه، وتعجّب من مثل هذا الإيحاء القويّ. ثمّ رفع عينيه مرّة أخرى نحو المرآة: كان رأس أورلاندو لا يزال هناك، معلّقاً في الفراغ، وعيناه مثبّتتان عليهم. جلس الأربعة في نهاية الأمر جميعاً، هو وكوادري على الكراسي والمرأتان أمامهما، على الأريكة.

جاء نادل قبو النبيذ ومعه القائمة، فبدأ كوادري بطلب النبيذ بدقّة شديدة. بدا مستغرقاً كلّ الاستغراق في هذا الطلب وتناقش مطوّلاً مع النادل حول جودة أنواع النبيذ التي بدا أنّه يعرفها كلّها حقّ المعرفة. طلب في النهاية نبيذاً أبيض جافّاً مع أطباق السمك ونبيذاً أحمر مع أطباق المشاوي فضلاً عن شمبانيا بالثلج. أعقب هذا الشخص نادل المطعم، فتكرّر معه المشهد نفسه: مناقشات متخصّصة حول الطعام، وتردّد، وتأمّلات، وأسئلة، وأجوبة، ثم الترتيب النهائي لثلاثة أطباق، طبق مقبّلات، وطبق أسماك وطبق لحوم. في هذه الأثناء، كانت لينا وجوليا تتحدّثان بصوت منخفض، بينما بقيت عينا مارتشيلّو مثبّتتين على لينا، وهو غارق في نوع من الأحلام. بدا له أنّه ما زال يسمع الرقّاص بدقّاته الهائجة خلفه وهو يشدّ على يد كوادري، وبدا له أنّه يرى رأس أورلاندو المقطوع وهو ينظر إليه من المرآة، وفهم أنّه لم يحدث له البتّة أن وجد نفسه أمام قدره كما هو الآن، كأنّه حجر موجود وسط مفترق طرق، ينطلق من على جانبيه طريقان مختلفان لكن لا رجعة منهما، على سواء. جفل عندما سمع كوادري يسأله بنبرة من لامبالاته المعتادة: «هل تجوّلت في باريس؟».

«أجل، نوعاً ما».

«هل أعجبتك؟».

«جدّاً».

قال كوادري كما لو أنّه يكلّم نفسه ويتفضّل على مارتشيلّو: «أجل، إنّها مدينة رائعة. لكنّي أودّ لو أنّك تركّز انتباهك على هذه النقطة التي ذكرتها لك

اليوم: أنّها ليست تلك المدينة المنحرفة والمليئة بالفساد التي تتحدّث عنها الصحف في إيطاليا... لابدّ أنّك تظنّ بها كذلك، لكنّ هذه الأفكار لا تتطابق مع الحقيقة».

قال مارتشيلّو بنوع من الدهشة: «ليست لديّ هذه الأفكار عنها». فقال البروفيسور من غير أن ينظر إليه: «يدهشني أنّك لا تراها كذلك. فكلّ الشباب من جيلك لديهم أفكار من هذا النوع... يظنّون أنّهم لن يكونوا أقوياء إن لم يكونوا متشدّدين، ويرون أنّ عليهم اختلاق كبش فداء غير موجود كي يصبحوا متشدّدين».

قال مارتشيلّو بجفاء: «لا يبدو لي بالفعل أنّي متشدّد».

قال البروفيسور: «أنا متأكّد أنّك كذلك، وسأبرهن لك الآن على ذلك». انتظر حتّى وضع النادل صحون المقبّلات، قبل أن يستأنف: «فلنر... أراهن أنّك دهشت في نفسك بينما كنت أنا أطلب أنواع النبيذ وتساءلت كيف لي أن أعرف هذه الأشياء... أليس كذلك؟».

كيف له أن يعلم؟ اعترف مارتشيلّو عن سوء خاطر: «يمكن أن تكون على حقّ... لكن ليس في هذا أيّ خطأ... فكّرت بهذا لأنّ مظهرك يدلّ على أنّك رجل، متصلّب، بحسب تعبيرك؟».

فكرّر البروفيسور: «لكن ليس إلى الحدّ الذي أنت فيه يا ابني العزيز»، ثمّ واصل كلامه: «ولنستمرّ في الكلام... أخبرني بالحقيقة: أنت لا تحبّ النبيذ ولا تفهم بشؤون النبيذ».

فقال مارتشيلّو: «لا، فالحقيقة أنّي لا أشرب البتّة تقريباً، لكن ما أهميّة هذا؟».

قال كوادري بهدوء: «كبيرة، أهميّة كبيرة... كما أنّي أراهن بالمثل أنّك لا تقدّر المائدة اللذيذة».

فبدأ مارتشيلّو بالقول: «لمجرّد الأكل» عقّب البروفيسور ثم أنهى حديثه بنبرة المنتصر: «... وأخيراً فأنت حذر بالتأكيد في موضوع الحبّ... على سبيل المثال، إذا أنت رأيت زوجين يتبادلان القبل في حديقة عامّة، فإنّ أوّل ما تشعر به هو الإدانة والاشمئزاز، بل وتستنتج على الأرجح أنّ المدينة بأسرها التي تقع فيها الحديقة هي مدينة وقاحة وقلّة حياء... أليس كذلك؟».

أدرك مارتشيلّو الآن إلى أين يريد كوادري أن يصل. فقال بجهد: «أنا لا أستنتج أيّ شيء... الصحيح فقط هو أنّني لم أولد على الأرجح بحبّ هذه الأشياء».

«ليس هذا وحسب، لكنّك ترى أنّ من يحبّ هذه الأشياء هو مذنب ومدان... اعترف بالحقيقة».

«هذا غير صحيح، أعتبرهم مختلفين عنّي، هذا كلّ ما في الأمر».

«من هو ليس معنا فهو ضدّنا»، قال البروفيسور وقد دخل بعنف في السياسة: «هذه من الشعارات التي تتكرّر اليوم بكلّ سرور في إيطاليا وأماكن أخرى، أليس كذلك؟»، لكنّه كان قد بدأ في هذه الأثناء في تناول الطعام بنهم لدرجة أنّ نظّارته انزاحت عن عينيه.

قال مارتشيلّو بجفاء: «لا يبدو لي أنّ للسياسة دخلاً في هذه المواضيع».

قالت لينا: «ادموندو».

«عزيزتي».

«كنت قد وعدتني أنّنا لن نتحدّث بالسياسة». فقال كوادري: «لكنّنا في الواقع لا نتحدّث بالسياسة، نتكلّم عن باريس... والخلاصة بما أنّ باريس هي مدينة يحبّ الناس فيها الشراب والطعام والرقص وتبادل القبل في الحدائق، أي التسلّي... فأنا على ثقة أنّه لا يمكن لك إلّا أن تحكم على باريس بحكم معاد».

لم ينبس مارتشيلّو هذه المرّة بكلمة. لكنّ جوليا أجابت عنه مبتسمة: «أمّا بالنسبة إليّ فإنّ الناس في باريس يعجبونني جدّاً... وهم على ما هم عليه من مرح شديد».

فأيّدها البروفيسور مباشرة: «رائع، لكن عليك يا سيّدتي أن تعالجي زوجك».

«لكنّه ليس مريضاً».

قال البروفيسور ورأسه منحن فوق الطبق: «بلى، إنّه مريض بالتصلّب»، ثمّ أضاف وكأنّما يتكلّم من بين أسنانه: «أو بالأحرى فإنّ التصلّب ليس إلّا من أعراض المرض».

بدا الآن من الواضح أمام مارتشيلّو أنّ البروفيسور الذي قالت لينا إنّه يعرف كلّ شيء عنه، أخذ يتسلّى باللعب معه لعبة القطّ مع الفأر. لكنّه لم يتمكّن عند هذا الحدّ إلّا أن يفكّر أنّ هذه لعبة بريئة إذا قيست بلعبته الداكنة التي بدأها هذه الظهيرة في بيت كوادري والتي ستنتهي بطريقة دمويّة في فيلّا سافويا. ثمّ سأل لينا بنوع من الغواية الحزينة: «لكن هل أبدو بهذا التصلّب... حتى بالنسبة إليك؟».

رآها تنظر إليه بنظرة باردة ومتكاسلة خمّن بألم أنّ فيها نفوراً عميقاً لا بدّ أنّها تشعر به تجاهه. بدا بعد ذلك واضحاً أنّ لينا قرّرت العودة إلى دور المرأة المغرمة الذي قرّرت أن تمثّله، ذلك أنّها ما لبثت أن انتزعت ابتسامة من شفتيها: «أنا لا أعرفك بما فيه الكفاية... لكنّك تعطي بالتأكيد انطباعاً بأنّك جدّيّ بالفعل».

قالت جوليا وهي تنظر بمحبّة إلى زوجها: «آه، هذا صحيح بالفعل... تصوّري أنّي لم أره يبتسم أكثر من بضع مرّات... إنّه جدّيّ، هذه هي الكلمة الصحيحة».

أخذت لينا تحدّق به الآن بثبات، وباهتمام مقيت: «لا» ، ثمّ أضافت ببطء: «لا، لقد أخطأت... جدّيّ ليست هي الكلمة الصحيحة... يجب القول إنّه قلق». «قلق، من ماذا؟».

رأى مارتشيلّو أنّها قد انكمشت بلا مبالاة بين كتفيها: «لا أعرف عن هذا بالفعل». لكنّه شعر ووسط دهشته الكبيرة أنّ قدمها أخذت من تحت الطاولة تلمس قدمه، ببطء في البداية وبطريقة مقصودة، ثمّ بدأت بعد ذلك تضغط عليها. قال كوادري بطيبة قلب: «لا تقلق كثيراً يا كليريشي من ظهورك بمظهر القلق... فهذه كلّها أحاديث لتمضية الوقت... أنت في شهر عسل... عليك ألّا تهتمّ إلّا بهذا... أليس هذا صحيحاً أيّتها السيّدة؟». وابتسم لجوليا ابتسامته التي تبدو كأنّها تكشيرة إعاقة. فابتسمت جوليا بدورها وقالت بسرور: «ربّما كان مشغول البال بهذا الأمر، أليس كذلك يا مارتشيلّو؟». واصلت لينا الضغط على قدمه، فجعله لمسُها يشعر بنوع من إحساس الازدواجيّة، كأنّ الغموض قد انتقل من علاقات الحبّ إلى حياته كلّها،

وكأنّ الوضع الواحد أصبح الآن وضعين: كان يدلّ في الأوّل منهما أورلاندو على كوادري قبل أن يعود إلى إيطاليا مع جوليا، بينما يقوم في الثاني بإنقاذ كوادري، والتخلّي عن جوليا، والبقاء في باريس مع لينا. تقاطعت الحالتان، مثل صورتين متراكبتين، واختلطت بألوان مختلفة من مشاعر الندم والرعب، والأمل والكآبة، والاستسلام والتمرّد. كان يعلم حقّ العلم أنّ لينا لا تضغط على قدمه إلّا خدعة ولتبقى على وفائها لدورها كامرأة في حال الحبّ، لكنّه كان يأمل مع ذلك، وبغضّ النظر تقريباً عن هذا، ألا يكون الأمر صحيحاً وأنّها تحبّه بالفعل. تساءل في الوقت نفسه، لماذا اختارت لينا هذه الحركة بالذات، التقليديّة جدّاً والفظّة بالفعل، من بين العديد من الحركات التي تعبّر عن المشاركة العاطفيّة، فبدا له من جديد أنّ هذا الاختيار يتكشّف عمليّاً عن أحاسيس ازدرائها المعتادة، كأنّما يتعلّق الأمر بشخص يمكن أن يخدع بغير كثير من التدقيق والابتكار. في هذه الأثناء كانت لينا تقول وهي ما زالت تضغط على قدمه وتنظر إليه بثبات وإصرار: «وعلى سيرة شهر العسل... لقد سبق وأن كلّمت جوليا بالأمر، لكنّي أعلم أنّ جوليا لن تجرؤ على فتح هذا الحديث معك، لذلك فإنّي أسمح لنفسي بأن أقدّم الاقتراح مباشرة... فلماذا لا تنهيان شهر العسل في سافويا؟ لدينا؟... نحن سنبقى هناك طيلة الصيف... ولدينا غرفة جميلة خاصّة بالضيوف... ابقيا عندنا لأسبوع، لعشرة أيّام... كما تشاءان... ثمّ تعودان من هناك مباشرة إلى إيطاليا». فقال مارتشيلّو في نفسه، وبشيء من خيبة الأمل، هكذا إذاً، هذا هو سبب ذلك الضغط على قدمي. ثمّ فكّر، لكن بنوع من المقت هذه المرّة، أنّ الدعوة لسافويا تتوافق تماماً مع خطّة أورلاندو، لأنّه بقبول الدعوة سيحجزان لينا في باريس فيتوفّر الوقت كلّه لأورلاندو كي ينتهي من أمر كوادري هناك في الجبل. لذلك فقد قال ببطء: «من جهتي لا أمانع البتّة في القيام برحلة إلى سافويا... لكن ليس قبل أسبوع... أي بعد أن ننهي زيارتنا لباريس».

فقالت لينا في الحال، بلهجة المنتصر: «رائع، هذا يعني أنّه يمكن لكما السفر معي إلى هناك... زوجي سيسبقني غداً، أمّا أنا فعليّ أن أبقى أسبوعاً آخر في باريس».

شعر مارتشيلّو أنّ قدم المرأة قد كفّت عن الضغط على قدمه. فبعدما

انتهت الضرورة التي سببّت ذلك، انتهى الإغراء أيضاً، بل إنّ لينا لم تشأ حتى أن ترميه بنظرة شكر. تحوّلت عيناه عن لينا باتّجاه زوجته، فرأى أنّها تبدو غير راضية. وفي الواقع فإنّها قالت: «آسف لأنّي لا أوافق زوجي... وآسف أيضاً لأنّني قد أبدو غير مؤدّبة معك أيّتها السيّدة كوادري... لكنّه من المستحيل علينا الذهاب إلى سافويا».

فلم يتمكّن مارتشيلّو إلّا أن يهتف: «لماذا؟ بعد باريس...».

«تعرف أنّه علينا أن نذهب بعد باريس إلى الشاطئ الأزرق، لزيارة أصدقائنا أولئك». كانت هذه كذبة، فليس لهما أصدقاء في الشاطئ الأزرق. وفهم مارتشيلّو أنّ جوليا تكذب لتتخلّص من لينا ولتبرهن له في الوقت نفسه عن عدم مبالاتها بالمرأة. لكنّ هناك خطراً أن تسافر لينا مع كوادري بعد أن تضايقت من رفض جوليا. لذلك كان لا بدّ من تسوية الأمر، والعمل على حمل زوجته المتردّدة على قبول الدعوة. فقال بسرعة: «آه، يمكن لنا حتّى أن نتخلّى الآن عن أولئك الأصدقاء... لدينا متّسع من الوقت كي نراهم فيما بعد».

بينما هتفت لينا: «الشاطئ الأزرق... يا للرعب». ثمّ أضافت بمرح وقوّة وبصوت غنائيّ، بعد أن سرّت لمساعدة مارتشيلّو لها: «ومن يذهب اليوم إلى الشاطئ الأزرق... سيّاح جنوب أمريكا وحسب».

فقالت جوليا بإصرار: «أجل، لكن عندنا التزام». أحسّ مارتشيلّو من جديد بقدم لينا تضغط على قدمه، فبذل جهداً كي يسأل: «هيّا يا جوليا ، لماذا لا نقبل؟».

فأجابت وهي تحني رأسها: «إذا كنت ترغب بالفعل».

على وقع هذه الكلمات، رأى لينا وهي تلتفت نحو جوليا بوجه قلق وحزين وغاضب ومندهش، ثمّ صرخت بنوع من الذعر الذي انعكس في صوتها: «لكن لماذا، هل لمشاهدة ذلك الشاطئ الأزرق المرعب؟ هذه ليست إلّا رغبة أناس ريفيّين... الريفيّون فقط يريدون زيارة الشاطئ الأزرق... أؤكّد لك أن لا أحد يمكنه أن يتردّد مكانك... هيّا بنا، هيّا» ثمّ أضافت فجأة وبحيويّة يائسة: «لكن لا بدّ أنّ هناك سبباً لا تريدين أن تفصحي عنه... بل ربّما كنّا أنا وزوجي لا نروق لك».

لم يتمكّن مارتشيلّو إلّا أن يعجب بهذا العنف العاطفيّ الذي سمح للينا أن تمثّل دور حبّ لجوليا بحضوره وبحضور كوادري. احتجّت جوليا بنوع من الدهشة: «لكن بحقّ السماء ... ماذا تقولين؟».

كان كوادري يتلذّذ بطعامه على ما يبدو أكثر ممّا يستمع إلى المحادثة، فقال بلا مبالاته المعتادة: «لينا، إنّك تحرجين السيّدة... حتّى لو كانت تكرهنا بالفعل، كما قلت، فهي لن تخبرنا بهذا أبداً».

لكنّ المرأة تابعت من غير أن تلتفت لزوجها: «أجل، نحن لا نروق لها، أو بالأحرى فإنّي أنا التي لا أروق لها... أليس صحيحاً يا عزيزتي...»، ثمّ أضافت وهي تلتفت نحو مارتشيلّو بتلك الحيويّة اليائسة والأنيقة والمبطّنة: «نظنّ أحياناً أنّنا لطفاء، لكنّنا نرى أحياناً أنّ الأشخاص الذين نريد أن نبدو لهم لطفاء، هم بالذات من لا يستطيعون أن يطيقوننا... قولي الحقيقة يا عزيزتي، إنّك لا تطيقينني... بل، وبينما أنا أصرّ كالأغبياء على أن تأتي معنا إلى سافويا، فأنت تفكّرين: ماذا تريد منّي هذه المجنونة؟... كيف لها ألّا تلاحظ أنّي لا أستطيع تحمّل وجهها، ولا صوتها، ولا تصرّفاتها، ولا كلّها على بعضها باختصار شديد؟ قولي الحقيقة، إنّك تفكّرين في هذه اللحظة بأشياء من هذا النوع».

رأى مارتشيلّو أنّها تخلّت الآن عن كلّ حذر ورويّة. وإذا كان بوسع زوجها أن لا يعلّق ربّما أيّ أهميّة على هذه التلميحات الأليمة، فإنّه هو، لا يمكن له إلّا بصعوبة أن لا يدرك من كانت تخاطب بالفعل، خاصّة وأنّ كلّ ذلك الإلحاح في تمثيلها كان موجّهاً بالفعل. احتجّت جوليا بهدوء ودهشة: «لكن انظروا إلى ما تفكّر فيه... أريد حقّاً أن أعرف لماذا تفكّر في هذه الأشياء».

صاحت المرأة الحزينة: «إذاً فهذا صحيح، أنا لا أروق لها. انظر يا ادموندو، لقد قلت :إنّ السيّدة لن تصرّح بهذا... لكنّها صرّحت وقالت: أنا لا أروق لها».

قالت جوليا وهي تبتسم: «أنا لم أقل هذا بالضبط، بل إنّي لم أحلم به حتّى...».

«لم تقولي ذلك لكن هذا ما أردت أن يفهم من كلامك».

قال كوادري من غير أن يرفع عينيه عن طبقه: «لينا، إنّي لا أفهم هذا الإصرار من قبلك... لماذا يجب ألّا تروقي للسيّدة كليريشي؟ إنّها لا تعرفك إلّا من بضع ساعات، وعلى الأرجح فهي لا تشعر بأي شعور خاصّ».

فهم مارتشيلّو أنّ عليه أن يتدخّل من جديد، وكانت عينا لينا تفرض عليه ذلك، وهما غاضبتان، مهينتان تقريباً من شدّة الازدراء والتسلّط. لم تعد تضغط الآن على قدمه، لكنّها، تظاهرت وبنوع من التهوّر الأعمى، عندما وضع يده على الطاولة، بأنّها تريد تناول الملح فضغطت على أصابعه. فقال بنبرة تصالحيّة حاسمة: «لكنّنا، أنا وجوليا، نشعر نحوك بودّ شديد... لذلك فإنّنا نقبل بكلّ سرور هذه الدعوة... سنأتي بالتأكيد... أليس كذلك يا جوليا؟».

استسلمت جوليا فجأة وقالت: «هذا مفهوم، لم أتردّد إلّا بسبب ذلك الالتزام... لكنّنا كنّا نريد القبول».

«جيّد جدّاً... تفاهمنا إذاً... سنغادر جميعاً في غضون أسبوع». ثمّ بدأت لينا بتألّق، وعلى الفور، بالتحدّث عن الجولات التي سيقومون بها في سافويا، وعن جمال تلك الأماكن، وعن المنزل الذي سيقيمون فيه. ومع ذلك، فقد لاحظ مارتشيلّو أنّها كانت تتحدّث بارتباك، بل تخضع، كما يمكن أن يقال، إلى رغبة بالغناء، كأنّها طائر يشعر بالفرح لشعاع شمس يدخل فجأة إلى قفصه، وليس نتيجة حاجة إلى قول أشياء معيّنة أو تقديم معلومات معيّنة. ومثلما يستمدّ الطائر حيويّة من غنائه بالذات، فإنّها بدت وكأنّها ثملة من وقع صوتها الذي كانت ترتعش فيه بلا حذر بهجة غير مكبوتة. بعد أن شعر أنّ المحادثة بين المرأتين قد استبعدته، رفع مارتشيلّو عينيه بطريقة تكاد تكون آليّة، نحو المرآة المعلّقة خلف كتفيْ كوادري: كان رأس أورلاندو الطيّب الصادق موجوداً هناك، ما زال معلّقاً في الفراغ، مقطوعاً لكنّه حيّ. لكنّ رأسه لم يعد وحده في المرآة، فقد ظهر الآن طرف وجه، لم يكن أقلّ صفاءً ولا أقلّ غرابة، وكان هذا الرأس يتكلّم مع رأس أورلاندو. كان كرأس طير معقوف الأنف لكن ليس فيه أيّ شيء من الطيور الكاسرة، بل هو من

فصيلة أخرى أدنى، بائسة، له عينان غائرتان، صغيرتان، مطفأتان تحت جبهة منخفضة، وأنف كبير حزين ومعقوف، وخدّان غائرتان مليئتان بظلال حادّة، والفم صغير والذقن منكمشة متقلّصة. أمعن مارتشيلّو في مراقبة هذه الشخصيّة وهو يتساءل فيما إذا سبق له وأن رآها. ثمّ جفل على صوت كوادري وهو يسأله: «بالمناسبة يا كليريشي، إذا طلبت منك خدمة... هل تفعلها لي؟».

كان هذا سؤالاً غير متوقّع. ولاحظ مارتشيلّو أنّ كوادري قد انتظر قبل أن يسأله حتّى تسكت زوجته في نهاية الأمر: «حتماً، إذا كنت قادراً على ذلك».

بدا له أنّ كوادري كان ينظر قبل أن يتكلّم إلى زوجته، كما لو أنّه يريد أن يتلقّى منها تأكيداً على اتّفاق سبق وأن ناقشاه وقرّراه. قال كوادري بعد ذلك بنبرة حلوة وساخرة في الوقت نفسه: «إنّك لا تجهل حتماً ما هو نشاطي هنا في باريس ولماذا لم أرجع أنا إلى إيطاليا... ولدينا الآن أصدقاء في إيطاليا نتراسل معهم بالطرق التي نقدر عليها... تكمن إحدى هذه الطرق بأن نعهد برسائلنا إلى أشخاص غير سياسيّين أو لا يشكّ في قيامهم بأنشطة سياسيّة... فكّرت أنّ بوسعك أن تحمل معك رسالة من هذه الرسائل معك إلى إيطاليا... وأن تضعها في أول محطّة يصدف أنّك تمرّ بها... مثل تورينو». تبع ذلك صمت. أدرك مارتشيلّو أنّ طلب كوادري لا يهدف إلّا إلى وضعه على محكّ التجربة، أو لإحراجه. وفهم أيضاً أنّ هذا الطلب قد نسّقه مع لينا. ولا بدّ أنّ كوادري، الوفيّ لطريقته في الإقناع، قد أقنع زوجته على الأرجح بأنّ هذه مناورة مناسبة، وإن كانت لن تعدّل من عداوتها نحوه. بدا له أنّه خمّن ذلك بسبب وجهها المتوتّر، والبارد والغاضب. أمّا ما هي الأهداف التي يتوخّاها كوادري فهذا ما لم يتمكّن من سبر أغواره. لكنّه أجاب ليكسب بعض الوقت: «لكن إذا اكتشفوني، سينتهي بي الأمر في السجن».

ابتسم كوادري وأجاب مازحاً: «لن تكون هذه مشكلة كبيرة... بل إنّ هذا سيفيدنا أيضاً... ألا تعرف أنّ الحركات الثوريّة بحاجة إلى شهداء وضحايا؟». قطّبت لينا حاجبيها لكنّها لم تقل شيئاً. بينما نظرت جوليا بقلق نحو مارتشيلّو: كان من الواضح أنّها تريد أن يرفض زوجها. فأجاب مارتشيلّو ببطء: «أي إنّك تريد عملياً أن يتمّ اكتشاف الرسالة».

قال البروفيسور: «هذا، لا»، ذلك وهو يصبّ لنفسه النبيذ بلا مبالاة لعوب لا يعرف هو أيضاً سببها، ممّا أوحى فجأة لمارتشيلّو نوعاً من الشفقة. «إن أهمّ ما نريده نحن هو أن يتورّط أكبر عدد ممكن من الناس فينضمّون إلى صفوفنا... ودخول السجن من أجل قضيّتنا هو مجرّد طريقة من الطرق الكثيرة التي تورّطهم ليقاتلوا معنا... لكنّها ليست بالتأكيد الطريقة الوحيدة». احتسى من شرابه ببطء، ثمّ أضاف بجدّيّة، وبطريقة غير متوقّعة: «لكنّي اقترحت ذلك عليك بطريقة غير رسميّة... إذا صحّ القول... فأنا أعرف أنّك سترفض». فقال مارتشيلّو بعد أن وازن بين أطراف هذا الاقتراح، ما له وما عليه: «لقد حزرت، هذا يؤسفني، لكنّي لا أستطيع أن أسدي لك هذا المعروف».

أسرعت جوليا وعقّبت قائلة بشيء من الخوف: «لا يتدخّل زوجي في السياسة، إنّه موظّف في الدولة... وخارج هذه الأمور».

قال كوادري بنوع من التسامح الذي يبدو ودّيّاً إلى حدٍّ كبير: «هذا مفهوم، مفهوم... موظّف في الدولة».

بدا لمارتشيلّو أنّ كوادري قد سرّ بطريقة غريبة من جوابه. أمّا زوجته فقد بدا أنّها مرتابة، فسألت جوليا بنبرة عدائيّة: «ولماذا تخافين كلّ هذا الخوف من أن يهتمّ زوجك بالسياسة؟».

أجابت جوليا بطريقة طبيعيّة: «وما هي فائدة هذا؟ عليه أن يفكّر بمستقبله وليس بالسياسة».

فقالت لينا وهي تلتفت نحو زوجها: «انظر كيف تفكّر النساء في إيطاليا، وتعجب بعد ذلك من أن تسير الأمور على ما تسير عليه».

انزعجت جوليا: «لا علاقة في الواقع لإيطاليا بذلك... فالنساء في أيّ بلد لا بدّ أن يفكّرن في ظلّ ظروف معينة، بهذه الطريقة نفسها... لو كنت أنت أيضاً تعيشين في إيطاليا، فلا بدّ أنّك ستفكّرين كما أفكّر».

«هيّا، لا تغضبي» قالت لها لينا بضحكة داكنة وحزينة وحنونة، وهي تمرّ بيدها، في مداعبة سريعة، حول وجه جوليا المتعب: «كنت أمزح... ربّما كنت أنت على حقّ... على كلّ فأنت رائعة عندما تدافعين عن زوجك

وتغضبين له... أليس كذلك يا ادموندو، أليست رائعة بالفعل؟» قام كوادري بحركة مشتّتة تدلّ على بعض الانزعاج، كأنّها تعني: «أحاديث نساء!» ثمّ تابع بجدّيّة: «أنت محقّة يا سيّدتي.. يجب ألّا يوضع الإنسان في وضع الاختيار بين الحقيقة والخبز».

رأى مارتشيلّو أنّ الموضوع قد انتهى. ومع ذلك، فقد بقي لديه فضول لمعرفة السبب الحقيقيّ وراء ذلك الاقتراح. قام النادل بتغيير الأطباق ووضع سلّة مليئة بالفواكه على الطاولة. ثمّ جاء نادل القبو وسأل إذا كان بإمكانه فتح زجاجة الشمبانيا. فقال له كوادري: «أجل، افتحها».

أخذ نادل القبو الزجاجة من السطل، ولفّ رأسها بمنديل، وسحب غطاء الفلّين ثمّ سكب النبيذ الرغويّ مباشرة في الأقداح. وقف كوادري، وكأسه في يده، قال: «لنشرب في صحّة القضيّة». ثمّ أضاف وهو يتوجّه نحو مارتشيلّو: «لم ترغب بحمل الرسالة، لكنّك قد تشارك على الأقلّ في هذا النخب، أليس كذلك؟» بدا متأثّراً وعيناه تبرقان بالدموع. ومع ذلك، فقد كان هناك، على ما لاحظ مارتشيلّو، نوع من المكر وشيء من الحسابات سواء في حركة النخب أو في تعابير وجهه. نظر إلى جوليا وإلى لينا قبل أن يجيب على النخب. كانت جوليا قد نهضت على قدميها، فأشارت إليه بعينيها كأنّما تعني: «يمكن لك أن تجيب على النخب». أمّا لينا فقد وقفت والكأس في يدها، لكنّها بدت منزعجة، باردة، كأنّها تشعر بالملل. نهض مارتشيلّو وقال: «في صحّتكم، وفي صحّة القضيّة». ثمّ عمل على قرع كأسه بكأس كوادري. لكنّه أراد، مع ذلك، أن يضيف في ذهنه، وبسبب وسوسة شبه طفوليّة: «وصحّة قضيّتي»، ذلك بالرغم ما بدا له من أنّه لم يعد لديه أيّ قضيّة يدافع عنها، بل مجرّد واجب مؤلم وغير مفهوم عليه أن يفي به. ثمّ لاحظ بأسف شديد أنّ لينا كانت تتجنّب قرع كأسها بكأسه. أمّا جوليا فقد بالغت في الودّ، فجرت وراء كأس كلّ منهم، وهي تذكر أسماءهم بشكل محزن: «لينا، سيّد كوادري، مارتشيلّو». عمل رنين الكؤوس الحادّ، رغم أنّه خافت، على جعله يرتجف من جديد، كما فعلت معه دقّات الساعة. رفع نظره، إلى المرآة، فرأى رأس أورلاندو معلّقاً في وسطها، وهو يحدّق به بعينين برّاقتين بلا تعابير، تماماً مثل عيني رأس مقطوع. مدّ كوادري كأسه إلى نادل القبو فملأه له من

جديد. التفت بعد ذلك نحو مارتشيلّو بشيء من العاطفيّة، ورفع كأسه وهو يقول: «والآن في صحّتك الشخصيّة، يا كليريشي... وشكراً لك»، ذلك وهو يشدّد على كلمة «شكراً» بنبرة تلميح، أفرغ كأسه برشفة واحدة ثمّ جلس.

شربوا في صمت لبضع دقائق. وكانت جوليا قد أفرغت كأسها مرّتين وأخذت تنظر إلى زوجها وعلى وجهها الثمل تعابير رقيقة من الامتنان. ثمّ صرخت فجأة تقول: «كم هي لذيذة هذه الشمبانيا... قل يا مارتشيلّو، ألا ترى أنّها شمبانيا رائعة؟».

اعترف وقال: «بلى، إنّه نبيذ جيّد جدّاً».

قالت جوليا: «لكنّك لا تقدّرها بما فيه الكفاية، إنّها لذيذة حقّاً... وقد ثملت منها بالفعل». ضحكت وهي تهزّ رأسها، ثمّ أضافت فجأة وهي ترفع كأسها: «هيّا يا مارتشيلّو، دعنا نشرب نخب حبّنا».

رفعت كأسها نحوه، وهي تضحك ثملة. كان البروفيسور ينظر إليهما من بعيد. بينما وقفت لينا ببرود والاشمئزاز يعلو وجهها، من غير أن تخفي استنكارها. غيّرت جوليا رأيها على الفور. وصرخت: «لا، فأنت متشدّد للغاية، هذا صحيح... لذلك لا بدّ أن تخجل من شرب نخب حبّنا... سأشرب النخب بمفردي إذاً، نخب الحياة التي طالما أحببتها، وهي جميلة جدّاً... في نخب الحياة». شربت ببهجة واندفاع أخرق، حتّى أنّ بعض النبيذ انسكب على الطاولة، فصرخت وهي تبلّل أصابعها بالنبيذ: «هذه علامة الحظّ السعيد»، ثمّ حاولت أن تلمس بأصابعها صدغي مارتشيلّو. فلم يستطع هذا إلّا أن يقوم بحركة كما لو ليحمي نفسه. فوقفت جوليا وهي تصيح: «أنت تخجل... حسناً، أمّا أنا فلا»، وهكذا فقد استدارت حول الطاولة، وذهبت لاحتضان مارتشيلّو، وكادت أن تسقط فوقه وهي تقبّله بقوّة على فمه. ثمّ قالت بتحدّ: «نحن في شهر العسل»، ثمّ عادت إلى مقعدها وهي تلهث وتضحك. «نحن في شهر عسل وليس لممارسة السياسة وأخذ رسائل إلى إيطاليا».

قال كوادري بهدوء، وهو الذي بدا أنّ هذه الكلمات موجّهة إليه: «أنت على حقّ، يا سيّدتي». وقع مارتشيلّو في حيرة من أمره بين تلميح كوادري الواعي وتلميحات زوجته غير الواعية والبريئة، فقرّر أن يسكت

ويخفض بصره. انتظرت لينا حتّى انقضت لحظة الصمت، ثمّ سألت وكأنّما بالمصادفة: «ماذا ستفعلان في الغد؟».

أجاب مارتشيلّو وهو يزيل بمنديله أحمر شفاه جوليا من على فمه: «سنذهب إلى فرساي».

فأسرعت لينا وقالت: «سآتي معكما. يمكن لنا أن ننطلق في الصباح ونتناول الفطور هناك... سأساعد زوجي على حزم حقائبه ثمّ آتي لأخذكما».

قال مارتشيلّو: «هذا رائع». لكنّ لينا ما لبثت أن أضافت: «كان بودّي أن نذهب بالسيّارة... لكنّ زوجي سيأخذها: علينا إذاً أن نستقلّ القطار... هذا أشدّ مرحاً»، لم يبد أنّ كوادري قد سمع، لأنّه كان يدفع الحساب، وهو يسحب بحركات الأحدب أوراق النقود المطويّة أربع طيّات من جيب بنطاله المقلّم. حاول مارتشيلّو أن يقدّم بعض النقود، لكنّ كوادري رفض ذلك قائلاً: «ستدفع أنت مرّة أخرى... في إيطاليا». قالت جوليا بغتة بصوت ثمل ومرتفع جدّاً:

«سنبقى في سافويا سويّة... لكنّي أريد أن أذهب إلى فرساي، وحدي أنا وزوجي».

قالت لينا بسخرية وهي تنهض عن الطاولة: «شكراً، على كلّ هذا هو الكلام الواضح».

شعر مارتشيلّو بالحرج وقال: «لا تستائي، هذا هو تأثير الشمبانيا...».

فصرخت جوليا قائلة: «لا، إنّه بسبب حبّي لك أيّها الأحمق». ثمّ توجّهت مع البروفيسور نحو الباب، وهي تضحك. سمعها مارتشيلّو وهي تضيف: «هل يبدو لك أنّه ليس من العدل أن أبقى وحدي مع زوجي خلال شهر العسل؟».

أجاب كوادري بحلاوة: «لا، يا عزيزتي، بل هو عدل جدّاً». فعلّقت لينا بنبرة حادّة: «لم أفكّر بهذا، يا لي من حمقاء... إنّ الرحلة إلى فرساي هي من التقاليد بالنسبة إلى العرسان».

أراد مارتشيلّو أن يمرّ كوادري قبله من الباب. سمع وهو يخرج دقّات الرقّاص وهي تشير إلى العاشرة.

-VI-

في الخارج ، جلس البروفيسور خلف مقود السيّارة، وترك بابها مفتوحاً. قالت لينا لجوليا: «يمكن لزوجك أن يجلس في الأمام مع زوجي، وتجلسين أنت معي في الخلف». لكنّ جوليا أجابت بصوت ساخر ومخمور: «لماذا؟ بالنسبة إليّ، أنا أفضّل الجلوس في الأمام»، ثمّ حزمت أمرها وجلست إلى جانب كوادري. وهكذا فقد وجد مارتشيلّو ولينا نفسيهما بجوار بعضهما البعض على المقاعد الخلفيّة.

أراد مارتشيلّو الآن أن يأخذ المرأة على كلامها وأن يتصرّف كما لو أنّها تحبّه حقّاً. كان هناك في هذه الرغبة، فضلاً عن دوافع حبّه بالانتقام منها، نوع من بقيّة أمل: كما لو أنّه لا يزال، في نهاية المطاف، وبطريقة متناقضة ولا إراديّة، على أوهامه فيما يخصّ مشاعر لينا نحوه. تحرّكت السيّارة، ثمّ أبطأت سرعتها في مكان مظلم قبل أن تتحوّل نحو شارع جانبيّ. استغلّ مارتشيلّو هذا الظلام، وأمسك بيد لينا الموضوعة على ركبتيها، ووضعها بينهما على المقعد. رأى أنّها التفتت، عند هذا الاتّصال، بحركة غاضبة، ما لبث أن تحوّلت على الفور إلى حركة من التواطؤ الزائف الذي يختلط بنوع من التحذير المتوسّل. كانت السيارة تعبر درباً تلو الآخر من دروب الحيّ اللاتيني الضيّقة، بينما بقي مارتشيلّو يمسك بيد لينا. وشعر بها داخل يده، كانت متوتّرة كلّ التوتّر، وكأنّما ترفض مداعبته ليس فقط بعضلاتها، بل يمكن أن يقال، حتّى ببشرتها، وسط حركة تبدو عاجزة بالأصابع يبدو فيها أنّ الاشمئزاز والسخط والغضب تختلط كلّها فيما بينها. انحرفت السيّارة عند منعطف فارتميا على بعضهما البعض. عندها أمسك مارتشيلّو لينا من مؤخّرة رقبتها، كما تمسك القطّة كي لا تلتفت وتخدش، وأدار لها رأسها نحوه، ثمّ قبّلها على فمها.

حاولت في البداية أن تحرّر نفسها، لكنّ مارتشيلّو ضغط بقوّة أكبر على مؤخّرة العنق الحليقة والنحيلة، كأنّها عنق فتى صغير. هنا توقّفت لينا عن المقاومة وخضعت لقبلته، رغم شيء من أنين ألم خفيّ خافت. لكنّ شفتيها، على ما اتّضح لمارتشيلّو، بقيت ملتوية في تكشيرة اشمئزاز. كما أنّ يدها التي لا تزال في يده، أخذت تغرز في الوقت نفسه، أظافرها الحادّة في راحة يده: وإذا كانت هذه الحركة شهوانيّة، فإنّ مارتشيلّو أدرك أنّها مشحونة في الواقع بالاشمئزاز والنفور. أطال القبلة لأطول فترة ممكنة، وهو ينظر تارة في عينيها المتلألئين بالكراهية ونفاد الصبر، وتارة أخرى في رأسي جوليا وكوادري المنصوبين أمامه أسودين بلا حراك. أضاءت مصابيح سيّارة جاءت مقابلهم الزجاجَ الأماميّ لسيّارتهم: فترك مارتشيلّو لينا وألقى بنفسه إلى الخلف على المقعد.

رآها، من زاوية عينه، أنّها ارتمت هي الأخرى على مقعدها، ثمّ، رفعت، ببطء، منديلها إلى فمها، لتمسحه بردّة فعل آليّة مليئة بالاشمئزاز. تملّكه شعور بالألم، يائس، مظلم، مخيف، عندما رأى بأيّ عناية وقرف كانت تمسح شفتيها، اللتين كان ينبغي أن تنبضا مشبعتين بالقبلة وجشعتين لمثلها، على ما يقتضيه دورها في تمثيليّتها.

كان عليها أن تصرخ «أحبّني»، «أحبّني... حبّاً بالله». لأنّه بدا له فجأة أنّ ليس حياته فقط هي التي تتوقّف على حبّ لينا له، بل حياتها أيضاً، ذلك الحبّ الذي يتمنّاه، مع أنّه أمر مستحيل تماماً. لكنّه، في الواقع، أدرك الآن أنّ ما يشبه العدوى قد سرى إليه من كراهيّة لينا الحتميّة، التي تختلط على كلّ بالحبّ ولا تنفصل عنه، تلك الكراهيّة الدمويّة القاتلة.

ظنّ أنّ بمقدوره أن يقتلها في تلك اللحظة وبكلّ سرور، لأنّه لم يعد من الممكن له أن يتحمّل وجود متلازمة تقضي بأنّ لينا حيّة ومعادية له في الوقت نفسه. وفكّر كذلك، رغم أنّه كان خائفاً من التفكير في ذلك، أنّ رؤيتها وهي تموت قد تبعث الآن في نفسه متعة أشدّ من متعة أن تحبّه. لكنّ روحه انتفضت بحركة سخيّة مفاجئة، فندم وقال في نفسه: «الحمد لله، فهي لن تكون موجودة في سافويا عندما يذهب أورلاندو والآخرون إلى هناك... الحمد لله». فهو قد أدرك أنّه أراد، في الواقع، للحظة واحدة، أن تموت مع زوجها بالطريقة نفسها وفي المناسبة ذاتها.

توقّفت السيارة فترجّلوا منها. لمح مارتشيلّو طريق ضاحية مظلمة، بين منازل على صفّ غير مستوٍ، وجدار حديقة. قالت لينا وهي تأخذ جوليا من ذراعها: «سترين، أنه ليس حقاً مكاناً تلاميذ المعاهد... لكنّه مثير للاهتمام». اقتربوا من باب مضاء. كان هناك فوق الباب مربّع صغير من الزجاج الأحمر، كتب عليه بأحرف زرقاء «لا كرافات نوار» ثمّ فسّرت لينا لجوليا: «ربطة العنق الزرقاء. وهي ربطة العنق التي يرتديها الرجال مع بزّة السموكينغ، بينما ترتديها هنا جميع النساء، بدءاً من الخادمات وانتهاءً بصاحبة المحلّ». دخلوا إلى الدهليز. فبرز مباشرة رأس ذو ملامح صلبة وشعر قصير، بلا لحية وذو بياض وخصائص أنثويّة، وقال من وراء الطاولة بصوت جافّ: «الملابس».

اقتربت جوليا مسرورة من الطاولة والتفتت وأسقطت معطفها عن كتفيها العاريتين بين يدي موظّفة الملابس التي ترتدي سترة سوداء وقميصاً منثّى عليه عقدة على شكل فراشة. انتقلوا بعد ذلك إلى صالة الرقص المليئة بالدخان والتي تصمّ الآذان بالموسيقى وغيرها من الأصوات.

جاءت نحوهم من بين الطاولات المزدحمة امرأة بدينة، بعمر غير واضح وإن لم تكن شابّة، وجهها سمين شاحب وناعم مشدود تحت ذقنها بفراشة ربطة العنق السوداء المعتادة. رحّبت بزوجة كوادري بألفة عائليّة، وبعد أن رفعت إلى عينها الجريئة عدسة مفردة مربوطة بحبل من حرير إلى طيّة صدّارتها الرجّالية، قالت: «أربعة أشخاص... عندي بالضبط ما يلزم لك يا سيّدة كوادري... اتبعيني رجاء». يبدو أنّ المكان حسّن مزاج لينا، فانحنت على كتف المرأة ذات العدسة، وقالت لها شيئاً ما خبيثاً ومرحاً، ما كان من تلك إلّا أن أجابت عليه بتكشيرة ازدراء مع رفع كتفها، تماماً كما يفعل الرجال. تبعوها إلى أن وصلوا إلى طاولة فارغة في آخر الصالة. قالت المديرة: «فوا لا». ثمّ انحنت بدورها على لينا بعدما جلست وهمست في أذنها بشيء ما يحمل طعم المزاح، بل والخبث أيضاً. تحرّكت بعد ذلك وابتعدت بين الطاولات، وهي مستقيمة الجسم ومنتصبة برأسها الصغير البرّاق.

جاءت نادلة صغيرة ممتلئة الجسم وسمراء للغاية، ترتدي الثياب المعتادة، فطلبت لينا المشروبات بثقة وسرور وعفويّة من يجد نفسه في

مكان متناسب في نهاية الأمر مع ذوقه. ثم التفتت إلى جوليا وقالت بمرح: «هل رأيت كيف يلبسن الثياب؟... إنّه دير بالفعل... ألا يثير هذا الفضول؟».

بدا لمارتشيلّو أنّ جوليا شعرت بالحرج، فابتسمت لهذا بطريقة غير تقليديّة على الإطلاق. كان هناك بين الطاولات مكان صغير مستدير الشكل، موجود تحت نوع من الفطر الإسمنتيّ المقلوب، تهتز عليه أضواء كاذبة صادرة عن مصابيح النيون، ويحتشد فيه أزواج كثيرون، بعضهم من النساء فقط. وكانت الأوركسترا مؤلّفة أيضاً من نساء فقط يرتدين ملابس الرجال، وكان المكان محشوراً تحت درج يفضي إلى الشرفة. قال البروفيسور عن غير قصد تقريباً: «هذا المكان لا يعجبني... يبدو لي أنّ هؤلاء النساء جديرات بالشفقة أكثر ممّا يثرن الفضول». لم يبد أنّ لينا سمعت ملاحظة زوجها. وبقيت عيناها مليئتين بضوء جشع. فاقترحت عليها، كما لو أنّها قد خضعت لرغبة لا تقاوم، وقالت بضحكة متوتّرة: «هلّا رقصنا سويّة؟ وهكذا فيمكن أن يحسبوننا اثنتين منهنّ... هذا مسلّ... تعالي، هيّا تعالي...».

كانت قد نهضت بالفعل على قدميها وهي تضحك متحمسة، ثمّ وضعت يدها على كتف جوليا ودعتها للنهوض. نظرت جوليا إليها، ثمّ نظرت إلى زوجها بتردّد. قال لها مارتشيلّو بجفاء: «لماذا تنظرين إليّ؟... لا حرج في ذلك». إذ فهم أنّ عليه أن يؤازر لينا هذه المرّة أيضاً. تنهّدت جوليا ونهضت ببطء وعلى مضض. في غضون ذلك، أخذت الأخرى تكرّر وقد فقدت رشدها بالفعل: «قال لك زوجك أيضاً إنّه لا بأس في ذلك... تعالي، هيّا تعالي». فقالت جوليا وهي تذهب بنوع من الاستياء: «الحقيقة أنّي لا أرى ضرورة لاعتباري واحدة منهنّ». لكنّها سبقت لينا ووصلت إلى المكان المخصّص للرقص ومدّت يديها للعناق. رأى مارتشيلّو لينا وهي تقترب وتحيط بخصر جوليا بثقة الرجال وتسلّطهم، قبل أن تدفعها على وقع الرقصة نحو الحلبة بين أزواج الراقصين.

نظر للحظة، وسط دهشته الأليمة القاتمة، إلى المرأتين المتعانقتين: كانت جوليا أقصر من لينا، كانتا ترقصان والخدّ على الخدّ، وبدا أنّ ذراع لينا تشدّ بعزم أكبر على خصر جوليا، مع كلّ خطوة. بدا له مشهداً حزيناً ولا يُصدّق. ولم يستطع إلّا أن يفكّر: هذا هو الحبّ الذي كان مقدّراً له في عالم

مختلف، وفي حياة مختلفة، وكان من شأنه أن ينقذه، وأن يستمتع به. لكنّ يداً استقرّت على ذراعه. استدار فرأى وجه كوادري، أحمر بلا شكل، وهو يتوجه نحو وجهه. قال كوادري بصوت منفعل: «لا تظنّنّ يا كليريشي أنّني لم أفهم الأمر».

نظر إليه مارتشيلّو وقال له ببطء: «العفو، لكنّني أنا الذي لا أفهم الآن».

فأجاب الآخر مباشرة: «أنت تعرف يا كليريشي من أنا... لكنّي أنا أيضاً أعرف من أنت». كان ينظر إليه محدّقاً وأمسك بيديه الاثنتين في هذه الأثناء بقبّة سترة مارتشيلّو. فاضطرب هذا وتجمّد بنوع من الرهبة، وبدوره حدّق في وجهه: لا، لم يجد بغضاء في عينيّ كوادري، بل انفعالاً عاطفيّاً، دامعاً ومؤثّراً، لكنّه محسوب على ما رأى مع شيء من الخبث. ثمّ استأنف كوادري: «أنا أعرف من أنت، وأدرك أنّي أعطيك انطباعاً عندما أكلّمك بهذه الطريقة، بأنّي واهم وساذج، بل وحتّى غبيّ على الأرجح... لا يهمّ... كليريشي، إنّي أريد، رغم كلّ شيء، أن أتكلّم معك بصراحة، وأقول لك: شكراً».

نظر مارتشيلّو إليه ولم يقل شيئاً. بقيت قبّة سترته بين قبضتي كوادري. وكان هو يشعر أنّ سترته كانت مشدودة على رقبته كما يحدث عندما يتشبّث أحدهم ليرمي الآخر بعيداً عنه. وتابع كوادري بصوته المنفعل: «أقول لك شكراً، ولا تظنّنّ أنّي لم أفهم. لو أنّك كنت تريد أن تقوم بواجبك، لكنت أخذت الرسالة ولكنت أعطيتها لرؤسائك... ليفكّوا رموزها، وليعتقلوا المرسل إليهم... لكنّك لم تفعل... من منطلق الوفاء، من باب الندم المفاجئ، من الشكّ المباغت، من باب الصدق والإخلاص... لا أعرف... أعرف فقط أنّك لم تفعل، لذلك فإنّي أكرّر مرّة أخرى: شكراً لك».

قام مارتشيلّو بحركة كما لو أنّه بصدد الإجابة، لكنّ كوادري، ترك أخيراً سترته، وغطّى له فمه بيده: «لا، لا تقل إنك لم تقبل بإرسال الرسالة كي لا تثير شكوكي، لتبقى وفيّاً لدورك الإجباريّ كزوج في شهر العسل... لا تقل هذا لأنّني أعلم أنّه ليس صحيحاً... فأنت قمت في الحقيقة بخطوتك الأولى نحو الخلاص... وأنا أشكرك على إعطائي هذه الفرصة لمساعدتك على تحريكها... تابع يا كليريشي، وستولد من جديد لتعيش حقّاً حياة جديدة».

تداعى كوادري على كرسيّه وتظاهر بأنّه يريد إرواء عطشه برشفة كبيرة من كأسه. ثمّ قال وهو يقف على قدميه: «ها هما السيّدتان». فنهض مارتشيلو مندهشاً هو أيضاً.

بدا له أنّ لينا كانت في مزاج سيئ. ما إن جلست، حتّى فتحت علبة الماكياج فقامت بسرعة، وبضربات قصيرة متكرّرة وغاضبة، بوضع المسحوق على أنفها ووجنتيها. أمّا جوليا فقد ظهرت من جهتها هادئة، غير مبالية، وهي تجلس بجوار زوجها، ثمّ أمسكت من تحت الطاولة بيده بحركة حنونة، كما لو أنّها تريد تأكيد نفورها من لينا. اقتربت المديرة ذات العدسة وبسطت خدّها الناعم والشاحب في ابتسامة معسولة وهي تسأل بطريقة مدروسة إذا كان كلّ شيء على ما يرام.

أجابت لينا بجفاء أنه لا يمكن لشيء أن يكون أفضل ممّا كان. فانحنت المديرة نحو جوليا وقالت لها: «أنت أتيت لأوّل مرّة إلى هذا المكان... فهل بوسعي أن أقدّم لك وردة؟» فقالت جوليا بدهشة: «أجل، شكراً».

نادت المديرة: «كريستينا»، فاقتربت فتاة كانت ترتدي هي أيضاً سترة رجّاليّة، ومختلفة جدّاً عن الحسناوات اللائي يوجدن عادة في صالات الرقص، إذ كانت شاحبة اللون ونحيلة ولا تضع المساحيق، وجهها شرقيّ بأنف كبير، وشفتين ضخمتين، وجبهتها صلعاء وناتئة العظام تحت شعرها المقصوص قصيراً وبطريقة سيئة، كما لو أنّه تعرّض لمرض ما. قدّمت سلّة مليئة بأزهار الغاردينيا فاختارت المديرة إحداها ووضعتها على صدر جوليا وهي تقول: «هديّة الإدارة».

قالت جوليا: «شكراً».

قالت المديرة: «هذا لا شيء، أراهن أن السيّدة هي إسبانيّة... أليس كذلك؟». فقالت لينا: «إيطاليّة».

«آه، إيطاليّة... كان عليّ أن أحزر... بذين العينين السوداوين...»، لكنّ كلماتها ضاعت وسط صخب الناس، بينما كانت المديرة وكريستينا النحيلة الحزينة تبتعدان سويّة.

استأنفت الأوركسترا عزفها من جديد، فالتفتت لينا إلى مارتشيلّو وقالت

بشيء من الغضب: «لماذا لا تدعوني؟ أودّ أن أرقص». فنهض وتبعها إلى حلبة الرقص دون أن ينبس ببنت شفة.

بدآ في الرقص. أبقت لينا نفسها إلى حدّ ما على مسافة من مارتشيلّو لدرجة أنهّ لم يستطع إلّا أن يتذكّر بأسف مشاعر التملّك التي كانت تتشبّث بها بجوليا، قبل ذلك بقليل. رقصا لبعض الوقت في صمت ثم قالت لينا فجأة وبغضب اختلط فيه بشكل غريب تصنّع التواطؤ الغراميّ مع الحنق والنفور: «بدلاً من تقبيلي في السيّارة، تحت خطر أن يراك زوجي، كان عليك أن تتدبّر أمر زوجتك فيما يتعلّق بالرحلة إلى فرساي».

دهش مارتشيلّو من الطريقة الطبيعيّة التي نجحت فيها بتحميل غضبها الفعليّ على علاقة الحبّ الكاذبة، كما من تكليمه بلهجة الودّ وبتلك الطريقة القاسية والساخرة، التي تتّصف بها المرأة التي لا تخشى من إظهار خيانتها لزوجها، ولم يقل بعدها شيئاً. فسّرت لينا صمته على طريقتها الخاصّة، فأصرّت بالقول: «لماذا لا تتكلّم الآن... هل هذا هو حبّك؟ إنّك لست قادراً حتّى على فرض الطاعة على زوجتك، تلك الحمقاء».

فأجاب بنبرة حلوة، رغم أنّ فضوله قد اشتدّ بسبب هذا الغضب، أكثر ممّا شعر بالإهانة: «زوجتي ليست حمقاء».

لكنّها اندفعت أكثر فأكثر في هذه الطريق التي فتحتها لها إجابته. فهتفت بغضب وشبه دهشة: «كيف أنّها ليست حمقاء، بينما يمكن للأعمى أن يرى ذلك يا عزيزي... إنّها جميلة، هذا صحيح، لكنّها غبيّة بشكل كامل، ليست إلّا حيواناً جميلاً... كيف يمكن لك ألّا تدرك هذا؟».

فقال بطريقة عرضيّة: «إنّها تعجبني كما هي».

«حمقاء... غبيّة... الشاطئ الأزرق... ليست إلّا فلّاحة تافهة بلا شيء من المخّ... الشاطئ الأزرق... ولماذا ليس مونتي كارلو أو دوفيل... أو حتّى برج إيفل؟». بدا أنّها فقدت رشدها من شدّة الغضب، فرأى مارتشيلّو أنّ هذه علامة على أنّ حديثاً غير سارّ قد دار بينها وبين جوليا خلال الرقص. فقال بطريقة حلوة: «لا تقلقي بشأن زوجتي، تعالي غداً في الصباح إلى الفندق... ولا بدّ أن تقبل جوليا بوجودك... ثمّ نذهب ثلاثتنا إلى فرساي».

رأى أنّها تنظر إليه بشيء من الأمل. لكنّ غضبها ساد فقالت: «يا لها من فكرة سخيفة... لقد قالت زوجتك بوضوح أنّها لا تريد أن أكون هناك... وأنا لست معتادة على الذهاب إلى مكان لست مقبولة فيه».

فأجاب مارتشيلّو بكلّ بساطة: «حسناً، أنا أريدك أن تأتي».

«أجل، لكنّ زوجتك لا تريد».

«ما يهمّك من زوجتي؟ ألا يكفي أنّنا نحبّ بعضنا؟».

بدت مضطربة ومرتابة، وهي تنظر إليه ورأسها مسحوب للخلف، بينما صدرها الناعم المنفوخ مضغوط على صدره... «أحقّاً... إنّك تتحدّث عن حبّنا كما لو كنّا عشّاقاً منذ من يعرف كم من الوقت... لكن هل تعتقد أنّنا عاشقيْن بالفعل؟».

كان بودّ مارتشيلّو أن يقول: «لماذا لا تحبّيني؟ فأنا قادر على أن أحبّك حبّاً جمّاً». لكنّ الكلمات ماتت على شفتيه، كأنّها ظلال خنقتها مسافات بعيدة لا يمكن تخطّيها. وها هي تسأله الآن بهذا الزيف إن كان واثقاً أنّه يحبّها، هو الذي لم يبد له أنّه أحبّها كما يحبّها الآن، بعد أن أجهد نفسه ليدفع التمثيل إلى حدود المساخر. في النهاية قال لها بحزن: «أنت تعرفين أنّني أودّ لو تحابينا».

فأجابت بطريقة عابرة: «أنا أيضاً»، وكان من الواضح أنّها تفكّر بجوليا. ثمّ أضافت، كأنّها قد استيقظت على الواقع بغضب مفاجئ: «أرجوك في كلّ الأحوال أن لا تقبّلني مرّة أخرى في السّيارة أو في أماكن مماثلة... إنّي لم أشعر أبداً أنّي أطيق مثل هذا النوع من التعبير عن العواطف... يبدو لي أنّه ينطوي على قلّة احترام بل وعلى سوء تربية أيضاً».

فتمتم وهو يضغط على أسنانه: «لكنّك لم تقولي بعد فيما إذا كنت ستأتين غداً إلى فرساي».

رأى أنّها تردّدت قبل أن تسأله بنظراتها التائهة: «هل تظن بالفعل أنّ زوجتك لن تغضب إذا رأتني قادمة... وأنّها لن تشتمني كما فعلت اليوم في المطعم؟».

«أنا على ثقة بأنّها لن تفعل... ربّما ستشعر بشيء من المفاجأة... هذا كلّ ما في الأمر... لكنّي سأحاول إقناعها قبل مجيئك. فهل ستأتين؟».

فقالت بنبرة سلبيّة كأنّما تريد أن يطمئنها: «الذيّ انطباع أنّ زوجتك لا تستطيع أن تطيقني».

فأجاب وهو يسعى لإجابة رغبتها المكشوفة هذه: «إنّك تخطئين، لأنّها تشعر بمودّة شديدة نحوك».

«حقّاً».

«أجل، بالفعل... هذا ما أكّدته لي اليوم أيضاً».

«وماذا قالت؟».

«يا إلهي، لا شيء على وجه الخصوص... قالت إنّك جميلة... إنّك تبدين ذكيّة... الحقيقة باختصار».

فحزمت أمرها فجأة وقالت: سآتي إذاً، سآتي مباشرة بعد سفر زوجي... في حوالي التاسعة، بطريقة نأخذ فيها قطار الساعة العاشرة... سآتي إلى الفندق».

شعر مارتشيلّو كأنّ هذه السرعة وهذا الانشراح ينطويان على نوع من الإهانة بالنسبة إلى عواطفه. فقال وهو يشتعل فجأة بما لا يعرف من رغبة بالحبّ مهما كان نوعه، حتّى بحبّ زائف وغامض: «أنا سعيد جدّاً لأنّك قبلت بالمجيء».

«نعم».

«نعم، لأنّني أعتقد أنّك لم تكوني لتفعلي ذلك لو كنت لا تحبّيني».

فأجابت بخبث: «بوسعي أن أفعل ذلك لأسباب مختلفة أخرى».

«ما هي؟».

«إنّنا مناكيد نحن النساء، قد أفعل هذا نكاية بزوجتك وحسب».

وهكذا فإنّها لا تفكرّ إلّا بجوليا، دائماً وأبداً. لم يقل مارتشيلّو شيئاً، لكنّه قادها نحو المدخل، وهو لا يزال يرقص.

خطوتان ثانيتان ويجدان نفسيهما أمام غرفة الملابس، على بعد خطوة من المدخل. فسألته: «إلى أين تقودني؟».

ترجّى بصوت خافت وبطريقة لا تسمعه المرأة المنتصبة خلف طاولتها في غرفة الملابس: «اسمعي، فلنخرج لدقيقة واحدة إلى الشارع».

«لماذا؟».

«لا يوجد هناك أحد، أودّ أن تعطيني قبلة... بعفويّة... لتبرهني لي أنّك تحبّيني بالفعل».

فقالت وقد غضبت فجأة: «لا أفكّر بهذا مجرّد تفكير».

«لكن لماذا... الطريق خالية ومظلمة».

«سبق وأن قلت لك إنّي لا أطيق هذه المشاعر في أماكن عامّة».

«أرجوك».

فقالت له بصوت قاس ومرتفع: «اتركني» ثمّ تملّصت منه وهي تبتعد حالاً نحو الصالة. لكنّ مارتشيلّو عبر العتبة، كأنّما وقع أسير اندفاعه، وخرج إلى الشارع.

كانت الطريق خالية ومظلمة، كما قال للينا، لا أحد يمرّ على الأرصفة التي تضيئها مصابيح قليلة بضوء خافت. كان هناك على الطرف الثاني من الشارع، بعض السيّارات المصطفّة تحت سور الحديقة. أخذ مارتشيلّو المنديل من جيبه وجفّف به عرق جبينه، وهو ينظر إلى الأشجار المورقة البارزة من فوق السور.

شعر بالدوّار وكأنّه تلقى ضربة قاسية على رأسه. لم يتذكّر أنّه سبق له وأن استجدى امرأة قبل الآن بمثل هذا الإلحاح، فكاد أن يخجل من ذلك. وأدرك في الوقت نفسه أن كلّ آماله قد تلاشت في ليّ ذراع لينا وليس لحملها على حبّه، بل لمجرّد أن تفهمه. سمع في تلك اللحظة صوت محرّك سيّارة خلفه، ثمّ دلفت السيّارة إلى جانبه وتوقّفت. كانت مضاءة في الداخل، فرأى مارتشيلّو أورلاندو وهو جالس وراء المقود كأنّه سائق العائلة. وكان رفيق أورلاندو، ذو الوجه الطويل النحيل مثل وجوه الطيور، يجلس إلى جانبه. قال أورلاندو بصوت منخفض: «دكتور».

اقترب مارتشيلّو بطريقة آليّة: «دكتور... نحن سنذهب... هو سيسافر بالسيّارة صباح الغد، ونحن سنتبعه... لكنّنا لن ننتظر على الأرجح حتّى نصل إلى سافويا».

فسأله مارتشيلّو من غير أن يدرك ما يقوله: «لماذا؟».

«الطريق طويلة وسافويا بعيدة... فلماذا ننتظر الوصول إلى سافويا إذا كان بوسعنا أن ننهي الأمر قبل ذلك وبظروف أفضل؟ إلى اللقاء يا دكتور...

سنلتقي في إيطاليا». أومأ أورلاندو بالتحيّة كما حنى رفيقه رأسه. انزلقت السيّارة وابتعدت إلى آخر الشارع قبل أن تدور حول الزاوية وتختفي.

عاد مارتشيلّو إلى الرصيف، عبر العتبة ودخل إلى الصالة. كانت الموسيقى قد عادت للعزف، ولم يجد على الطاولة سوى كوادري. أمّا لينا وجوليا فكانتا ترقصان سويّة مرّة أخرى، وضاعتا على ما رأى بين الراقصين المحتشدين على الحلبة. جلس وتناول الكأس الذي ما زال مترعاً بالليموناضة المثلّجة وأفرغه ببطء وهو ينظر إلى قطعة الثلج في قاعه. قال كوادري بغتة: «هل تعلم يا كليريشي أنّ بوسعك أن تكون مفيداً لنا للغاية؟».

قال مارتشيلّو وهو يعيد الكأس إلى الطاولة: «لا أفهم».

شرح له كوادري الأمر دونما حرج: «يمكن لي أن أقترح على واحد غيرك حتّى أن يبقى معنا في باريس... وأؤكّد لك أنّ هناك عملاً للجميع... ونحن بحاجة قبل كلّ شيء إلى شباب مثلك... لكن أنت بوسعك أن تفيدنا أكثر إذا بقيت حيث أنت الآن، أي في مكانك بالذات».

فأنهى مارتشيلّو العبارة وهو يدقّق النظر: «بإعطائكم المعلومات».

«تماماً».

عند هذه الكلمات، لم يستطع مارتشيلّو إلّا أن يتذكّر عيني كوادري البرّاقتين بالعواطف، الباكيتين تقريباً، والحنونتين الصادقتين، عندما أمسكه قبل قليل من ياقة سترته. وفكّر أنّ تلك المشاعر كانت مخمل العواطف الذي يخفي مخالب الحسابات السياسيّة الباردة. وفكّر من جديد أنّه كان يلاحظ المشاعر نفسها في عيون بعض رؤسائه، وإن كانت تظهر بمظهر آخر مختلف، وطنيّ وليس إنسانياً. ولكن ما أهميّة هذه المشاعر التبريريّة، إذا لم يكن هناك، في كلتا الحالتين، بل في جميع الأحوال، أيّ اعتبار له، لشخصه كإنسان يفهم بصراحة على أنّه وسيلة من بين وسائل كثيرة للوصول إلى أهداف معينة؟ لذلك، فقد رأى، بنوع من اللامبالاة البيروقراطيّة، أنّ كوادري قد صادق على عقوبة إعدامه وهو يطلب منه ذلك الطلب. ثمّ رفع عينيه وقال: «إنّك تتحدّث كما لو أنّي أؤمن بأفكارك نفسها... أو أنّي على وشك الإيمان بها... لو كان الأمر كذلك، لكنت قدّمت خدماتي لك بنفسي ...لكن

بما أنّ الأمور هي على ما هي عليه، أي إنّي لا أؤمن بأفكارك ولا أنوي ذلك، فهذا يعني بكلّ بساطة أنّك تطلب منّي الخيانة».

قال كوادري على الفور: «الخيانة، أبداً. لا يوجد بالنسبة إلينا خونة... يوجد فقط أشخاص يعالجون أخطاءهم عندما يدركون أنّهم أخطؤوا... أنا كنت وما أزال على قناعة بأنّك واحد من أولئك الأشخاص».

«أنت مخطئ».

«فلنعتبر أنّي لم أقل شيئاً، فلنعتبر إذاً أنّي لم أقل شيئاً... يا آنسة». أراد كوادري ربّما أن يخفي خيبة أمله، فنادى على عجل على إحدى النادلات ودفع الحساب. ثم صمتا، وأخذ كوادري ينظر إلى الصالة نظرة متفرّج هادئ، بينما جلس مارتشيلّو وقد أدار ظهره إلى الصالة وعيناه تنظران إلى الأسفل. شعر أخيراً بيد تحطّ على كتفه وسمع صوت جوليا البطيء والهادئ يقول: «إذاً، هل نريد الذهاب؟ إنّي مرهقة جدّاً...».

نهض مارتشيلّو على الفور قائلاً: «أعتقد أنّنا نتّفق جميعاً بأنّنا نشعر بالنعاس». بدا له أنّ هناك شيئاً من الانزعاج وشحوباً شديداً على وجه لينا، فعزا الأوّل إلى تعب المساء والثاني إلى ضوء النيون الساطع. نزلوا وذهبوا إلى السيّارة في نهاية الشارع. تظاهر مارتشيلّو بأنّه لم يسمع زوجته وهي تهمس: «فلنجلس كما جلسنا من قبل»، ذلك وهي تجلس بتصميم قرب كوادري. لم ينبس أحد من الأربعة ببنت شفة خلال كلّ الرحلة، لكنّ مارتشيلّو قال بطريقة عرضيّة في منتصف الطريق: «لكن كم من الوقت يلزم للوصول إلى سافويا؟». فأجاب كوادري من غير أن يلتفت: «إنّها سيّارة سريعة، كما أنّي وحدي ولن يكون عندي سوى أن أجري، لذلك أظنّ أنّي سأصل إلى *آنّشي* خلال الليل... وسأسافر في اليوم التالي عند الفجر...».

أمام الفندق، ترجلّا من السيارة وتودّعوا. عاد كوادري إلى السيّارة بعد أن صافح مارتشيلّو وجوليا على عجل. توقّفت لينا للحظة لتقول شيئاً لجوليا ثمّ حيّتها جوليا ودخلت إلى الفندق. بقيت لينا مع مارتشيلّو لوحدهما لحظة على الرصيف. فقال بحرج: «سأراك في الغد إذاً». فردّدت المرأة كالصدى: «أراك غداً»، ذلك وهي تميل برأسها بابتسامة أنيقة. فابتعدت عنه، ولحق هو بجوليا في البهو.

-VII-

عندما استيقظ مارتشيلّو وتوجّه بعينيه نحو السقف، وسط ظلام غير دامس لأنّ الستائر لم تغلق بالكامل، تذكّر على الفور أنّه لا بدّ أنّ كوادري كان يجري في تلك الساعة عبر شوارع فرنسا، يتبعه على مسافة قصيرة أورلاندو ورجاله. فأدرك أنّ رحلة باريس قد انتهت. كرّر في نفسه قائلاً: لقد انتهت الرحلة، رغم أنّها بدأت لتوّها. لقد انتهت الرحلة، على اعتبار أنّ ميتة كوادري أصبحت أمراً محقّقاً، وأنّه قد اختتم تلك الفترة من حياته التي حاول خلالها بكلّ الوسائل أن يتخلّص من ثقل الوحدة وشذوذ عدم الاعتياديّة الذي خلّفه موت لينو. لقد نجح في هذا على حساب جريمة، أو بصورة أفضل على حساب ما سيصبح جريمة، إذا لم يقدر على تبريرها وإعطائها معنى مناسباً. وفيما يتعلّق به شخصيّاً، فإنّه كان على يقين من أنّه قادر على ذلك التبرير: فهو زوج صالح، وأب صالح، ومواطن صالح. كما أنّه، وبفضل موت كوادري الذي سيمنعه منعاً باتّاً من العودة إلى الوراء، سيرى حياته وهي تكتسب، ببطء ولكن بقوّة، المعاني المطلقة التي كانت تفتقر إليها حتّى الآن. وهكذا فإنّ ميتة لينو، التي كانت السبب الرئيسيّ لمأساته الغامضة، ستتوضّح الآن وتنتفي بميتة كوادري، تماماً كما كان التكفير بضحيّة بشريّة بريئة يلغي المعاصي السابقة ويبطلها. لكن لم يكن هناك هو وحده، كما أنّ تبرير حياته وقتل كوادري لا يتوقّف عليه وحده. لذلك فقد فكّر بوضوح تامّ: «يجب أن يقوم الآخرون الآن بواجبهم هم أيضاً... وإلّا سأبقى أنا وحدي، وهذا الرجل الميّت مطروح على ذراعي، ولن أكون قد بلغت في النهاية شيئاً ولا شيء». كان يعرف أنّ الآخرين هم الحكومة التي أرادت بذلك القتل أن يخدمها، والمجتمع الذي يعبّر

عن نفسه بتلك الحكومة، والأمّة نفسها التي كانت تقبل بأن يقودها ذلك المجتمع. ولن يكفيه وقتها أن يقول: «لقد قمت بواجبي... تصرّفت بهذه الطريقة لأنّي مأمور». فمثل هذا التبرير قد يكفي أمام العميل أورلاندو، لكن ليس أمام نفسه. إذ يلزم له نجاح تلك الحكومة الكامل، وذلك المجتمع، وتلك الأمّة، وليس نجاحاً خارجيّاً فقط، بل نجاحاً حميميّاً وضروريّاً. بهذه الطريقة فقط يمكن لما كان يعتبر عادة جريمة عامّة أن يصبح خطوة إيجابيّة على طريق ضروريّة. بعبارة أخرى، يجب أن تقوم قوى لا تعتمد عليه، بتحويل كامل للقيم: فيصبح الظالم عادلاً، والخيانة بطولة، والموت حياة. شعر عند هذا الحدّ بالحاجة إلى التعبير عن وضعه بكلمات خشنة وساخرة ففكر ببرود: «باختصار، إذا فشلت الفاشيّة، وإذا قاد الأوغاد وغير الأكفّاء والأغبياء الموجودون في روما الأمّةَ الإيطاليّة نحو الدمار، فإنّي لن أكون عندها سوى قاتلٍ بائسٍ». لكنّه ما لبث أن صحّح هذا في ذهنه: «لكن بما أنّ الأمور على ما هي عليه، فإنّه لا يمكن لي أن أفعل غير ما فعلته». تحرّكت جوليا إلى جنبه، وهي لا تزال نائمة، ثمّ قامت بحركة بطيئة وقويّة وتدريجيّة لتتشبث به بذراعيها أوّلاً ثمّ بساقيها، ووضعت رأسها على صدره. سمح لها مارتشيلّو القيام بذلك، ثمّ مدّ يده وأخذ المنبّه الفوسفوريّ الصغير من على طاولة السرير ونظر إلى الوقت: كانت الساعة التاسعة والربع. لم يستطع إلّا التفكير في أنّه إذا سارت الأمور بالطريقة التي قال أورلاندو إنّه يفترض حدوثها، فإنّه في تلك الساعة وفي نقطة ما من الشوارع الفرنسيّة تكون سيّارة كوادري ملقاة في حفرة، وفيها جثّة خلف المقود. سألت جوليا بصوت منخفض: «كم الساعة الآن؟». «التاسعة والربع». فقالت دون أن تتحرّك: «أوه، كم تأخّر الوقت، لقد نمنا تسع ساعات على أقلّ تقدير».

«هذا يدلّ على أنّنا كنّا مرهقين».

«لكن ألن نذهب إلى فرساي؟».

فقال وهو يتنهّد: «أكيد، بل علينا أن نرتدي ثيابنا، ستأتي بعد قليل السيّدة كوادري».

«أفضّل ألّا تأتي، إنّها لا تتركني بسلام أبداً بحبّها هذا».

لم يقل مارتشيلّو شيئاً. فاستأنفت جوليا بعد دقيقة: «وما هو برنامج الأيّام القادمة؟».

أجاب مارتشيلّو قبل أن تتمكّن من التقاط أنفاسها: «الرحيل» وقالها بصوت بدا له حزيناً من شدّة كآبته.

انتفضت جوليا هذه المرّة، ثمّ سحبت رأسها وصدرها قليلاً ولكن دون أن تنفصل عنه، وسألته بصوت مذهول بدا فيه الذعر بالفعل: «الرحيل؟ بهذه السرعة؟ لقد وصلنا للتوّ وعلينا أن نغادر مباشرة؟».

فكذب قائلاً: «لم أخبرك بهذا مساء الأمس كي لا أفسد عليك السهرة... لكنّي استلمت بعد ظهيرة الأمس برقيّة تستدعيني إلى روما...».

قالت جوليا بنبرة طيّبة بدا فيها الاستسلام: «مؤسف، هذا مؤسف حقّاً، الآن وقد بدأت أتسلّى في باريس... ثمّ إنّنا لم نر شيئاً بعد».

فسألها بنبرة حلوة وهو يداعب رأسها: «هل انزعجت؟».

«لا، ولكن كنت أفضّل البقاء بضعة أيّام على الأقلّ... علّيّ أكوّنُ فكرة عن باريس».

«سنعود».

تبع ذلك صمت. ثمّ تحرّكت جوليا عليه بحركة حيّة بذراعيها وكلّ جسدها، وقالت: «أخبرني على الأقلّ ماذا سنفعل في المستقبل... أخبرني كيف ستكون حياتنا».

«لماذا تريدين أن تعرفي هذا؟».

فأجابت وهي تنضمّ إليه: «هكذا، لأنّ الحديث عن المستقبل يعجبني جدّاً... في السرير... في الظلام».

فبدأ مارتشيلّو الكلام بصوت هادئ لا لون له: «حسناً، سنعود الآن إلى روما ونبدأ بالبحث عن بيت».

«كم سعته؟».

«أربع أو خمس غرف والمنافع... ما أن نجد البيت سنشتري الضروريّ لتأثيثه».

فقالت بصوت حالم: «أنا أريد شقّة في الطابق الأرضيّ، فيها حديقة...

ولو كانت غير كبيرة... فيها أشجار وأزهار، يمكن لنا أن نجلس فيها خلال المواسم الجميلة».

فأكّد لها مارتشيلّو: «لا أسهل من هذا، سنتّخذ لنا بيتاً إذاً... وأظنّ أنّي سأملك ما يكفي من المال لتأثيث البيت بالكامل... ليس بأثاث فخم بالطبع...».

قالت: «وسيكون لك فيه مكتب جميل».

«ولماذا المكتب طالما أنّي أعمل في الدائرة؟ سيكون أفضل من هذا وضع غرفة جلوس كبيرة».

«أجل، غرفة جلوس... معك حقّ... صالون وغرفة طعام مشتركة... وسيكون عندنا غرفة نوم جميلة أيضاً، أليس كذلك؟».

«طبعاً».

«لكن بلا أسرّة مطويّة، فهذه بائسة جدّاً... أريد غرفة نوم نظاميّة... سرير مزدوج، عرائسيّ... وأخبرني... هل سيكون عندنا مطبخ جميل أيضاً؟».

«مطبخ جميل؟ ولِمَ لا؟».

«أريد أن يكون عندي طبّاخ مزدوج، يشتغل بالغاز والكهرباء... وأريد أيضاً برّاداً معتبراً... إذا لم تكف نقودنا فيمكن لنا أن نشتري هذه الأشياء بالتقسيط».

«بالتقسيط، مفهوم».

«أخبرني أيضاً، ماذا سنفعل في هذا البيت؟».

«سنعيش فيه ونكون سعداء».

فقالت وهي تنضمّ إليه أكثر: «أنا بحاجة ماسّة لأكون سعيدة... جدّاً... لو تعرف... يبدو لي أنّي بحاجة لأكون سعيدة منذ خلقت».

فقال مارتشيلّو بثبات يلامس حدّ العنف: «حسناً، سنكون سعداء إذاً».

«وهل سيكون عندنا أولاد؟».

«حتماً».

قالت وكأنّها تتمتم بأغنية: «أريد أولاداً كثيرين، أريد ولداً كلّ سنة، على الأقلّ خلال السنوات الأربع الأولى من زواجنا... وهكذا يصبح لدينا عائلة

بأسرع ما يمكن... أظنّ أنّه يجب عدم الانتظار، وإلّا تأخّر الوقت، وعندما يصبح لدينا عائلة فإنّ كلّ شيء يأتي بعد ذلك لوحده، أليس كذلك؟».

«بالتأكيد، كلّ شيء سيأتي لوحده».

صمتت لدقيقة ثمّ سألته: «هل تعتقد أنّي أصبحت حاملاً؟».

«وكيف لي أن أعلم؟».

فقالت وهي تضحك: «إذا كنت حاملاً، فهذا يعني أنّ ابننا خلق في القطار».

«هل هذا يروق لك؟».

«أجل، سيكون هذا فألاً حسناً بالنسبة إليه... من يدري فقد يصبح رحّالة عظيماً... أريد أن يكون أوّل ولد ذكراً... وأفضّل أن يكون الولد الثاني أنثى... أنا على ثقة أنّها ستكون رائعة الجمال... فأنت جميل وأنا لست قبيحة جدّاً... وسيولد لنا بالتأكيد أولاد في غاية الجمال».

لم يقل مارتشيلّو شيئاً، فاستأنفت جوليا: «لماذا صمتّ؟ ألا يروق لك أن يكون لك أولاد منّي؟».

أجاب: «بالتأكيد». ثمّ شعر فجأة بالدهشة لأنّ دمعتين فاضتا من عينيه وسالتا على خدّيه. تبعتهما دمعتان أخريان، حارّتان، حارقتان، كأنّه بكى بهما منذ زمن سابق وبعيد، وبقيتا داخل عينيه وهما تتشرّبان بألمه الحارق. فهم أنّ ما أبكاه كان بالضبط ذلك الحديث عن السعادة الذي تكلّمت به جوليا قبل قليل، رغم أنّه لم يفهم السبب الحقيقيّ لذلك. ربّما لأنّه تمّ دفع ثمن هذه السعادة مقدّماً وباهظاً، أو لأنّه أدرك على الأرجح أنّه لن يكون سعيداً أبداً، على الأقلّ ليس بالطريقة البسيطة والحنونة التي وصفتها جوليا. أخيراً، دفع عنه، بجهد جهيد، كلّ رغبة في البكاء، ثمّ مسح عينيه بظهر يده، ومن غير أن تلاحظ جوليا من الأمر شيئاً. كان عناق جوليا في هذه الأثناء يشتدّ ويزداد إحكاماً، وهي تلصق جسدها بجسده بشهوة ظاهرة، وهي تحاول توجيه يديه الخاملتين والناسيتين وتحملهما على مداعبتها ومعانقتها. ثمّ شعر بها وهي تمتدّ بوجهها نحو وجهه وتبدأ في تقبيله بشدّة على الخدّين والفم والجبين والذقن، بجشع طفوليّ محموم. في النهاية تمتمت وكأنّها تشتكي: «لماذا

لا تأتني... خذني» فبدا له أنّه يشعر بتأنيبها لأنّه كان يفكّر بسعادته وليس بسعادتها. ثمّ دوّى صوت قويّ على الباب، بينما كان يعانقها ورأسها على الوسادة وعيناها مغمضتان: «بريد عاجل».

«مـاذا سيكون؟» تمتمت وهي تلهث، وتفتح شيئاً من جفنيها «لا تتحرّكي... ماذا يهمّك؟». وعندما استدار مارتشيلّو لمح على الأرض، في الضوء الباهت قرب الباب، رسالة تمّ إدخالها من الشقّ في أسفل الباب. في تلك اللحظة، سقطت جوليا من جديد على ظهرها وتيبّست تحته وهي تلقي برأسها إلى الخلف، ثمّ تنهّدت بعمق وغرزت أظافرها في ذراعيه. أدارت رأسها على الوسادة إلى جانب أوّلاً ثمّ إلى الجانب الآخر، وتمتمت: «اقتلني».

تذكّر مارتشيلّو فجأة، ودونما سبب يذكر، صراخ لينو: «اقتلني قتلة الكلاب» فشعر باضطراب رهيب يغزو قلبه. انتظر دقائق طويلة قبل أن تسقط يدا جوليا على السرير، فأشعل المصباح، ووضع قدميه على الأرض وذهب ليأخذ الرسالة قبل أن يعود ليستلقي على السرير إلى جانب زوجته. كانت جوليا قد أدارت ظهرها وهي منكمشة على نفسها مغمضة العينين. نظر مارتشيلّو إلى الرسالة قبل أن يضعها على طرف السرير، قرب فمها الذي لا يزال يلهث مفتوحاً. كان مكتوباً على الظرف بخطّ نسائيّ واضح: «مدام جوليا كليريشي».

تمتمت جوليا من غير أن تفتح عينيها: «أعطني إيّاها».

تبع ذلك صمت طويل. كانت الرسالة الموضوعة على ارتفاع فم جوليا مضاءة بالكامل بضوء المصباح. لكنّ جوليا كانت تستلقي ثابتة، ليبدو أنّها نائمة. ثمّ تنهّدت وفتحت عينيها وأمسكت الرسالة بيد واحدة ومن طرفها، ثمّ مزّقت الظرف بأسنانها وسحبت الورقة وقرأت.

رأى مارتشيلّو أنّها تبتسم، ثمّ تمتمت: «يقولون ينتصر في الحبّ من يهرب... بما أنّي أسأت البارحة معاملتها، فهي تخبرني الآن أنّها غيّرت رأيها وسافرت هذا الصباح مع زوجها... وهي تأمل أن ألحق بها... رحلة سعيدة».

فقال مارتشيلّو: «هل سافرت؟».

«أجل، سافرت هذا الصباح إلى سافويا... وهل تعرف لماذا سافرت؟... هل تذكر مساء البارحة عندما رقصت معها للمرّة الثانية؟ كنت أنا من طلبها للرقص فشعرتْ بالسرور لأنّها ظنّت أنّي بدأت أجاريها... لكنّي ما لبثت أن قلت لها بصراحة كاملة إنّ عليها أن تستغني عنّي... أمّا إذا استمرّت فإنّي سأتوقّف كلّيّة عن الالتقاء بها، وإنّي أحبّك أنت وحسب، وإنّ عليها أن تتركني بسلام وأن تخجل من نفسها... أي إنّي قلت لها كلّ الكلام فكادت أن تبكي... وهكذا فقد سافرت اليوم... أسافر على أمل أن تلحقي بي... لطالما عليها أن تنتظر».

فكرّر مارتشيلّو وراءها: «أجل، ستنتظر مدّة طويلة».

تابعت جوليا: «على كلّ فقد شعرت بالسعادة لأنّها سافرت، كانت شديدة الإلحاح ومملّة... أمّا عن اللحاق بها فلا مجال لهذا البتّة... لا أريد أن أرى تلك المرأة بعد الآن». قال مارتشيلّو: «لن تريها مرّة أخرى».

-VIII-

كانت الغرفة التي يعمل فيها مارتشيلّو في الوزارة، تطلّ على فناء ثانويّ: وكانت صغيرة جدّاً، شكلها غير متماثل، لا تحتوي إلّا على مكتب وبعض الرفوف. كانت تقع في نهاية ممرّ مسدود، بعيداً عن غرف الانتظار. كان مارتشيلّو يستخدم للدخول إليها درج خدمة يفضي إلى درب غير مطروق، في الخارج خلف المبنى. ذات صباح، بعد أسبوع من عودته من باريس، كان مارتشيلّو يجلس إلى الطاولة، ورغم الحرّ الشديد، فإنّه لم يخلع سترته ولم يسحب عقدة عنقه، كما كان يفعل الكثير من زملائه: فمن عادته التي كان يحرص عليها بدقّة أن يحافظ في المكتب على مظهره وهو خارجه. وهكذا فقد كان يبقى بكامل ملابسه، وياقته محكمة الإغلاق عالية وضيّقة، ويأخذ بتفحّص الصحف الإيطاليّة والأجنبيّة، قبل أن يبدأ عمله. في ذلك الصباح، ورغم مرور ستّة أيّام على جريمة كوادري، فإنّ خبرها كان أوّل ما ركّز عليه. وقد لاحظ أنّ الأخبار والعناوين عنها كانت محدودة للغاية، ممّا يدلّ بما لا يدع مجالاً للشكّ على أنّ التحقيق لم يحرز أيّ تقدم. وقد أعادت صحيفتان فرنسيّتان يساريّتان كتابة قصّة الجريمة، مع تفسير بعض التفاصيل الغريبة أو الأكثر أهميّة: فقد قتل كوادري بالسلاح الأبيض وسط غابة كثيفة الأشجار، بينما أصيبت زوجته بثلاث رصاصات أطلقت عليها من مسدّس على جانب الطريق ثم تمّ جرّها بعدما ماتت، لتلقى إلى جانب زوجها. كما تمّ إدخال السيّارة أيضاً في الغابة وأخفيت بين الأشجار. وقد تأخّر العثور عليهم لمدّة يومين بسبب هذا الحرص على إخفاء الجثّتين والسيّارة بين الأشجار، وبعيداً عن الطريق. وقد افترضت الصحف اليساريّة أن الزوجين قتلا على يد مجرمين جاؤوا خصّيصاً من إيطاليا. من ناحية أخرى، تبنّت

بعض الصحف اليمينيّة، وإن كان بشيء من الشكّ، الأطروحة شبه الرسميّة التي طرحتها الصحف الإيطاليّة، والقائلة بأنّهما قُتلا على يد رفاق مناهضين للفاشيّة بسبب معارضة بعض جوانب الحرب الإسبانيّة. رمى مارتشيلّو بالصحف وتناول مجلّة فرنسيّة مصوّرة. صدمته على الفور صورة نشرت في الصفحة الثانية كجزء من تقرير صحفيّ كامل عن الجريمة. كانت تحمل عنوان: مأساة غابة جيفودان، ولا بدّ أنّها التقطت وقت اكتشاف الجريمة أو بعد ذلك بقليل. كان فيها طرف من الغابة وجذوع الأشجار المنتصبة والمليئة بالفروع، وبقع الشمس المضيئة بين جذع وآخر وعلى الأرض، ويكاد يكون من المستحيل رؤية الجثّتين للوهلة الأولى وسط الارتباك الذي يسبّبه تباين الأضواء والظلال في الغابة. كان كوادري ملقى على ظهره ولا يرى منه سوى كتفيه ورأسه، ولا يرى من رأسه سوى ذقنه ورقبته المشطورة بخطّ الجرح الأسود. أمّا لينا المرميّة على جنبها تقريباً فوق زوجها، فكانت ترى كلّها. وضع مارتشيلّو بهدوء سيجارته المشتعلة على طرف صحن السجائر، وتناول عدسة تكبير ودقّق بانتباه بالغ في الصورة. وعلى الرغم من أنّها كانت رماديّة وغير واضحة ولا يمكن تمييز شيء فيها بسبب بقع الشمس والظلال تحت الشجر، إلّا أنّ جسد لينا ظهر بوضوح، نحيفاً وممتلئاً في الوقت نفسه، نقيّاً وشهوانيّاً، جميلاً وغريباً. ظهر كتفاها العريضتان في أسفل مؤخّرة العنق الرقيقة والرقبة الدقيقة، والصدر المنتفخ فوق نحافة الخصر كجسم النحل، واتّساع الوركين، وطول الساقين الأنيق. كانت تغطّي زوجها بجزء من جسمها وبفستانها المنتشر، وبدا كأنها تريد أن تهمس شيئاً في أذنه، كانت مستديرة على جنبها، ووجهها غارق في العشب، وفمها على خدّه. نظر مارتشيلّو لفترة طويلة في الصورة من خلال العدسة، وهو يحاول دراسة كلّ ظلّ وكلّ خطّ وكلّ تفصيل. بدا له أنّ تلك الصورة المليئة بالسكون الذي يتجاوز سكون اللقطة الميكانيكيّ ليصل إلى سكون الموت الأخير، يوحي بجوّ من السكينة يحسدان عليه.

فكّر أنّها صورة مليئة بذلك الصمت العميق الذي لا بدّ أنّه أعقب عذاب الاحتضار السريع والرهيب. قبل ذلك بدقائق، كان كلّ شيء مجرّد ارتباك وعنف وإرهاب وكراهية وأمل ويأس. بعد لحظات انتهى كلّ شيء وهدأ.

تذكّر أنّ الميتيْن بقيا لفترة طويلة تحت الأشجار، قرابة يومين. وتخيّل أنّ الشمس، بعد أن دفّأتهما لساعات طويلة، وجلبت عليهما حياة الحشرات وطنينها، غربت عنهما وذهبت ببطء لتتركهما في ظلام ليالي الصيف الحلوة الصامت. كما بكى ندى الليل على خدودهما، بينما كانت الريح الخفيفة تهمس في أعلى الأغصان وتحت الشجيرات في أسفل الغابة. وبظهور أولى أشعّة الشمس، عادت أضواء اليوم السابق وظلاله، كما لو أنّما إلى لقاء، لتمزح فوق الجُثّتين الممدّديْن الثابتتيْن. ابتهج طائرٌ ببرودة الصباح وسطوعه النقيّ، فحطّ على غصن وأخذ يغنّي. وطارت كذلك نحلة حول رأس لينا، حيث تفتّحت زهرة قرب جبهة كوادري المقلوبة. كانا صامتيْن وخامليْن للغاية، لكن تحدّثت عنهما المياه الثرثارة في الأنهار المتعرّجة عبر الغابة، كما تحرّك سكّان الغابة، والسناجب المتخفيّة، والأرانب البريّة وهي تتواثب. وفي غضون ذلك، قامت الأرض المضغوطة، وفراش الأعشاب والطحالب تحتهما، بتحريك بطيء لشكل الجسميْن الجامدين، فأعدّت نفسها لتلبية طلبهما الصامت واستقبالهما في رحمها.

جفل على طرق الباب، فرمى المجلّة وصرخ بالدخول. فتح الباب ببطء ولم ير مارتشيلّو أحداً للحظة. ثمّ أطلّ بحذر وجه العميل أورلاندو الصادق والمسالم والعريض من خلال شقّ الباب. وسأل العميل: «هل أستطيع يا دكتور؟».

قال مارتشيلّو بنبرة رسميّة: «تفضّل يا أورلاندو، تقدّم... هل لديك ما تقوله لي؟».

دخل أورلاندو، وأغلق الباب واقترب وهو ينظر بثبات إلى مارتشيلّو. بعد ذلك، لاحظ مارتشيلّو لأوّل مرّة، أنّ كلّ شيء كان لطيفاً في ذلك الوجه المتوهّج والساخن، باستثناء عينيه الصغيرتين والغارقتين تحت جبهته الصلعاء، فكانتا تتلألآن بطريقة فريدة. «غريب»، فكّر مارتشيلّو وهو ينظر إليه، «كيف أني لم ألاحظ ذلك من قبل». أشار إلى العميل ليجلس فأطاع دون أن ينبس ببنت شفة، وهو يواصل التحديق به بتين العينين المشرقتين. «سيجارة؟» عرض عليه مارتشيلّو وهو يدفع إلى أورلاندو بعلبة السجائر.

قال العميل وهو يتناول سيجارة: «شكراً يا دكتور». ثمّ ساد الصمت. نفث أورلاندو بعد ذلك الدخان من فمه، ونظر للحظة إلى رأس السيجارة المشتعلة، ثمّ قال: «هل تعرف أيها الدكتور ما هو الجانب الذي يثير الفضول في قضيّة كوادري؟».

«لا، ما هو».

«أنّها لم تكن ضروريّة».

«ماذا تعني؟».

«أعني أنّي عند عودتي من المهمّة، ذهبت مباشرة بعد اجتياز الحدود لزيارة غابريو في س. وإعلامه بالنتيجة. هل تعرف ما هو أوّل شيء قاله لي؟ هل استلمتم الأمر المضادّ؟... فسألت: «أيّ أمر مضادّ؟... فقال الأمر المضادّ بتوقيف العمليّة... ولماذا إيقافها؟ فأجاب إيقافها لأنّهم اكتشفوا فجأة في روما أنّه من المفيد في هذه اللحظة التقارب مع فرنسا وفكّروا أنّ المهمّة يمكن أن تعرقل المفاوضات... فقلت إنّي لم أستلم أيّ أمر مضادّ قبل سفري من روما... يبدو أنّهم أرسلوه في وقت متأخّر... على كلّ فالمهمّة قد أنجزت، كما يمكن لك أن ترى في صحف الغد... عندما سمع جوابي أخذ يصرخ: لستم إلّا حيوانات، لقد دمّرتموني، هذا سيسيء إلى العلاقات الفرنسيّة الإيطاليّة في وقت حسّاس من السياسة الدوليّة. إنّكم مجرمون، ماذا أقول الآن إلى روما؟... فأجبته بهدوء، قل الحقيقة: أنّ الأمر المضادّ قد أرسل متأخّراً جدّاً... هل فهمت أيّها الدكتور؟... تعب شديد، ميّتان، ثمّ لم يكن هذا ضروريّاً، لا بل ضارّاً».

لم يقل مارتشيلّو شيئاً. سحب العميل نفثة أخرى من الدخان ثمّ نطق بحماسة ساذجة، وخيلاء الرجل غير المثقّف الذي يحبّ أن يملأ فمه بكلمات فخمة: «القدر».

تبع ذلك الصمت من جديد. ثمّ استأنف العميل: «لكنّ هذه هي المرّة الأخيرة التي أقبل فيها القيام بمثل هذه المهمّة... لقد صاح غابريو: أنتم حيوانات... لكنّ هذا ليس صحيحاً على الإطلاق... نحن بشر ولسنا حيوانات».

أطفأ مارتشيلّو سيجارته التي دخّن نصفها فقط وأشعل أخرى. فاستمرّ العميل: «يمكن قول كلمات جميلة، لكنّ بعض الأشياء لا تثير السرور... ويكفي أن نقول واحدة منها: شيرّينشونه...».

«من هو شيرّينشونه؟».

«أحد الرجال الذين كانوا معي... بعد الضربة مباشرة، وسط تلك الفوضى، التفتُّ بالصدفة، فماذا رأيت؟ رأيت أنّه يلعق الخنجر... صرخت عليه: ماذا تفعل. هل أنت مجنون؟... فأجاب: «هذا دم أحدب، يجلب الحظّ»... هل فهمت؟ متوحّش... كدت أن أطلق عليه النار».

خفض مارتشيلّو عينيه وأعاد بصورة آليّة ترتيب الأوراق الموجودة على الطاولة. هزّ العميل رأسه باستنكار ثمّ استأنف: «لكنّ أكثر ما أثار أسفي هو حال السيّدة التي لا علاقة لها بالأمر، والتي لم يكن من المفترض أن تموت... لكنّها ألقت بنفسها أمام زوجها، لتحميه، فأصيبت بدلاً عنه بطلقتيّ المسدّس... وعندما هرب هو نحو الغابة لحق به ذلك البربريّ المتوحّش شيرّينشونه... كانت هي لا تزال تعيش، فشعرتُ بعد ذلك بضرورة تسديد ضربة الرحمة... امرأة شجاعة أكثر من كثير من الرجال».

رفع مارتشيلّو عينيه نحو العميل، كأنّما ليفهمه أنّ الزيارة قد انتهت. ففهم العميل ونهض. لكنّه لم ينصرف على الفور. بل اتّكأ بكلتا يديه على الطاولة، ونظر إلى مارتشيلّو لبرهة طويلة، بعينيه المتلألئتين بعد ذلك، وبالحماسة نفسها الذي قال بها قبل قليل «القدر»، قال من جديد: «كلّ شيء للعائلة وللوطن أيّها الدكتور».

أدرك مارتشيلّو عند ذلك، وعلى حين غرّة، أين سبق له وأن رأى تين العينين البرّاقتين غير العاديّتين. لقد ظهرت في تين العينين تعابير عينيّ أبيه نفسها، أبيه الذي ما زال حبيس مصحّ الأمراض العقليّة. قال ببرودة: «لكنّ الوطن لا يطلب ربّما كلّ هذا».

فسأله أورلاندو وهو يستطيل قليلاً نحوه ويرفع صوته: «لماذا

جعلونا إذاً نفعل ذلك؟».

تردّد مارتشيلّو ثمّ قال بجفاء: «لقد قمت أنت يا أورلاندو بواجبك وهذا يجب أن يكون كافياً بالنسبة إليك». فرأى العميل وهو ينحني قليلاً انحناءة احترام، وهو بين خائب وموافق. ثمّ، ولا يعرف حتّى هو لماذا، بل ربّما ليبدّد بطريقة ما تلك الآلام الشبيهة بآلامه، أضاف بلطف، وبعد لحظة صمت: «هل لديك أولاد، يا أورلاندو؟».

«وكيف لا أيّها الدكتور، عندي خمسة»، ثمّ سحب العميل من جيبه محفظة كبيرةً ممزّقةً، وأخذ منها صورة عرضها على مارتشيلّو الذي أخذها ونظر إليها. اصطفّ فيها بحسب الطول خمسة أطفال، بين الثالثة عشرة والسادسة من العمر، منهم ثلاث بنات وذكران، كلّهم بملابس العيد، البنات بالأبيض والذكور بثياب البحّارة. كانت وجوههم جميعاً على ما رأى مارتشيلّو مستديرة، حكيمة، تشبه كثيراً وجه أبيهم. قال العميل وهو يستعيد الصورة التي مدّ مارتشيلّو يده بها: «هم الآن مع أمّهم في البلد، الكبيرة بدأت تعمل خيّاطة». قال مارتشيلّو: «إنّهم جميلون ويشبهونك».

«شكراً أيّها الدكتور... من جديد، أيّها الدكتور». تنحّى العميل ليفسح المجال أمام جوليا لتدخل واختفى. اقتربت جوليا وقالت مباشرة: «كنت أمشي قريباً من هنا وفكّرت بالقيام بزيارة لك... كيف الأحوال؟».

قال مارتشيلّو: «أنا على أحسن حال».

بقيت واقفة على قدميها قرب الطاولة، وهي تنظر إليه بتردّد وشكّ وخوف. قالت في النهاية: «ألا تظنّ أنّك تجهد نفسك في العمل؟».

أجاب مارتشيلّو وهو يلقي نظرة خاطفة على النافذة المفتوحة: «لا، لماذا؟».

«يبدو عليك التعب» ودارت جوليا حول الطاولة وبقيت ثابتة للحظة متكئة على ذراع الكرسيّ وهي تنظر إلى الصحف المفتوحة على الطاولة. ثمّ سألت:

«هل هناك من جديد؟».

«حول ماذا؟».

«في الصحف حول قضيّة كوادري».

«لا، لا شيء».

قالت بعد لحظة صمت: «أزداد قناعة أنّهم كانوا من رجال حزبه هم الذين قتلوه. وأنت ما هو رأيك؟».

كانت هذه الرواية الرسميّة عن الجريمة التي قدّمتها للصحف الإيطاليّة مكاتب الدعاية صباح اليوم نفسه التي وصلَ فيها الخبر من باريس. رأى مارتشيلّو أنّ جوليا قد أشارت إليها بنوع من الطيبة على أمل أن تقنع نفسها بذلك. فأجاب بجفاء: «لا أعلم... لكنّ هذا ممكن».

فكرّرت بحزم وتصميم: «أنا مقتنعة بالأمر». ثمّ قالت بسذاجة وبعد دقيقة من التردّد: «إنّي أفكّر أحياناً أنّي إذا لم أسئ معاملة زوجة كوادري ذلك المساء في ذلك النادي الليليّ، فإنّها كانت ستبقى في باريس ولم تمت... لذلك فإنّي أشعر بالندم... لكن ماذا كان عليّ أن أفعل؟... كان ذنبها هي أنّها لم تترك لي لحظة من السلام».

تساءل مارتشيلّو عمّا إذا كانت جوليا تشتبه في شيء من الدور الذي لعبه في مقتل كوادري، لكنّه استبعد ذلك بعد أن فكّر بالأمر قليلاً. لم يكن لأيّ حبّ، على ما رأى، أن يقاوم مثل هذا الاكتشاف، أجل كانت جوليا تقول الحقيقة: وقد شعرت بالندم على موت لينا، لأنّها كانت السبب غير المباشر في ذلك، ولو بطريقة بريئة كلّ البراءة. أراد أن يطمئنها، لكنّه لم يجد أفضل من الكلمة التي قالها أورلاندو بكلّ حماسة. فقال وهو يحيط خصرها بذراعه ويجذبها نحوه: «لا تتحسّري على ذلك، هذا هو القدر».

فأجابت وهي تداعب قليلاً رأسه: «أنا لا أعتقد بالقدر... حدث هذا لأنّي أحبّك بالفعل... إذا لم أكن أحبّك فإنّه ما كان لي ربّما، ومن يدري، أن أعاملها بتلك القسوة، وعندها ما كان لها أن تسافر ولا أن تموت... فأين القدر في كلّ هذا؟».

تذكّر مارتشيلّو لينو، السبب الأوّل في كلّ قضايا حياته، ثمّ قال بعمق: «عندما يقال قدر فإنّه يقال كلّ هذه الأشياء... الحبّ وغير ذلك... إذ لا يمكن لك أنت أن تتصرّفي إلّا كما تصرّفت، كما لم يمكن لها إلّا أن تسافر مع زوجها».

فسألته جوليا بصوت حالم، وهي تنظر إلى الأوراق المبعثرة على المكتب: «لا يمكن لنا نحن إذاً أن نفعل شيئاً؟».

تردّد مارتشيلّو ثم أجاب بمرارة عميقة: «بلى، يمكن لنا أن نعرف أنّنا لا نستطيع فعل شيء...».

«وما فائدة هذا؟».

«لنا، في المرّة القادمة... أو لآخرين من بعدنا». انفصلت عنه وهي تتنهّد وتوجّهت نحو الباب، ثمّ قالت وهي على العتبة: «تذكّر ألّا تتأخّر اليوم... فأمّي قد حضّرت غداءً لذيذاً... وتذكّر أيضاً ألّا تلتزم بمواعيد بعد الظهيرة... يجب أن نذهب سويّة لرؤية الشفق». أشارت إليه بالوداع واختفت.

عندما بقي وحده أخذ مارتشيلّو المقصّ وقطع بعناية الصورة من المجلّة الفرنسيّة، ووضعها في درج إلى جانب أوراق أخرى وأغلق الدرج بالمفتاح. في تلك اللحظة هبط على الفناء من السماء الحارقة العويلُ الثاقب الصادر عن الصافرة التي تعلن عن انتصاف النهار. بعد ذلك بدأت ترنّ نواقيس الكنائس القريبة والبعيدة.

خاتمة



-I-

حلّ المساء، فنهض مارتشيلّو، بعدما قضى يومه وهو مستلق على السرير، يدخّن ويفكّر، وتوجّه نحو النافذة. رأى المنازل سوداء تحت الضوء المخضرّ الصادر عن شفق الصيف، كانت ترتفع وتحيط ببيته من جميع الجوانب وحول الأفنية الإسمنتيّة العارية المزيّنة بأصص خضراء صغيرة وبشجيرات الآس المقلّمة. كانت بعض النوافذ تضيء بضوء أحمر، وكان من الممكن أن يرى في غرف الخدمة الخدم وهم يرتدون سترة العمل المقلّمة والطاهيات بمآزرهنّ البيضاء وهنّ يتابعن شؤون المنزل، ويجرين بين الخزن المطليّة وأفران المطابخ الكهربائيّة العديمة اللهب. رفع مارتشيلّو عينيه إلى فوق، ما وراء شرفات البيوت. كانت أواخر دخان الغروب القرمزيّة تتلاشى في السماء التي بدأت تظلم. ثمّ خفضهما من جديد فرأى سيّارة تدخل إلى الرواق وتقف فيه ثمّ نزل السائق ومعه كلب أبيض ضخم أخذ يجري وهو يعويّ ويهمهم بفرح. كان ذلك الحيّ أنيق المظهر، جديد الحلّة، أنشئ في السنوات الأخيرة. عند مشاهدة تلك الأروقة وتلك النوافذ، فلا يمكن لأحد أن يفكّر أنّ هناك حرباً كانت تجري منذ أربع سنين وأنّ حكومة سقطت في ذلك اليوم بعد عشرين سنة من الحكم. لا أحد غيره، على ما رأى. هو وكلّ من كان في حال مثل حاله. تخيّل للحظة صورة هراوة إلهيّة منصوبة فوق المدينة العظيمة الممتدّة بسلام تحت السماء الصافية، لتضرب

هنا وهناك بعض العائلات، وتلقي بها في أحضان الرعب والذهول والحداد، بينما يبقى جيرانها سالمين. كانت عائلته بين العائلات المصابة، كما كان يعرف وكما توقّع منذ بداية الحرب، كانت عائلة مثل غيرها، تشعر بالمشاعر نفسها وتعيش بالحميميّة نفسها، اعتياديّة بالفعل، بالاعتياديّة التي كان يتعقّبها بتصميم بالغ على مدى سنين طويلة، لكنّها بدت الآن خارجيّة فقط ومكسيّة بشذوذ غير اعتياديّ. تذكّر أنّه قال لزوجته يوم اندلعت الحرب في أوروبّا: «لو اتّبعت المنطق لكان عليّ أن أنتحر الآن». وتذكّر أيضاً الرعب الذي أثارته كلماته هذه في نفسها. كما لو أنّها فهمت ماذا كانت تخفي، بعيداً عن التوقّع البسيط لسير الحرب غير الملائم. وتساءل مرّة أخرى فيما إذا كانت جوليا تعرف عنه حقّ المعرفة وتعرف دوره في ميتة كوادري. فبدا له من جديد أنّه من المستحيل عليها أن تعرف ذلك، رغم أنّ بعض الإشارات تساعد على افتراض عكس ذلك.

لقد أدرك الآن بوضوح تامّ أنّه راهن، كما يقال، على الحصان الخاسر. لكن لماذا راهن بهذه الطريقة ولماذا لم يفز الحصان، فهذا ما لم يتّضح له، بصرف النظر عن الآثار الواقعيّة الواضحة. لكنّه كان يودّ أن يكون على ثقة من أنّ كلّ ما حدث كان يجب أن يحدث، وأنّه لم يكن من الممكن له أن يراهن بطريقة مختلفة، ولا أن يحصل على نتيجة مختلفة: كان يحتاج إلى هذا الاطمئنان أكثر من حاجته للتخلّص من أسف لا يشعر به. لأنّ الأسف الوحيد الممكن كان في الواقع أسفه على أخطائه، أسفُ من يفعلِ فعلة بلا ضرورة مطلقة وأكيدة. أسفٌ لأنّه تجاهل، باختصار، عن قصد أو عن غير قصد، أنّه كان بوسعه أن يفعل أشياء مختلفة بالكامل. أمّا إذا تأكّد أنّ هذا لم يكن صحيحاً فإنّه سيكون عندها في سلام مع نفسه، حتّى لو كان سلاماً باهتاً ومملّاً، وكما تعوّد في السابق. أي إنّه رأى، بعبارة أخرى، أنّ عليه أن يكون على يقين من أنّه يعرف قدره وأنّه يتقبّله كما هو، مفيداً للآخرين وله، ربّما بطريقة سلبيّة فقط، ولكنّه مفيد في كلّ الأحوال.

أمّا إذا وقع في هذه الأثناء فريسة شكّ ما، فكان يتعزّى بفكرة أنه حتّى لو كان هناك خطأ، ولا يمكن استبعاد ذلك، فإنّه يكون قد راهن أكثر من أيّ شخص آخر، بل أكثر من كلّ أولئك الذين كانوا في حاله نفسها. كان هذا

عزاء الكبرياء، العزاء الوحيد الذي بقي له. وإذا كان يمكن للآخرين، في يوم ما، تغيير أفكارهم وأحزابهم وحياتهم بل وحتّى شخصيّاتهم، فهذا لن يكون مع ذلك، ممكناً بالنسبة إليه، ليس فقط تجاه الآخرين ولكن تجاه نفسه أيضاً. لقد فعل كلّ ما فعله لأسبابه الخاصّة فقط وبعيداً عن أيّ تواصل مع الآخرين، لذلك فإنّ التغيير، حتّى لو كان مسموحاً له، سيعني إلغاء نفسه. وهو يرغب الآن بتجنّب هذا الإلغاء بالذات، بين كثير من الإلغاءات الأخرى.

فكّر عندما توصّل إلى هذه النقطة أنّه إذا كان هناك من خطأ، فإنّ أكبر خطأ يمكن أن يكون قد ارتكبه، هو عزمه على الخروج من لا اعتياديّته، والبحث عن اعتياديّة مهما كان شأنها تسمح له بالتواصل مع الآخرين. وكان هذا الخطأ قد تولّد عن غريزة ضاربة فيه، وللأسف فإنّ الاعتياديّة التي نشأت عنها هذه الغريزة، لم تكن سوى شكلٍ أجوف، كلّ شيء فيه شاذّ وغير اعتياديّ ومجّانيّ. وكما أنّ هذا الشكل ذهب حطاماً عند أوّل صدمة، فإنّ تلك الغريزة المبرّرة والبشريّة قد حوّلته إلى جلّاد للضحيّة التي كان يمثّلها. وباختصار فإنّ خطأه لم يكن قتل كوادري، بمقدار ما كانت رغبته في محو فساد حياته الأساسيّ بواسطة وسائل غير ملائمة. لكنّه عاد وتساءل، هل كان من الممكن أن تسير الأمور بشكل مختلف؟

لا، لم يكن هذا ممكناً على ما رأى مرّة أخرى في إجابة على تساؤله. كان على لينو أن يتذرّع بالبراءة، وكان عليه هو أن يدافع عن نفسه، ثمّ أن يقتله دفاعاً عن النفس، وأن يسعى بعد ذلك إلى تخليص نفسه من الإحساس بشذوذ عدم الاعتياديّة الذي نجم عن الأمر. كان عليه أن يبحث عن الاعتياديّة بالطريقة التي بحث فيها. وكان عليه لبلوغ هذه الاعتياديّة أن يدفع ثمناً يتناسب مع عبء شذوذ عدم الاعتياديّة الذي كان ينوي التخلّص منه. هذا الثمن كان ميتة كوادري. وهكذا فإنّ كلّ شيء كان مقدّراً، حتّى لو تمّ قبوله بكامل الحريّة. كما أنّ كلّ شيء كان عادلاً وغير عادل في الوقت نفسه.

بدا له أنّه لا يفكّر بهذه الأشياء بمقدار ما كان يشعر بها بحدسه الحادّ والمؤلِم، وبالعذاب الذي كان يرفضه ويتمرّد عليه. كان بودّه أن يواجه بهدوء وانفصال كارثة حياته، كما لو أنّه يرى مشهداً محزناً، لكن عن بعد. لكنّ هذا العذاب كان يثير في نفسه الشكّ بوجود علاقة فزع بينه وبين الأحداث، رغم

أنّه كان يجهد نفسه كي ينظر إليها بوضوح كامل. هذا رغم أنّه لم يكن من السهل في تلك اللحظة التميز بين الوضوح وبين الخوف. لذلك فقد كانت أفضل طريقة هي أن يحافظ كما كان يحافظ في السابق على سلوكه اللائق البارد اللّامبالي. وفكّر مرّة أخرى، وتقريباً من غير سخرية، بل وكأنّه يلخّص طموحاته المتواضعة، أنّ ليس لديه ما يخسره. ما لم يكن المقصود بالخسارة التخلّي عن عمله المتواضع كموظّف حكوميّ، وعن هذا المنزل الذي كان عليه أن يدفع ثمنه بالتقسيط على مدار خمس وعشرين سنة، كما يجب دفع ثمن السيارة في غضون سنتين، فضلاً عن دفع ثمن غير ذلك من أساسيّات الرفاه التي بدا له أنّ عليه تقديمها لجوليا. بالفعل، لم يكن لديه ما يخسره، وإذا جاؤوا في تلك اللحظة لاعتقاله، فإنّ هزالة المزايا المادّيّة التي حصّلها من وظيفته، ستذهل أعداءه بالذات.

ابتعد عن النافذة واستدار نحو الغرفة. كانت غرفة نوم مزدوجة، كما أرادتها جوليا. مصنوعة بخشب الماهوجني اللامع والداكن، لها مقابض وزخارف برونزيّة بطراز قريب إلى الطراز الإمبراطوري. فتذكّر أنّه اشترى هذه الغرفة أيضاً بالتقسيط، وأنّه لم ينته من دفع الأقساط إلّا في العام السابق. ففكّر بسخرية وهو يتناول سترته من فوق الكرسيّ ليرتديها: «حياتنا كلّها بالتقسيط... لكنّ الأقساط الأخيرة هي الأكبر ولن نتمكّن أبداً من تسديدها». رتّب بقدمه فوضى سجّادة تحت السرير ثمّ خرج من الغرفة.

ذهب إلى الممرّ وتوجّه إلى باب نصف مفتوح في نهايته كان يتسرّب منه بعض الضوء. إنّها غرفة نوم ابنته، دخل، وبقي للحظة في المدخل، وكأنّه قد ارتاب لرؤية المشهد المعتاد والمألوف الذي رأته عيناه. كانت غرفة صغيرة ومفروشة بالأسلوب الرشيق الملوّن المعروف عن غرف نوم الأطفال ومعيشتهم. كان الأثاث مدهوناً باللون الورديّ، الستائر ضاربة إلى الزرقة والجدران عليها ورق رسمت عليه سلال ورود. تبعثرت على السجّاد، الورديّ أيضاً، دمى بأحجام مختلفة وغيرها من الألعاب. كانت زوجته جالسة إلى رأس السرير، بينما الطفلة، لوتشيلّا، مستلقية عليه. كانت الزوجة تحادث الطفلة، فرمته عند دخوله بنظرة مديدة لكن دون أن تنبس ببنت شفة. أخذ مارتشيلو واحداً من تلك الكراسي الصغيرة الملوّنة وجلس قرب

السرير. قالت الطفلة: «مساء الخير يا أبي»، فأجاب مارتشيلّو وهو ينظر إليها: «مساء الخير يا لوتشيلّا». كانت طفلة سمراء رقيقة وجهها مستدير وعيناها كانتا واسعتين جدّاً تنمّان عن تعابير مؤثّرة، وملامحها شديدة النعومة، وكأنّها محلّاة من شدّة لطفها. لم يعرف هو أيضاً سبباً لماذا بدت له في تلك اللحظة جميلة جدّاً وأنّها تعرف ذلك، فوق كل شيء، بطريقة رأى أنّها قد لا تحيد عن كونها بداية غنج بريء، ذكّره، بشكل مزعج، بأمّه التي كانت الطفلة تشبهها أشدّ الشبه. كان هذا الغنج واضحاً في طريقة تدوير عينيها الواسعتين المبطّنتين وهي تتكلّم إليه أو إلى أمّها، وفي التأثيرات الغريبة الصادرة عن فتاة لا يتجاوز عمرها ستّ سنوات، كما في الثقة التي تتحدّث بها، الشديدة إلى أقصى حدّ وبشكل يكاد ألّا يُصدّق. كانت ترتدي قميصاً أزرق، مزيّناً بالدانتيل، وتجلس على السرير، وقد ضمّت يديها لتلاوة صلاة المساء التي قطعها قدوم أبيها. قالت لها الأم بلطف: «هيّا تعالي يا لوتشيلّا، لا تنسحري، هيّا، صلّي معي».

قالت الطفلة وهي تنظر نظرة نفاد صبر واثقة إلى السقف: «أنا لم أنسحر، بل أنت التي انقطعت عندما دخل أبي... لذلك فقد توقّفت أنا أيضاً».

قالت جوليا ببرودة: «معك الحقّ، لكنّك تعرفين الصلاة... كان بوسعك أن تستمرّي... فعندما تكبرين لن تجديني قربك لألقّنك إيّاها، بينما عليك أن تتليها».

قالت الطفلة وهي ترفع كتفيها شيئاً ما، لكن من غير أن تباعد بين يديها المضمومتين: «هاك كيف تحمليني على تضييع الوقت... لقد تعبت من هذا. نتناقش بينما كان بوسعنا أن ننهي الصلاة».

فكرّرت جوليا القول وهي تبتسم هذه المرّة، كأنّما غصباً عنها: «هيّا، فلنبدأ من جديد: يا مريم العذراء المليئة بالحنان».

فكرّرت الطفلة وراءها وهي تجرجر صوتها: «يا مريم العذراء المليئة بالحنان».

«الله معك، أنت المبجّلة بين النساء».

«الله معك، أنت المبجّلة بين النساء».

«بورك يسوع، ثمرة رحمك».

«بورك يسوع، ثمرة رحمك».

هنا سألت الطفلة: «هل يمكن لي أن أستريح لحظة؟».

فسألتها جوليا: «لماذا؟ هل تعبت منذ الآن؟».

فقالت الطفلة وهي تباعد بين يديها وتنظر إلى أبيها: «منذ ساعة وأنت تجبرني على هذا الوضع. عندما دخل أبي كنّا قد تلونا نصف الصلاة». وأخذت تفرك ذراعيها بيديها وهي تتظاهر بالتعب بشيء من الخبث والغنج. ثمّ رفعت يديها وضمّتهما من جديد وهي تقول:

«أنا جاهزة».

فاستأنفت جوليا دونما تسرّع: «يا مريم المقدّسة».

«فكرّرت الطفلة: «يا مريم المقدّسة».

«صلّي من أجلنا نحن الخطاة».

«صلّي من أجلنا نحن الخطاة».

«الآن وفي يوم موتنا».

«الآن وفي يوم موتنا».

«فليكن هذا».

«فليكن هذا».

وهنا سألت الطفلة مباشرة: «لكنّك أنت لا تتلو الصلاة أبداً يا أبي؟». فأجابت جوليا بسرعة: «نتلوها في المساء قبل أن ننام».

لكنّ الطفلة نظرت إلى مارتشيلّو بنوع من التساؤل، بل رأى عدم التصديق في نظرتها. لذلك فقد أسرع ليؤكّد: «مفهوم، كلّ مساء قبل الذهاب إلى السرير». فقالت جوليا وهي تنهض وتدير الطفلة على ظهرها: «تمدّدي الآن ونامي». أفلحت، لكن ليس دون جهد، لأنّ الطفلة لم تبد على استعداد لأن تنام على الإطلاق، ثمّ سحبت على ذقنها الغطاء الوحيد الموجود على السرير. فقالت الطفلة وهي ترفس الغطاء: «أشعر بالحرّ الشديد».

فأجابت جوليا: «غداً نذهب إلى جدّتك ولن تشعري بالحرّ بعد ذلك».

«وأين هي جدّتي الآن؟»..

«على الهضبة، الجوّ بارد هناك».

«لكن أين؟».

«قلت لك ذلك عدّة مرّات: تالياكوتسو... مكان رطب وسنبقى طيلة الصيف».

«لكن هل ستأتي الطائرات إلى هناك؟».

«لن تأتي الطائرات بعد الآن».

«لماذا؟.

«لأنّ الحرب انتهت».

«ولماذا انتهت الحرب؟».

فقالت جوليا بحدّة، لكن دون تذمّر: «لأنّ اثنين ليسا واحداً، كفاك الآن أسئلة... نامي، لأنّنا سنسافر غداً في الصباح الباكر... سأذهب الآن لإحضار دوائك».

خرجت، وتركت الطفلة وحدها مع زوجها. فسألت الطفلة مباشرة وهي تنهض عن السرير: «بابا، هل تذكر القطّة التي كانت عند الناس الذين يسكنون تحتنا؟». فأجاب مارتشيلّو وهو ينهض عن الكرسيّ ويذهب للجلوس على طرف السرير: «أجل»،

«لقد ولدت أربع هررة».

«حسناً؟».

«قالت مربّية أولئك الأطفال إنّهم يستطيعون إذا أردت أن يعطوني واحداً من الهررة... فهل أستطيع أخذه؟ وهكذا سآخذه معي إلى تالياكوتسو».

«لكن متى ولد أولئك الهررة؟».

«قبل الأمس».

قال وهو يداعب رأس ابنته: «لن يكون هذا ممكناً إذاً... لأنّ الهررة الصغيرة يجب أن تبقى مع أمّها ما دامت ترضع... ستأخذينه عندما تعودين من تالياكوتسو».

«وإذا لم نعد من تالياكوتسو؟».

فقال مارتشيلّو وهو يغرز أصابعه بين شعر ابنته البنّيّ الناعم: «ولماذا يجب ألّا نعود؟ سنعود في آخر الصيف».

فاشتكت الطفلة مباشرة بعد أوّل مداعبة: «آي، لقد أوجعتني».

ترك مارتشيلّو شعرها وقال وهو يبتسم: «لماذا تقولين إنّي أوجعتك؟... تعرفين أنّ هذا ليس صحيحاً».

فأجابت بحماسة: «لكنّك أوجعتني حقّاً». بعد ذلك، رفعت يديها إلى صدغيها بحركة عناد أنثويّة: «سأعاني الآن من صداع أليم»، فقال مارتشيلو مداعباً: «سأشدّ أذنيك إذاً». ثمّ رفع الشعر برفق من فوق أذنها الورديّة الصغيرة المستديرة وشدّها قليلاً، وهو يهزّها مثل الجرس. صرخت الطفلة بصوت مرتفع، متظاهرة بالألم، بينما انصبغ وجهها بشيء من الخجل: «آي، آي، لقد أوجعتني».

فترك مارتشيلّو أذنها وهو يؤنّبها: «ألا ترين أنّك تكذبين، تعرفين أنّه يجب ألّا تقولي الكذب».

فقالت بطريقة حكيمة: «أستطيع أن أقسم لك هذه المرّة أنّك أوجعتني حقّاً».

سألها مارتشيلّو وهو يجول بنظره على السجّادة التي تبعثرت عليها الدمى: «هل تريدين أن أعطيك دمية لهذه الليلة».

ألقت نظرة ازدراء هادئة على الدمى وأجابت بتعال: «إذا شئت».

فسألها مارتشيلّو وهو يبتسم: «كيف إذا شئت؟ تتكلّمين كأنّك تصنعين لي معروفاً... ألا يروق لك أن تنامي بجانب دمية؟».

فتنازلت وقالت: «أجل، يروق لي، أعطني»، ثمّ تردّدت قليلاً وهي تنظر إلى السجّادة، وأردفت: «أعطني تلك ذات الثوب الورديّ».

نهض مارتشيلّو ونظر إلى السجّادة: «كلّ الدمى بثوب ورديّ».

فقالت الطفلة بتعجرفٍ من نفد صبره: «هناك ورديّ وورديّ، لون الثوب الورديّ لتلك الدمية شبيه بلون الورود الورديّة الموجودة على الشرفة».

سألها مارتشيلّو وهو يتناول من على السجّادة أجمل الدمى وأكبرها.

فقالت له بحدّة: «ألا ترى أنّك لا تفهم شيئاً»، ثمّ قفزت فجأة عن السرير، وجرت بقدميها الحافيتين إلى زاوية من السجّادة وأخذت من الأرض دمية

قبيحة جدّاً من القماش مسحوقة ومسودّة الوجه، ثمّ عادت بسرعة لتستلقي على السرير وتقول: «ها قد وجدتها». واستلقت هذه المرّة على ظهرها على السرير، بوجهها المتورّد الساكن، ثمّ عانقت تلك الدمية القذرة المذهولة. دخلت جوليا وهي تحمل في يدها زجاجة وملعقة.

قالت وهي تقترب: «هيّا، تناولي الدواء». لم تتدلّل الطفلة. فأطاعت وجلست بنصف جسمها على السرير، ومدّت برأسها وفمها مفتوح بحركة طائر يزقّ طعامه. أدخلت جوليا الملعقة في فمها ثمّ أمالتها بعنف لتسكب السائل. فعادت الطفلة واستلقت على ظهرها وقالت: «كم هو سيئ طعمه».

فقالت جوليا وهي تنحني وتقبّل ابنتها: «تصبحين على خير إذاً».

قالت الطفلة بصوت حادّ: «تصبحين على خير يا ماما، تصبح على خير يا بابا»، فقبّلها مارتشيلّو بدوره على خدّها ثمّ لحق بزوجته. أطفأت جوليا الضوء وأغلقت الباب.

في الممرّ، التفتت بنصفها إلى زوجها وقالت: «أعتقد أنّه جاهز». فلاحظ مارتشيلّو، ولأوّل مرّة، وفي ذلك الظلّ الفاضح، أنّ عينيّ جوليا كانتا منتفختين، كأنّما بسبب البكاء. عملت زيارة الطفلة على تهدئته، لكنّه عندما شاهد عيني زوجته خشي من جديد أنّه لن يتمكّن من الظهور هادئاً وثابتاً كما يودّ أن يظهر. في هذه الأثناء، كانت جوليا قد سبقته إلى غرفة الطعام، وهي غرفة صغيرة جدّاً فيها طاولة مستديرة وخزانة للصحون. كانت الطاولة جاهزة، فأضاء المصباح المركزيّ، وسمع، من النافذة المفتوحة، صوت الراديو وهو يخبر عن سقوط الحكومة الفاشيّة بالنبرة اللاهثة الحماسيّة والجهوريّة التي تستخدم عادة في مباريات كرة القدم.

دخلت النادلة فقدّمت الحساء وخرجت من جديد. بدآ يأكلان ببطء، بحركات مدروسة. ظهر أنّ الراديو قد جنّ فجأة، وأخذ المذيع يقول بعبارات حماسيّة وبصوت محموم: إنّ حشوداً كبيرة تجمّعت في شوارع المدينة لتصفّق للملك. قالت جوليا وهي تضع ملعقتها وتنظر إلى النافذة: «يا للقرف».

«لماذا القرف؟».

«حتّى الأمس كانوا يصفّقون لموسوليني... قبل أيّام صفّقوا للبابا على أمل أن ينجّيهم من القصف... وهم اليوم يصفّقون للملك الذي أسقط موسوليني».

لم يقل مارتشيلّو شيئاً. فآراء جوليا وردود أفعالها على الأمور السياسيّة، كانت واضحة بالنسبة إليه بحيث كان قادراً على تخمينها سلفاً. فهي آراء وردود أفعال شخص بسيط جدّاً، يخلو من أيّ فضول لمعرفة الأسباب العميقة الكامنة وراء الأحداث، لأنّه لا ينقاد إلّا لعواطفه وآرائه الشخصيّة، أكثر من أيّ شيء آخر. انتهيا من تناول الحساء بصمت بينما واصل الراديو إطلاق أصواته المتدفّقة. ثمّ، فجأة، بعد أن أحضرت النادلة الطبق الثاني، انطفأ الراديو وساد الصمت، ومع الصمت بدا أنّ حرارة ليالي الصيف الخانقة قد عادت لتجثم بلا حراك. نظرا إلى بعضهما البعض ثمّ سألت جوليا: «والآن ماذا ستفعل؟».

أجاب مارتشيلّو باختصار: «سأفعل ما يفعله كلّ الذين يجدون أنفسهم في ظروف كظروفي... نحن كثر في إيطاليا من الذين صدّقنا واعتقدنا».

تردّدت جوليا قبل أن تتكلّم. ثمّ أضافت ببطء: «لا، أعني ماذا ستفعل فيما يخص قصيّة كوادري؟».

وهكذا فإنّها كانت تعلم، بل ربّما كانت تعلم ذلك منذ البداية. أدرك مارتشيلّو أن قلبه قد انهار عند سماع كلامها، كما كان سينهار قبل عشرة سنوات لو أنّ أحدهم سأله: «والآن ماذا ستفعل فيما يخصّ قضيّة لينو؟». لذلك، لو كان يملك موهبة النبوءة، فإنّ جوابه يجب أن يكون: «قتل كوادري». أمّا الآن فقد وضع الشوكة قرب الصحن، وأجاب عندما تأكّد أنّ صوته لن يرتجف: «لا أفهم عن ماذا تتكلّمين». رأى أنّها خفضت بصرها، وكشّرت تكشيرة تنمّ عن البكاء. ثمّ قالت بصوت بطيء وحزين: «قالت لي لينا في باريس، لكن ربّما بنيّة إبعادي عنك، إنّك تعمل في الشرطة السياسيّة».

«وبماذا أجبتها؟».

«قلت إنّ الأمر لا يهمّني... إنّي زوجتك وأحبّك مهما فعلت... وإنّك إذا فعلت أمراً فهذا يعني أنّه من المناسب فعله».

لم يقل مارتشيلّو شيئاً، فقد انفعل رغماً عنه بسبب هذا الإخلاص العنيد والأعمى. تابعت جوليا بصوت متردّد: «لكن عندما تمّ قتل كوادري ولينا، اعتراني خوف شديد بأنّ لك علاقة بالأمر... ومن وقتها لم أكفّ عن التفكير به... لكنّي لم أحدّثك به نظراً لأنّك لم تخبرني أبداً بأيّ شيء عن مهنتك، ورأيت أنّه لا يمكنني من باب أولى أن أتحدّث إليك بهذا».

فسألها مارتشيلّو بعد دقيقة من الصمت: «وما هو رأيك الآن؟».

قالت جوليا وهي ترفع بصرها لتنظر إليه. رأى مارتشيلّو أنّ عينيها كانتا تبرقان ففهم أنّ بكاءها هو الجواب. ومع ذلك فقد بذلت جهداً لتجيب: «لقد قلت لي بنفسك في باريس إنّ زيارة كوادري مهمّة جدّاً بالنسبة إلى عملك... وهكذا فإنّي أرى أن ذلك قد يكون صحيحاً».

فقال مباشرة: «إنّه صحيح».

فهم في اللحظة نفسها أنّ جوليا كانت تأمل حتى اللحظة الأخيرة بأن تكون على خطأ. وفي الواقع، فقد كانت كلماته نوعاً من الإشارة، فما إن رأت هذه الإشارة بسماع كلامه، حتّى ألقت برأسها على الطاولة، ووضعت وجهها على ذراعها لتجهش في البكاء. نهض مارتشيلّو وذهب إلى الباب وأدار المفتاح فيه، ثمّ عاد إلى جانبها، ووضع يده على شعرها دون أن ينحني، وقال: «يمكن لنا إذا أردت أن ننفصل غداً بالذات... أرافقك إلى تالياكوتسو مع الطفلة، ثمّ أبتعد عنك ولن تريني ثانية... هل تريدين أن نفعل ذلك؟».

ظنّ أنّ جوليا توقّفت مباشرة عن النحيب لأنّها لم تصدّق أذنيها. ثمّ ما لبث صوتها الحزين أن جاء من تحت ذراعها حيث خبّأت وجهها، وقالت متفاجئة: «ماذا تقول؟... الانفصال؟... لم أتكلّم عن هذا... بل كنت خائفة جدّاً عليك... ماذا سيفعلون الآن بك؟».

وهكذا فقد رأى أنّ جوليا لا تشعر بالاحتقار نحوه، ولا بالأسف على ميتة كوادري ولينا، بل بمجرّد خشية عليه وعلى حياته ومستقبله. لكنّ برودة مشاعرها هذه، المغلّفة بحبّها الكبير، أثّرت فيه تأثيراً غريباً، كمن يصعد في الظلام على الدرج، فيرفع قدمه ظنّاً منه أنّ هناك درجة أمامه، فلا يجد إلّا فراغ عتبة الدرج. والواقع أنّه كان يتوقّع بل ويأمل بمجابهة ازدرائها وحكماً قاسياً

تصدره. بينما لم يجد سوى حبّها الأعمى الملهوف عليه. فقال بنوع من نفاد الصبر: «لن يصيبوني بأيّ أذى... كما أنّي لم أفعل سوى تنفيذ الأوامر». تردّد هنا لحظة بسبب قرفه من هذه العبارة الشائعة التي قالها، ومع ذلك فقد أنهى حديثه منهكاً: «لم أفعل سوى القيام بواجبي، مثلما يفعل الجنود».

تمسّكت جوليا بهذه العبارة المهترئة، التي لم تكف في حينه في تهدئة حتّى العميل أورلاندو. فقالت وهي ترفع رأسها، وتمسك بيده وتقبّلها بانفعال: «أجل، لقد كنت أفكّر وأقول في نفسي: إنّ مارتشيلّو ليس في نهاية الأمر سوى جنديّ... والجنود يقتلون لأنّهم مأمورون... وهو ليس عليه ذنب إذا فعل ما يؤمر بفعله... لكن ألا تظنّ أنّهم سيأتون لاعتقالك؟... أنا على ثقة أنّ أولئك الذين أعطوك الأوامر سيهربون... بينما تعلق أنت الذي لا دخل لك ولم تفعل سوى ما أملاه عليك الواجب...». وبعد أن قبّلت يده، قلبتها على قفاها وأخذت تقبّل راحتها، بالهمّة نفسها.

قال لها مارتشيلّو وهو يداعبها: «اطمئنّي، عندهم الآن من الأشغال ما يلهيهم عن البحث عنّي».

«لكنّ الناس أشرار... يكفي أن يأتي شخص لا يحبّك... يقدّم شكوى ضدّك... ويحدث ما يحدث على الدوام: فالكبار، أولئك الذين يعطون الأوامر، والذين جمعوا الملايين، لا يصيبهم شيء، أمّا الصغار مثلك، الذين يقومون بواجبهم ولم يوفّروا درهماً لأنفسهم، فيعلقون... أوه يا مارتشيلّو، إنّي أشعر بخوف شديد».

«لا تخافي، سيتمّ تدبير كلّ شيء».

«آه، أعرف أنّه لن يتمّ تدبير شيء... كما أنّي مرهقة بالفعل». كانت جوليا تتكلّم ووجهها على راحته، لكن دون تقبيل. «بعد أن ولدت لوتشيلّا، كنت أفكّر، رغم أنّي كنت أعرف ما هو عملك: لقد رتّبت أموري الآن، فلديّ طفلة ولديّ زوج أحبّه، ولديّ بيت... إنّي سعيدة، سعيدة بالفعل... كانت تلك هي أوّل مرّة في حياتي أشعر فيها بالسعادة... ولم يبد لي ذلك حقّاً... كأنّه لا يمكن لي أن أصدّق ذلك... كنت أخاف أشدّ الخوف أن ينتهي كلّ شيء وأن لا تدوم السعادة... وفي الواقع فهي لم تدم وعلينا الآن أن نهرب... بينما

فقدت أنت الوظيفة ومن يعلم ماذا سيفعلون بك... وستكبر تلك المخلوقة البائسة بأسوأ ممّا لو كانت يتيمة... وعلينا أن نبدأ كلّ شيء من جديد... بل ربّما لن يكون من المستطاع البدء من جديد وستنهار أسرتنا»، وهنا انفجرت من جديد بالبكاء وألقت بوجهها تحت ذراعها.

تذكّر مارتشيلّو فجأة تلك الصورة التي برقت قبل ذلك في خياله: الهراوة الإلهيّة التي تضرب دونما شفقة عائلته بأسرها، هو المذنب كما زوجته وطفلته البريئتين، فعبس من شدّة الألم. قرع الباب فصاح على النادلة قائلاً إنّهما انتهيا من تناول الطعام وإنّه لا حاجة لهما بها. ثمّ انحنى فوق جوليا وقال لها بنبرة حلوة: «أرجوك أن تكفّي عن البكاء وأن تهدئي... لن تنهار عائلتنا... سنرحل إلى أميركا، إلى الأرجنتين، وسنحيا هناك حياة جديدة... وسيكون لنا هناك أيضاً بيت وسأكون أنا إلى جانبك مع لوتشيلّا... كوني مطمئنّة وسيكون كلّ شيء على ما يرام». رفعت جوليا هذه المرّة نحوه وجهها المبلّل بالدموع، وقد امتلأ فجأة بالأمل: «سنذهب إلى الأرجنتين... لكن متى؟».

«في أقرب فرصة ممكنة... عندما تنتهي الحرب بالفعل».

وفي هذه الأثناء؟».

«في هذه الأثناء سنبتعد عن روما، سنذهب إلى تالياكوتسو... هناك لن يبحث عنّا أحد... سترين، كلّ شيء سيكون على ما يرام». بدا لمارتشيلّو أنّ جوليا قد استراحت لهذه الكلمات، وخاصّة عندما رآها تنهض على قدميها وتنفّ أنفها وتقول بنبرة ثابتة: «معذرة، كم أنا غبيّة... عليّ أن أكون عوناً لك في هذه الظروف، بينما لم أتمكّن إلّا من ذرف الدموع والبكاء كالحمقاء».

بدأت بتنظيف الطاولة، ورفع الأطباق عنها ووضعها فوق خزانة الصحون. ذهب مارتشيلّو إلى النافذة وانحنى فوق عتبتها ونظر إلى الخارج. رأى من خلال النوافذ الشاقّة مصابيح الدرج التي تضيء باهتة في البناء المقابل، طابقاً بعد طابق، حتّى السماء. بينما كانت الظلال تتجمّع في الأروقة الإسمنتيّة العميقة، سوداء مثل الفحم. كان الليل هادئاً وحارّاً، ولم يكن من المستطاع، حتّى لو أصاخ المرء بسمعه أن يسمع أيّ صوت سوى

أزيز مضخّة الحديقة، حيث كان يقوم أحدهم في الظلام، بسقي الأعشاب في أحواض الزهور في الفناء. قال مارتشيلّو وهو يستدير نحوها: «ما رأيك بالذهاب في نزهة وسط المدينة؟».

سألت: «لماذا، بأيّ هدف، من يدري أيّ ازدحام سيكون هناك؟».

فأجاب بنبرة استخفاف: «يمكن لك أن تري كيف تسقط الديكتاتوريّة».

«ثمّ هناك لوتشيلّا، لا أستطيع تركها وحدها... وإذا جاءت الطائرات؟».

«اطمئنّي، لن تأتي هذه الليلة».

فاحتجّت فجأة: «لكن لماذا إلى وسط المدينة، إنّي حقّاً لا أفهمك... هل تريد أن تعاني بالفعل... ماذا ستستفيد؟».

قال: «ابق أنت، سأذهب وحدي».

فقالت مباشرة: «لا، أنا قادمة معك إذاً، أريد أن أكون معك إذا حصل لك أيّ شيء... يمكن للخادمة أن تعتني بالطفلة».

«لكن لا تخافي... لن تأتي الطائرات هذه الليلة».

فقالت وهي تخرج: «سأذهب لأغيّر ملابسي».

عندما بقي مارتشيلّو وحده، ذهب إلى النافذة ثانية. كان هناك الآن شخص ينزل على درج البناء المقابل، رجل. رأى خياله وهو ينزل طابقاً بعد الآخر خلف النوافذ المعتمة. كان ينزل بلا مبالاة. لا بدّ أنّه كان شابّاً، ذلك بالحكم على رقّة ظلّه: بل ربّما كان يصفّر، كما فكّر مارتشيلّو بشيء من الحسد. ثمّ عاد الراديو ليقول من جديد، وكأنّما لإنهاء حديث سابق: «الحرب مستمرّة. كانت هذه هي رسالة الحكومة الجديدة، التي سبق له وأن سمعها بالفعل قبل فترة وجيزة. أخذ مارتشيلّو العلبة من جيبه وأشعل سيجارة.

-II-

كانت شوارع الضواحي خالية، صامتة ومظلمة، شبه ميّتة، كأطراف جسد ضخم تجمّعت دماؤه فجأة في مكان واحد. ولكن مع اقتراب السيّارة من وسط المدينة، رأى مارتشيلّو وجوليا المزيد والمزيد من مجموعات أشخاص يلوّحون بأيديهم ويصرخون. عند مفترق الطرق، أبطأ مارتشيلّو وتوقّف ليسمح بمرور صفّ من الشاحنات المزدحمة بفتية وصبايا وهم يلوّحون بالأعلام واللافتات المكتوبة. وقد أخذت الحشود المتجمّعة على الأرصفة تصّفق باضطراب عند مرور هذه الشاحنات التي ترفع الأعلام والمحمّلة فوق طاقتها، والتي يتشبّث من فيها برفارفها ومنصّتها. نظر أحدهم إلى نافذة سيّارة مارتشيلّو وصرخ في وجه جوليا: «تحيا الحريّة!»، ثمّ اختفى بعد ذلك مباشرة، كما لو أنّ الجموع السوداء حوله قد ابتلعته. قالت جوليا: «أليس من الأفضل أن نعود إلى المنزل؟».

أجاب مارتشيلّو وهو يراقب الطريق عبر الزجاج الأماميّ: «لماذا؟ إنّهم سعداء جدّاً... لكنّهم لا يفكرون حتماً بإيذاء أحد... فلنركن السيّارة الآن في مكان ما ثمّ نسير نحن أيضاً لنشاهد ماذا يحدث».

«ألن يسرقوا لنا السيّارة؟».

«يا لهذه الحماقة!».

قاد مارتشيلّو السيّارة بطريقته المعتادة وهو يتأمّل بهدوء وصبر، وتقدّم عبر شوارع المركز المزدحمة. تحت الضوء الباهت والمتوزّع بسبب التعتيم المضادّ للطائرات، يمكن أن ترى هنا وبوضوح تحرّكات الناس وطرقهم العديدة في التجمّع، والتصادم، والانتشار، والجري، وإذا كانت هذه

الطرق تختلف فيما بينها، فإنّ الابتهاج الصادق بسقوط الدكتاتوريّة يسري فيها جميعها دونما استثناء. كان هناك من يعانق الآخرين دون أن يعرفهم، وهناك من وقف لفترة طويلة ساكتاً بانتباه، يرفع قبّعته ليحيّي شاحنة ترفرف عليها الأعلام، عندما مرّت أمامه، ثمّ أخذ في الهتاف فجأة ببعض عبارات الترحيب، وهناك أيضاً من يجري كأنّه عريف حفل بين مجموعة وأخرى وهو يكرّر عبارات التشجيع والبهجة، ثمّ هناك من يباغته الغضب والحقد فيرفع قبضة تهديد في وجه بعض الأبنية المغلقة والمظلمة التي كانت حتّى اليوم تستعمل كمكاتب حكوميّة. لاحظ مارتشيلّو أنّ هناك نساء كثيرات يسرن تحت ذراع أزواجهنّ ويحمل بعضهنّ الأولاد أيضاً، وهذا ما لم يكن يحدث منذ زمن خلال المظاهرات القسريّة التي كان يدبّرها النظام البائد. وكانت هناك أيضاً أرتال رجال يبدو عليهم التصميم وأنّهم مرتبطون برباط حزبيّ خفيّ، يتجمّعون للحظة بين تصفيق الناس قبل أن يضيعوا بين الحشود. كما كانت هناك مجموعات كبيرة تؤيّد أيّ خطيب يرتجل خطبة، وآخرون يجتمعون لينشدوا أناشيد الحرّيّة في كورس واحد. كان مارتشيلّو يقود سيّارته ببطء وصبر واحترام لأيّ مجموعة، ويتقدّم رويداً رويداً. «كم هم مسرورون»، قالت جوليا بلهجة لطيفة تكاد تفوح منها رائحة التآزر، بعد أن نسيت فجأةً مخاوفها واهتماماتها السابقة.

«سأكون مسروراً مثلهم لو كنت في مكانهم».

سارا لمسافة جيّدة من شارع إيل كورسو، وهما بين الحشود، خلف سيّارتين أو ثلاث سيّارات أخرى كانت تتقدّم هي الأخرى ببطء. ثم استدار مارتشيلّو نحو طريق جانبيّة، وتمكّن من الدخول فيها بعد انتظار مرور رتل من المتظاهرين. ثمّ سرعان ما قاد السيّارة داخل الطريق وانحرف نحو حارة أخرى خالية بشكل كامل. توقّف، وأوقف المحرّك، والتفت إلى زوجته قائلاً: «فلنخرج إذاً».

ترجّلت جوليا دون أن تنطق بكلمة واحدة، فأغلق مارتشيلّو الأبواب بإحكام وسار معها نحو الطريق التي أتيا منها. بدأ الآن يشعر بهدوء تامّ، وأنّه سيّد نفسه، منفصل، كما كان يريد أن يكون طيلة ذلك اليوم. لكنّه كان يراقب نفسه. وعندما أطلّ من جديد على الشارع المزدحم، وانفجرت فرحة

الناس في وجهه، متهوّرة، صاخبة، صادقة، عنيفة، تساءل على الفور بطريقة لا تخلو من القلق، فيما إذا كانت هذه الفرحة قد أثارت في نفسه شعوراً ليس فيه كثيراً من الصفاء.

لا، وفكّر بعد لحظة من الفحص الدقيق، أنّه لا يشعر بالأسف ولا الحقد ولا الخوف. كان هادئاً بالفعل، لا مبالياً، كأنّ مشاعره خبتت تقريباً، وكان على استعداد لتأمّل فرحة الآخرين، وإذا كان لا يشارك فيها بالفعل، فهو لا يراها أيضاً على أنّها تشكّل تهديداً له أو إهانة.

أخذا يتجوّلان بين الناس بلا هدف معيّن، من مجموعة إلى أخرى، ومن رصيف إلى آخر. بدا أنّ جوليا لم تعد الآن خائفة، بل، هي أيضاً، هادئة قد سيطرت على نفسها مثله، ولكن لأسباب مختلفة، على ما رأى، أي بسبب مقدرتها اللطيفة في التماهي مع مشاعر الآخرين. لكنّ الحشود أخذت تتزايد في كلّ لحظة بدل أن تتضاءل. ولاحظ مارتشيلّو أنّها حشود مبتهجة وحسب، ببهجة دهشة وعدم تصديق، وعجز في التعبير عن نفسها، لأنّها ما زالت غير واثقة كلّ الثقة من إمكانية القيام بهذا التعبير من غير عقاب. تمكّنا من المرور ومن شقّ طريقهما بين الجموع، جاءت شاحنات أخرى محمّلة بالعمّال رجالاً ونساء وهم يلوّحون بالأعلام الإيطاليّة ثلاثيّة الألوان وتلك الحمراء. مرّت سيّارة ألمانيّة صغيرة مكشوفة وعلى متنها ضابطان يجلسان بهدوء على المقاعد وجنديّ بملابس الحرب يجلس على طرف غطاء السيّارة وهو يقبض على الرشّاش، فارتفع من الرصيف لرؤيتها الصفير وصراخ السخرية. لاحظ مارتشيلّو أيضاً وجود كثير من الجنود بلا أسلحة وبثياب محلولة، وكانوا يتعانقون بتلك الوجوه الفلّاحيّة الجامدة التي يشتعل فيها الأمل. شعر مارتشيلّو للمرّة الأولى بما يشبه السخط، عندما رأى اثنين من هؤلاء الجنود يتجوّلان وقد أحاط كلّ منهما بخصر الآخر مثل زوجين مخطوبين، بينما تتدلى البنادق من ستراتهما المحلولة: فهو يعتقد أنّ الزيّ العسكري يعني بالنسبة إليه لياقة وكرامة، مهما كان شعور من يرتديه. سألته جوليا وهي تشير إلى ذين الجنديّين المتحابّين والمفكّكي الثياب: «ألم يقولوا إن الحرب مستمرة؟».

أجاب: «هكذا قالوا»، فألقى فجأة باللوم على نفسه وبذل جهداً يكاد

يوجع كي يتفهّم الأمر، «لكنّ هذا ليس صحيحاً... ولدى هؤلاء البائسين ما يكفي من الأسباب ليكونوا سعداء: فالحرب انتهت بالفعل بالنسبة إليهم».

أمام باب الوزارة حيث ذهب مارتشيلّو لتلقّي الأوامر عشية مغادرته إلى باريس، كان هناك حشد غفير يحتجّون ويصرخون ويلوّحون بقبضاتهم في الهواء. كما أخذ أولئك الذين كانوا قرب الباب بالتصفيق والصراخ طالبين أن يفتحوه لهم. وكان يمكن سماع اسم الوزير الذي سقط للتوّ يصرخ به الكثيرون بصوت عالٍ وبنبرة خاصّة من الكراهيّة والازدراء. راقب مارتشيلّو الحشد لفترة طويلة فلم يفهم ما يريده المتظاهرون. أخيراً، انشقّ الباب بصعوبة وظهر حاجب يرتدي زياً عليه النياشين ووجهه شاحب متوسّل. قال شيئاً ما للقريبين منه، فدخل أحدهم وأغلق الباب على الفور، فأطلق الحشد شيئاً من الصراخ ثمّ تفرّقوا، ولكن ليس بالكامل لأنّ بعض المعاندين ظلّوا يطرقون الباب المغلق ويصرخون.

ترك مارتشيلّو الوزارة وانتقل إلى الساحة المجاورة. انطلقت صرخة «أفسحوا المجال، أفسحوا المجال» فتراجع الحشد وهو معه. عندما برز برأسه، رأى ثلاثة أو أربعة أشقياء يتقدّمون وهم يجرّون بالحبل تمثالاً نصفيّاً ضخماً للديكتاتور. وكان التمثال مصنوعاً في الحقيقة بالجصّ المطليّ بلون برونزيّ، ذلك كما تبيّن من بعض الشقوق البيضاء الناتجة عن سقوط التمثال بعدما رطمه الأولاد الثلاثة بالرصيف. استدار رجل أسود صغير، تلتهم وجهه نظّارة ضخمة إطارها من عظم السلحفاة، فنظر إلى التمثال النصفيّ، وقال لمارتشيلّو متضاحكاً بوقاحة: «بدا كأنّه من البرونز، لكنّه ليس في الواقع إلّا من فخّار رديْ». لم يجب مارتشيلّو بشيء، وعندما مدّ رأسه للحظة ركّز نظره على التمثال وهو يتدحرج بثقل ويمرّ أمامه. كان تمثالاً نصفيّاً مثل مئات على شابهته موزّعة في الوزارات والمكاتب الحكوميّة، منحوتاً بطريقة خشنة، الفكّان بارزان والعينان مستديرتان غائرتان والجمجمة منتفخة وناعمة. لم يتمكّن إلّا أن يفكّر أنّ ذلك الفمّ المصنوع من تقليد البرونز والذي يقلّد فماً حيّاً شديد التعجرف، يزحف الآن فوق الغبار بين صراخ وسخرية وصفير حشد كان هو نفسه يصفّق له ذات يوم بحماسة بالغة. بدا أنّ جوليا خمّنت مرّة أخرى ما يجول في ذهنه، لأنّها تمتمت قائلة: «فكّر أنّه كان

يكفي تمثال نصفيّ كهذا موضوع في مدخل المكاتب كي يجبر الناس على خفض أصواتهم».

فأجاب بجفاء: «إذا وجدوه الآن بينهم بلحمه وعظمه، لفعلوا به ما يفعلونه الآن بتمثاله هذا». «هل تظنّ أنّهم سيقتلونه؟». «بالتأكيد، إذا تمكّنوا من ذلك».

سارا بضع خطوات أخرى، وسط الحشد الذي كان يتحرّك ويندفع وسط العتمة، كمياه فيضان هاج على غير هدى. عند زاوية أحد الشوارع، سندت مجموعة من الناس سلّماً طويلاً على زاوية أحد المباني، وصعد أحدهم إلى أعلى السلم وأخذ يضرب بقوّة على لافتة حجريّة تحمل اسم النظام. قال أحدهم لمارتشيلّو وهو يتضاحك: «هناك فاشيّة في كلّ مكان... يحتاج نزعها بالإزميل إلى سنوات طويلة».

فقال مارتشيلّو: «هذا هو الواقع».

اجتازا الساحة وهما يشقّان طريقهما بين الحشود حتّى وصلا إلى نفق الشارع في الغاليريا. في النقطة التي كان يجتمع فيها ذراعا الغالريا، وعلى ضوء مصابيح التعتيم الباهتة، احتشد عدد من الناس حول شيء لا يرى. اقترب مارتشيلّو وامتدّ فرأى فتى يرقص بطريقة مضحكة ويقلّد حركات وتقلّصات الدمى عندما تقوم برقصة هزّ البطن، لكنّه كان يضع على كتفيه صورة ملوّنة للديكتاتور مربوطة بهما كالطوق ممّا يحمل على التفكير بشخص وضع على المشنقة وأخذ يرقص بأداة تعذيبه التي ما زالت معلّقة حول رقبته. بينما كان في طريق عودته إلى الساحة، امتدّ نحو مارتشيلّو ضابط شابّ يتأبّط ذراع فتاة سمراء تشتعل حماسة وشعرها يتطاير في الهواء، فصاح قائلاً بنبرة حماسيّة وتعليميّة في الوقت نفسه: «عاشت الحريّة بالطبع... لكن عاش الملك قبل كلّ شيء».

نظرت جوليا إلى زوجها وهو يقول دون أن يرفّ له جفن: «عاش الملك». عندما ابتعدا قال مارتشيلّو: «هناك ملكيّون كثيرون يحاولون تحويل الأمور نحو الملكيّة... فلنذهب إلى ساحة الكويرينالِه[1]».

1- ساحة القصر الذي أصبح فيما بعد، كما الآن، القصر الجمهوريّ. (م)

عاد، لكن ليس دون صعوبة، إلى الطريق ومنه إلى الزقاق حيث تركا السيّارة. قالت جوليا لزوجها بينما كان مارتشيلّو يشغّل المحرّك: «لكن هل كلّ ذلك ضروريّ... لقد تعبت من هذا الصراخ».

«على كلّ ليس لدينا أفضل من هذا نعمله».

قاد مارتشيلّو السيّارة بسرعة على طول الشوارع الجانبيّة وصولاً إلى ساحة الكويريناله. عندما وصلا إلى الساحة، رأيا أنّها لم تكن ممتلئة بالكامل. كان الناس محتشدين بصورة أكبر تحت الشرفة التي كانت تطلّ منها شخصيّات العائلة المالكة، بينما تضاءل العدد على أطراف الساحة، تاركاً الكثير من المساحات الفارغة. كان الضوء باهتاً هنا أيضاً، وكانت أعمدة الإنارة الحديديّة الكبيرة ذات المصابيح العنقوديّة، صفراء وحزينة، تضيء بشكل خافت سواد الجمهور. لم يكن التصفيق هنا ولا طلبات الناس كثيرة جدّاً. بل بدا أنّ الجمهور في هذه الساحة، أكثر من أيّ مكان آخر، لا يعرف حقّ المعرفة ما الذي يريده. ربّما كان الفضول أكبر من الحماسة: فبالطريقة نفسها التي كان يتجمهر فيها الناس لمشاهدة الديكتاتور وسماعه، فإنّهم يتجمهرون الآن ليروا ويسمعوا من أطاح بالديكتاتور. سألت جوليا بهدوء، بينما كانت السيّارة تستدير برفق حول الساحة: «لكن هل سيطلّ الملك على الشرفة؟».

قبل أن يجيب، لوى مارتشيلّو وجهه لينظر إلى الشرفة عبر زجاج السيّارة الأماميّ. كانت الشرفة مضاءة بشكل خافت بمصباحين ضاربين إلى الحمرة، وكان يرى في الوسط مصراع النافذة المغلق. فأجاب: «لا أعتقد ذلك... لماذا يجب عليه أن يطلّ؟».

«ماذا ينتظر إذاً كلّ هؤلاء الناس؟».

«لا شيء... لكنّها عادة الذهاب إلى الساحة والمناداة على شخص ما».

دار مارتشيلّو بتؤدة حول الساحة وكأنّه يزيح بلطف بسيّارته الناس المتردّدين في التحرّك. قالت جوليا بطريقة غير متوقّعة: «هل تعرف، كأنّي أشعر بخيبة أمل».

«لماذا؟».

«حسبت أنّهم سيفعلون ولا أعلم أيّ شيء، كأن يحرقوا المنازل أو أن يقتلوا الناس... كنت خائفة عليك عندما خرجنا، ولهذا جئت معك... لكن لم يحدث شيء: صراخ وحسب، تصفيق، عاش، يسقط، أغاني، مسيرات...».

لم يتمكّن مارتشيلّو إلّا أن يجيب: «الأسوأ لم يأت بعد».

فسألته بصوت ظهر فيه الخوف فجأة: «ماذا تعني؟ لنا أم للآخرين؟».

«لنا وللآخرين».

لكنّه ندم مباشرة على كلامه لأنّه شعر بيد جوليا وهي تمسك بذراعه بقوّة وحزن: «كنت أعرف طيلة الوقت أنّه لم يكن صحيحاً ما كنت تقوله لي عندما قلت إنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام... وها أنت ذا تؤكّد ذلك».

«لا تخافي، قلت ذلك لمجرّد الكلام».

لم تتكلّم جوليا هذه المرّة بل اكتفت بمسك ذراعه بكلتا يديها وبضمّ نفسها إليه. شعر مارتشيلّو بالحرج، لكنّه لم يشأ دفعها عنه، فقاد السيّارة مرّة أخرى عبر الطرق الثانويّة المؤديّة إلى شارع إيل كورسو. بمجرّد وصوله إلى إيل كورسو، مرّ بشوارع جانبيّة أقلّ ازدحاماً، حتّى وصل إلى ساحة ديل بوبولو. فتوجّه من هناك إلى منحدرات إل بينشو باتّجاه حدائق فيلّا بورغيزه. عبرا إل بينشو، المظلم والمليء بالتماثيل النصفيّة الرخاميّة، وسارا حول التلال باتّجاه شارع فينيتو. عندما وصلا إلى مدخل بورتا بينشانا، قالت جوليا فجأة بصوت حزين منهك:

«لا أريد أن أذهب إلى البيت».

سألها مارتشيلو وهو يخفّف السرعة: «لماذا».

فأجابت وهي تنظر أمامها: «لا أعرف لماذا، يضيق قلبي بمجرّد التفكير في ذلك... يبدو لي أنّه بيت نحن بصدد السفر منه إلى الأبد... لا شيء مقلق على كلّ». ثمّ سارعت لتضيف: «إنّه مجرّد بيت يجب إخلاؤه».

«إلى أين تريدين الذهاب إذاً؟».

«إلى حيث تشاء أنت».

«هل تريدين أن نقوم بجولة في فيلّا بورغيزه؟».

«أجل، فلنفعل ذلك».

قاد مارتشيلّو السيّارة عبر الشارع الطويل المظلم الذي يرى في آخره ابيضاض البناء الذي يضمّ متحف بورغيزه. عندما وصلا إلى الساحة، أوقف السيّارة وأطفأ المحرّك وقال: «هل تريدين أن نمشي خطوتين؟».

«أجل، إذا شئت».

ترجّلا من السيّارة وسارا بذراعين متشابكتين نحو الحدائق الموجودة خلف المتحف. كانت الحديقة مهجورة، وقد أدّت الأحداث السياسيّة إلى إخلائها حتّى من أزواج العشّاق. كان يمكن على الضوء الباهت، رؤية التماثيل الرخاميّة بأوضاع حزينة أو بطوليّة مبيضّة على خلفيّة الأشجار الحراجيّة الداكنة. سارا حتّى وصلا إلى النافورة فتهاديا هناك بصمت ليتأمّلا المياه السوداء الراكدة. كانت جوليا تشدّ على يد زوجها وتضمّ أصابعها بين أصابعه كأنّما في عناق مصغّر. ثمّ استأنفا السير ودخلا في شارع مظلم جدّاً عبر حرج من أشجار السنديان. بعد خطوات قليلة توقّفت جوليا فجأة واستدارت لتحيط عنق زوجها بذراعها وتقبّله على فمه. بقيا متعانقين يتبادلان القبل للحظة طويلة وهما واقفان وسط الشارع. ثمّ افترقا فتمتمت جوليا وهي تأخذ بيد زوجها وتقوده نحو الحرج: «تعال، لنفعل الحبّ هنا... على الأرض».

فلم يتمكّن مارتشيلّو إلّا من أن يصرخ: «لا، هنا؟».

فقالت: «أجل، هنا، ولِمَ لا؟... أحتاج لذلك كي أشعر بالاطمئنان».

«الاطمئنان من ماذا؟».

«الجميع يفكّرون بالحرب، بالسياسة، بالطائرات... بينما يمكن أن نكون سعداء فعلاً... تعال... يمكن لي أن أفعل ذلك حتّى في وسط ساحة من ساحاتهم»، ثمّ أضافت بسخط مفاجئ: «على الأقلّ يمكن لي أن أبرهن على أنّي قادرة على التفكير بشيء آخر... تعال هيّا».

اشتدّت بها الحماسة على ما يبدو، وسبقته في الظلّ الكثيف، بين جذوع الأشجار. سمعها وهي تتمتم: «ألا ترى، يا لها من غرفة نوم جميلة»، «لن يكون عندنا بيت بعد وقت قريب... لكنّ هذه غرفة نوم لا يمكنهم أخذها منّا...

يمكن لنا أن ننام ونحبّ فيها كلّما شئنا ذلك». ثمّ غابت فجأة عن ناظره وكأنّها دخلت تحت الأرض. بحث عنها مارتشيلّو ثم رآها في ذلك الظلام مستلقية على الأرض تحت شجرة، وقد توسّدت ذراعها، ورفعت الذراع الثانية نحوه، بصمت، لتدعوه كي يستلقي جنبها. أطاع، وبمجرّد أن استلقى ضمّته جوليا بعنف، بساقيها وذراعيها، وأخذت تقبّله بقوّة عمياء وتصميم في أنحاء وجهه، كما لو أنّها كانت تبحث في جبهته ووجنتيه عن أفواه أخرى يمكن لها من خلالها أن تدخل فيها. لكنّ عناقها خفّ على الفور تقريباً، ورآها مارتشيلّو ترتفع بنصفها فوقه، وهي تحدّق في الظلام، ثمّ قالت: «هناك شخص قادم».

جلس مارتشيلّو أيضاً ونظر بين الأشجار، فرأى من بعيد ضوء مصباح جيب وهو يتقدّم متأرجحاً، يسبقه على الأرض وهج دائريّ خفيف. لم يسمع أيّ صوت، خاصّة وأنّ أوراق الشجر الميّتة التي تغطّي الأرض كانت تخنق أصوات خطى ذلك الشخص المجهول. تقدّم المصباح في اتّجاههم، فأصلحت جوليا فجأة هندامها وهي تجلس، ووضعت ركبتيها بين ذراعيها. جلسا جنباً إلى جنب، أمام الشجرة، وشاهدا الضوء وهو يقترب، فتمتمت جوليا: «لا بدّ أنّه حارس».

ألقى المصباح شعاعه على الأرض على مسافة قصيرة منهما، ثمّ ارتفع ليضربهما الشعاع بالكامل. انبهرا، فنظرا بدورهما إلى ذلك الرجل، ولم يكن أكثر من ظلّ ينبعث الضوء الأبيض من قبضته. ظنّ مارتشيلّو أنّ الضوء سينخفض بمجرّد أن يكون الحارس قد نظر إليهما في وجهيهما. لكن، لا، ها هو الضوء يطيل نظرته بدلاً من ذلك، وفي صمت بدا له مليئاً بالدهشة والتأمّل. فسأله بصوت مستاء: «ولكن هل يمكننا أن نعرف ماذا تريد؟».

أجابه مباشرة صوت بنبرة حلوة: «لا أريد شيئاً يا مارتشيلّو». انخفض الضوء في الوقت نفسه وعاد ليتحرّك ويبتعد عنهما. تمتمت جوليا: «لكن من هذا؟ يبدو أنّه يعرفك...».

كان مارتشيلّو واقفاً وقد انقطعت أنفاسه واضطرب بشدّة. ثمّ قال لزوجته: «اعذريني، لحظة... سأعود حالاً»، ثمّ قفز ونهض على قدميه وأخذ يلحق بالمجهول.

بلغه على طرف الحرج، قرب قاعدة أحد تماثيل الرخام الأبيض. كان هناك مصباح بالقرب من المكان، وما إن استدار الرجل على سماع وقع الخطى، حتّى عرفه في الحال، رغم مرور سنين كثيرة، من وجهه الزاهد الأصلع تحت شعره المقصوص على شكل فرشاة. رآه في ذلك الحين داخل بزّة السائق، وها هو الآن يرتدي أيضاً بزّة سوداء مزرّرة حتّى العنق، فوق بنطال منفوخ وجزمة من جلد أسود. كان يحمل قبّعته تحت ذراعه ويمسك في يده مصباح الجيب. قال في الحال وهو يبتسم: «من لا يموت يُرى ثانيةً».

رأى مارتشيلّو أنّ العبارة تلائم أشدّ الملاءمة هذا الوضع رغم أنها قيلت مزاحاً وربّما عن غير قصد. فقال وهو يلهث بسبب الجري وبسبب اضطرابه: «لكنّي ظننت أنّي... أنّي قد قتلتك».

فأجاب لينو بهدوء: «أمّا أنا فكنت أرجو أن تكون قد عرفت يا مارتشيلّو أنّهم أنقذوني. صحيح أنّ إحدى الصحف قالت إنّي متّ، لكنّ هذا حدث نتيجة خطأ وقع... لأنّ شخصاً آخر كان قد مات في المستشفى ، في سرير قرب سريري... وهكذا فقد ظننت أنّي متّ... لهذا فقد أحسنتُ عندما قلت: «من لا يموت يرى ثانية».

الآن، أكثر من عودة لينو، بات مارتشيلّو يشعر من النبرة الخطابيّة والوديّة، التي استقرّت بينهما على الفور رغم ما فيها من معالم جنائزيّة. فقال بألم: «لكنّ كثيراً من العواقب ترتّبت على الاعتقاد بأنّك قد متّ. بينما أنت لم تمت».

قال لينو وهو ينظر إليه بنوع من الشفقة: «واجهت أنا أيضاً نتائج كثيرة أخرى. فبعدما رأيت أنّ هذا كان تحذيراً لي فقد أسرعت وتزوّجت... ثمّ ماتت زوجتي»، وأضاف ببطء: «وهكذا فقد عاد كلّ شيء كالسابق... أعمل الآن حارساً ليليّاً... هذه الحدائق مليئة بفتية جميلين مثلك»، قال هذه الكلمات بصفاقة واضحة ولطيفة، ليس فيها على كلّ حال أيّ إطراء. لاحظ مارتشيلّو لأوّل مرّة أنّ شعر لينو قد بدأ يصبح رماديّاً وأنّ وجهه قد سمن نوعاً ما. «وأنت تزوّجت أيضاً... تلك هي زوجتك، أليس كذلك؟».

فجأة، لم يعد بإمكان مارتشيلّو أن يتحمّل تلك الثرثرة المشبوهة

البائسة. فأمسك بالرجل من كتفيه وهزّه وهو يقول: «إنّك تتكلّم كأنّ شيئاً لم يحدث... لكن هل تدرك أنّك دمّرت حياتي؟». فردّ لينو، دون أن يحاول تخليص نفسه: «لماذا تقول لي هذا، يا مارتشيلّو؟ لقد تزوّجت، ولديك أطفال على الأرجح، يبدو أنّك في وضع مريح، من ماذا تشتكي؟ كان من الممكن أن يكون الأمر أسوأ لو أنّك قتلتني بالفعل».

لم يستطع مارتشيلّو إلّا أن يصيح: «لكنّي أنا، أنا كنت بريئاً عندما عرفتك... ولم أعد كذلك أبداً بعد ذلك، أبداً بالفعل».

رأى أنّ لينو ينظر إليه بدهشة: «لكنّنا كنّا نحن جميعاً أبرياء يا مارتشيلّو... ألم أكن بريئاً أنا نفسي أيضاً؟ ثمّ نفقد جميعنا براءتنا، بطريقة أو بأخرى... هذه هي اعتياديّة الأمور». خلّص نفسه بعد ذلك بصعوبة من قبضة مارتشيلّو التي كان قد ارتخت أساساً، ثمّ أضاف بنبرة المشاركة: «انظر، ها هي زوجتك... من الأفضل أن نفترق».

قال صوت جوليا من الظلّ: «مارتشيلّو».

التفت، فرأى جوليا وهي تقترب متردّدة. في الوقت نفسه سوّى لينو القبّعة على رأسه وأشار بالتحيّة وابتعد بسرعة باتّجاه المتحف. سألت جوليا: «لكن هل لي أن أعرف من هو؟».

فأجاب مارتشيلّو: «كان زميلي في المدرسة، وانتهى به الأمر ليعمل حارساً ليليّاً».

فقالت وهي تأخذ ذراعه: «فلنذهب إلى البيت».

وصلا إلى السيّارة ودخلا، وتوقّفا بعد ذلك عن كلّ كلام حتّى وصولهما إلى البيت. فكّر مارتشيلّو، وهو يقود السيّارة، مرّة أخرى بكلمات لينو المهمّة حقّاً رغم أنّه قالها عن لا وعي منه: «ثمّ نفقد جميعنا براءتنا، بطريقة أو بأخرى... هذه هي اعتياديّة الأمور». رأى أنّ هناك في هذه الكلمات حكماً مركّزاً على حياته كلّها. لقد فعل كلّ ما فعل لتخليص نفسه من جريمة وهـ...، ومع ذلك ، فقد جعلته كلمات لينو يفهم لأوّل مرّة أنه حتّى لو لم يلتق به ولم يطلق النار عليه أو لم يقتنع بأنّه قتله، أي وباختصار حتّى إذا لم يحدث شيء من هذا كلّه، فإنّه لا بدّ أن يفقد في كلّ حال براءته، ولا بدّ

بالتالي أن يسعى لاستعادتها، وأن يفعل كلّ ما فعله. فالاعتيادية هي بالضبط هذه الرغبة، الحثيثة بمقدار ما هي عقيمة، من أجل تبرير خياة تتربّص بها الخطيئة الأولى، وليس مجرّد سراب خادع كان يجري وراءه منذ يوم لقائه مع لينو. عندما سمع جوليا تسأله: «في أيّ ساعة سنسافر صباح الغد؟»، طرد من رأسه هذه الأفكار التي تشكّل شهادة على خطئه، شهادة مزعجة فضلاً عن أنّها غير مجدية. وهكذا فقد أجاب: «في أبكر وقت ممكن».

-III-

استيقظ مارتشيلّو قرابة الفجر، فرأى أو اعتقد أنّه يرى زوجته واقفة في الزاوية بجوار النافذة، وهي تنظر من خلال الزجاج، في ذلك الضوء الرماديّ الذي يسود في بدايات الصباح. كانت عارية تماماً، أزاحت الستارة بيد واحدة وغطّت صدرها باليد الأخرى، ولم يكن واضحاً ما إذا كان ذلك من باب الحياء أو التخوّف. كانت تتدلّى على خدّها خصلة طويلة من شعرها الأشعث. وكان وجهها الممتدّ إلى الأمام شاحباً بلا ألوان، يحمل تعابير اليأس والتأمّل والعذاب. كما بدا أنّ جسمها الممتلئ فقد أيضاً في تلك الليلة ملاءته البارزة الشهيّة. فالصدر الذي أرخته الرضاعة وسوّته أظهر عند مشاهدته من طرفه ثنية تدلّ على رخاوة إرهاق لم يلاحظها من قبل، والبطن الذي بدا منتفخاً أكثر ممّا هو مستدير يعطي انطباعاً بتثاقل أعزل مضحك تؤكده حال الفخذين المشدودتين وكأنّهما ترتجفان لإخفاء البطن. وكان الضوء البارد الذي يرسله الفجر الوليد، الشبيه بنظرة فضوليّة عابرة، يضيء ببؤس هذا العريّ. لم يستطع مارتشيلّو وهو ينظر إليها إلّا أن يتساءل عمّا كان يدور في ذهنها، وهي تقف بلا حراك لتتأمّل الفناء المقفر الخالي، تحت هذا القليل من ألق الصباح. لكنّه قال في نفسه بنوع شديد من الشفقة نحوها إنّه قادر على أن يتخيّل تلك الأفكار جيّداً. لا بدّ أنّها كانت تفكّر: «ها أنذا قد طردت من بيتي وأنا في منتصف عمري، وعلى يدي طفلة في مقتبل العمر، ومعي زوج لا يعلّق أيّ رجاء على مستقبله ومصيره المتأرجح، ولا على حياته التي ربّما أصبحت في خطر. هذه هي إذاً نتائج الجهود الكبيرة والعواطف العميقة والآمال العريضة». ثمّ فكّر ثانية أنّها بالفعل حوّاء مطرودة من الفردوس، الفردوس ذلك البيت بكلّ أشيائه المتواضعة، والثياب في خزائنه، وأدوات المطبخ، والصالون لاستقبال

الصديقات، والأدوات الفضّيّة، والسجّاد تقليد الإيرانيّ، وأدوات البورسلان التي أهدتها الأمّ، والبرّاد، وإناء الزهور في المدخل، وغرفة النوم المصنوعة بتقليد الطراز الإمبراطوريّ والمشتراة بالتقسيط، وهو بالذات وهو ينظر إليها من على السرير. وكان الفردوس يتمثّل من كلّ بدّ في لذّة الجلوس إلى الطاولة مرّتين كلّ يوم مع العائلة، وتصميم مشاريع مستقبلها ومستقبل ابنتها ومستقبله هو بالذات. والفردوس هو في نهاية الأمر راحة النفس، والوفاق مع ذاتها والعالم، وصفاء القلب وقد شبع واطمئنّ وتسلّح بسيف من لهب ليدفعه ويغرزه غرزاً أبديّاً بعرّيّه وعزلته في العالم الخارجيّ المعادي. بقي مارتشيلّو يراقبها لردح آخر من الزمن، بينما كانت تطيل تأمّلها الحزين وهي واقفة بثبات، ثمّ رآها من خلال الوسن الذي عاد ليثقل جفنيه، وهي تبتعد عن النافذة لتذهب على رؤوس أصابع قدميها نحو المشجب وتأخذ منه ثوباً للمنزل ما لبثت أن ارتدته لتخرج دون إحداث ضجيج. لا بدّ أنّها ستذهب على ما فكّر لتجلس قرب سرير الطفلة النائمة، وتبدأ هناك تأمّلات أخرى غير سعيدة. أو لتنهي استعدادات السفر. فكّر للحظة باللحاق بها وتسليتها بطريقة ما. لكنّه شعر أنّ النوم يغلبه، فنام بعد قليل، من جديد.

كانت السيّارة تجري بعد فترة تحت ضوء صباح الصيف الصافي في الطريق نحو تالياكوتسو. ففكّر في تلك الرؤية الباكية وتساءل فيما إذا كانت حلماً أو أنّه رآها بالفعل. كانت زوجته جالسة إلى جنبه وتدفعه لتفسح مكاناً للوتشيلّا التي كانت تجلس على ركبتيها على المقعد ورأسها ممدود إلى الخارج لتستمتع بالمناظر. وكانت هي تجلس مستقيمة، سترتها المفكوكة تتدلّى فوق قميصها الأبيض، ووجهها منتصب تظلّله قبّعة سفر. لاحظ مارتشيلّو أنّها وضعت على ركبتيها شيئاً مستطيل الشكل وملفوفاً بورق بنيّ ومربوطاً بالخيط. فسألها بدهشة: «ماذا يوجد في تلك الربطة؟».

أجابت: «قد تضحك لهذا، لكنّي لم أتمكّن من اتّخاذ قرار بأن أترك في البيت ذلك الإناء من الكريستال الموجود في المدخل... لقد تعلّقت به أوّلاً لأنّه جميل ثمّ لأنّك قدّمته لي هديّة... هل تذكر... بعد أن ولدت الطفلة بقليل... هذا ضعف منّي، أعلم ذلك... لكنّه سيفيدنا... سأضع فيه الورود في تالياكوتسو».

كان ذلك حقيقياً إذاً، فكّر في نفسه، لم يكن حلماً، كانت هي بالذات، بلحمها وعظمها، وليس خيالاً في الأحلام، كانت هي تلك التي رآها ذلك الصباح واقفة قرب النافذة. فقال بعد لحظة: «أحسنت صنعاً بحمله معك إذا كان هذا يروق لك... لكنّي أؤكّد لك أنّنا سنعود في نهاية الصيف إلى بيتنا كما هو مقرّر... ويجب ألّا تشعري بأيّ قلق على الإطلاق».

«لكنّي لا أشعر بأيّ قلق».

فقال مارتشيلّو من جديد وهو يبدّل غيار السيّارة لأنّها حرنت في الصعود: «سيكون كلّ شيء على ما يرام، وستكونين بعدها سعيدة كما كنت خلال السنوات الأخيرة، وأكثر».

لم تقل جوليا شيئاً لكنّها لم تبد مقتنعة. راقبها مارتشيلّو قليلاً رغم أنّه يقود السيّارة: كانت تمسك بيدها الإناء الموضوع على حضنها، وتحيط بالذراع الأخرى بخصر الطفلة وهي تطلّ على النافذة. بدا أنّها تقول بتلك الحركات إنّ كلّ عواطفها وكلّ ممتلكاتها موجودة حقّاً في هذه السيّارة: فزوجها إلى جانبها، والطفلة في الطرف الآخر، ثمّ ذلك الإناء، رمز حياتها العائليّة، في حضنها. تذكّر أنّها قالت ساعة السفر وهي تلقي آخر نظرة على واجهة البيت: «من يدري من الذي سيسكن في شقّتنا هذه»، ففهم أنّه لن يتمكّن أبداً من إقناعها لأنّ ما يدور في رأسها ليس قناعة توصّلت إليها، بل مجرّد حدس بخوف غريزيّ. ومع ذلك فقد سألها: «لكن هل لي أن أعرف بماذا تفكّرين الآن؟».

أجابت: «لا شيء، لا أفكّر بشيء البتّة... أشاهد المناظر».

«لا، أعني ماذا تفكّرين بصورة عامّة».

«بصورة عامّة؟ أفكّر أنّ الأمور تسوء بالنسبة إلينا... لكنّ هذا ليس بسبب ذنب أحد».

«بل ربّما كان ذنبي».

«لماذا ذنبك؟ ليس البتّة ذنب أحد... الجميع أخطؤوا وهم في الوقت نفسه على حقّ، الأمور تساء لأنّها تساء، هذا كلّ ما في الأمر». لفظت هذه العبارة بنبر، قاطعة، كما لو أنّها تشير إلى أنّها لا ترغب أن تقول المزيد من الكلام. فسكت مارتشيلّو وساد الصمت منذ تلك اللحظة بينهما.

كان الصباح في أوّله، لكنّ النهار بدا من وقتها أنّه سيكون حارّاً، وكان الهواء يهتزّ أمام السيّارة بين الشجيرات المغبرّة بضوئها الباهر وارتجاجات الهواء الساخن المنعكس فوق الإسفلت. كان الطريق يستدير حول مناظر متموّجة بين تلال صفراء تنتصب فيها أقشاش جافّة، وتتوزّع خلالها مزارع بنيّة ورماديّة تضيع بين قيعان وديان خالية مقفرة لا أشجار فيها. كانوا يلتقون من حين لآخر بعربة يجرّها حصان أو بسيّارة ريفيّة قديمة، فالطريق غير مطروقة والسيّارات العسكريّة تمرّ بأمكنة أخرى. رأى مارتشيلّو وهو يقود السيّارة أنّ كلّ شيء هادئ، بلا مبالاة، ولا يمكن التفكير بأنّه وسط بلد في حرب أو ثورة. وكانت وجوه الفلّاحين القلائل، الذين كان يراهم وهم مستندون على عصيّهم أو وهم يعملون وسط الحقول، والمجارف تحت أقدامهم، لا تعبّر إلّا عن المشاعر المعتادة التي تشي باهتمام شديد ومسالم بأشياء الحياة الطبيعيّة والمعتادة والبديهيّة. فهم أناس يفكّرون بالمحاصيل والشمس والمطر وأسعار المنتجات أو بلا شيء على الإطلاق. وفكّر مرّة أخرى أنّ جوليا كانت لسنين طويلة مثل هؤلاء الفلّاحين، وهي تتألّم الآن لأنّها انتزعت من سكينة ذلك السلام. بشيء من الاهتياج خطر له أن يفكّر: هذا أسوأ بالنسبة إليها. إنّ العيش، لا يعني بالنسبة للبشر الاستسلام لخدر السلام الذي توفّره الطبيعة المتسامحة، بل يعني الاستمرار في النضال والإثارة، والعمل في كلّ لحظة على حلّ مشكلة صغيرة ضمن حدود المشاكل الكبيرة الموجودة بدورها ضمن المشكلة الشاملة. أي مشكلة الحياة بالذات. أعاد هذا التفكير إليه ثقته بنفسه بينما كانت السيّارة تخرج من السهل الممتدّ مقفراً لتدخل بين سلسلة من التلال ذات الصخور الحمراء العالية. بدا له، ربّما لأنّه يقود السيّارة، أنّ جسده كان كلّاً واحداً مع المحرّك الذي يواجه صعوبات الطريق بثبات وسهولة ويحلّ مشاكل منحنياتها وطلعاتها، كما بدا له أنّ نوعاً من التفاؤل، المشبع بروح المغامرة والجرأة مجتمعتين، يندفع أخيراً في نفسه لأوّل مرّة بعد سنوات عديدة، كاندفاع رياح شديدة، تخلي الغيوم المتلبّدة في سماء نفسه العاصفة. ورأى أن يعتبر أنّه دفن فترة كاملة قد انتهت من حياته ليبدأ من جديد فترة أخرى، على أسس مختلفة وبوسائل مختلفة. وارتأى أيضاً أنّ لقاءه بلينو قد أفاده جدّاً، وليس لأنّه حرّره من تأنيب

ضميره جرّاء جريمة لم يرتكبها، بمقدار ما لأنّ تلك الكلمات التي قالها لينو له بالصدفة عن فقدان البراءة وكونها أمراً اعتيادياً لا مفرّ منه، قد أفهمته أنّه كان يصرّ لعشرين سنة كاملة على السير في طريق خاطئة، وأنّ الوقت حان الآن كي يحيد عن تلك الطريق بكلّ ثبات وتصميم. وفكّر أيضاً أنّه لا حاجة به الآن لإجراء أيّ تبرير أو اتّصال، لأنّه مصمّم على ألّا تسمّم نفسه الجريمة التي ارتكبها بالفعل، أي جريمة كوادري، بعذاب البحث عن التطهير والاعتياديّة، لكن دون جدوى تذكر. فما جرى قد جرى، وكوادري مات، وعليه أن يضع الآن حجراً أثقل من حجر القبر على تلك الميتة، حجراً أبديّاً من نسيان كامل شامل. وربّما لأنّ مناظر الطبيعة قد تغيّرت الآن من صحراء قيظ حارّة، كما كانت، ولأنّ وفرة مياه مخفيّة جعلت حوافّ الطريق تمتلئ بالأعشاب والزهور والسراخس، ولأنّه، أعلى من ذلك، أي فوق الصخور البركانيّة، كانت تزدهر خضرة غنّاء تزيّن الحراج الكثيفة المتداعية، ربّما لهذه الأسباب بدا له أنّه سيكون من الآن فصاعداً قادراً على أن يتجنّب وللأبد متاهات الصحاري التي يلاحق الإنسان فيها ظلّه ويشعر فيها أنّه مذنب ملاحق، وعلى أن يغامر، بدلاً من ذلك، ليبحث بملء إرادته وبكلّ حرّيّة عن أماكن تشبه تلك التي يسير عليها الآن، عن أماكن صخريّة وعرة، مهيّئة لقطّاع الطرق والحيوانات البرّيّة. كان قد قيّد نفسه، طواعيّة وبعناد وبغباء، بروابط غير جديرة، بل وألزم نفسه أيضاً بالتزامات غير جديرة، وكلّ ذلك ليجري وراء سراب اعتيادي غير موجود. أمّا الآن فقد تمّ كسر هذه الروابط، والتملّص من هذه الالتزامات، وقد أصبح حرّاً من جديد، وسيعرف كيف يستفيد من حرّيّته. في تلك اللحظة ظهرت مناظر الطبيعة في أكثر جوانبها روعة: فكان هناك على جانب الطريق الحرج الذي تداعى ليغطي حافّة التلّة، ومن على الجانب الآخر منحدر عشبيّ تبعثرت فوقه أشجار بلّوط ضخمة ومورقة من النوع النادر، وكان ينحدر نحو خندق فيه شجيرات كثيفة تتألّق بينها رغوة مياه الجدول.

ارتفع وراء الخندق جدار صخريّ ينهمر فوقه شلّال برّاق. فأوقف مارتشيلّو السيّارة فجأة وقال: «إنّه مكان رائع الجمال... فلنتوقّف هنا دقيقة».

التفتت الطفلة عن النافذة وسألت: «هل وصلنا؟».

فقالت جوليا وهي تأخذها بين ذراعيها وتترجّل بها من السيّارة: «لا، لم نصل بعد، لكنّنا سنتوقّف لدقيقة».

ما إن نزلا حتّى قالت الزوجة إنّها ستستغلّ الوقفة لتسدّ حاجات الطفلة الطبيعيّة، فبقي مارتشيلّو قرب السيّارة بينما ابتعدت جوليا وهي تقود الطفلة بضع خطوات. كانت الأمّ تسير الهوينى من غير أن تنحني فوق الطفلة التي كانت ترتدي ثوباً قصيراً أبيض وتضع شريطة كبيرة على شعرها المنثور على كتفيها، وهي تثرثر بهمّة كما هي عادتها وترفع من حين لآخر رأسها نحو أمّها، ربّما لتطرح عليها بعض الأسئلة. تساءل مارتشيلّو أيّ مكان ستحتلّ ابنته في مستقبله الحرّ الجديد الذي رسمته له حماسته قبل قليل، فقال بعاطفة متّقدة إنّه سيتمكّن على الأقلّ من توجيهها نحو حياة تستلهم أسساً تختلف كلّ الاختلاف عن أسس حياته. وفكّر أنّ كلّ شيء في حياة ابنته يجب أن يكون مليئاً بالحيويّة والحماسة والجمال والرشاقة والنصاعة والنضارة والمغامرة، كلّ شيء يجب أن يكون شبيهاً بمكان طلق لا قيظ فيه ولا ضباب، بل مجرّد عواصف سريعة تهبّ لتطهّر وتجعل الهواء نقيّاً والألوان ضاحكة. ويجب ألّا يبقى فيها شيء من التزمّت الدمويّ الذي ميّز قدره، حتّى الأمس القريب. وقد فكّر مرّة أخرى أنّها، أجل، يجب أن تعيش بملء حرّيتها.

ترك وسط هذه الأفكار حافّة الطريق الخارجيّة واقترب من الحرج الذي كان يظلّل الجانب الآخر. كانت الأشجار طويلة ومورقة، وكانت هناك تحت الأشجار شجيرات وأشجار برّيّة أخرى، ترمي بظلالها الحراجيّة على زهور الجريس الأرجوانيّة المائلة إلى الزرقة وغيرها من الأعشاب والزهور. والجريس نبتة بسيطة ببتلاتها المشرّبة بالبياض، عندما حملها إلى أنفه شمّ رائحة الأعشاب المرّة. فكّر أنّ هذه الزهرة التي نمت في حضن الحرج الظليل، وعلى ذلك القليل من التربة العالقة بالصخور الحارقة، لم تسع إلى الحدّ من استطالة غيرها من النباتات الأعلى والأضخم، ولا إلى معرفة قدرها كي تقبله أو ترفضه. بل إنّها نمت، بحرّيّة مطلقة وبجهل مطلق، حيث قيّد لبذرتها أن توضع، وبقيت هناك إلى أن أتى ذلك اليوم الذي قطفتها يده. وفكّر، أنّ قدر المرء سيكون متواضعاً وطبيعيّاً بالفعل إذا كان شبيهاً بتلك الزهرة المنعزلة التي نمت فوق رقعة من الطحالب، وبين شجيرات الحرج

المظلمة. أمّا التواضع الطوعيّ الكامن في التكيّف المستحيل مع اعتياديّة زائفة فلا يخفي إلّا الكبرياء أو حبّ الذات على المقلوب.

جفل عند سماع صوت زوجته وهي تقول: «فلنذهب إذاً»، فعاد إلى مقعده خلف المقود. استدارت السيارة بسرعة على منعطف الطريق، وحول المنحدر الذي تبعثرت فيه أشجار السنديان، ثمّ خرج على مرأى من السهل الشاسع، بعد مروره بحرج كثيف عبر فجوة في التلّة. عتّمت حرارة تمّوز الآفاق البعيدة المحاطة بجبال زرقاء. رأى مارتشيلّو على الضوء الذهبي والضبابيّ، نوعاً ما، جبلّاً منعزلاً شديد الانحدار، ينتصب في منتصف السهل وتعلوه، كأنّها حصن حصين، قريةٌ مؤلّفة من بضعة منازل مجمّعة تحت أبراج وجدران القلعة. كانت ترى بوضوح جوانب البيوت الرماديّة المعلّقة شاقوليّاً فوق الشارع الدائريّ الذي يحيط بالجبل كالدوّامة. كانت القلعة مربّعة الشكل ولها برج ضخم طرفه أسطوانيّ، وكان لون القرية ورديّاً بينما كانت الشمس الحارقة في السماء تنتزع بريقاً قاتلاً من زجاج النوافذ. كانت الطريق تسير مستقيمة بيضاء نحو آخر حدود السهل في سفح الجبل. وكان يمتّد على الطرف الثاني من الطريق حقل شاسع أملس ذو خضرة مصفرّة يستعمل حقلاً للطيران، كلّ شيء فيه يتناقض مع بيوت القرية القديمة، ويبدو جديداً وحديثاً. فهناك ثلاثة هنغارات طويلة مموّهة باللون الأخضر والأزرق والبنيّ، وهوائيّ ترفرف في أعلاه شارة حمراء وبيضاء، فضلاً عن أجهزة كثيرة مفضّضة مصفوفة بطريقة تبدو عشوائيّة على حدود الحقل.

راقب مارتشيلّو لفترة طويلة هذا المشهد، بينما كانت الـ ـّارة تستدير من منعطف إلى منعطف آخر على الطريق الشديدة الانحدار، وسرن بسرعة نحو السهل. بدا له أن للتناقض بين القلعة القديمة وحقل الطيران الحديث مغزى عميقاً، مع أنّه لم يستطع أن يخمّن معنى ذلك المغزى بسبب تشتّت ذهنه الطارئ. لكنّه أدرك في الوقت نفسه أنّه يرى منظراً مألوفاً بشكل فريد، لأنّه يوحي إليه كأنّه يعرف هذا المكان في السابق. لكنّه تذكّر أنّ هذه هي المرّة الأولى التي يعبر فيها هذه الطريق.

عندما وصلت السيّارة إلى آخر المنحدر، دخلت في طريق مستقيمة بدا أنّها بلا نهاية. أسرع مارتشيلّو سيره فتجاوزت إبرة عدّاد السيّارة بالتدريج

الثمانين ثمّ التسعين كيلومتراً في الساعة. بدأت الطريق تسير الآن بين سهلين من الحقول المحصودة ذات لون أصفر معدنيّ، ليس فيها أشجار ولا بيوت. ففكّر مارتشيلّو: من الواضح أنّ الناس يسكنون جميعاً في القرية وينزلون في الصباح ليعملوا في الحقول ثمّ يعودون في المساء إلى القرية...

أبعده صوت زوجته عن هذه الأفكار، عندما قالت له وهي تشير إلى حقل الطيران: «انظر، ماذا يحدث؟».

نظر مارتشيلّو فرأى أشخاصاً كثيرين يجرون هنا وهناك عبر الحقل المحصود، وهم يلوّحون بأيديهم.

في الوقت نفسه، حدث أمر غريب تحت ضوء شمس الصيف الباهر، إذ ومضت بحدّة على سطح أحد الهنغارات الثلاثة شعلة حمراء شبه خالية من الدخان. ثم انطلقت شعلة أخرى من السقف الثاني وشعلة أخرى أيضاً من السقف الثالث. ثمّ تجمّعت النيران الثلاث في شعلة واحدة تحرّكت بعنف هنا وهناك، بينما هبطت سحب من الدخان الأسود على الأرض وأخفت الهنغارات وراءها وهي تنتشر حولها. اختفت في هذه الأثناء كلّ علامات الحياة وعاد الحقل ليصبح مهجوراً من جديد.

قال مارتشيلّو بهدوء: «غارة جوّيّة».

«لكن هل هناك خطر علينا؟».

«لا، لا بدّ أنّهم ذهبوا الآن».

أسرع سيره فأشار العدّاد إلى سرعة مئة، ثمّ مئة وعشرين كيلومتراً. وصلوا الآن إلى تحت القرية، وتمكّنوا من تمييز الطريق الدائريّة، وجوانب البيوت، والقلعة. سمع مارتشيلّو خلفه في الوقت نفسه هدير الطائرة الغاضب وهي تنخفض. تمكّن وسط الضجيج من تمييز أصوات قصف الرشّاش الكثيف، وأدرك أنّ الطائرة أصبحت خلفه، وستكون فوقه عمّا قليل: كان ضجيج المحرّك يتقاطع مع الطريق، وكان ينهمر عليه مثلها بطريقة عنيفة ومباشرة. ثمّ وصل الضجيج المعدنيّ وأصبح فوقه تماماً، بشكل يصمّ الآذان، لكن للحظة واحدة، ثمّ ابتعد. شعر بضربة قويّة على كتفه ، مثل قبضة اليد ، ثمّ شعر بوهن مميت يائس، لكنّه تمكّن من تجميع قواه وقيادة السيّارة حتّى

أوقفها على جانب الطريق. وقال بصوت خافت: «لنخرج»، ذلك وهو يضع يده على الباب ويفتحه.

انفتح الباب وسقط مارتشيلّو خارج السيّارة. وقع بوجهه ويديه على العشب، ثمّ جرّ نفسه وأخرج ساقيه من السيّارة واستلقى على الأرض بالقرب من الخندق. لكن أحداً لم يتكلّم، رغم أنّ الباب كان مفتوحاً، ولم يطلّ أحد من السيّارة. في تلك اللحظة، هدر من بعيد صخب الطائرة وهي تستدير. فقال في نفسه: «يا إلهي، لا تدع الضربة تصيبهما... إنّهما بريئتان». استسلم بعد ذلك، وفمه فوق العشب، وانتظر عودة الطائرة. كانت السيارة ساكنة ببابها المفتوح، وكان لديه متّسع من الوقت ليدرك بألم حاد أنّه لن يخرج منها أحد. في النهاية أصبحت الطائرة فوقه، وعندما انطلقت بعيداً في السماء الملتهبة، سحبت وراءها الصمت والليل.

نهاية الرواية



الرجل الاعتياديّ
فصل غير منشور

بقلم تونينو تورنيتوره

وفقًا لممارسة ثابتة مؤكّدة وصالحة ومفيدة كان مورافيا قد اعتمدها عمليّاً في عمله الأول، اللامبالون، (وتكمن في إعادة تدوير الموادّ النصيّة الجاهزة بحيث يمكن استخدامها بسهولة لأغراض الدعاية الذاتيّة)، فإنّه كان يقوم أحياناً بحفظ أقسام نصيّة تتمتّع ببعض الاكتمال واستقلالية المحتوى، حتّى لو كانت هذه النصوص قد استبعدت لأسباب مختلفة من المسودّة النهائيّة للعمل الذي كانت مكتوبة فيه، وهذا ما سيحدث لاحقاً مع رواية السأم.

في هذا المثال نرى أنّ مجلّة «المجموعة» التابعة لأدريانو أوليفتّي قد استضافت الصفحات التالية وعنونتها (لأسباب تحريريّة) بعنوان «الرجل الاعتياديّ، رواية بقلم ألبرتو مورافيا» وقدّمت لها بهذا الشرح الذي كتبه المؤلّف على الأرجح: «كانت هذه الصفحات تشكّل جزءاً من رواية الرجل الاعتياديّ» التي ستنشر قريباً. لكنّها استبعدت من الرواية لأسباب تتعلّق بتوازن بناء الرواية. ويجب أن نعرف بادئ ذي بدء، أنّ هذا النص ليس قصّة، وليس بالتالي مستقلاً، لأنّه يفترض مسبقاً معرفة سلسلة من التفاصيل، وأهمّها القتل (المزعوم) للينو، على يد مارتشيلّو، ممّا طبع حياته بشكل نهائيّ قاطع، بأوّل تحقيق لنذر الموت الماضية، وفي الوقت نفسه، بتطلّعه إلى «الاعتياديّة». أي إنّ هذا الفصل لا يمكن وضعه إذاً إلّا بعد الفصل الثالث من التمهيد وقبل القسم الأوّل الذي نرى فيه مارتشيلّو وقد أصبح

رجلاً راشداً. هذا لا يعني أنّه يمكن اعتبار أنّ هذه الصفحات تشكّل «الفصل الرابع» غير المنشور من التمهيد. فهذا النصّ الذي قرّر مورافيا، ومعه هيئة تحرير المجلّة، نشره بصورة مستقلّة ليس فصلاً مستقلاً في حدّ ذاته، أو بالأحرى فهو لا يمكن أن يكون كذلك على أساس الرواية المعروفة – لكنّه يشكّل على الأرجح، وكما سنرى، المسودّة الأولى لقسم من الرواية التي قرّر مورافيا تعديلها...

هناك نواح مهمّة أخرى لهذه الصفحات، منها:

إحياء ذكرى مسيرة الزحف على روما، من خلال عيون مراهق: ولا بدّ أنّ هذا كان، في اقتصاد الرواية، اللحظة التي يلتحم فيها «الحدس» الخاصّ (الذي يختتم التمهيد الحاليّ) مع ذلك «العامّ» في اللحظة نفسها التي يتحوّل فيها مارتشيلّو إلى كتائبيّ فاشيّ، عن طريق الصدفة وشيئاً ما بالضرورة.

كما أنّ إلغاء هذا النصّ يلغي أيضاً صورة الأب، لتصبح هذه الرواية واحدة من روايات مورافيا العائليّة التي تغيب فيها صورة الأب وتبقى مجرّد صورة عابرة (بينما صورة الأمّ هي دائماً سلبيّة من ناحية الأمومة). وللّقاء مع الأب أهميّة مزدوجة:

فهو يوقف أوّلاً وقبل كل شيء، تخيّلات مارتشيلّو: «لم يدم إلّا قليلاً هذا النوع من الرؤية الحالمة المزدوجة التي كان فيها متفرّجاً وممثّلاً في الوقت نفسه. ولكن، كما لو أنّ ذهنه المذهول كان في تلك اللحظة بمثل جاهزيّة لوحة التصوير وحساسيّتها، فقد شعر أنّ الأمر قد انطبع فيه إلى الأبد وأنّ ذلك سيصبح بمرور الوقت ذكرى محدّدة دقيقة وإن كانت غير مفهومة» (ص19). وربّما كان هذا المشهد «مسودّة» لنهاية التمهيد، حيث يظهر مارتشيلّو من جديد فاعلّا ومفعولًا في «رؤية»: «طيلة وقت مشيه في الشارع المحفوف بأشجار السرو كانت تنعكس في نفسه كما تنعكس في المرآة صورته وهو فتى يرتدي سروالاً قصيراً ويتأبّط كتبه، صورته غير المفهومة والمترعة بحدس مرعوب» (ص 113)، أمّا غير ذلك فقد تغيّر إلى الأحسن من نواحي الاكتناز والترابط وفعالية السرد...

الرجل الاعتياديّ

رواية بقلم: ألبرتو مورافيا

«كانت الصفحات التالية تشكل قسماً من رواية « الرجل الاعتياديّ» المعدّة للنشر. لكنّها انتزعت منها لأسباب تتعلّق بالتوازن البنّاء».

ذهب إلى غرفته، اقترب من النافذة، وبعد أن أخرج مسدس والده من جيبه سحب المخزن من أسفله. كانت الطلقات مصفوفة هناك. توهّم لبرهة أنّ هذا هو مسدّس لينو، الذي أهداه إيّاه عن رضى ومن غير مقابل. وتوهّم أنّه لم يطلق منه النار وأنّ لينو لم يمت. في تلك اللحظة حيث ما زال منتصباً أمام النافذة المفتوحة على مصراعيها، وبينما كان ينظر إلى المسدّس، سمع من الأسفل صوت روبرتو الصغير الذي كان يناديه:

«مارتشيلّو، مارتشيلّو».

خفض من غير عجلة يده المسلّحة إلى تحت الشرفة وأطلّ ونظر. كان هناك وراء الباب الفاصل المترع بأوراق الأيكة المتدليّة، فراغ كبير تملؤه الحديقة المجاورة بدروبها المفروشة بالحصى التي تتلوّى بين الأصص، وشرفة فيها عمودان ودرج رخاميّ. كان روبرتو واقفاً في وسط الساحة، قرب حوض ليمون كبير. كان يحمل هو أيضاً مسدّساً في يده، لكن وكما تحقق مارتشيلّو في الحال، فإنّه لم يكن مسدّساً مثل مسدّسه، مشحوناً وقاتلاً، بل مسدّس أطفال، من التنك الأسود، فيه طلقات متفجّرة. «ماذا تفعل؟». صرخ الفتى عندما أطلّ مارتشيلّو. «لماذا لا تنزل إلى تحت لنلعب؟».

كان مارتشيلّو بصدد أن يجيب أنّ ذلك مستحيل، لكنّه عندما فتح فمه، أدرك فجأة أنّه لا يستطيع أو لا يريد أن يلفظ الكلام. كما لو أنّ عدسة من زجاج شفّاف لكن سميك وضعت بينه وبين روبرتو وأنّه عرف ذلك ولذلك فمن غير المجدي أن يتكلّم، لأنّ الآخر لن يتمكّن من سماعه. وهكذا فقد وقف بفم فاغر وهو ينظر شبه حالم إلى روبرتو، بينما يده على شرفة النافذة والثانية في الأسفل ما زالت مسلحة بالمسدّس. دهش روبرتو لهذا الصمت ولهذا الجمود، فانتظر لحظة ثمّ صرخ: «هل تسمعني؟ سألتك إذا كنت تريد أن تأتي لنلعب؟».

لم يحاول مارتشيلّو هذه المرّة حتّى أن يتكلّم. بل كان يشعر أنّه أمام نوع من لعبة حزينة وغريبة: لم يكن فيها هو مارتشيلّو بلحمه وعظمه الذي كان يتسلّى حتّى اليوم السابق مع روبرتو، بل مجرّد شبح مارتشيلّو. وهو، مثل كلّ الأشباح، يمكن له أن يظهر وأن يُرى، لكن لا يمكن له أن يعبّر ويتكلّم. لذلك فقد بدا له أنّه يرجو في تلك اللحظة، وبسبب صمته وجموده، أن يتلاشى بالفعل من على الشرفة، تحت عينيّ صديقه المدهوشتين. لكنّ روبرتو الصغير انتظر دقيقة أخرى، ثمّ صاح وقد فقد الصبر: «هل أصبحت أخرس؟».

للمرّة الأخيرة، أطلق مارتشيلّو نظرة على روبرتو في الحديقة، التي تشبه، بأشجارها الكثيرة وأصصها الخضراء ودروبها المفروشة بالحصى، فردوساً صغيراً فُقد إلى الأبد. ثمّ صرخ روبرتو الصغير، من فضول وليس من حذر: «هل لي أن أعلم ماذا يمنعك من الكلام؟» لكنّ مارتشيلّو تنحّى عن الشرفة من غير أن يجيب ثمّ أغلق النافذة.

«ما الذي يمنعك من الكلام؟» كانت الإجابة جاهزة على هذا السؤال البريء والعميق، كانت الإجابة تستبعد بشكل قاطع كون هذا المسدس غير المستعمل، بكلّ رصاصاته، هو مسدّس لينو، وأنّ أمر لينو لم يحدث البتّة، وأنّه غير واقعيّ ولم يحدث حقّاً رغم جسامته. كما أنّ المسدّس غير مستعمل من الناحية الميكانيكيّة. خلط مارتشيلّو هذه الملاحظات في ذهنه المضطرب والخائف، ثمّ غادر الغرفة، ونزل على الدرج وعبَر الحديقة. ورغم أنّ رغبته في عرض المسدّس على توركي قد ضعفت، بل وتعثّرت، فإنّها بقيت فعّالة. كان عليه أن يسرع، لم يبقَ إلّا عشر دقائق على وقت المدرسة.

فكّر وهو في الطريق، وهو ينظر جامداً أخرس إلى روبرتو في الحديقة، فاتّضح له معنى تلك الغرابة كلّ الوضوح. فما كان يخشاه قبل أشهر قد وقع بالفعل، فأصبح الآن غير طبيعيّ بصورة نهائيّة، وبطريقة غامضة، مؤسفة وقاتلة. أي إنّه أصبح شخصاً استهدفه القدر: أمّا ماذا هو هذا القدر، فهذا ما لا يستطيع البتّ فيه. وهكذا فهناك هو من ناحية، بكلّ وحشيّته التي لا تحتمل، وهناك من ناحية أخرى تلك الحديقة المليئة بالأشجار والأزهار التي يلعب فيها فتيان مثل روبرتو، مسلّحين بمسدّسات من قصدير، بريئين وسعداء. إنّه لم يعد يستطيع أبداً أن ينزل إلى تلك الحديقة وأن يلعب فيها كما كان يفعل في الماضي.

كان هذا مستحيلاً، وقياساً على ذلك، فإنّ أيّ شيء يشبه هذا سيكون مستحيلاً أيضاً في المستقبل، وإلى الأبد. خلص بعد ذلك بيأس إلى أنّه سينظر طيلة حياته من النافذة إلى حدائق أخرى تشبه حديقة روبرتو وسيشعر بأنّه مستبعد منها. أجل طيلة حياته، كأنّه شبح أخرس، وسيفتح فمه للتحدّث لكنّه لن يتمكّن من نطق كلمة واحدة.

في هذه الأثناء أصبح على مرأى من بناء المدرسة. فاجأه وجود لون قاتم يميّز حشداً غير عاديّ من الناس. أسرع الخطى ففهم في النهاية: لقد اجتمع عدد كبير من الناس على طول أرصفة الشارع الذي يتقاطع بزاوية قائمة مع شارع المدرسة. تسلّل مارتشيلّو بين هؤلاء المتفرّجين فتمكّن أيضاً من معرفة الذي كانوا ينظرون إليه: رأى مسيرة من أشخاص، ورأى على الفور، أنّهم ليسوا عسكريّين بالضبط، لكن ولا مدنيّين أيضاً، كأنّهم حلّ وسط بين الاثنين.

بقي مارتشيلّو لفترة طويلة، محصوراً بين اثنين من المتفرجّين، فتمكّن من مشاهدة المسيرة. كانت موكباً من رجال يرتدون ملابس متنوّعة جدّاً، لكنّهم يشتركون جميعاً، على ما بدا له، بشيء خاصّ: قميص أسود كان يرتديه البعض دون سترة، بينما ظهر في آخرين عند الرقبة والمعصمين. كما لاحظ أنّ جميع هؤلاء كانوا مسلّحين، وأنّ أسلحتهم كانت متنوّعة مثل ملابسهم: من بنادق صيد وخناجر عسكريّة ومسدّسات مربوطة بالأحزمة، وسكاكين صيد وقنابل يدوية. وكان كثيرون منهم يحملون، فضلاً عن الأسلحة، عصيّاً

من أنواع مختلفة هي الأخرى: عصا سير بمقبض أعوج، عصا قصيرة ذات رأس ضخم مربوطة بالمعاصم بواسطة لفافة من جلد، عصا ريفيّة مليئة بالعقد، لها مقبض مكوّن بشكل غريب من فرعين أو ثلاثة أغصان مثنيّة بطريقة تحاكي مقبض الخنجر، وعصا رقيقة كالقصب غطّيت حتّى منتصفها بالجلد. مرّ رجلان يحملان على أكتافهما قطع رشاش خفيف مفكّكة. كانوا يرتدون جميعاً أحذية مُغَبّرة، كما يرتدي كثير منهم جزمات طويلة، وبعضهم يحمل أربطة سميكة على الصدر أو البطن فيها خراطيش رصاص، وكأنّ هذا تجمّع صيّادين. كان لكلّ ذلك طابع ريفي بلديّ، يظهر في هندام الملابس التي لم تكن متناسبة مع أجسامهم وغير جديدة مثل ملابس أهل المدن، بل كانت مهلهلة الشكل وخشنة المظهر، وليس من النادر أن تكون مصنوعة من مخمل سميك متجعّد. ثمّ مرّت مجموعة كثيفة من الناس، يتقدّمها شخص كأنّه حامل اللواء، وكان يرفع عصاً عليها لافتة يقرأ عليها اسم مدينة تيرني، كتبت بأحرف سوداء مائلة إلى حدّ ما وكبيرة.

لاحظ مارتشيلّو أنّ المارة الواقفين على الأرصفة كانوا ينظرون إلى هذا العرض بتعابير مختلفة، فكان معظمهم ينظرون بنوع من الفضول والأسف والحيرة المتفاجئة، بينما اكتفى البعض بالتأييد بل والحماسة، كما كان هناك من أخذ يصفّق أو يهتف هنا وهناك بصوت مرتفع ليعبّر عن تأييده وتشجيعه. أمّا أولئك المشاركون في المسيرة فقد ظهروا لمارتشيلّو وكأنّهم يشعرون بنوع غريب من الحرج بسبب الكبرياء والغرور اللذين تثيرهما المناسبة، ذلك كما لو أنّهم غير واثقين تماماً من ضرورة التباهي بهذا الموقف أمام هؤلاء المتفرّجين العزّل وغير المبالين، وأكثرهم من الموظّفين الذين فوجئوا بالعرض في الوقت الذي كانوا في طريقهم إلى مكاتبهم. لكنّ هذا الإحراج لم يكن يترجم دائماً إلى مواقف انضباط عسكريّ. فكان هناك بين الحين والآخر، شخص يصرخ من المسيرة بصوت متسلّط: «ارفعوا القبّعات»، وقد دهش مارتشيلّو حين رأى أنّه تمّ بالفعل تنزيل جميع القبّعات بالفعل خلال مسافة معتبرة من الطريق. بعد هذا الأمر، جاءت لافتة جديدة تحمل اسم مدينة أخرى، أو راية مثلّثة من الحرير الأسود، مطرّزة بالذهب، أو بعد ذلك العلم الإيطاليّ الثلاثي الألوان.

كان من الواضح أن ذين المتفرّجين الاثنين اللذين تسلّل مارتشيلّو بينهما كي يشاهد العرض كانا موظّفين، كلاهما مسنّ، أحدهما طويل ونحيف وله لحية بيضاء، يرتدي ملابس سوداء، وكان الآخر أقصر من الأوّل، ممتلئ الجسم، وله وجه أحمر، ويرتدي ملابس رماديّة. قال الرجل البدين للرجل النحيف بنبرة حماسيّة لكنّها غير واثقة: «ها هو موكب شباب إيطاليا... فلننظر إليهم بتأنٍّ... إنّهم مستقبلنا». سوّى الرجل النحيف نظارته على أنفه وأجاب بلا كراهية، ولكن بنوع من الشكّ الساخر: «فلنأمل أن يكون هذا مستقبلاً أفضل من الحاضر». سمع صوت جديد يأمر بتنزيل القبّعات، وسرعان ما كشف الاثنان رأسيهما، بينما أضاف النحيف: «من الأفضل أن نمسك القبّعات بأيدينا وننسى الأمر».

لكنّ المسيرة استمرّت، فرأى مارتشيلّو أنّ عليه أن يعبر الشارع على أيّ حال ليذهب إلى المدرسة، التي تمكّن من تمييز مبناها الرماديّ المرتفع، على بعد مسافة قصيرة من الحشد. كان المسدّس يتدلّى على فخذه في أسفل جيبه، فلم يسعه إلّا أن يعتقد أنّ هذا هو يوم سلاح: كان الجميع مسلّحين، وحتّى هو كذلك. رأى على حين غرّة أنّ فجوة قد حدثت بين مجموعتين في المسيرة، بعدما مرّت مجموعة وكانت الأخرى قد بدأت تقترب، فرأى مارتشيلّو أنّ الوقت قد حان، فانطلق واجتاز الشارع. ولكن عندما وثب، برز شخص لم يكن قد لاحظه، يرتدي قميصاً أسود وبنطلوناً رماديّاً مخضرّاً، فضربه على ربلته العارية بسوط كان في يده وهو يصرخ عليه: «عد يا فتى إلى داخل الصفّ»، وهكذا فقد اضطرّ للعودة من حيث أتى. كان وجهه قد احمرّ خجلاً من أمر لا يعرفه، فتظاهر بأنّه يراقب بانتباه مجموعة كبيرة جديدة تسير بينما ترفرف فوقها لافتة تحمل اسم مدينة بيروجيا. عندها رأى، وخلال تفرّق بسيط في المسيرة، توركي منتصباً أمامه وهو ينظر إليه من الرصيف المقابل.

تشجّع وأومأ إليه وكأنّه يقول: «ماذا نعمل؟» فأجاب توركي وهو يضع يده على فمه ويصرخ: «لا توجد دروس اليوم». لاحظ أنّ توركي كان يبدو سعيداً جدّاً، فقد كان واقفاً ويداه في جيبه، وعقب سيجارة بين شفتيه. «الأيدي خارج الجيوب» صاح به أحد المتظاهرين. أخرج توركي يديه من جيبه ببطء، كما لو ليشير إلى أنّه يطيع على مضض ولأسباب قاهرة فقط،

ثمّ وضع يده اليمنى على فمه لينزع سيجارته. لم يعد باستطاعة مارتشيلّو مقاومة رغبته السابقة التي بقيت تشتعل في قلبه، لذلك فعندما تمكّن من الاستفادة من انقطاع جديد في المسيرة، سحب المسدّس من جيبه وعرضه على توركي وهو يقول: «هل تراه؟»

رأى أنّ توركي يهزّ رأسه بهدوء وتكبّر، وكأنّه يقول: «إنّي أراه بالطبع، فماذا يعني ذلك؟» وشعر لبرهة بالغرور السعيد الذي خبّأه لهذه المناسبة. لكنّ هذا الشعور لم يدم طويلاً. إذ قام توركي بإيماءة دعاه فيها، وكأنّه يقول: «تعال ... ماذا تنتظر؟» وقد فهم، بنوع من الدهشة، أنّه، وكما جرى قبل فترة قصيرة مع روبرتو، فإنّه لن يكون قادراً هذه المرّة أيضاً على تجاوز الحاجز الذي يفصله عن عالم الترفيه السعيد والافتتان الطفولي. الفرق الوحيد هو أنّ هذا الحاجز ليس موجوداً الآن في نفسه المضطربة، بل في الواقع بالذات: وهو تلك الصفوف من الرجال المسلّحين المخيفين الذين لم يتوقّفوا عن عبور شوارع المدينة. لا يعرف مارتشيلّو شيئاً عن هؤلاء المسلّحين، ولا من هم، ولا لماذا كانوا يسيرون في هذه الأرتال. ومع ذلك، فقد شعر بحدس أنبأه أنّه ليس من قبيل الصدفة أن يكون على رصيف وتوركي على رصيف في الجهة الأخرى، بينما تستمرّ المسيرة الصفيقة التي لا يمكن اجتيازها. لذلك فقد أشار إلى توركي بالمسلّحين وكأنّه يقول: «ألا ترى أنّ ذلك مستحيل». فسأله فجأة الموظّف السمين ذو الوجه الأحمر المنهك بالربو: «لماذا تحمل هذا المسدّس وأنت في هذا العمر؟ هل أنت فاشيّ أيضاً؟».

لم يكن يعرف حتّى هو السبب، ورغم أنّ كلمة فاشيّ لم تكن واضحة بالنسبة إلى مارتشيلّو تمام الوضوح، فقد أجاب بلهجة عدائيّة: «من المؤكّد أنّي كذلك».

فقال الرجل البدين للرجل العجوز النحيف: «هل ترى؟ إنّها علامات الساعة، كنّا في عمره نفكّر بالدراسة والقراءة ... أمّا هو فيحمل المسدّس... إنّها علامات الساعة، بالفعل». أمّا البدين فلم يبد أنّه يعارض مارتشيلّو، بل أظهر على العكس من ذلك، نوعاً من الإعجاب والحسد في صوته. فقال الرجل النحيف بنوع من الارتباك والشكّ، وكأنّه مشتّت الذهن: «لا بدّ أنّه سرقه من أبيه». عند سماع هذه العبارة الواضحة، سقط كما يسقط شراع

بلا هواء ذلك الغرور الذي أثارته لهجة البدين المليئة بالإعجاب في نفس مارتشيلّو، فاستدار وقال بنوع من التردّد: «لم أسرقه، إنّه ملكي».

لم يغفل توركي عنه، فانتهز توقّف المسيرة ليصبح بخطوتين هادئتين إلى جانبه. قال بوقاحة حازمة وموجزة: «أشكرك لأنّك جئتني به... أعطني إيّاه». قبل أن يتاح لمارتشيلّو الوقت للاحتجاج، أخذ توركي المسدّس من يده ثمّ عاد ودخل بخطوة أخرى بين مجموعة من الفاشيّين، وكانوا من مدينة أوريّه يمشون آنئذ في المسيرة. شعر مارتشيلّو بالدهشة عندما رأى توركي يندسّ بين المجموعة ثمّ يسير مع أفرادها. امتثل الفاشيّون لأمر تلقّوه وبدؤوا في غناء إحدى أغانيهم. فأخذ توركي في الغناء أيضاً، وعلامات الجدّيّة ظاهرة على وجهه، بينما تملأ تجاعيد كثيرة جبهته، تماماً كما كان أمره في المدرسة عندما كان يتظاهر بالاستماع إلى الدرس. وقف الفاشيّون وتوركي معهم، وهم ما زالوا يغنّون، للحظة أمام مارتشيلّو، ثمّ تحرّكت المجموعة ومضوا قدماً. ضحك الرجل السمين وقال له: «والآن، ماذا ستفعل بدون ذلك المسدّس؟».

قال مارتشيلّو متباهياً: «سأجد واحداً آخر». لكنّ حركة توركي أربكته بالفعل: كم كان توركي حازماً في الاستيلاء على سلاح ليس له؟ وكيف كان على استعداد للانضمام إلى صفوف مسيرة الفاشيين، وتبنّي مواقفهم القتاليّة والغناء معهم. لقد صدمه هذا كلّه، وبدا له أنّ له معنى غامضاً. ومع ذلك، فإنّه لم يفهم هذا المعنى في الوقت الحالي. لكنّه شعر باستياء شديد من توركي وفكّر في الجري وراءه لإجباره على إعادة المسدّس. ولكن في اللحظة نفسها التي صاغ فيها هذا القرار، شعر بضعف وتعب شديد وأدرك أنّه لن يكون قادراً على تنفيذ قراره: لقد انتهى أمر المسدّس، ربّما ليس بشكل غير عادل، على الرغم من الظلم الظاهر في عمل توركي. لم يبق لديه خيار إذاً إلّا في الانصراف. وهكذا فقد استغلّ لحظة كان الموظفان يمعنان النظر فيها بإحدى اللافتات المعتادة، فانزلق بين شخص هنا وشخص هناك، ثمّ خرج من بين الحشود.

كانت المدرسة مغلقة، ولم تكن به رغبة للعودة إلى البيت: كان مضطرباً وتحت تأثير ذلك التعب الغريب الممزوج بالاشمئزاز الذي منعه من اللحاق

بتوركي، لذلك فقد أخذ يمشي بصورة آليّة على طول الأرصفة، بين البيوت والسياج المتواصل الذي شكّله المارّة وهم يراقبون المسيرة. وهكذا فقد رأى أنّ المدينة بأكملها قد انقسمت بهذه المسيرة إلى قسمين. كما رأى أنّ كلّ ما لاحظه سابقاً يتكرّر أمامه في كلّ مكان: فهناك مجموعات الفاشيّين المتغطرسين والمروّعين وهم يأمرون بكشف الرؤوس، وهناك التصفيق بين حيرة المتفرّجين، والأعلام واللافتات، والأسلحة والعصيّ. ورأى في بعض الشوارع أنّ جميع النوافذ كانت مليئة بأناس يتفرّجون على المسيرة. كما نصبت على نوافذ أخرى مغلقة الأعلام، بينما لا يوجد على نوافذ أخرى غيرها لا أعلام ولا متفرّجون. كان النهار، كما هو متوقّع في فصل الخريف، معتدل الحرارة وعاصفاً، فقد انتشرت سحب بيضاء كبيرة في السماء فوق أسطح المنازل، وعملت الرياح على صفق الرايات فوق الشرفات، كما كانت تهبّ بغتة لتتسلّل أحياناً وتندفع بين صفوف المسيرة وتغطّي الناس بزوابع خفيفة من الغبار والأوساخ. نزل مارتشيلّو نحو وسط المدينة وهو يسير كما كان يسير بطريقة آليّة وبدون تفكير تقريباً. وهكذا، فما إن رأى أنّ المسيرة توقّفت للحظة، انتقل من رصيف إلى الرصيف المقابل، من غير أن يعرف سبباً لما فعله. أدرك بعد مرور شيء من الوقت أنّه قد خرج من ناحية المدينة حيث يعيش، وأنّ عليه أن يعبر المسيرة مرّة أخرى إذا أراد العودة إلى حيث كان. لكنّه رأى أنّ الوقت لا يزال مبكّراً، فاستمرّ في المشي.

كلّما اقترب من المركز، كانت حشود المارّة وصفوف المسيرة تزداد كثافة. انزلق بصعوبة ضمن ما يشبه الممرّ بين جدران المنازل وظهور المتفرّجين، وحين وصل إلى ساحة ديل بوبولو ذهب ليجلس على حافّة إحدى النوافير تحت المسلّة التي تتوسّط الساحة. كان يشعر بالتعب وبنوع غريب من الاضطراب والدهشة، ربّما كان هذا بسبب الإرهاق، كما لو أنّه جاء، وسط ذلك الحشد وذلك الصخب، وهو ضمن هالة من العزلة والوحدة الشفّافة غير المرئيّة، الصامدة فلا تتحطّم، ولا يمكن له الخروج منها. جلس على رخام طرف النافورة، وهو ينظر إلى اللوحة الكبيرة الخلّابة التي تمثّلها الساحة التي سوّدتها حشود الناس، والتي تتوّجها الأشجار والخضرة. كان يمكن تمييز جماعات متراصّة من أشخاص متجمّعين حول راية أو لافتة،

وكان حولهم متفرّجون، منعزلون ومتفرّقون، يتفرّجون بفضول أو بتكاسل. كان هناك شخص حاسر الرأس يرتفع فوق الحشد على صهوة حصان أبيض، كما احتشد على مسافة منه صفّ من الشاحنات المتوقّفة واحدة خلف الأخرى. رفع مارتشيلّو عينيه نحو السماء وتابع لفترة الجري المهيب لتلك الغيوم البيضاء الكبيرة فوق الساحة. ثمّ خفضهما ليرى أنّ الفاشيّين كادوا أن يسيروا فوقه وهم يتقدّمون ببطء شديد بخطوة واحدة كلّ حين. في تلك اللحظة شعر بوخزة حادّة على عنقه، وعندما رفع يده نحو مكان الوخزة، شعر بشيء طريّ حيّ تحت أصابعه: دبّور. رمى الحشرة بحركة اشمئزاز نشطة بعيداً عنه، وضغط على المكان الذي يؤلمه في جلده. لكنّ الألم أخذ يشتدّ بدلاً من أن يخفّ، واشتدّ بشكل حادّ وحارق. أخذ مارتشيلّو قطعة نقود معدنيّة من جيبه وبدأ يقوم بما سمع أنّ عليه القيام به في مثل هذه الحالات، فأخذ يضغط بتلك القطعة النقديّة بقوّة على الجرح. امتلأت عيناه الآن بالدموع بسبب الألم، لكنّ هذا الألم ساعد على الأرجح على تلاشي ذلك الخمول الذي حلّ به حتّى تلك اللحظة فرأى نفسه لأوّل مرّة في ذلك اليوم فتى حزيناً مضطهداً، وحيداً وسط الساحة الواسعة المحتشدة بالناس، وهو جالس على حافّة النافورة، تحت المسلّة المتوجّهة نحو السماء الملبّدة بالغيوم. لم يدم إلّا لحظة هذا النوع من الرؤية المزدوجة التي كان فيها متفرّجاً وممثّلاً في الوقت نفسه. ولكن، كما لو أنّ ذهنه المذهول كان في تلك اللحظة بمثل جاهزيّة لوحة التصوير وحساسيّتها، فقد شعر أنّ الأمر قد انطبع فيه إلى الأبد وأنّ ذلك سيصبح بمرور الوقت ذكرى محدّدة دقيقة وإن كانت غير مفهومة. ثمّ إنّه خفض بصره نحو صفوف الفاشيّين، وعندها رأى أباه.

تذكّر أنّه تركه وهو جالس إلى الطاولة، وقد أقعدته الآلام فتجمّد في مكانه، وقد دهش من التغيّر الشديد الذي طرأ عليه خلال وقت قصير جدّاً. كان الأب يرتدي معطفاً فاتح اللون عريض القَصّة مصنوعاً من وبر الجمال، ويعتمر قبّعة خضراء اللون. كان يسير في الصفّ بين اثنين من الفاشيّين المسلّحين يرتديان ثياباً بمظهر ريفيّ، وكان يضع يده على كتف الشخص الذي أمامه، بينما كان يرفع عالياً بالأخرى عصا قديمة مصنوعة من خشب القصب الهنديّ لها مقبض من العاج، تذكّر مارتشيلّو أنّه رآها منذ زمن بعيد

موضوعة مع غيرها من العصيّ والمظلّات في إناء في المدخل. لم يبد له أنّ وجه أبيه، المتجعّد المتوتّر والقلق، يعكس الآن أيّ ألم، بل الكثير من الاهتمام، وقلقاً شديداً، وحماسة، من الواضح أنّها صادقة بلا أدنى شكّ، وإن كان صحيحاً أنّها لا تقلّ قساوة وهوساً عن ألمه السابق. في تلك اللحظة كان الفاشيّون ينشدون واحدة من أغانيهم، وقد رأى مارتشيلّو، بشيء من الدهشة، أنّ أباه يغنّي معهم أو على الأقلّ أنّه يفتح فمه وكأنّه يغنّي، مع أنّه يتّضح من طريقة تحريك شفتيه، أنّه لا يعرف لا اللحن ولا الكلمات. كان مارتشيلّو ينظر إليه ولا يجد بدّاً من التساؤل عن ذلك السبب القاهر الذي أدّى في وقت قصير إلى هذا التغيير الجذريّ. كاد أن يشعر بنوع من الحسد، لكنّه ممزوج بالريبة، لأنّ الأمر يتعلّق بأبيه، فتساءل وكأنّما بالغريزة فيما إذا كان من الممكن له هو أيضاً أن يتخلّص بهذه السهولة من ذلك القهر الرهيب الذي كان يثقل كاهله. توقّفت المسيرة في هذه الأثناء وسط الغناء، فصاح مارتشيلّو من غير أن يتحرّك من مكانه، وكأنّما رغماً عنه: «بابا».

كان يتوقّع، كأنّما بنوع من الأمل المتوتّر، أنّ أباه سيشعر بالدهشة عندما يراه، وأنّه سيحيّيه ببعض عبارات الحنان. لكنّه رأى، وسط خيبة أمله التي امتزجت بألم لا يعرف له سبباً، أنّ أباه نظر إليه كما لو أنّه لا يعرفه، نظرة قلق وشكّ. فعاد وكرّر بصوت غير واثق:

«هذا أنا يا أبي»،

فأجاب الأب وهو شارد الذهن: «أجل، لقد رأيتك... ماذا تفعل هناك؟».

فقال مارتشيلّو: «لا توجد مدرسة».

«ولماذا لم تذهب إلى البيت؟».

«لم أشعر بالرغبة».

«تعال... تعال أنت أيضاً»، قال الأب بغتة بنبرة متشنّجة وحازمة، كما لو أنّه قرّر هذا في نهاية الأمر. نزل مارتشيلّو عن النافورة واقترب من أبيه. فأمسكه هذا من كتفه وقرّبه نحوه ضمن المسيرة، ثمّ قال وكما أنّه ليبرّر عمله أمام من هم في جواره: «إنّه ابني... ولدي».

قال أحدهم: «جيّد... أحسنت فليأت هو أيضاً». وقال صوت ثان:

«سنجعل منه فاشياً هو الآخر». كانت يد الأب تضغط بشدّة على كتف مارتشيلّو بينما ما زالت لسعة الدبّور تؤلمه. بدأ الفاشيّون يغنّون أغنية جديدة، فأخذ الأب هذه المرّة أيضاً يغنّي معهم، رغم أنّه بقي يضغط بيد على كتف ابنه ويلوّح بالأخرى بالعصا. تأثّر مارتشيلّو من جديد بغرابة هذه الحماسة التي ظهرت بعد الآلام السابقة، وشعر كذلك من جديد بذلك الحسد الممزوج بالرغبة في تقليد أبيه. لكنّه ما إن فتح فمه ليغنّي حتّى أدرك أنّه لن يستطيع ذلك: بالطريقة نفسها التي جرّبها وهو ينظر إلى روبرتو من النافذة حين أدرك أنّه لن يتمكّن من التكلّم إليه. «غنّي أنت أيضاً» قال له أبوه وكأنّما شعر بالصعوبة التي يعاني منها.

«لا أعرف الكلمات».

«أنا أيضاً لا أعرفها... لكنّي رغم ذلك أغنّي».

تحرّكت المسيرة الآن من جديد، ببطء في البداية ثمّ بسرعة أكبر، وتوجّهت نحو مدخل شارع إيل كورسو، بين الكنيستين التوأمين. التفت مارتشيلّو فأدرك أنّ المسلّة والنوافير الأربع قد أصبحت خلفه. يستطيع الآن وهو يقترب من إيل كورسو أن يرى الشارع الضيّق المستقيم وهو يسوَدّ بالحشود التي تسير أسفل فأسفل بين صفوف البيوت البنية والصفراء وصولاً إلى الفارس الذهبيّ وإلى الأروقة البيضاء التي تعلو النصب في ساحة فينيسيا. ثمّ نظر إلى قباب رقائق الأردواز التي تعلو الكنيستين، بلونها الأسود الخالص المتميّز على خلفيّة السماء الزرقاء والغيوم البيضاء، ثم رأى فجأة ما يشبه طائراً ضخماً داكن اللون يمرّ بينهما، وهو يحلّق بشكل مائل وبنوع من التردّد، بينما انتشرت قعقعة معدنيّة عبر الساحة. قال أحدهم: «إنّها طائرة»، بينما كانت الطائرة تحلّق منخفضة فتظلم السماء وراء أجنحتها وتبتعد ببطء وراء المسلّة والسور. أسرعت المسيرة قليلاً فدخلت بين أبنية إيل كورسو.

«تستطيع أن تغنّي هذه الأغنية على الأقلّ» قال له أبوه عندما ارتفع صوت منعزل ارتفع من صفوف الجماعة. «إنّها نشيد البيافِه»[1]. كان بودّ مارتشيلّو

1- أنشودة وطنيّة إيطاليّة شاعت بعد معركة نهر بيافه في حزيران 1918. (م) عن ويكيبيديا.

أن يجيب أنّ الأمر لا يتعلّق بالنسبة إليه بمعرفة الكلمات، بل بنسيان كلّما حدث في اليوم السابق، لكنّه فهم أنّ هذا يعني البوح بالحقيقة، وهذا غير ممكن بالفعل، ليس في ذلك اليوم فقط، بل على الدوام. وهكذا فقد امتثل وأطاع وكأنّه يجرّب، على أمل أن يفلح وهو يغنّي بالانغماس في مشاعر يفتقدها. في تلك اللحظة بدأ الأب والآخرون بغناء لازمة: «فتمتمت مياه النهر: لن يمرّ الغريب». تمكّن مارتشيلّو من فهم الأغنية في منتصف هذه العبارة، فصاح ملء ما أوتي من صوت: «لن يمرّ الغريب».

بمشاعر هي مزيج بين اليأس والمرارة، سمع صوته الطفوليّ وذي الصدى الفضّيّ يصدح منعزلاً وسط كونشرتو الأصوات الأخرى الضخمة والرجوليّة، كان هذا هو الصوت الذي يخشاه، صوت ضميره المكبوت والمشتّت. لكنّ أباه ربت على كتفه، كما لو أنّه يهنئه، وقال له وسط دهشته: «أحسنت، هكذا يكون الغناء». فهم عندها أنّ المشاعر ليست هي المطلوب، بل المطلوب هو التصرّف كما يتصرّف الآخرون. كما بدا له أنّه فهم أنّه لا يهمّ إذا كان القلب يتكلّم بلغة تختلف عن لغة الشفاه. وعندما بدأت الأغنية من أوّلها: «فتمتمت مياه النهر ...» رفع رأسه من جديد وصاح بقوّة «لن يمرّ الغريب».

وصلوا في هذه الأثناء إلى منتصف إيل كورسو، وبدا أنّ الفاشيّين تعبوا من الغناء ومن السير بطريقة عسكريّة، فصمتت المسيرة وظهر أنّ وضع الأشخاص أصبح أكثر استرخاءً وأقلّ تصلّباً. «لقد استيقظوا منذ الفجر ولم يعد بوسعهم تحمّل مزيد من التعب» قال للأب بلهجة ريفيّة واضحة رجلٌ ممتلئ الجسم في الأربعينيّات من العمر، يرتدي سترة صيّاد مخمليّة وبنطلوناً رماديّاً-أخضر، مربوطاً عند ربلة الساقين. أخذوا الآن كلّما توقّفوا يتبادلون من طرف إلى آخر عبارات لاذعة ومسلّية، أو تعليقات ريفيّة عن مدينة روما، لا تحتوي على أيّ مغزى سياسيّ. شعر مارتشيلّو بعدوى هذا التعب، فأحسّ ببعض الوهن وبرغبة شديدة في الخروج من بين الحشود. أمّا الوحيد الذي لم يبد تعباً فكان الأب: بقي جادّاً في وجهه، بشكل متشنّج، والعصا ذات المقبض العاجيّ مشدودة في يده، يعتمر قبّعته الخضراء المسحوبة على عينيه، بدا أنّ استرخاء الفاشيّين المفاجئ قد شتّت باله وأورث فيه نوعاً من

الارتباك. ولم يكن لنكاتهم أن تغتصب منه ولا ظلّ ابتسامة. في هذا الوقت المبكّر من بعد الظهيرة، بدأ ضوء النهار الساطع يتخلّى عن مكانه لضوء قاتم وشديد أخذ ينتشر فوق الشارع المزدحم الضيّق، ويبشّر بظهور الشفق الخريفيّ المبكّر. وكانوا قد توقّفوا وقفة أطول قبل وصولهم إلى ساحة كولونّا، فحاول الفاشيّون تبديد سأم الانتظار بالتداول في كيفيّة المبيت في تلك الليلة. فقال الرجل الممتلئ الجسم الذي كان يرتدي زيّ الصيّادين إنّهم قد ينامون في مدرسة أو ثكنة. لكنّ شخصاً أشقر نحيفاً، مغطّى الرأس، عيناه زرقاوان باهتتان وشرّيرتان مثل عينيّ النسر، يرتدي قميصاً من حرير أسود وسروال ضابط، مدّ يده المسلّحة بسوط وأشار إلى درب صغير يتقاطع مع شارع إيل كورسو وقال: «أنا ذاهب إلى هناك... إلى الكازينو... فيه أسرّة واسعة، ناعمة، وصحبة مضمونة».

فقال صوت متضاحك: «والدفع كلّ نصف ساعة».

وهتف آخر: «بالطبيعة».

ثمّ هتف صوت ثالث: «بالنسبة إليّ أنا أريد واحدة من مدينة بولونيا».

فهتف صوت رابع: «وأنا واحدة من روما».

فعاد صاحب الصوت الأوّل وقال: «خذ من بلدك النسوان، والثور كمان»[1]، «عاشت نساء بولونيا[2]».

«عاشت نساء بولونيا، عاشت بولونيا».

لم يفهم مارتشيلّو شيئاً تقريباً من مغزى هذه النكات، وعندما نظر إلى أبيه وجد أنّه لا يضحك هو أيضاً ولا يظهر بأيّ شكل من الأشكال أيّ تقدير لطعمها. كانت قبّعته الخضراء تلقي ظلّاً يكاد أن يكون قاتماً على وجهه، كان يحمل كالسابق عصاه نصف القصبة، ويدوّر عينيه المرتبكتين، فيبدو كأنّه فزّاعة رقيقة جادّة تقف بين تلك الوجوه الضخمة الضاحكة. ثمّ إنّ الرجل

1- Donne e buoi dei paesi tuoi

2- Bologna ، مدينة بولونيا وسط إيطاليا، جرت على نسائها شهرة الحركات الشهوانيّة. (م)

الذي يرتدي بزّة مخمليّة سأل بصوت يكاد أن يكون متقطّعاً، ضعيفاً وخافتاً، إلى أين هم ذاهبون الآن. فقال الرجل إنّهم سيجتمعون على الأرجح في ساحة كولونّا أو ساحة فينيسيا وهناك تنحل التشكيلات، حسبما تقتضيه الأوامر في هذا اليوم. شعر الأب بخيبة أمل وسأل فيما إذا لم يكن هناك خطاب ما. فأجاب الرجل بدهشة أنّ العديد من الخطابات ألقيت في هذا الصباح، وكان من بينها خطاب الرئيس في فندق ريجينا في شارع فينيتو. إلّا أنّه كان مشتّت الذهن فلم يلتفت إلى أسئلة الأب التالية، بل صرخ فجأة وبدفقة من السرور: «هيّا، هيّا، اهتفوا بثلاث تحيّات على شرف بولونيا».

بعد أن ردّدوا الهتافات بصوت واحد، وبينما كانت المسيرة تستأنف تقدّمها ببطء شديد، أنشد الفاشيّون أغنية بلهجة عاميّة غير مفهومة. تردّد الأب قليلاً ثمّ قال لمارتشيلّو: «تعال، فلننصرف»، ثمّ أخذه من يده وخرج من الرتل. مرّا خلف صفّ المتفرّجين الواقفين على الرصيف الأيسر، ثمّ ولجا في طريق متعامد. سارا لبعض الوقت بصمت، في ظلال المغيب. قال مارتشيلّو بعدها فجأة: «عندما كنت جالساً على النافورة، لسعني دبّور وما زلت أتألّم».

«أين لسعك؟».

«في رقبتي».

«دعني أرى».

توقّفا تحت ضوء، عند زاوية يتقاطع فيها الطريق مع شارع جانبيّ. فأشار مارتشيلّو إلى أبيه بالمكان الذي لسعه فيه الدبّور. في تلك اللحظة، خرجت عربة يجرّها حصان من التقاطع ثمّ استدارت. كانت عربة عاديّة، من تلك التي تنقل الكلس والآجرّ، لها عجلات كبيرة موحلة ويجرّها حصان أصفر اللون، ظهر بين عارضتين على ظهره أنّه متعب وهزيل الجسم. كانت العربة فارغة وكان السائق يجلس على كومة من الخرق جمعها على شكل صندوق، وقد أدار هذا الحصان بحدّة فائقة بحيث برزت إحدى العارضتين إلى الأمام، ولم يبق إلّا القليل حتّى يضرب الأب وهو ينهض بعد أن فحص عنق مارتشيلّو. تدحرجت قبّعته الخضراء على الأرض، فشعر الأب بغضب شديد وصرخ مباشرة: «هل أنت مجنون؟».

كان سائق العربة رجلاً بلحية سوداء وجبهة منخفضة، فرآه مارتشيلّو وهو يميل إلى الأمام ويردّ بفظاظة وعنف: «كان عليك أن تتنحّى جانباً، أيّها الوغد». لكنّ مارتشيلّو شعر على الفور أنّ الرجل قد لفظ الشتيمة بصورة غير إراديّة، بل وأنّه ندم على ما قال وحالما نطق بالشتيمة.

أكّد هذا الافتراض المشهدُ العنيف الذي أعقب ذلك. فعندما سمع الشتيمة ألقى الأب المهتاج بنفسه على العربة، وهو يلوّح بعصاه ويصرخ: «هل تنعتني بالوغد؟... انزل، أيّها المجرم... انزل... مجرم، مجرم، مجرم». لكنّ سائق العربة هلع وخاف، وحاول أن يشدّ الرسن ليوقف العربة، ولم يجب أو يتفاعل بأيّ شكل من الأشكال، إذ انحصر كلّ همّه بالتراجع إلى الخلف كي يتّقي الضربات التي كان يوجّهها له الأب. كان الأب قصيراً بينما كانت العربة مرتفعة، ورغم ذلك فقد استطاع، وهو يصرخ ويضرب بعصاه بجنون، أن يمسك بالسائق من ذراعه وأن يزيحه عن مقعده ويسحبه إلى الأسفل. في هذه الأثناء كان حشد من الناس قد تجمّع حول العربة، بينما كان مارتشيلّو يحاول، وهو بين خائف وخجل، أن يسحب أباه من كمّه وهو يقول له ويكرّر بصوت منخفض: «فلنذهب إلى البيت... فلنذهب إلى البيت». لكنّ الأب لم يعره أيّ اهتمام، فأدرك على ما فهم أنّ أباه يريد أن يفرّغ بهذا العراك غضبه القديم بالإضافة إلى العنف الذي تكوّم فيه طيلة اليوم. عمل الآن على دفع السائق على العارضة وانهال عليه بضربات من عصاه توالت بحدّة متزايدة، فكان الدم يقطر من جبهة الرجل ومن فمه، ورغم أنّه حاول الاحتماء بذراعه، إلّا أنّه لم يدافع عن نفسه ولم يبد أيّ ردّة فعل أخرى. كان صوت أبيه أجشّ من الغضب وهو يردّد إلى ما لا نهاية: «مجرم، مجرم، مجرم»، فامتلأ مارتشيلّو فجأة بالرعب، وسأله: «ولكن لماذا تحقد عليه بهذه الشدّة؟». بعد ذلك، نبَت ضربةٌ وجّهها الأب فأصابت عارضة العربة، عندها انخلع مقبض العصا العاجيّ ولم يبق في يد الأب سوى قطعة من العصا. وكان آخر ما رآه مارتشيلّو من أبيه: رأسه العاري، وعصا مكسورة في يده، وهو يحاول تعقّب السائق النازف والمذعور، وسط جمع من الناس وقفوا ليراقبوا. وهنا صاح أحدهم: «افسحوا الطريق، افسحوا الطريق»، عندها ظهرت قبّعتا شرطيّين خلف المتفرّجين. استغلّ مارتشيلّو حركة الناس

وانفتاح فرجة بينهم لتسهيل مرور الشرطة، فهرب بسرعة، وأخذ يجري في الطريق باتّجاه شارع إيل كورسو.

(عن المجلّد العاشر من مجلّة «Comunità» كانون ثاني - شباط 1951).



أعمال مورافيا

.1	L'IMBROGLIO	الخديعة
.2	LA MASCHERATA	القناع
.3	I SOGNI DEL PIGRO	أحلام الكسلان
.4	L'AMANTE INFELICE	العاشق التعيس
.5	AGOSTINO	آغوستينو
.6	LA ROMANA	امرأة من روما
.7	LA DISUBBIDIENZA	العقوق
.8	GLI INDIFFERENTI	اللا مبالون
.9	L'AMORE CONIUGALE	الحبّ الزوجيّ
.10	IL CONFORMISTA	المتطبّع
.11	I RACCONTI 1927–1951	حكايا 1927–1951
.12	ROMANZI BREVI	قصص قصيرة
.13	RACCONTI ROMANI	قصص من روما
.14	IL DISPREZZO	الاحتقار
.15	RACCONTI SURRELISTI E SATIRICI	قصص ساخرة ومن ما وراء الطبيعة
.16	LA CIOCIARA	الشوشاريّة
.17	NUOVI RACCONTI ROMANI	قصص جديدة من روما
.18	LA NOIA	السأم
.19	L'AUTOMA	الآلة
.20	LE AMBIZIONI SBAGLIATE	المطامح الخرقاء
.21	L'UOMO COME FINE	الإنسان هدفاً

.22	L'ATTENZIONE	الانتباه
.23	IO E LUI	أنا وهو
.24	A QUALE TRIBÙ APPARTIENI?	إلى أيّ قبيلة تنتمي؟
.25	BOH	بَهْ
.26	LA BELLA VITA	الحياة الحلوة
.27	LA VITA INTERIORE	الحياة الباطنيّة
.28	1934	1934
.29	L'INVERNO NUCLEARE	الشتاء الذريّ
.30	L'UOMO CHE GUARDA; LA COSA	الرجل الذي ينظر الشيء
.31	VIAGGIO A ROMA	رحلة إلى روما
.32	LA VILLA DEL VENERDÌ	فيلّا ليوم الجمعة
.33	PASSEGGIATE AFRICANE	نزهات أفريقيّة
.34	LA DONNA LEOPARDO	المرأة الفهد
.35	UN'IDEA DELL'INDIA	فكرة عن الهند
.36	DIARIO EUROPEO	مذكّرات أوربيّة
.37	LA COSA E ALTRI RACCONTI	الشيء وقصص أخرى
.38	IMPEGNO CONTROVOGLIA	التزام ضدّ الإرادة
.39	LETTERE DAL SAHARA	رسائل من منطقة الصحارى
.40	TEATRO	مسرح

مختصر السيرة الذاتيّة للمترجم
نبيل رضا المهايني



- من مواليد دمشق 1944.
- أقام في إيطاليا للدراسة، ثمّ العمل، بين عامي 1963 و1986.
- تخرّج عام 1968 من فرع ديكور المسرح والتلفزيون في أكاديميّة الفنون الجميلة في مدينة فلورنسا.
- ثمّ تخرّج عام 1971 باختصاص علوم الرأي العام - إخراج تلفزيون وسينما، من جامعة الدراسات الاجتماعيّة في روما.
- عمل، قبلها وبعدها، في مجالات التلفزيون والسينما في روما.
- ومراسلاً لكثير من المجلات الأدبيّة والعامّة العربيّة، من فلورنسا وروما.

- ترجم وقتها، وفيما بعد، عدّة كتب عن الإيطاليّة. وقد نُشر كثير منها في بيروت ودمشق وبغداد.
- أخرج أفلاماً لصالح التلفزيون الإيطالي ثمّ كثيراً من الأفلام التلفزيونيّة، في مختلف المجالات الوثائقيّة والبيئيّة والإرشاد الزراعيّ، حاز بعضها على جوائز في مهرجانات دوليّة وعربيّة.
- يعمل منذ عام 1983 خبيراً لدى الصندوق الدوليّ للتنمية الزراعيّة – إيفاد، في روما بداية، ثمّ في دمشق.
- يعمل الآن كممثّل ميدانيّ لإيفاد في سورية.

قائمة بأسماء كتب المترجم

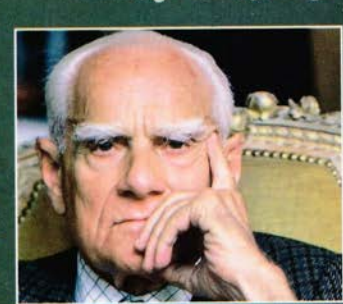
	المؤلّف	العنوان الأصلي	عنوان الكتاب الصادر بالعربية	مكان النشر
1	Agos Melena	Mal di Pietre	حبّ في سردينيا	Beirut
2	Calvino Italo	Marcovaldo –Le stagioni in città	ماركوفالدو أو الفصول في المدينة	Bagdad
3	Calvino Italo	Tutte le cosmicomiche	الهزل في قصص الأزل	Bagdad
4	Capuana Luigi	Gli Ameicani di Rabatto	أمريكان الضيعة	Damasco
5	Capuana Luigi	C'era una volta	كان يا ماكان	Bagdad
6	Capuana Luigi	Il Drago	التنين	Bagdad
7	Collodi Calro	Pinocchio	بينوكيو	Damasco
8	De Amicis Edmondo	Cuore	قلب	Beirut
9	Deledda Grazia	La madre	الأم	Damasco
10	Deledda Grazia	La Fuga in Egitto	الهروب إلى مصر	Damasco
11	Deledda Grazia	Racconti Sardi e il Cedro del Libano	أرز لبنان وقصص من سردينيا	Beirut

	المؤلّف	العنوان الأصلي	عنوان الكتاب الصادر بالعربية	مكان النشر
12	Deledda Grazia	Canne al Vento	أقصاب في مهبّ الريح	Bagdad
13	Deledda Grazia	La casa del poeta	بيت الشاعر	Bagdad
14	Deledda Grazia	Amori Moderni	أهواء حديثة	Damasco
15	Gabrieli Fancesco	Storici Arabi delle Crociate	المؤرخون العرب للحروب الصليبيّة	Beirut
16	Goldoni Carlo	La Locandiera	صاحبة النزل	Damasco
17	Machiavelli Niccolò	La Mandragola	الماندراغولا	Damasco
18	Marco Malvaldi	La misura dell'uomo	مقاس الإنسان	Bagdad
19	Morante Elsa	La Storia	التاريخ	Milano
20	Moravia Alberto	1934	1934	Bagdad
21	Moravia Alberto	Io e Lui	أنا وهو	Beirut
22	Moravia Alberto	Quando verrai sarò quasi felice	قد أشعر بالسعادة إذا جئت	Bagdad
23	Moravia Alberto	La Ciociara	الشوشاريّة	Bagdad
24	Moravia Alberto	A quale Tribù appartieni?	إلى أيّة قبيلة تنتمي؟	Bagdad
25	Peshelle Enrica	La Rivoluzione Continua	الثورة المتواصلة	Beirut
26	Sciascia Leonardo	Il Contesto	السياق	Damasco

مكان النشر	عنوان الكتاب الصادر بالعربية	العنوان الأصلي	المؤلّف	
Beirut	إيزابيل	Per Isabel	Tabucchi Antonio	27
Beirut	سراب	Il Filo dell'orizzonte	Tabucchi Antonio	28
Damasco	بافيسه، حياته، شعره، أعماله	Cesare Pavese, Vita, Opera e Critica	Mahaini Nabil	29
Beirut	مختارات من الأدب الإيطالي الكلاسيكي	Antologia di Letteratura Italiana Classica	Mahaini Nabil	30
Damasco	مختارات من الأدب الإيطالي الحديث	Antologia di Letteratura Italiana Moderna	Mahaini Nabil	31
Beirut	من هو الله؟	Chi è Dio–Libro Elettronico in Italiano, Inglese, Francese, Arabo	Mahaini Nabil	32
Beirut	أسماء الله الحسنى	I Bei Nomi di Dio–Libro Elettronico in Italiano, Inglese, Francese, Arabo	Mahaini Nabil	33

المحتويات

كانت البوابّة التي تفصل بين حديقة مارتشيلّو وحديقة روبرتو قد غابت واختفت بالكامل تحت تعريشة اللبلاب العملاقة، ذات الأوراق الكثيفة الممتدّة في العمق، وكأنّها جدار من الأوراق المتداخلة. توجّه مارتشيلّو مباشرة إلى زاوية في آخر الحديقة حيث تزيد كثافة اللبلاب والظلال. تسلّق وصعد بقدميه على صخرة كبيرة ثمّ نحّى بحركة واحدة صارمة كتلةً كاملة من الأعشاب المتسلّقة. كان هو الذي ابتكر هذا النوع من الباب داخل أوراق اللبلاب، بقصد القيام بمغامرة ولعبة سرّيّة. ظهرت عند تحريك اللبلاب قضبان البوّابة، ثمّ ظهر بين القضبان وجه صديقه روبرتو النحيف والشاحب تحت شعره الأشقر. وقف مارتشيلّو على أطراف أصابعه على الحجر وسأل: «هل رآنا أحد؟».



كانت هذه هي صيغة بداية لعبتهم تلك. فأجاب روبرتو كما لو أنّه يتلو درسه: «لا، لا أحد...»، ثمّ قال بعد لحظة: «هل درست أنت؟». كان يتكلّم همساً، وهذا إجراء آخر متّفق عليه. فأجاب مارتشيلّو، همساً هو الآخر: «لا، لم أدرس اليوم... لم تكن بي رغبة... سأقول للمعلّمة إنّي كنت مريضاً».

تمتم روبرتو قائلاً: «أنا كتبت موضوع اللغة الإيطاليّة. قمت بحلّ مسألة من مسائل الحساب... بقيت عليّ مسألة أخرى... لماذا لم تدرس؟». كان هذا هو السؤال الذي كان ينتظره مارتشيلّو. فأجاب: «لم أدرس لأنّي قمت باصطياد السحالي».

كان يأمل أن يقول له روبرتو: «أوه حقّاً... أنا كنت أصطاد السحالي في بعض الأحيان»، أو شيئاً من هذا القبيل. لكنّ وجه روبرتو لم يعبّر عن أيّ تواطؤ ولا حتّى عن بعض الفضول. ثمّ أضاف ببعض الجهد، وهو يحاول أن يخفي حرجه: «وقد قتلتها جميعها».


9 789933 617882